ارض الدماء
DAYS & NIGHTS
قسطنطين سيمونوف

أيام وليال

قسطنطين سيمونوف

أرض الدماء

قصة الحرب العالمية الثانية

ترجمة

أحمد الشيباني

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

- ١ -

اقتعدت امرأة الارض ,وهي بادية العياء منهوكة القوى ، واسندت ظهرها الى حائط زريبة من طين ، ثم اخذت تصف بصوت كليـل هـادىء احتراق ستالينغراد ، وفجأة هبت نسمة من ريح كسحت وجه التربة واستثارت غبارها لتحلق به في جو رمادي اغبر ، واسترسلت المرأة في حديثها عارية الساقين محترقة القدمين تقوم بين فترة واخرى ببذر التراب على قدميها مؤملة في أن تبلسم بذلك آلامها . والقى الرئيس « سباروف » بنظرة على حذائه الثقيـل المعفر بالغبار ، ثم طوى المرأة كشحا واستدار آليا ليبتعد عنها قليلا . وكـان الرئيس « سباروف » رجلا ضخم الجثة بالغ الطول رغم منكبيه العريضين . وقد جعله حجمه الهائل المحدودب ووجهه الصريح المتجهم يبدو ، بطريقة ما مراوغة فرارة، شبيها بمكسيم غوركي في أيام صباه .

وقف الرئيس « سباروف » يصغي الى المرأة بهدوء وصمت ، ويرسـل بنظراته من فوق رأسها ليراقب جنوده وهم يترجلون من القطار وينطـلقون مباشرة الى برية STEPPE تبدأ ما وراء آخر بيت من بيوت القرية . وعلى طرف البرية البعيد كان سطح البحرية المالحة يتلألأ براقا وهو يعكس أشعة الشمس ، ولقد بدا كامل المنظر لعيني « سباروف » كأنه الحافة النهائية للعالم . فهنا ، وفي شهر ايلول ، بلغ وجنوده آخر محطة لسكة الحديد تقع شرقي نهر الفولغا (١) ، وهي اقرب محطة الى ستالينغراد، وعليه ان يبلغ من هذه المحطة

---

(١) بدأ الهجوم الالماني الصيفي في ١٠ حزيران سنة ١٩٤٢ وقد أرغم الجيش الاحمر على التراجع تراجعا بطيئا لكنه مستمرا من خركوف . وكان الفيلدمارشال فون بوك يومذاك آمرا للقوات الالمانية العاملة في جنوب روسيا . وبلغت القوات الالمانية في منتصف شهر آب مدينة «فورينج» وتجاوزتها الى نهر الدون . وكان المارشال تيموشنكو يحارب حرب اعاقة بعد ان سحب قـوى جيوشه الرئيسية الى شرقي نهر الفولغا ، ليعيد تنظيمها . وعاد حينذاك عدد كبير من الضباط ،« كسابيروف » الى الجبهة على رأس وحدات مقاتلة واخرى جرى تجنيدها في سيبريا . وكانت الوحدة التي يقودها سابيروف تزحف غربا نحو الفولغا وستالينغراد حيث كان الروس يأملون في وقف الزحف الالماني في جنوب روسيا .

ضفة نهر الفولغا سيرا على الاقدام . اما القرية التي انشئت فيها المحطـة فلقد اطلق عليها اسم البحرية المالحة « التونسكايا » والرئيس سباروف لا يزال يذكر منذ ايام الدراسة كلمتي « التونسكايا » و« باسكونتشاك » ، ولقد كانت هاتان الكلمتان ، بالنسبة اليه ، في احد الايام مجرد اسمين من اسـماء الجغرافيـا المدرسية ، أما الآن فان « سباروف » يطالع بأم عينه « التونسكايا » المحطـة الريفية لسكة الحديد ، والقرية الصغيرة ببيوتها المنخفضة وغبارها الكثيف.

أسهبت المراة في شكواها من النوائب التي حلت بها ، ومع ان كلماتها كانت تكرارا وترداداً لكلمات عتيقة ، لكنها اشاعت فجأة في قلب سباروف الحزن والالم . فلقد سبق له ولرفاقه ان تراجعوا فيما مضى من خركوف الى « فالويكي » ومن « فالويكي » الى روسوش ، ومن « روسوش » الى « بوجيشار » وسـبق له آنذاك ان شاهد النسـاء يندبن كما تندب هذه المراة اليوم ، واصغى يومذاك الى شكواهن بخجل وملل ، لكن الآن ! ها هي البرية العارية تنساب وتنساح شرقي الفولغا ! وها هي حافة العالم وحده ، وسباروف يشعر الآن بان صوت المراة لا يجلده توبيخا وتأنيبا ، كما كان يفعل فيما مضى ، بل انما بات يتدفق قنوطا ويأسا ، فلم يبق هناك من مكان مأهول في هذه البرية يمكن التراجع اليه، اذ ان مراحل طويلة عديدة من خلاء عار يفصلهم عن القرى والانهار ، لذلك همس سباروف في سريرته قائلا :

ــ الى اين دفعوا بنا ؟!

وخرجت هذه الجملة الهامسة وهو يمسح البرية بناظريه من على منصة عربة شاحنة ، شبيهة بخلاصة مضغوطة لكل الاحزان اللامحدودة التي أرثتها الايام الخوالي في فؤاده . وأحس سباروف في هذه اللحظة بفيض من المرارة يغمر شعوره ، غير انه تذكر المسافة المرعبة التي تفصل البقعة التي يقف فيـها الآن ، عن الحدود التي بدأت عندها الحرب ، لكنه لم يفكر كيف جاء الى هذه البقعة ، بل انما كان يفكر كيف يستطيع ان يعود الى تلك الحدود ، والحق ان في هذه الفكرة التي راودت « سباروف » لعنادا روسيا اصيلا وقاه ورفاقه من الاقرار بالاحتمـال القائل بانه لن تكون هناك عودة ورجوع . وهم لـن يسلموا مستقبلا بما كانت لهم من حال ، فهنا وفي التونسكايا ، يحس سباروف بانهم قد وصلوا النقطة التي لا تراجع بعدها او انسحاب . فأخذ يتطلع الى جنوده وهم يترجلون من القطار ، وشعر بأنه يرغب في ان يخوض غمـرات الغبـار

باسرع ما يمكنه من خطى كي يبلغ ضفة الفولفا ، ويريد ان يعبر النهر الى ضفته الغربية كي يشعر بغتة ونهائيا بانه لن يعاود عبوره مرة ثانية ، فلقد عقد العزم على ان يربط مصيره الشخصي، على الضفة الاخرى، بمصير المدينة (ستالينغراد) وهذا العزم قد يحمل اليه الموت ، لكنه اذا ما تمكن من الحيلولة بين الالمان وبين استيلائهم على المدينة فقد ينجو ويعيش .

كانت المراة الجالسة عند قدميه تتابع حديثها عن ستالينغراد ، وكانت تذكر كل شارع باسمه من الشوارع التي دمرتها الحرب وامست طعاما للنار. وقد بدت اسماء تلك الشوارع غريبة على أذني سباروف ، لكنه احس بانها أسماء مشحونة بمعنى خاص بالنسبة الى المراة . فهي تعرف أين ومتى شيدت المنازل والابنية ، وتعرف اين ومتى زرعت الاشجار التي اقتطعت لتدعم المتاريس، وكانت تندب كل هذه مفجوعة ثكلى كانها تندب منزلها وتبكي عائلتها ، وكأن تلك المنازل والشوارع والاشجار هي ملك شخصي لها أتت عليه يد الدمار فتركته رمادا وأنقاضا . ولم تأت المراة ابدا على ذكر بيتها ، لذلك ، فكر سباروف وهو يصغي اليها كيف انه نادرا ما سمع الناس الذين صادفهم ايام الحرب يندبون ملكياتهم الخاصة ، وكان الناس كلما امتدت بهم ايام الحرب كلما قل عدد اولئك منهم الذين لا يزالون يتذكرون بيوتهم المهجورة ومنازلهم المدمرة ، لكنهم كانوا جميعا ومرارا يتذكرون بعناد غبي المدن التي خلفوها وراءهم .. أخذت المراة تجفف دموعها بطرف عصابة رأسها ثم اخذت تحدق فيمن حولها من الذين كانوا يصغون اليها بنظرات متسائلة ، واخيرا قالت بعميق فكر ووطيد ايمان :

ـ يا له من عمل ! يا له من مال !

فسالها احدهم من الذين لم يفهموا فورا ما ترمي اليه :

ـ أي عمل تعنين ؟

فاجابت المراة ببساطة بديهية :

ـ انه العمل الذي سنبني به من جديد ما دمرته الحرب !

فسأل سباروف المراة عن حالها فأجابته بان لها ابنين يقاتلان في الجبهة، منذ زمن طويل ، وان احدهما قد قتل ، وانه من الجائز ان زوجها وابنتها لا يزالان حتى الآن في ستالينغراد ، وأنها لم ترهما منذ بدء قصف المدينة واندلاع

الحريق ، ولم تسمع عنهما أي خبر ، ثم سألته :

ــ أذاهب أنت الى ستالينغراد ؟

نعم ! قال سباروف ، اذ انه لم يجد في الاجابة على سؤال المرأة سرا عسكريا يفضحه ، فلماذا اذن يتوجب على كتيبة من جنود الجيش الاحمر ان يترجلوا من القطار في هذه اللحظة وفي هذه القرية التي قد لا يتذكر اسمها حتى الله ، « التنسكايا » اذاً لم يكن هو وكتيبته يقصدان ستالينغراد ؟؟! اما المرأة فاسترسلت تخاطب سباروف وتقول ، بصوت يتموج بجرس أمل غامض :

ــ ان اسم عائلتنا هو « كليمنكو » وان اسم زوجي هو ايفان « كليمنكو » اما اسم ابنتي « أينـا » ومن يدري فقد يلقي القدر بأحدهما في مكان ما قد تجوسه !

ــ من الجائز !

بهذا أجاب سباروف على المرأة ، وهي صيغة اجابة تعود على ان يجيب بها على كل قضية ، لكنه فكر أن مصادفته لهما أمر من المحتمل ان يتحقق فعلا ، فقد تدفع به احدى تلك المصادفات الغريبة التي تزخر بها أيام الحرب بهما للقائهما . كانت السرية على وشك ان تنتهي من تفريغ عددها من القطار ، فودع سباروف المرأة، بعد ان شرب كوباً من الماء اغترفه من زير وضع في الطريق خصيصا ليشرب منه الجنود ، ثم اخذ يتجول بالقرب من الخط الحديدي ، فالفى الجنود يجلسون على الخط وقد خلعوا أحذيتهم والقماطات الملفوفة حول سيقانهم . وكان بعض الجنود من الذين ادخروا فضلة من وجبة الصباح يلتهمون الخبز والنقانق الجافة . وكانت قد انتشرت شائعة بين جنود الكتيبة ، وهي شائعة صحيحة كالمعتاد ، تقول بانهم سيبدأون الزحف مباشرة عقب ان ينتهوا من افراغ القطار من شحناته ، لذلك كان كل جندي من جنود الفوج يستعجل انجاز ما رأى من المتوجب عليه انجازه ، فكان بعضهم يلتهمون طعامهم ، واخرون يخيطون بزاتهم الممزقة وغيرهم يدخنون لفائف التبغ ، أما سباروف فانما تابع تجواله على الخط الحديدي ، اذ انه كان ينتظر وصول آمر الفوج « بابشنكو » وكان القطار الذي ينقل « بابشنكو » مترقبا وصوله في أية لحظة ، ومع هذا فان سؤالا بقي دون جواب في ذهن سباروف ، وكان هذا السؤال : ما اذا كان

على كتيبته ان تباشر انطلاقها فور ترجلها من القطار الى ستالينغراد ، ام ان عليها ان تنتظر حتى الصباح وصول كتائب الفوج الاخرى،وفي هذه الحال سيبيت ليله في « التونسكايا » .

أخذ سباروف يذرع الخط الحديدي جيئة وذهابا ويتفرس في وجوه الجنود الذين سيخوض بعد غد ،معهم معمعان المعارك في طليعة الخطوط الامامية، وكان يعرف الكثيرين منهم معرفة حسنة وجوها واسماء ، فهؤلاء هم « رجال فورنييج » ، ولقد كانوا يحاربون معه بالقرب من « فورنييج » ، وكل جندي منهم مفخرة لقائده ومبعث اعتزاز ، فباستطاعة المرء ان يأمرهم دون ان يشرح لهم جميع التفاصيل البسيطة ، فكانوا يعرفون مثلا أن عليهم عندما يرون القطرات السوداء تنهمر قنابلا من الطائرات ، ان ينبطحوا أرضا ، وانه عندما تنهمر القنابل بعيدا عنهم فبمقدورهم أن يراقبوا انهمارها هادئين . وهم يعرفون بان الخطر كل الخطر في ان يتقدم المرء قدما اذا ما كان هدفا لقصف مدافع « المورتر » ، ويعلمون ايضا بان معظم ضحايا الدبابات هم من اولئك الجنود الذين يعمدون الى الفرار امامها ، ويعرفون ايضا بأن الالمان عندما يطلقون نيران مدافعهم الرشاشة من بعد يبلغ ،مئتي متر ، فانما يتعمدون الارهاب اكثر من القتل . وكان الجنود من هذا الطراز يشكلون ثلث مجموع جنود البرية ، أما الاخرون ، فهذه هي اول مرة يعرفون طريقهم فيها الى الجبهة .

وعلى بعض ،مسافة ، لفت نظر سباروف ، منظر شاربي جندي يقف حارسا لعربة لم تفرغ بعد ، وبدا شاربا الجندي المفتولان المدببان السمهريان كأنهما رمحان ،مغروسان في شفته ، وعندما اتجه نحو سباروف ، وقف الجندي وقفة تأهب ،وأخذ يحدق في وجه النقيب بعينين جامدتين يشعان بنظرات ثابتة مستقيمة ، وكانت هيئة وقفته وشكل ارتدائه لبزته ، وطريقة امساكه ببندقية توحي كلها بان هذا الجندي جندي عجمت عوده الجندية طويل زمن ، لكن سباروف الذي كان يعرف معظم الجنود الذين خاضوا ،معه غمرات المعارك بالقرب من « فورنييج » قبل اعادة تنظيم الفرقة ، لم يستطع ان يتذكر هذا الجندي لذلك بادره سائلا :

ــ ما اسمك ؟

ــ كونيوكوف !

ــ هل خضت أية معركة من قبل ؟

ـ نعم !

ـ أين ؟

ـ في برزيمسيل .

ـ حسنا ! حسنا ! اذن فهذا ما معناه انك قد تراجعت كل المسافة من برزيمسيل ؟

ـ أبدا ! أبدا ! فنحن قد تقدمنا من برزيميسيل نحو الغرب .

فتأمل سباروف فيه مذهولا مدهوشا ثم سأله :

ـ متى ؟ السنة الماضية ؟؟!

ـ ابدا ! لقد جرى ذلك عام ١٩١٦

فعاد سباروف ليتفحصه باهتمام وعناية ، فلوجهه ملامح جادة وحتى وقورة مهيبة ، واخيرا سأله :

ـ هل امضيت مدة طويلة في الجيش خلال هذه الحرب ؟

ـ ابدا ! لقد التحقت بالجيش منذ شهر واحد فقط !

فتطلع سباروف في وجه الجندي مرة ثانية مرتاحا مغتبطا ثم تابع جولته حيث رأى في آخر عربة من عربات القطار رئيس اركان حربه اللازم مسلنكوف يشرف على افراغ العدد ، وبعد ان اعلمه مسلنكوف بانهم سينتهون من عمليات التفريغ خلال مدة لا تتجاوز الدقائق الخمس ، تطلع الى ساعة يده المربعة وسأل سابوروف قائلا :

ـ ايها الرفيق النقيب هل تسمح لي بأن اضبط ساعتي على ساعتك ؟

فاخرج سباروف ساعته صامتا من جيبه ، وكانت مربوطة بخيط شد الى دبوس غرزه في ثوبه ، وقد تبين أن ساعة مسلنكوف متأخرة خمس دقائق عن ساعة سباروف ، فأخذ مسلنكوف يتطلع في ساعة النقيب الفضية القديمة ذات الزجاجة المكسورة شاكا مرتابا فابتسم سباروف وقال :

ـ لا بأس عليك ! فلتضبط ساعتك اولا ، اما ساعتي هذه فلقد تركها لي ابي وكان صانعها « بيوري » ، وعليك ثانية ان تتعود في ايام الحرب ، على ان التوقيت الصحيح دائما هو توقيت ضابط الآمر .

حدق مسلنكوف في الساعتين مرة اخرى ثم ضبط بعناية ساعته على

ساعة رئيسه ، واستأذنه بالانصراف الى متابعة عمله ، فمسلنكوف مسؤول عن رحلة القطار ، وعملية التفريغ هذه قد بلغت به اقرب نقطة الى الخطوط الامامية ، فهو هنا في « التونسكايا » يستطيع حتى ان يشم رائحة الجبهة ، لذلك فهو منفعل مثار مستثار ، فهذه هي اول مرة يتاح له فيها ان يذوق طعم الحرب ، والحق انه قام بكل ما عهد سباروف به اليه بدقة خاصة وعلى اكمل وجه . وهو يريد ان ينجز ما لديه من عمل باسرع وقت وقد احس سباروف برغبته هذه فأجاب على استئذانه له :

ـ طبعا ! طبعا ! تابع عملك!

فانصرف مسلنكوف للاشراف على تفريغ العربة ، بينما أخذ سباروف يتأمل في وجه معاونه ذي الخدين المتوردتين وفي طلعته الصبيانية المتدفقة حياة ونشاطا وتساءل سباروف في نفسه عما سيكون عليه مسلنكوف من حال عقب اسبوع من هذا التاريخ وذلك عندما تطبع لاول مرة حياة الخنادق القذرة التي لا ترحم مسلنكوف بطابعها . وفجأة تعالى لهاث قاطرة تجر قطارا ثانيا طال ارتقابه ، وقفز آمر الفوج المقدم « بابشنكو » من على درجة العربة قبل ان يتوقف القطار ، فالتوى ساقه ، لكنه اتجه نحو سباروف الذي كان يسارع لاستقباله وسأله بصوت واثق وهو ينحرف بناظريه عنه بعيدا :

ـ كيف تجري عملية التفريغ ؟

ـ لقد انتهت .

فأخذ « بابشنكو » يتطلع حوله واتضح له ان التفريغ قد انجز ، لكن وجهه العابس ونبرته الصارمة اللذين كان « بابشنكو » يرى من الضروري افتعالهما حين حديثه مع مرؤوسيه ، كانا يتطلبان منه ان يبدي بضعة ملاحظات على عملية التفريغ كي يعضد مهابته ووقاره ، لذلك عاد ليسأل سباروف :

ـ ماذا تفعل الآن ؟

ـ انني انتظر أوامرك !

ـ لكن كان من المستحسن اطعام الرجال بدلا من ان تتركهم ينتظرون فقط!

ـ لقد قررت اذا ما امرنا بالانطلاق مباشرة ان أطعمهم عقب أول مرحلة من الطريق ، لكنني رأيت انه اذا ما اريد لنا ان نبيت ليلنا هنا أن اقدم اليهم

وجبة ساخنة خلال ما يقارب الساعة من الزمن .

بهذا اجاب سباروف وهو يجر كعادته كلماته جرا بطيئا ، ويصدر بها عن منطق هادىء كان يدغدغ دائما به احاسيس « بابشنكو » العجول الذي بقي صامتا فاضطر سباروف ان يعاود استفساره ويقول :

ـ هل تريد لهم ان يتناولوا طعامهم الآن ؟

ـ كلا ! فليأكلوا عقب اول مرحلة ! اما الآن فعليكم ان تنطلقوا مباشرة ! ودون انتظار وصول الكتائب الاخرى . ولتدع كتيبتك الى الانتظام صفوفا !

فاستدعى سباروف مسلنكوف وامره بدعوة الجنود الى الانتظام ، لكن « بابشنكو » بقي صامتا عابسا ، فهو رجل قد تعود على ان يقوم بنفسه بكل عمل ، ولهذا السبب فقط كان يرهق نفسه بتقصي التفاصيل تافهها وخطيرها، وكان ابدا عجولا مستعجلا ، واحيانا كثيرة لم ينجز ما كان عليه انجازه . والحق انه لم تكن من مهام آمر الكتيبة ان يدعو الجنود الى الانتظام صفوفا بغية اعدادهم للزحف . ولكن لما كان سباروف قد اصدر هذا الامر الى غيره وبقي واقفا صامتا الى جانب آمر الفوج ، فان هذا العمل قد دغدغ احاسيس « بابشنكو » فهو يرغب في ان يرى مرؤوسيه يتراكضون ويعرقون ، لكن رغبته هذه لم تجد ابدا لدن سباروف الهادىء امتثالا او قبولا . فاستدار بابشنكو واخذ يراقب السرية وهي تنتظم صفوفا بينما بقي سباروف واقفا الى جانبه ، وسباروف يعرف حق المعرفة بان آمر الفوج لا يستطيبه ، لكنه تعود على هذا الواقع ولم يعد يأبه به او يكترث .

وقف المقدم والنقيب للحظة صامتين ساكتين وفجأة حلت عقدة لسان المقدم وقال دون ان يلتفت الى سباروف بلهجة مختلفة تفيض غضبا وسخطا :

ـ انظر ما يفعله اولئك الخنازير بشعبنا !

فلقد كانت تمر على محاذاة الخط الحديدي جموع غفيرة من اللاجئين هدهم التعب وانهك المسير الطويل قواهم ، وكانوا يرتدون ثيابا خلقة ويربط البعض اطرافهم ورؤوسهم بلفائف علاها غبار كثيف فبدت رمادية اللون ، وتطلع الرجلان بصورة آلية الى الاتجاه الذي سيتخذه الفوج وشيكا ، فرأيا البرية المنخفضة ذاتها التي لا تختلف في طبيعتها عن البقعة التي يقفان فيها الا في سحب غبارها المتراقصة فوق التلال والتي بدأت كأنها نفثات تائهة من دخان المعركة وبادر « بابشنكو » سباروف قائلا :

ــ ستكون نقطة الاحتشاد في « رباتشي » وليكن سيركم سيرا متواصلا سريعا ، وارسل لي بنجابيك !

كان المقدم ينطق باوامره هذه وقد علا وجهه عبوسه المعتاد ، ثم استدار وعاد الى عربته ، إما سباروف فقصد الطريق حيث الفى الفوج قد انتظم ويقف وقفة استراحة انتظارا لتلقيه الامر بالزحف . وكان الجنود في الصفوف يتحدثون بهدوء بعضا الى بعض ، وعندما مر سباروف بالسرية الثانية شاهد ثانية « كونيوكوف » المشورب ورآه يتحدث بطريقة حية ويكثر من الاشارات براحتيه فاقترب سباروف منه فسمعه يقول :

ــ أتريدون ان تعرفوا لماذا انه من الافضل لنا ان نهاجم بدلا من ان نتراجع؟ ان لهذا الامر سببا ، فنحن عندما نهاجم نخلف الشرق وراءنا ، وبذلك تدفيء الشمس نهارا ظهورنا دفئا لطيفا مريحا ، وفي المساء ، عندما يبرد الطقس تجتلي الشمس وجوهنا ، وهكذا ترون ان كل امر قد اعد ونظم وفقا لتوقيت مدروس!

فسألهم أحدهم باسما

ــ وهل تنطلق الاعيرة النارية ايضا وفق هذا التوقيت ؟

تجاوز سباروف « كونيوكوف » حتى بلغ رأس الكتيبة ثم اصدر امره قائلا :

ــ الى الامام سر !

. فتحرك الطابور وسباروف يسير في مقدمته ، لكن الغبار كان لا يزال يبدو كأنه سحب من دخان فقال سباروف في سريرته ، من يدري فقد تكون النار ترعى حقا في البرية ايضا أمامه .

- ٢ -

في صباح احد ايام شهر آب الخانق ، وقبل انتقال سباروف وجنوده الى ستالينغراد بعشرين يوم ، انطلقت طائرات « رشتهوفن » لتقصف المدينة قصفا عنيفا متواصلا يخيل المرء معه ان تشكيلات ضخمة من الطائرات الالمانية قد علقت في أجواء المدينة ، فلقد كان من الصعب على الانسان ان يعرف عددها وعدد الغارات التي قامت بها ، فلقد كانت تحلق وتقصف وتتوارى برهة وجيزة ولتعود الى الاغارة من جديد ، لكن المراقبين قدروا عدد الطائرات التي أغارت على المدينة في ذلك اليوم بالفي طائرة . وكانت ستالينغراد تشتعل من اقصاها الى اقصاها تلك الليلة والنهار الذي أعقبها فليلة اخرى ، ومع ان القتال كان يدور ليلة اندلاع الحريق على بعد ستين كيلومترا من المدينة .وذلك عند معابر نهر الدون ، لكن احتراق ستالينغراد جاء فاتحة لمعركتها ، وذلك لان كلا من الالمان والروس ، (هم من الامام ونحن من الوراء) كانوا يرقبون ضرام الحرائق ولهبها، لهذا فان جميع افكار المحاربين من الطرفين انجذبت من ذاك اليوم فما بعده الى المدينة الملتهبة كأن ستالينغراد أمست مغناطيسا .

وفي اليوم الثالث ، عندما بدأت النار تخمد ، عبقت أجواء المدينة بتلك الرائحة الثقيلة الخاصة المنبعثة من الرماد والتي أزكمت الانوف طيلة شهور الحصار ، فلقد امتزج ريح الفولاذ الحار بريح الفحم بريح القرميد المحروق لتكون كلها معا رائحة كريهة ثقيلة اكالة حاذقة . وكانت الرماد والجمرات الكابية تغطي الشوارع وكان يكفي لبعض نسيم ان يهب من الفولغا حتى تتعالى نفثات الدخان وتنتشر من هذا الغبار الاسود لتغمر اجواء الشوارع المحترقة من جديد ، فيخال المرء ان النار قد عادت لترسل بدخانها ثانية . اما الالمان فانهم تابعوا قصفهم الجوي للمدينة ، فكانوا تارة يقصفون ذاك المكان وطورا هذا ، وكانت الحرائق تندلع عقب كل غارة ، لكن لم يعد اي انسان يأبه بأمرها أو يكترث لها . وكانت هذه الحرائق تأكل نفسها نسبيا بسرعة فعقب ان تلتهم بضعة بيوت تنطلق السنة اللهيب الى الشوارع لتجدها خاوية مقفرة سبقتها اليها نيران لم تترك

لها مادة تقتات عليها لتعيش ، وهكذا كانت تخبو وتخمد . لكن المدينة كانت من الضخامة والانفساح على قدر هائل ، حتى ان النار كانت تجد لها دائما في مكان ما من اماكنها مرتعا خصبا ، وعقب بضعة ايام اعتاد كل فرد من سكان المدينة هذه النار التي لا تعرف خمودا وتعود على ان يرى فيها جزءا جوهريا من منظر المدينة في الليل . وعقب مضي عشرة ايام على اندلاع الحرائق اقترب الالمان من المدينة الى مسافة تجاوزت معها قنابل المدافع والمورتر بانفجاراتها اطراف المدينة الى قلبها . وعندما اطل اليوم الحادي والعشرون حلت تلك اللحظة التي تجعل الانسان المعتقد بالنظريات العسكرية يؤمن بان الدفاع عن المدينة عديم الجدوى وحتى مستحيل . فلقد كان الالمان يومذاك قد بلغوا نهر الفولغا شمالا من ستالينغراد وكانوا يقتربون من النهر جنوبا ، وكانت المدينة تمتد مسافة ٦٥ كيلومترا طولا اما عرضها فلم يكن يتجاوز في مداه الاقصى الخمسة كيلومترات وكان الالمان قد احتلوا معظم الاحياء الغربية الواقعة على كامل طولها تقريبا ، اما المدفعية التي باشرت القصف في الساعة السابعة صباحا فانها لم تصمت الا عند الغروب . واذا ما اتفق لرجل غير مبتدىء ان يدخل مركز القيادة العامة فعندئذ سيخيل اليه ان الامور تجري على ما يرام وان المدافعين لا يزالون يملكون قوة ضخمة ، واذا ما تأمل مثل هذا الرجل في خريطة اركان الحرب التي تظهر مواقع القوات العسكرية ، فانه سيرى عندئذ ان قطاعا صغيرا نسبيا من الخارطة قد كتب عليه عدد الفرق والجحافل المكلفة بالدفاع عن المدينة . وكان لا شك سيسمع الاوامر التي يصدرها الهاتف الى قادة تلك الفرق والجحافل ، وعندئذ سيخيل الى مثل هذا المرء انه اذا ما نفذت القوات الاوامر الصادرة اليها بحرص ودقة ، فان نجاحها سيكون فوق كل نقاش وجدل . ولكن على مثل هذا المرء غير المبتدىء اذا ما اراد ان يطلع على حقيقة مجرى الامور ان يذهب ليرى بنفسه الفرق والجحافل التي تذكرها الخارطة وتحيطها بشبه دوائر حمراء معينة . فلما كانت هذه الفرق قد تراجعت بعيدا ما وراء نهر الدون عقب شهرين من قتال مرير عنيف ، فان تشكيل اية فرقة منها لم يكن في أحسن الحالات ليتجاوز تشكيل الفوج . نعم ! كان لهيئة اركان الحرب لافواج المدفعية وللاقسام الطبية الملحقة بها ما يكفيها من الرجال ، لكن ضباط وجنود هيئة اركان جحافل الرماة والمشاة كانوا يعدون على الاصابع ، فلقد ارسلت هذه الهيئة بكل رجل لا يشغل عملا اساسيا في مكانبها او في المؤخرة الى خطوط النار ودفعت بالكثيرين من رجال الخدمات الطبية وعمال التلفون والاختصاصيين

في الحرب الكيمائية الى قواد الافواج ، ولما لم يكن لهم هناك أي عمل يناسب اختصاصاتهم لذلك اصبح هؤلاء جميعا جنود مشاة . ومع ان رئيس اركان حرب الجيش يعلم حينما يتطلع في خارطته حق العلم بان كل فرقة من تلك الفرق لم تعد فرقة بل انما امست فوجا او دون الفوج ، الا ان القطاع الذي كانت مكلفة بالدفاع عنه كان يستلزم منها ان تقوم بالواجبات العسكرية المترتبة على فرقة بمعناها الصحيح . وبالرغم من ان رئاسة اركان حرب الجيش كانت تعلم بانها تطالب القطعات المقاتلة بانجاز امور هي فوق الطاقة البشرية ، الا ان جميع الضباط من ارفعهم الى اصغرهم رتبة كانوا يطالبون مرؤوسيهم بالقيام بمثل تلك المهمات ، اذ لم يكن لديهم من خيار غير هذا . ولا شك ان قائد الجيش كان سيقهقه ضاحكا اذا ما قال له احد الناس قبل الحرب بانه سيأتي يوم لن يتجاوز فيه عدد احتياطيه المحمول الثلاثمائة جنديا . لكن ذلك اليوم أمسى هذا اليوم ، فاحتياطيه المحمول يتألف الان من ثلاثماية جندي من سلاح الرشاشات وضعت تحت تصرفهم عشرون سيارة شحن ، هذا هو كل ما تبقى لقائد الجيش من قوى محمولة عليه ان يدفع بها بسرعة في اللحظات الخطيرة من اقصى المدينة الى اقصاها فيما اذا تداعت الصفوف في أحد مراكز القتال. وكانت هيئة اركان حرب الجيش قد اتخذت من قمة الجرف « ماماي كورجان » الواقع على بعد كيلومتر واحد من خطوط النار مركزا لها وكان هذا المركز يتألف من خنادق وسراديب . وكان الالمان قد أوقفوا هجومهم ، اما تأجيلا له حتى حلول الليل واما طلبا منهم للراحة . وكانت الحالة بصورة عامة ، وخاصة هذا الهدوء الغريب ، يؤكد ان مطلع الفجر سيتمخض عن هجوم ثقيل عنيف .

عليكما ان تأكلا !

قالها المرافق وهو يشق طريقه بصعوبة داخل سرداب ضيق حيث كان يجلس رئيس اركان حرب جيش ستالينغراد وعضو اللجنة(1) العسكرية ويدرسان معا الخريطة على ضوء مصباح زيتي . فبدأ كل منهما يتطلع الى

---

(1) في الوحدات العسكرية السوفياتية التي تكون الوحدة منها اكبر من الفرقة ، تكون اللجنة العسكرية هي صاحبة السلطة وتتألف هذه اللجنة عادة من قائد الوحدة ورئيس اركان حربه ومن عضو ثالث اعتاد الروس على ان يلقبوه « عضو اللجنة العسكرية » وكان هذا العضو يختار دوما من الاعضاء الموثوقين من الحزب الشيوعي . لكن هذا النظام الغي خلال الحرب فأصبح عضو اللجنة العسكرية نائبا للقائد العام للوحدة وقد حصرت صلاحياته بالقضايا السياسية والستراتيجية دون التكنيكية .

الاخر لكنهما عادا ليحدقا معا في الخارطة ، ولو ان المرافق لم ينبههما الى أنه من الضروري ان يتناولا طعامهما لكانا قد بقيا يحملقان في الخارطة لمدة ساعة اخرى . فهما وحدهما يعرفان حقيقة خطورة الحال ومدى تدهور الوضع وبالرغم من انهما قد قاما بكل ما هو متوجب عليهما وبكل ما يستطيعان القيام به ، زد على ذلك ان القائد العام نفسه قد غادرهما ليتفقد الفرق وليراقب تنفيذها لاوامره الا انهما وجدا انه من الصعب عليهما ان ينتزعا نفسيهما من الخارطة ، فهما يريدان بشغف ولهفة ، وحتى باعجوبة من الاعاجيب ، ان يكتشفا من قصاصة الورق هذه ، امكانية جديدة غابت عن ذهنيهما . واخيرا قال « ماتفييف » عضو اللجنة العسكرية وذو الفطرة المرحة والذي كان يجد لذة في الاكل في مثل هذه المناسبات ،وذلك اذا ما استطاع ان يتذكر في ضوضاء عمل الاركان موضوع الاكل اطلاقا .

ـ حسنا ! اذا كان علينا ان نأكل ، اذن فلنأكل !

فخرج « ماتفييف » ورفيقه من السرداب الى الهواء الطلق ، وشاهدا غبشة الليل تتقدم جحافل الظلام ورأيا تحتهما حيث كانا يقفان ومضات قنابل المورتر تنعكس على جلد رصاصي اللون اغبر ، وكان الالمان يعدون انفسهم لليل ويطلقون الصواريخ البيضاء الاولى التي اعتادوا بواسطتها ان يحددوا خط جبهتهم . وكان يخترق جرف « ماماري كورجان » ما يدعى بالحزام الاخضر ، الذي كان في احد الايام مبعثا لاعتزاز ستالينغراد وفخرها. وكان كوموسمول(1) ستالينغراد قد قام عام ١٩٣٠ بتشجيره، واحاط شباب الكوموسمول خلال عقدين من الاعوام المدينة المغبرة المتجهمة بحزام كامل من البساتين .والحدائق والجنائن والبوليفارات ، وقد كانت ايضا قمة جرف « ماماي كورجان » مشجرة بالزيزفون واشجار من التليا تبلغ العشرة اعوام من العمر ، وتنتظم في صفوف كأنها حجارة صفت على رقعة شطرنج .وتطلع « ماتفييف » فيما حوله فالفى المساء الخريفي مبهجا مريحا ، والفى ان كل شيء قد هدأ فجأة وصمت ، واستنشق اخر عبير صيفي يتفوح من اوراق الزيزفون والتليا التي بدأت تستحيل صفراء باهتة : وكان هذا العبير منعشا الى درجة جعلته يعتقد بانه من العناء ان يجلس في مساء كهذا في البناية المتوحدة على الجرف ، هذا الكوخ نصف المدمر الذي اتخذ منه قاعة للطعام . لذلك بادر المرافق قائلا :

(1) جمعية الشباب الشيوعي .

ـ قل لهم ان يحضروا لنا طاولة كي نتناول طعامنا تحت اشجار الزيزفون!

فاحضرت طاولة كسيحة من المطبخ وكرسيان ، وعقب ان غطيت بشرشف التفت ماتغييف الى رئيس اركان الحرب وقال :

ـ لنجلس ايها الجنرال ، فمنذ طويل زمن لم نجلس معا في حديقة تحت اشجار الزيزفون ، وقد تمضي مدة طويلة من الزمن قبل أن نستطيع معاودة مثل هذه الجلسة .

قال هذا وانحدر ببصره ليحدق في المدينة المحترقة ، وبعد ان احضر المرافق الشاي عاد « ماتغييف » الى التحدث ورفيقه فقال :

ـ اتذكر يا جنرال ، مدى روعة سوكولنيكي في متاهتها

لقد بنيت في تلك المتاهات من ادغال الليل غرفا صغيرة وضعت فيها بعض المقاعد ، وكانوا يأتون اليك « باسماور » (ابريق شاي روسي) وقد اعتاد الناس ان يأتوا اليها اكثر فأكثر مع عائلاتهم .

ـ نعم انني اذكرها وأذكر وفرة البرغش فيها !

بهذا أجاب الجنرال الذي لم يكن يميل بالفطرة الى الاحاسيس الشعرية ، ثم عاد فقال :

ـ وهنا لا يوجد برغش !

فاجابه ماتغييف :

ـ لكن هنا لايوجد ايضا سماور

فرد عليه الجنرال بعناد :

ـ ولهذا السبب لا يوجد برغش ، ولكن الحق معك ، فلقد كانت المتاهة متاهة جميلة ، وكان من الصعب ان يعرف المرء طريقة للخروج منها .

فتطلع ماتغييف الى المدينة تحته ثم ضحك وقال : « متاهة » اذ شاهد الشوارع والطرق تتقاطع وتتلامس في حيرة لا نهاية لها من الطرق والشوارع والدروب ، وكان مصير هذه كلها بالاضافة الى مصير عدد غفير من الكائنات البشرية رهنا بمصير قضية عظمى، هي مصير الجيش .

وفجأة داهمهما المرافق خلال الغبشة وبادرهما يقول بصوت لاهث كشف عن أنه جاءهما عدوا :

ـ انهم يتقدمون من الشاطيء الاخر ، انهم رسل « بوربوف » فقاطعه ماتغييف بحزم سائلا :

ـ اين هم ؟

فاجابه المرافق : ـ انهم برفقتي !

ثم صاح قائلا :

ـ ايها الرفيق الرئيس الاول !

فانتصب الى جانبه حال صياحه شخص مديد القامة من الصعب تمييـــز وجهه من خلال الغبشة فبادره ماتغييف سائلا :

ـ هل قابلهم ؟

فاجاب الرئيس الاول :

ـ نعم لقد قابلهم ، ولقد أمرني العقيد « بوربوف » بان اعلمكم بانه قـد قابلهم وانهم على وشك ان يعبروا النهر !

ـ بديــع !

قالها « ماتغييف » ، بينما كان ينهض عن كرسيه ثم تراجع الى الوراء قليلا وتثاءب بارتياح عميق ، فلقد زال الكابوس الذي كان يثقل صدره وصدري القائد العام ورئيس الاركان وصدور كل من حوله طيلة الساعات الماضية واخيرا التفت الى المرافق وسأله :

ـ الم يعد القائد العام بعد ؟

ـ كـلا !

ـ اذن ارسل فورا من يبلغه بان بوربوف قد قابلهم .

- ٣ -

كان العقيد بوربوف قد توجه منذ الصباح ليقابل وليستعجل قدوم الفرقة التي كان سباروف آمرا لاحدى كتائبها وقد قابل بوربوف الفرقة ظهرا ، وكانت لما تعبر بعد ، نهر « أخطوبا » الواقع على ثلاثين كيلومترا من الفولغا . وقد حدث ان اول رجل تحدث اليه بوربوف كان سباروف الذي كان منطلقا على راس كتيبته ، وحالما عرف بوربوف رقم فرقته وعلم بان آمر الفرقة يتبعه على مسافة قصيرة منه امتطى العقيد بوربوف سيارته التي ترك محركها عاملا ، وقبل ان يغلق باب السيارة تطلع في وجه سباروف بعينين متعبتين وقال :

ـ لست بحاجة لاشرح لك لماذا يتوجب على كتيبتك ان تكون عند المعبر في الساعة السادسة تماما . ثم اومأ بوربوف براسه للسائق فانطلقت السيارة تعدو به بعيدا . وفي الساعة السادسة مساء عندما كان العقيد يعود الى مركز عمله وجد ان سباروف قد بلغ وجنوده ضفة النهر . وكما هو مألوف عقب كل زحف متعب ومضن ، فان الجنود وصلوا نهر الفولغا بصفوف غير منتظمة ، وما كادوا يبلغون الضفة حتى انسدح بعضهم ارضا وانتشر البعض الاخر بين الروابي والمنحدرات . لكن النقيب سباروف تمكن عقب مضي نصف ساعة على وصول اول جندي الى الضفة من ان يعيد جمع شملهم على محاذاة الضفة الاكمية للنهر انتظارا لاوامر اخرى . وعندما انتهى سباروف من اعداد جنوده لعبور النهر ، جلس على قرمة يغوص نصفها في الماء ليرتاح قليلا وجلس العقيد بوربوف الى جانبه وفتح علبة جميلة وقدم الى سباروف لفافة تبغ من نوع « بلميرا الشمالية » والله وحده يعرف من أين حصل العقيد على هذا النوع من السجائر ، وعقب ان اشعل سباروف لفافة سأل العقيد وهو يومىء براسه نحو الضفة الغربية ويقول :

ـ كيف الحال هناك ؟

ـ حرجة ! حرجة !

ثم عاد العقيد ليهمس بكلمة « حرجة » للمرة الثالثة كأنه لم يكن هناك من وصف اخر يمكن ان يضاف الى هذه الكلمة التي بدت انها ذات معنى شامل كامل ، ولهذا خيل الى سباروف انه اذا ما كانت الكلمة الاولى حرجة تعني صعبة فان ترديدها مرة ثانية ليعني انها أصعب ، ومن ثم تكرارها للمرة الثالثة يفهم منه أنها الاصعب ، أي انها خطيرة بالغة الخطورة . اخذ سباروف يجول بناظريه على ضفة النهر الغربية صامتا ساكنا ، فالفاها مرتفعة شامخة ككل ضفاف الانهار الغربية في روسيا. فالحظ الخالد في سوئه الذي عجم سباروف بنفسه عوده ، قد جعل جميع الضفاف الغربية للانهار الروسية شامخة الارتفاع، بينما صير كل الضفاف الشرقية شديدة الانحدار ، وقد شاء الحظ السيء ان يبالغ في سخريته فدفع بالروس الى بناء جميع مدنهم دون استثناء على الضفاف الغربية للانهار ، فكييف وسمولنسك ونيبروبتروفسك وموجيلف وروستوف ، وكل مدينة أو بلدة أخرى عرفها او تذكرها سباروف قد أنشئت على ضفاف الانهار الغربية . وكان الدفاع عن جميع هذه المدن امرا شاقا صعبا ، اذ انها جميعا قد بنيت على مقربة جد وثيقة من الانهار ، زد على ذلك ان استردادها امر اشق واقسى ، وذلك لانها جميعا تقع عبر الضفاف الغربية .

اخذ الليل يرخي سدوله ، لكن سباروف كان لا يزال يرى بسهولة ويسر الطائرات الالمانية كيف تحوم فوق المدينة وتنقض عليها ثم ترتفع ، وشاهد انفجارات القنابل المضادة للطائرات تنشر سحبا كثيفة من دخان بدا كالزغب في الجلد ، ورأى في القسم الجنوبي من المدينة السنة اللهيب ترتفع من مخزن ضخم للحبوب ، واستطاع حتى من المكان الذي يجلس فيه ان يرى كيف يرتفع اللهب بالسنته عاليا ، واتضح له ان مدخنة المخزن الجبارة امست مجرى لهواء شديد يساعد النار على الانتشار فتذكر اولئك اللاجئين الجائعين الذين شاهدهم عند قرية « التونسكايا » وهم يعمهون في برية قفراء لا ماء فيها او كلأ .
ولم يستثر كامل المنظر الذي شاهده سباروف داخل نفسه اي احساس خالد، او عام بوحشية الحرب وعدم جدواها ، بل انما استثار في كوامن جوانحه بغضاء واضحة صريحة للالمان .

كان المساء طريا عليلا ، واستطاع سباروف ان يشعر عقب زحف متواصل

مغبر وحرارة شمس لاهبة محرقة بانتعاش وراحة . واحس بظمأ شديد فتناول خوذة احد جنوده وانحدر الى ضفة الفولغا وقدماه تغوصان في رمل ناعم مصقول رهيف ، فاغترف بالخوذة الماء ، وشربه فوجده باردا نميرا نظيفا . وعندما ملأ الخوذة للمرة الثانية وكان قد اروى نصف عطشه ورفع بها الى شفتيه داهمه فجأة ابسط الافكار ، وفي الوقت نفسه اشدها مرارة ، فهذا هو ماء الفولغا ، وهو يروي ظمأه منه ، وهو في الوقت ذاته يخوض غمرات الحرب ، لقد كانت هاتان الفكرتان ، الفولغا والحرب ، فكرتين واضحتين ، لكنهما فكرتان متعارضتان لا تأتلفان. فلقد عرف في المدرسة منذ طفولته وعرف طيلة حياته بان الفولغا هو شيء ما روسي أصيل في روسيته ، أما وهو الان يقف على ضفافه ويشرب من مائه ، بينما يقف الالمان على الضفة الاخرى ، فان هذا الواقع لا شك واقع محال ومجنون .

نظر بوربوف الى النقيب وقال له بكآبة كأنه يجيب على افكاره التي لم يعبر عنها :

ــ نعم ! ايها النقيب ، انها الفولغا !

ثم لوح بيده نحو النهر .واضاف :

ــ انظر ! آن المعدية والصندل في طريقهما الينا !

قال العقيد بوربوف هذا وعاد لينظر ثانية الى المعدية نظرة محترف دقيق واخيرا استطرد :

ــ تستطيع ان تنقل سرية واحدة ومدفعين وعقب مضي خمس عشرة دقيقة وصلت المعدية الضفة وهي تجر مقطورة وراءها فسارع بوربوف وسباروف الى الرصيف الخشبي الذي أرتجله الجنود حيث كان سيجري نقل الجند الى الصندل ، وقد شاهدا بعض رجال الخدمات الطبية ينقلون الجرحى من المقطورة على حمالات ، ويتجهون بهم الى الضفة ، وكان بعض هؤلاء الجرحى يئن ويزفر ، لكن معظمهم كان ساكتا هادئا ، وكانت ممرضة شابة تتنقل بين الحمالات وتتفقد الجرحى وقد سار خلفهم عشرة من جرحى آخرين كانوا لا يزالون يقوون على السير وتطلع سباروف الى العقيد وقال :

ــ حقا ان عددا من جراحهم طفيفة جد قليل !

فضحك بوربوف واجاب :

ـ قليل ؟؟ ان عدد الجرحى ممن وصفت لا يقل عن عدد غيرهم في أي مكان آخر ، لكنهم لا يعبرون بجميعهم النهر !

ـ لماذا ؟

ـ كيف استطيع ان اروي لك؟ان اولئك الجرحى يبقون هناك (ستالنغراد) لان الوضع فيها حرج ، زد على ذلك ان هناك نقمة ، ونوعا من المشاق . كلا ! لا اعتقد ان هذه هي الاسباب ، ربما انه نوع من الامور الذي لا تستطيع ان تفسره ! اذهب اليها بنفسك ، وفي اليوم الثالث لوصولك ستفهم السبب الذي يجعل الذين اصيبوا بجراح طفيفة لا يعودون الى المستشفيات .

اخذ جنود السرية الاولى يمتطون الصندل ، وفجأة طرأت مضاعفات غير منتظرة على الحال ، فلقد بدا ان هناك جمعا غفيرا من الناس قد تجمهروا عند الصندل ، وكان جميعهم يرغب في العودة الى ستالينغراد ، فكان أحدهم عائدا لتوه من المستشفى وغيره ينقل برميلا من الفودكا من مخزن المؤن ويطالب بان ينقل هو وبرميله الى الصندل ، وثالث ضخم الجثة صخاب مشاغب يشد الى صدره علبة ضخمة وقد تقدم من سباروف وقال بانه يحمل في علبته كبسولات الالغام وان رؤساءه سيقطعون عنقه اذا لم يوصلها اليهم هذا اليوم . وأخيرا كان هناك اناس اخرون تجمعوا منذ الصباح لاسباب شخصية شتى وهم ايضا يريدون الآن العودة الى ستالينغراد باسرع وقت ممكن . ولم يكن الكلام ليجدي مع هؤلاء الرجال ، وكان الانسان اذا ما استمع الى نبراتهم وتأمل في وجوههم لا يعتقد ابدا بان هناك على الضفة الغربية تقوم مدينة محاصرة تنفجر في شوارعها ومنازلها القنابل كل دقيقة زمنية بما لكلمة دقيقة من معنى حرفي . وقد قرر سباروف في سره ان يصطحب معه الجندي حامل الكبسولات ورفيقه ناقل برميل الفودكا ، وان يأبى على الاخرين صحبته فيقول لهم بانه باستطاعتهم ان يعبروا الضفة حين عودة الصندل ثانية . واخيرا تقدمت الممرضة الشابة من سباروف وطلبته وقالت بان هناك جرحى اخرين على الضفة الاخرى وبانها ترغب في العودة على ظهر هذا الصندل لتنقلهم الى الضفة الشرقية . ولم يكن بمقدور سباروف ان يرد طلبها ، لذلك عندما عبرت السرية الرصيف الى الصندل ، انطلقت الممرضة الى الصندل اولا ومن ثم انتقلت الى المعدية . وكان ربان المعدية رجلا متقدما في السن قليلا ، ويرتدي سترة زرقاء وعمرة مكسورة القونس من عمرات البحرية التجارية السوفياتية ، وبعد هنيهة

انطلق صوته بصراخ عال عبر به عـن نوع من اوامر اصدرها الى البحارة فهجرت المعدية الضفة وجلس سباروف على كوثلها (مؤخرة السفينة) بعد ان خلع سترته وترك للهواء ان يداعب بنسماته بزته فأحس بغبطة تغمر نفسه ، ففك أزرار قميصه وترك للهواء انينفخ فيه فبدا قميصه كالشراع ، لذلك بادرته المرضة الشابة التي كانت تقف الى جانبه قائلة :

ــ ستصاب بزكام أيها النقيب !

فابتسم سباروف ، اذ بدا له امرا غريبا ان يصاب بزكام وبرداء وهـو يعبر الفولغا ، وفي شهره الخامس عشر من شهور الحرب ، لذلك لم يجـب على ملاحظة الفتاة وتنبيهها وهذا مما اضطر الفتاة الى تحذيره ثانية اذ قالت :

ــ انك لن تحس بتسرب الزكام إليك ، فالطقس يبرد في المساء ، وانا اعبـر كل يوم النهر تقريبا ,ولقد اصبت بزكام شديد كاد يأتي على وتري صوتي . والحق ان الانسان اذا ما اصغى الى صوتها مليا فانه يستطيع أن يكتشف فيه نوعا من بحة ، ولهذا التفت اليها سباروف وسألها :

ــ هل تعبرين النهر كل يوم ؟ وكم مرة تعبرينه في اليوم ؟

ــ ان هذا يتعلق بعدد الجرحى فكما ترى الان ان الامور لم تعد تجري في سياقها المألوف ، اي ان تنقل الجرحى اولا الى الفوج ومن ثم الى مراكز الاسعاف الاولي واخيرا الى المستشفى ، فنحن ننقلهم الآن من خطوط النار مباشرة لنعبر بـهم الفولغا .

كان صوت الفتاة وهي تتحدث اليه هادئا الى درجة جعلت سباروف ،دون ما عمد ، يوجه اليها سؤالا من تلك الاسئلة الفارغة البليدة ، والذي لم يكن يرغب عادة في توجيه سؤال مماثل له اذ قال سائلا :

ــ الا تخافين من عبور النهر مرات كثيرة كهذه ؟ فأجابته الفتاة :

ــ أخاف ؟ إنني لا اعرف الخوف عندما أعبر بالجرحى النهر ، لكن عندما أعود وحيدة لانقل غيرهم من الضفة ينتابني الخوف ، ,وانت لا شك تعلم ان الانسان يخاف التوحد ، أليس الامر كذلك ؟

ــ حقـا !

أجابها سباروف وهو يتذكر انه كان خوفه وهو برفقة كتيبته دائمـا

اقل من خوفه في تلك اللحظات النادرة ، التي يترك فيها وحيـدا .

جلست الفتاة الى جانبه واخذت تؤرجح ساقيها فوق الماء ثم ربتت على كتفه وقالت بصوت سري هامس :

ــ هل تعرف ما هي حقيقةالخوف ؟ كلا انك لا تعرفها، فانت الآن متقدم في السن ولن تعرفها ، فانني أخاف وارتعب عندما يداهمني خاطر يقول بانني قد اقتل فجأة ، وان لا تعف يد العدم عن اي شيء اخر ، فيفنى كل ما حلمت به ويتلاشى ويزول ، فأجابها سباروف سائلا :

ــ أي شيء سيفنى ويزول ؟

ــ لن يبقى أي شيء مطلقا ! هل تعرف كم عمري ؟ انني في الثامنة عشرة، وانا لم أر أي شيء يذكر حتى الان . فلقد حلمت كيف سأدرس واتكلم ، لكنني لم أدرس او اتكلم ، ولقد حلمت كيف سأسافر الى موسكو والى كل مكان آخر، ولم يصبح كل مكان الا اللامكان لقد حلمت . . . (وهدات لهجتها الهامسة) كيف سأعشق وأحب ، وكيف سأتزوج ، وهكذا ترى انه لم يتحقق أي من أحلامي حتى الان ، لذلك أراني ارتعب وأخاف أحيانا خوفا مفزعا مهولا من انه لن يحـدث لي اي شيء مما ذكرت ، فأموت ، دون أن اترك أي امر ورائي .

ــ لكن لو قدر لك ان تذهبي الى المدرسة وان تجوبي البلاد طولا وعرضا وان تتزوجي فهل تعتقدين بانه لن ينتابك رعب او خوف ؟

فاجابته الفتاة بيقين راسخ :

ــ كلا ! فمثلا انا وانت تعرف بانك لست بخائف خوفي الان ! فكم عمرك ؟

ــ كم تخمنينه ؟

ــ انك بين الخامسة والثلاثين والاربعين .. أليس كذلك ؟

ــ نعم !

اجابها سباروف وهو يبتسم ، وفجأة داهمه خاطر فيه بعض مرارة ، اذ فكر كيف انه من غير المجدي ان يحاول اقناع الفتاة بانه لم يبلغ الاربعين وحتى الخامسة والثلاثين من عمره بعد ، وكيف انه هو ايضا لم يدرس كل مادة أراد درسها ورغب في تعلمها ، وكيف انه هو ايضا لم يزر كل مكان تمنى زيارته،

وكيف انه لم يعرف العشق ، كما يريد ان يعرفه ، لكن الفتاة استرسلت لتقطع عليه تأملاته فتقول :

ــ وهكذا ترى انه يتوجب عليك لهذا السبب الا تخاف او ترعب ، أمـــا بالنسبة الي فان جميع اسباب الخوف قائمة ومتوفرة .

نطقت الفتاة بهذه الجملة بأسى شجي ورباطة جاش وأنفة كذلك، أثارا الرغبة في نفس سباروف في أن يمسح رأسها براحته ويهدهدها كما تهدهد الام طفلها ، وان يتفوه ببعض كلمات غبية لكن طيبة يطمئنها بها على ان كل شيء سينتهي الى ما تروم وتشتهي ، وعلى انها ستبقى بمنجاة من كل حادثة او دهياء، لكن منظر المدينة الملتهبة حال بينه وبين التفوه بمثل تلك الافكار ، فاستعاض عنها بمسحة بسيطة مرت بها راحته على رأسها ، لكنه سرعان ما نحى يده جانبا اذ أنه لم يرغب في ان تعتقد الفتاة بانه قد أساء فهم صراحتها الساذجة. لكن الفتاة أستطردت :

ــ لقد مات طبيبنا هذا اليوم ، ولقد توفي بينما كنت اعبر به النهر، والحق انه كان رجلا حاد الطبع يتفجر غضبا فكان يشتم كل انسان ، ويشتم حتى حينما يجري عملياته وينتهرنا .. وهل تعرف بانه كلما تزايد أنين الجراح كانت تزيد شتائمه ، وكلما ازدادت آلامهم كانت تزداد لعناته ، ولكن عندما بدأ هو نفســه يعاني سكرات الموت ، اذ أصيب بطلقة نارية في معدته جعلت الامه مروعة لا تطاق، فانه لم يشتم او يسب ، وعندئذ ادركت انه كان في جوهره رجـــلا صالحا وادركت انه كان يشتم لانه لا يستطيع ان يراقب الناس وهم يتألمون ، لذلك فعندما حان دوره لم ينبس ببنت شفة حتى وافاه أجله ، وعندما شاهدني ابكي أبتسم فجأة .. لماذا ابتسم كما تعتقد ؟

فأجاب سباروف :

ــ لا ادري ، ربما ابتسم لانه شاهدك لا تزالين حية بعد كل هذه المعارك الضارية ، ولهذا ابتسم .. ولكن قد لا يكون ما ذكرت سبب ابتسامه .. انني لا اعرف !

فردت الفتاة :

ــ وأنا لا اعرف بدوري ايضا ، وكل ما اعرفه بانني شعرت بأسف عليه،

ومن الغريب أنه كان دائما متعافيا قويا ضخما حتى بدا لنا اننا جميعنا سنقتل قبله وانه سيكون اخر من يوافيه الاجل ، او قد لا يوافيه ابدا ، ولكن فجأة انعكست الامور وقلبت الموازين .

كانت المعدية ترسل بلهاثها وهي تمخر عباب النهر قاصدة شاطيء ستالينغراد ، الذي اصبح على بعد مئتين او ثلاثماية مترا منهم ، وفجأة انقضت قنبلة عاوية امامهم فانتفض سباروف واقفا على قدميه لكن الفتاة بقيت جالسة على كوثل « المعدية » وبادرته قائلة :

ـ انهم يطلقون النار ، وكنت طيلة جلوسي اليك اتساءل في نفسي : ـ لماذا لا يطلقون نيرانهم ؟.

لم يجب سباروف على قولها ، فلقد كان يصغي الى رعيد القصف، وعرف وهو يسمع أزيز القنبلة الثانية المهدفة بانجاههم بانها ستمر من فوق رؤوسهم وبالفعل وقعت القنبلة على بعد مئتي متر تقريبا وراء المعدية . فلقد كان الالمان يسددون قنابلهم الى المعدية تسديدا يعرف في الفن المدفعي « بتسديد الملقط » اي ان يسددوا قنبلة تنقض امام السفينة ثم أخرى تنقض وراءها ، ولقد ادرك سباروف الان ان الالمان سيقسمون المسافة الواقعة بين طرفي«الملقط»آلى قسمين متساويين ثم ينصفون النصف ثانية ويصححون تسديدهم ، واذا ما قدرت للمعدية النجاة بعد هذا ، فانه سيكون الحظ فيها اوفى نصيب . فخطا سباروف بضعة خطوات على كوثل المعدية ثم احاط فمه براحتيه وصاح باتجاه الصندل :

ـ مسلنكوف ! قل لرجالك ان يخلعوا معاطفهم .وان يضعوها الى جانبهم !

وادرك رجال الجيش الاحمر الواقفين الى جانب النقيب ان سباروف يعنيهم أيضا بأمره ، ولذلك سرعان ما فكوا أزرار معاطفهم وخلعوها ووضعوها عند اقدامهم . والحق ان القنبلة الثالثة التي قذفتهم بها المدفعية الالمانية جاءت مصداقا لنبوءة سباروف، اذ انها نصفت المسافة ونصفت النصف ثم اطلقت القنبلة فاذا بها تنقض على مقربة جد وثيقة من جانب المعدية الايمن فصاحت الفتاة :

انه « البرواز » .

فتطلع سابروف الى العلاء ، وشاهد فوق رأسه مباشرة ، توأمي منظار مراقب المدفعية الالمانية من طراز « فوكي ولف » وقد اعتاد الروس ان يطلقوا

على توامي المنظار اسم « برواز » وذلك نظرا لغرابة شكل اطار عدساته ، وبذلك اصبح امر التسديد الالماني المضبوط مفهوما ، ولم تكن المدية بقادرة علـــى المناورة بسبب الصندل المربوط اليها ، ولم يكن امامها من خيار سوى ان تنتظر طيلة الخمس دقائق التي لاتزال تفصلها عن الضفة ، وحدق سابروف في وجه الفتاة ودهش اذ الفاها مجردة من الشعور الذي يعصف بالناس في لحظـــات الخطر ، فهي لم ترد ان تلمس او تلامس احدا ، او تقف الى جانب أي انسان ، بل انما وقفت على بعد بضعة خطوات وراء سابروف اذ انها لم تغادر المكـــان الذي تركها فيه ، وشاهدها تنتظر هادئة صامتة وتتأمل في الماء المتدفق مـــارا من تحت قدميها فيمم سابروف شطرها وبادرها سائلا :

ـ اذا ماوقع المقدر فهل تحسنين السباحة ؟

ـ كلا انني لا أحسنها اطلاقا !

ـ اطلاقا !؟ اذن فلتقفي الى قربي ! انظري ان طوق النجاة معلق هناك .

ماكاد سابروف يشير بيده الى طوق النجاة حتى انقضت قنبلة على المدية، وعلى مايظهر انها اختارت غرفة الالات او المراجل هدفا لها ، اذ احس سابروف فجأة بان كل شيء يجيش ويزار ماحوله ، وقد اطاح شخص اطار به الانفجـــار بسابروف ارضا ، ثم قفز به نفسه سماء ليلقي به عميقا في الماء ، فأخذ يجاهد بكلتا ساعديه جهادا ضاريا حتى انتشل نفسه اخيرا الى سطح الماء فتطلع نحـــو المدية فشاهد ان الجزء المتبقي منها والذي رصفت عليه الحمولة لايزال يطفو على بعد عشرين مترا منه ولكنه رآه يغوص سريعا في الماء ويختفي فجأة فـــي أحشاء النهر ، ورأى حوله رجالا يتخبطون ويخبطون في الماء خبط عشواء ، فادرك سابروف انه قد أحسن صنيعا عندما طلب الى جنوده ان يخلعوا معاطفهم، وشعر بان حذاءه الثقيل يجر به الى اعماق النهر ، فحاول اولا ان يخلعه رفسا، لكن الصندل المتقدم نحوه جعله يقلع عن هذا الخاطر فليس من عادة الجندي ان يفقد حذاءه ، لذلك قرر انه يستطيع ان يسبح بحذائه . ولقد تدفقت كل هذه الافكار على رأسه في و قت واحد ، وعقب دقيقة شاهد الفتاة تطفو على بعد بضعة امتار منه وتحاول عبثا ان تمسك بشظية من شظايا العوامة المنكودة ، فضرب سابروف الماء عدة ضربات سريعة بساعديه متجها نحوها وعندما طفت الفتاة ثانية الى السطح امسك ببزتها ، ومن حسن الحظ ان الصندل كان يتقدم مباشرة نحوهما ، فاستخدم سابروف كل قوآه واخذ يضرب بساعده الـــواحد

أيشق طريقه أليه ، وعقب نصف دقيقة امسك بيد جندي مدت اليه من الصندل وسحب معه الفتاة وعندما رأى كثيرا من الايدي تتخاطفها ، انتصب واقفا ليسمع مسلنكوف وهو يقول :

ـ شكرا لله ايها النقيب !

فتطلع اليه سابروف فالفاه عاريا من بزته وحذائه ، اذ كان مسلنكوف غير واثق من قدرة آلنقيب على النجاة لذلك اعد نفسه ليسبح اليه . لكن سابروف اجابه طالبا اليه الانتظار ، ثم تطلع وراءه الى النهر ، واخذ من في الصندل ينتشلون الواحد بعد الآخر من الماء ، وكان آخر من انتشل ربان المعدية الـذي بدا ملطخا بخطوط زرقاء ، لكن قبعته ذات القونس المكسور ، بقيت نتيجة لاحدى نزوات القدر فوق رأسه ، غير انها كانت تغوص عميقا لتغطي جبهته . وفجـأة شاهدوا معدية تلهث وهي تتقدم نحو الصندل بخط منحرف من الضفة الغربية وسمعوا صوتا ينطلق منها كالرعد بلهجة اهل الفولغا ويقول :

ـ استعدوا لتربطوا صندلكم بنا !

وعقب دقيقة قذف اليهم بحبل شدت اليه حقيبة رمل ، فبدأ الجنود يسحبون آللبان Lawser بينما كانت بضعة قنابل اخرى تتساقط فـي الماء وراء الصندل ، وبعدها ساد هدوء مباغت ، فالضفة الغربية أمست جـد قريبة ، وهذا مما منع الالمان من متابعة اطلاق نيرانهم .

والتفت النقيب الى مسلنكوف وقال :

ـ فلتحص الرجال ! نعم ! ولترتد ملابسك ! مادهاك هل تريد ان تصـل ستالينغراد عاري الجسد حافي القدمين ؟

فتطلع مسلنكوف آلى جسده العاري ثم سارع الى ارتداء ملابسه وانتعال حذائه بينما كان احد الجنود يخلع معطفه على سابروف ، عندئذ فطن سابروف الى الفتاة فأمر احد جنوده قائلا :

ـ فلتعط معطفك الى الفتاة ! اين هي ؟

لقد كانت الفتاة تجلس على بعد بضعة خطوات منه ، وتتدثر بمعطف قدمه اليها احد الجنود ، وشاهدها تجدل شعرها الطويل المسترسل كأنها لاتذكر آنها مبللة حتى جلدها بالماء ، فأحس سابروف برغبة في التوجه اليها لكن مسلنكوف

قطع عليه رغبته اذ تقدم منه فبادره النقيب :

ـ مــاذا تريد ؟

فأجابه مسلنكوف بصوت هامس وبنظرة حزينة

ـ هناك ثمانية جنود مفقودين ؟

نعم لقد فقدوا ثمانية جنود .ولما تبدأ المعركة ، معركتهم بعد .

ربط الصندل الى الرصيف ، ولم يعد دوي المدافع يترامى وحده الـى أسماعهم ، بل عواء الرشاشات وأزيز طلقاتها ايضا ، ولقد دهش سابروف لمـا سمع فهو لم يكن مطلعا على حقيقة الحال في المدينة ، فالرشاشات لا شك تطلق رصاصها من مراكز لاتبعد عنه اكثر من كيلو مترين او ثلاثة وقد تراكض الرجال المنفعلون الى الشاطيء باقصى مايستطيعونه من سرعة ، وافسح سابروف لهم الطريق ، وكانت الفتاة بين الاوائل الذين بلغوا الضفة ، وعندما اراد سابروف ان ينفذ رغبته فيقصدها كانت الفتاة قد غادرت الصندل والمرفأ النهري معا . كان هو ومسلنكوف آخر من غادر الصندل وقد الفى سابروف ان ضفة ستالينغراد شاقة ومليئة بالطحالب والهشيم ، فتحسسا التربة تحت اقدامهما ، فالفياها تربة عادية مألوفة ، فالارض التي تقوم عليها ستالينغراد لاتختلف في تربتها عن أي ارض أخــرى .

- ٤ -

عندما انتهى سابروف في الساعة العاشرة من احصاء جنوده للمرة الاخيرة هبت العاصفة وبدا المنظر المحيط به كأنه صورة زيتية خيالية ، فالفولغا تعربد وتصخب وراءه ، واعمدة من اللهب تنتصب في وجه الظلماء لتسد الافق ، وفي مكان ما فوق الافق يعكس الجلد الاسود أضواء قرمزية تتراقص مراوغة فرارة، والبرق ينتقي من الظلماء نقاطا فيضربها بوميضه فتشع ضياء وتنير منـــازل مقوضة وبنايات مهدمة تتعانق انقاضها وتتمازج اتربتها وتنام حجارتها بعضـــا فوق بعض ، ثم يعود البرق ليفري الظلمة من جديد فيكشف لعيني سابروف خزانات بترول عصرتها يد الدمار فبدت كأنها وريقات عصرتها راحة جبار . وأخيرا اخذت السماء ترسل دمعها مطرا غزيرا يسوط وجهه ويصفع جبهته ويبلل بزته حتى الجلد ، لكنه بقي يغذ في سيره بالرغم من الظلماء والخرائب والانقاض التي اعترضت طريقه وجنوده . وكان المرء منهم يعرف رفيقه صوتا ويشعر برفقته له تلمسا وتحسسا ، وكان سابروف قد امر مطبخ الميـــدان وشاحناته بالانطلاق مباشرة الى المراكز المعينة لها في المدينة لذلك لم تعد فكرة تهيئة وجبة ساخنة للجنود بواردة ، وخاصة في مثل هذه الظلماء وتحت هذه السماء التي تهدر بكرمها امطارا تتلقفها العاصفة لتجلد بها الجباه والوجـــوه والصدور والاطراف . واجتمع الرقباء حول الشاحنات التي تحمل المؤن الجافة وأخذ كل رقيب أنصبة رفاقه وآنطلق عائدا يتحسس طريقه في الظلمة ، ليوزع تلك الوجبات الجافة على جنوده . وكان هدير الرشاشات التي سمعها سابروف عند الغروب قد هدأ تقريبا ، الا آنه كان يسمع بين فترة واخرى عواء زخة من رصاصها ، لكن قصف المدافع المنبعث من مكان ما كان يتناغم وهزيم الرعـــد ويدويان معا يسرة ويمينا . وادرك سابروف ان الفجر لاشك متمخض عن الخطر المدلهم المرتقب ، لكنه مع ذلك كان يرغب في استعجال غبشته فهو عندئذ يستطيع على كل حال ان يعرف في اي مكان يبيت ، ويستطيع ان يرى مايدور حوله ، ويعرف اخيرا وجهته .

أنتصف الليل ونجح سابروف في مركزة جنوده في الشارع المهدم والمحاذي لضفة النهر ، وانسدح الجند على الارض متعبين حتى الموت ، واستغرق بعضهم بالرغم من المطر المدرار في نوم عميق ، وفجأة داهم نجاب « بابشنكو » سابروف وأمره بان يقصد فورا آمر الفرقة . وكانت قيادة الفرقة تعسكر بالقرب من الضفة .وكان مركزها يقوم في قبو يقع بالقرب من عمارة مكتملة البناء ويبعد فقط مسيرة عشر دقائق عن مراكز جند سابروف . وكان هذا القبو يغوص عميقا تحت الارض وتحيط به دعائم من الاسمنت المسلح ، فتبدو كأنها اعمدة دفنت في الارض ، وكان مسموحا داخل القبو بالاضاءة ، وكانت المصابيح الزيتية المقاومة للرياح والعواصف تتدلى من الدعائم ، وكانت مصابيح جيب كهربائية تضاء وتطفأ بين فينة واخرى كي يتمكن الرجال في القبو من كتابة شيء ما او دراسة خارطة ، وقد أعشى حتى ضوء المصباح الزيتي عيني سابروف عقب ماعاناه من ظلماء في الخارج فلم يستطع أن يميز بين وجوه الرجال المجتمعين داخل القبو لكنه ادرك من اللعلعة ان عددهم لاشك غفير وفجأة سمع « بابشنكو » يناديه :

ـ سابروف !

ثم سمع صوتا أخر بدا له مألوفا يقول :

ـ حسنا ! ها أننا جميعا هنا .

فتطلع سابروف حوله ، فرأى العقيد بروتسنكو آمر الفرقة يقف الى جانب بابشنكو . وكان سابروف يعرفه معرفة جيدة منذ زمن طويل لكنه لم يره منذ قرابة شهر ونصف الشهر ، وذلك لان العقيد بروتسنكو قد أصيب بالقرب من فورينيج بجراح بالغة نقل إثرها الى المستشفى ، وتقدم العقيد خطوة في الظلام نحو المصباح ثم ربت على كتف سابروف سائلا :

ـ حسنا الكسي ايفانوفتش ! ألا تزال حيا ؟

فأجابه سابروف :

ـ لا أزال حيا حتى الآن !

وبعد برهة من صمت عاد العقيد ليقول :

حيا !؟ وانا حي ايضا

قال العقيد هذا واتجه الى احد الاشخاص كان من الصعب ان يميز سابروف

وجهه وخاطبه :

ــ انني وسابروف ايها الرفيق الجنرال صديقان قديمان ، ولقد كنا نحارب معا في جبهة موسكو .

وفجأة تحولت لهجته الودية الى لهجة رسمية مدققة في رسميتها

فسأل مرة اخرى عما اذا كان جميع الضباط قد حضروا وبعدئذ بدا يشرح مهمات الليلة ، فقال ان عليهم ان يحلوا محل بقايا فرقة تعرضت لهجوم الماني عنيف ، وان على فوج بابشنكو ان يطرد الالمان من ضواحي مستعمرة العمل التي احتلها العدو ذلك النهار فأمسى بذلك على مقربة جد وثيقة من نهر الفولغا، والتي سمع سابروف عندها عواء المدافع الرشاشة مساء ، واستطرد آمر الفرقة يقول بان على بابشنكو وفوجه ان ينجزا هذه المهمة بهجوم ليلي . ثم استرسل بروتسنكو كعادته ، في شرح التفاصيل شرحا مسهبا وكان يشير بين الفينة والاخرى بقلمه الى الخارطة ، وبعد ان صرف ضباط فوجين كان عليهما ان ينتقلا تلك الليلة الى المراكز المعينة لهم التفت الى بابشنكو وقال :

ــ هل فهمت يا فيليب فيلوبوفيتش المتوجب عليك عمله ؟

ــ نعم ! سننجزه

ــ انني سألحق بكل كتيبة ضابطا يعرف المدينة وضواحيها ايها الرفاق الضباط .

وحالما انهى قوله هذا خرج من العتمة ثلاثة رجال ملازمان اولان ونقيب فبادرهم آمر الفرقة بروتسنكو قائلا :

ــ انكم الان تحت امرة المقدم !

ثم التفت الى بابشنكو وحدق فيه بصرامة وقال :

ــ ان الوضع حرج ! وانه لقتال ليلي في مدينة لاتعرفها ، وفي مثل هذه الحال لاتوجد اتجاهات محكمة مضبوطة ، وكلما استخدمت المزيد من الرجال ستعاني المزيد من الحيرة والارتباك وبالتالي ستتكبد المزيد من الخسائر . ولتعتمد المفاجأة والحسم لا الارقام ... هل فهمت ما اعنيه ايها الرفيق بابشنكو ؟

جاء سؤال آمر الفرقة لبابشنكو بلهجة صارمة حازمة كأنه شعر بان

بابشنكو يريد أن ينفذ بعض خطط لايقره عليها ، لذلك أستطرد بروتسنكو يقول:

ــ عليك هذه الليلة ان تهاجم بكتيبة واحدة فقط ، ولتعد الكتيبتين الباقيتين ، لمساندة الكتيبة الاولى حينما يقوم الالمان فجرا بهجوم معاكس عليها. وعليك ان تعهد بقيادة الكتيبة المهاجمة لسابروف !

ثم التفت الى سابروف وقال :

ــ عليك ياسابروف ان تذكر دائما ان الهجوم الليلي يعتمد عنصر المفاجأة لا عدد الجند ، كما كانت الحال تماما في فورنييج ... هل تذكر فورونيج ؟

ــ نعم اذكرها !

ــ حسنا اذن ، فلتقاتل قتالك في فورونيج ، لا بل افضل منه .. هذه كل نصائحي اليك !

واخيرا توجه بروتسنكو بناظريه نحو رجل كان يقف في مؤخرة القوم وكان يصغي الى الحديث صامتا هادئا ورأى سابروف ذاك الرجل يرتدي معطفا جلديا اسود يلمع من المطر ، ورأى على كتفيه شريطين اخضرين فعرف انه في رتبة جنرال ، وادرك سابروف ان هذا الجنرال هو الذي اصدر الى آمر فرقته الاوامر والتعليمات من قبل ، وانه يقف الآن صامتا ليصغي الى العقيد وليراقب كيف يتدبر أمر تنفيذها . وسأل بروتسنكو الرجل قائلا :

ــ هل هناك من اوامر اخرى ايها الرفيق الجنرال .. أتسمح لي بصرف الضباط ؟

فأجابه الجنرال وهو يقترب من المصباح وقال :

ــ مهلا ! دقيقة واحدة فقط ..

غمر ضوء المصباح وجه الجنرال ، فاستطاع سابروف ان يراه بوضوح والفاه وجلا معتدل القامة ، مهيب الطلعة ذا عينين عسليتين واسعتين نافرتين من تحت حاجبين كثين مدغلين وذقن عريضة قوية . ولقد أحس سابروف بان عينيه تفيضان بعناد تؤكده الطريقة التي يحني وفقها رأسه وقد بدا لسابروف من التعابير المرتسمة على وجهه انه سينطق بأمر مخيف مروع لكنه عندما تحدث جاء صوته واضحا هادئا واخيرا بادر سابروف سائلا :

ــ هل قمت بقتال الشوارع من قبل ؟

ــ نعــم

ــ فلتضع البنائين من جنودك في المقدمة وجنود المسدسات الرشاشة وافضل قناصتك في الطليعة ايضا .. هل تفهم ؟

ــ نعم انني افهم !

ــ ولتكن أنت دائما على راس المهاجمين فهذه هي عادتنا في ستالينغراد وفي حالات كهذه ..

ــ أن هذه هي ايضا عادتنا في فرقتنا

قال سابروف هذا بلهجة حادة لم يكن ينتظر ابدا ان تصدر عنه ، وقالها كأنه كان يخاطب رجلا مدنيا لاقائد الجيش ، ولقد نسي سابروف حتى ان يضيف الاصطلاح المألوف « إيها الرفيق الجنرال » الى جملته تلك ، لكن وجه الجنرال لم يكشف عما كان لكلام سابروف من اثر في نفسه ، ولم يعرف سابروف ما اذا كان الجنرال قد سر ام غضب من قوله لكن بروتسنكو عاد ليسأل الجنرال :

ــ هل تأذن لي بان اصرف الضباط ؟

ــ نعم ! اسمح لهم بالانصراف

وعندما غادر سابروف القبو أحس بان عيني الجنرال تلاحقانه وسمع جملة يجيب بها بروتسنكو بصوت عال على سوآل ما وجهه اليه الجنرال ويقول:

ــ لاتقلق ! انه سينجز ما عهدنا به اليه

وبينما كان سابروف وبابشنكو يشقان طريقهما في الظلام سأل سابروف رفيقه متى سيرسل الى كتيبته بقوميسير (١) ليحل محل القوميسير الذي اصيب

---

(١) القوميسير :

اعتاد جيش الحزب الشيوعي منذ عام ١٩١٧ ان يعين في كل قطعة من قطعات الجيش الاحمر قوميسيرا سياسيا مهمته أن يراقب اخلاص الضباط وولاءهم الفوري وان ينظمهم تنظيما سياسيا ويزودهم بالتعروح الماركسية ولكن الغى الحزب هذه العادة عام ١٩٤٠ وذلك نتيجة للاخطاء السياسية التي اقترفها القومسيرية في الحملة الفلندية ، ولكن قام الحزب عقب الهجوم الالماني على روسيا باعادة هذا النظام الى الجيش الاحمر وقد اصبح معظم القومسيرية اثناء حصار ستالينغراد ضباطا قادة ، ومع ان كلمة قومسير استبدلت بكلمة معلم سياسي الا ان جنود الجيش وضباطه بقوا يلقبونهم بالقومسير ..

بالتيفوس بينما كانت الكتيبة في طريقها الى ستالينغراد .

فانتهره بابشنكو قائلا :

ـ ماذا تعني ؟ هل تريدني ان انجب لك بواحد ؟! فالمعلم السياسي لسريتك الاولى يقوم بهذه الوظيفة الان !

أليس كذلك ؟

ـ نعم انه يقوم بهـا

بهذا اجاب سابروف بابشنكو بلهجة تفيض بكل المرارة التي غمر بها هذا الموضوع نفسه لكن لم تصدر من بابشنكو اية بادرة تشير الى انه قد فهم مغزى لهجة زميله بل انما قال :

ـ حسنا ! طالما هو يقوم بها فدعه يتابعها !

لم يكن سابروف يستلطف بابشنكو لكنه كان يحترم فيه شجاعته الشخصية عميق احترام ، وعلى كل حال فان بابشنكو هو آمر فوجه ، وهما خلال ساعة من الزمن سيخوضان المعركة جنبا الي جنب . ومع ان سابروف لم يكن في الواقع خائفا متهيبا الا انه أحس بشعور اقوى من المعتاد يعصف به قبيل هذا الهجوم الليلي وكان يرغب في ان يسمع بضعة كلمات مشجعة من بابشنكو لذلك سأله قائلا :

ـ أتفكر (أتعتقد) ايها الرفيق المقدم بان الامور ستجري على مايرام ؟

ـ آنني لا افكر ! ولا اريد لك ايضا ان تفكر ! فلقد تلقينا اوامرنا ، وماذا نريد اكثر من ذلك ؟ اما الفكر والتفكير ، فاننا سنقوم بهما غدا بعد ان ننفذ الاوامر الصادرة الينا .

نطق بابشنكو بهذه الكلمات بلهجته الجافة المألوفة ، فهو من اولئك الناس الذين لا يفهمون ابدا ما تعتلج به صدور مرؤوسيه من احاسيس ورغائب وفجأة شعر سابروف بان رفيقه لايريد ان يستمع الى اي سوآل اخر يوجهه اليه . وعندما بلغ سابروف كتيبته وجد ان مراسله قد اقام مركزا لقيادة الكتيبة ، داخل خرائب احد المنازل ، وكان يتوجب على من يدخل اليه ان يزحف على يديه ورجليه ولكن عندما يصبح داخله يجده جافا نسبيا ويرى مصباحا يشع بضوء

باهت كليل ، وكان مراسل النقيب جنديا من سرية المسدسات الرشاشة وكـان يدعى « ببطيرس » (تصغير بطرس) مع انه كان يتجاوز الثلاثين من العمر .

استدعى سابروف مسلنكوف والمعلم السياسي بارفنيوف الذي كان يقوم بوظيفة القومسير السياسي المتغيب ، وجميع ضباط السرايا الثلاث ، وهـم جوردنكو ، وهذا طويل القامة نحيلها مسترسل اللحية والشاربين ويشبه « تشابييف » ، وفنكوروف القصير ، وبوتابوف ، وهو ضابط قصير القامة ممتلىء الجسم رابط الجأش وديع مسالم ارسل به حديثا من الاحتياطي في سيبريا . وأمهل سابروف كلا من هؤلاء الضباط مدة نصف ساعة يختار خلالها كل ضابط من سريته ١٥ رجلا بارعا في اطلاق المسدسات الرشاشة والتسديد. ثم نشر امامهم خارطة وقال :

ـ امامنا هنا داخل هذا الحي ثلاث بنايات يستولي عليها الالمان ، وعلينا ان نسترجعها هذه الليلة .

وقد نطق بالجملة الاخيرة متريثا متأنيا وهو يضغط على كل كلمة منهـا ليؤكد معناها ثم قسم قواته الى ثلاث مجموعات ، فكان على جوردنكو ومجموعته ان يحتل البناية اليسرى من الحي ، اما اليمنى فعلى بارفينوف نفسه ان يستولي عليها وان يهاجم مباشرة عبر الحي وكان الضباط يصغون اليه صامتين ثم التفت الى مسلنكوف وقال :

ـ اما انت فتشكل احتياطينا وعندما تبلغ خط النار الحالي تتوقف وتحشد جميع من لايرافقنا فيه حتى الفجر ، وعليك ان تحشد الرجال على مقربة جـد وثيقة منا وذلك كي تمد الينا يد العون حالما نطرد الالمان من البنايات .. هـل فهمت يا مسلنكوف !

فأجاب مسلنكوف بصوت فيه رنة حزن وكآبة ، اذ اغتم وتكدر لجعلـه آمرا للاحتياطي في اول معركة ضخمة يخوض غمارها ، لكن لم يكن امامه الا ان يوافق ويقول :

ـ نعم ! فهمت !

قام سابروف خلال مهلة النصف ساعة بزيارة السرايا الثلاث لينقب عـن اولئك الجنود الذين سبق لهم ان حاربوا الى جانبه في فورينيج ، فاهتدى اليهم وانتقاهم فردا فردا فهو يعرف بان عليه ان يصطحب في هجومه اكبر عـدد

ممكن من المتمرسين في القتال ، وان عليه ان يستولي هذه الليلة على الاهداف المكلف بالاستيلاء عليها ، وهو ايضا يعرف بانه اذا ماطلع الصباح وهو لما يبلغ اهدافه بعد فان خسائره ستكون لاشك أشد وأفدح من خسائره ليلا حتى ولو كانت هذه كثيرة وفيرة . وعندما كان سابروف يمر بالسرية الثانية تذكر فجأة ذاك الجندي المشوورب الذي تحدث اليه في التنسكايا وقد خطر له خاطر يقول لاشك في ان هذا الرجل البالغ من عمره منتصفه ، وذا الشاربين الكثين كسان في احدى فترات حياته صيادا ماهراً ، وانه قد يبدع خلال القتال الليلي لذلك صـاح مناديـا :

« كونيوكوف !» .

فانتصب فجأة امامه الرجل ليصيح في اذنه « حاضر » فطلب سابروف الى « بوتابوف » أن يضم الرجل اليه .

التهم العقربان من الساعة نصفها ، وبدأت السرايا سيرها بطيئا تحت مطر منهمر دفاق وفي شوارع مليئة بالانقاض تعبق اجواؤها بريح دخان حامز . وتقدم السرايا جنود الاقتحام الذين اختارهم سابروف فردا فردا وقاد هؤلاء ملازم اول اسود الشعر قصير القامة الحق بسابروف ويدعى « تزوف » الى الساحة الخلفية لبناية تقع على الشارع الذي كان يشكل هذه الليلة الخط الامامي بالنسبة لسابروف وجنوده . وكانت تقع قبالة هذا الشارع احدى الحارات الكبرى وقد اقتطعت منها بنايات ثلاث عارية تجاهد العين لتبصر بها حيث كانت تنتصب كظلال ضخمة في الظلمة وهي التي احتلها الالمان فبدت كجـزر ثـلاث في بحر واسع فسيح وكانت تقف في جانب قريب من الحي بقايا الفوج الـذي تراجع نهارا ولقد لاقى قائد الفوج هذا مصرعه وكذلك قوميسييره ، وكان يقود الفوج الان ضابط برتبة نقيب وهو قائد احدى كتائبه ، واتضح لسابروف ان مرشده الملازم الاول هو رئيس اركان هذا الفوج ، وهكذا فان مهمته تكون بذلك قد انتهت ، لكن الملازم الاول عقب ان تحدث همسا الى آمر فوجه عاد الـى سابروف ليقول بانه يعرف البنايات التي على سابروف ان يحتلها حق المعرفـة وانه يرغب في أن يصحبه اليها اذا لم يكن لديه من اعتراض على ذلك ، لـم يكن لدى سابروف أي اعتراض على رغبة الملازم الاول ، بل على العكس من ذلك تماما فهو يرحب بغبطة تمازجه دهشة بالاستجابة الى رغبته وعندما أحس « تزوف » بدهشة سابروف بادره :

ـ طبعا سأرشدكم اليها ؟ فطالما استطعت ورفاقي ان نتدبر فيمامضى امر تراجعنا منها الى هنا ، فانني لا شك اعرف طريق العودة اليها .

اشار سابروف الى المراكز التي يتوجب على المجموعات الثلاث ان تنطلق لتهاجم منها . وقد اختار لنفسه القلب ، فهو اوفر الجميع رجالا لذلك كـــان عليه ان يعبر الشارع الى الحي المكشوف من كل واق ما عدا فسقية كروية الشكل لم يعد لها الان وجود الا على الخارطة . واستدعى سابروف قبل الهجوم جوردنكو وبارفينوف ثانية اليه واخرج من جيبه علبة كانت تحتوي على اربـع سجائر ثمينة فأعطى كلا منهما سيجارة من السجائر الثمينة وتناول هو الثالثة واحتفظ بالرابعة ليدخنها عقب انجاز مهمته . فجلسوا القرفصاء واشعلـوا سجائرهم تحت جوانب معاطفهم ثم غطوها براحاتهم واخيرا انتصبوا جميعـا وقوفا دون ان ينبس سباروف ببنت شفة . فبماذا يتحدث اليهما ؟ أيقول لهما بان عليهما ان ينطلقا قدما ؟ انهما يعرفان هذا الامر ! ام يقول لهما بان عليهمـا الا يخافا الموت؟ انهما سيبقيان خائفين خوفه هو تماما! ام يقول لهما بان الاستيلاء على هذه البنايات الثلاث ضرورية ، وضرورة ملحاحة ؟ لكنه اذا لم يكن بالضرورة، أكان يرسل أحد الناس بأي آمرىء في هذا الليل الجهنمي الى المجهول والموت ؟ طبعا ان الاستيلاء عليها لضرورة ، وضرورة ملحاحة عجول ، لكنه استعاض عـن كل هذه الكلمات بان احتضن بساعديه القويين كلا من جوردنكو الطويل الناحل وبارفينوف القصير وعصرهما الى صدره ثم اخلى سبيلهما صامتا هادئا . وعندما ابتلعهما الظلام وجد سابروف ان خواطره لاتتجه الى شخصه بل انما تتجه اليهما ويتساءل عما اذا كان سيقدر له ان يراهما ثانية ، اما اذا كانا هما سيريانـه ثانية فان هذه الفكرة لم تراود ذهنه ابدا .

وعقب دقيقة من ذهاب رفيقيه تقدم بوحدته مسافة في الحي تتراوح بين الخمسين والستين خطوة ، وقد قطع هذه المسافة وهو يحبس انفاسه كأنـه كان يخشى ان يسمع الالمان نفسه ، وفجأة دوت شحنة من العيارات النارية ، وكانت العيارات الاولى منها عيارات كشافة تتطاير زائغة منحرفة فـي أجـواء الحي ، واعقبها انفجاران متتاليان لصاروخين كشافين أضاءا لمدة ثوان قليلة قسما من الحي وانارا ظلال الفسقية السوداء امامه وكشفا جنوده يسرة منه ويمينا ، فانسدحوا جميعهم بقوة مؤلمة على الارض المرصوفة وذلك حالما ابصروا هذا الوميض غير المرتقب ، لكن سرعان ماانتصب سابروف ثانية على قدميه وتقدم اماما ،

وسمع مدافع المورتر الروسية ترد من ورائه على الالمان واخذت مدافع « مكسيم » تطلق بقنابلها ، وغمرت السماء فوق رؤوسهم الاعيرة الكشافة بضياء جعل سابروف يعتقد فجأة بان بعضها يصطدم ببعض في الهواء . وابتداء من هذه اللحظة أمسى كل من الزمان والحياة يقاسان فقط بالامتار . فكان سابروف ينتصب على قدميه المرة تلو الاخرى وينهض رجاله ويعدو بضعة خطوات ثم ينبطح ثانية على الارض المرصوفة ، لكن سرعان ما اخذت مدافع المورتر الالمانية باطلاق نيرانها وكانت قنابلها تنفجر اولا امامهم ومن ثم تعود لتنفجر خلفهم ، وكانت حينا تشق الاخاديد وحينا اخر تردمها ، وكان المطر قد كف ، غير انه عاد لينهمر من جديد ، وكان هزيم الرعد يخالط دوي انفجارات القنابل ، وانفجرت قنبلة على مقربة جد وثيقة من سابروف فانكفأ على وجهه ارضا وآذى نفسه أذى مؤلما بالغا وعندما أنهض جسده عقب بضعة من ثانية وجد نفسه يستمسك باحدى يديه بشيء ما امامه ، وقد الفاه على وميض البرق انه الفسقية، ووجد انه يقبض براحته الاخرى على شظية صغيرة من تمثال لطفل ، فلقد أطارت القنبلة برأس التمثال وبجذعه ، وكان سابروف يتعلق برجلي التمثال الحجريتين ، لكن هذا المتراس الموقت الماثل في الفسقية قد دلل على انه يشكل عقبة غير منتظرة في طريقهم الى اهدافهم ، ومع ان البقاء في هذا المتراس كان رهيبا مرعبا ، الا ان عبور مئة المتر التي تفصلهم عن سور البناية كان أشد رهبة ورعبا ، فبدا ان جميع الجنود لايريدون ان يغادروا هذا الملجأ ، اذ انهم بقوا منبطحين حول قاعدة الفسقية ، لايفكر احد منهم بالتقدم خطوة واحدة الى الامام، وهذا مما اضطر سابروف ان يزحف تارة الى الامام واخرى الى الخلف كي يجر رجاله وراءه جرا ، وقد اضطرتهم الرشاشات ان يبقوا مسمرين الى الارض ، لكن الحظ حالفهم فلم تنزل بهم حتى الان اية اصابة . وفجأة سمع سابروف صوتا ينبعث بالقرب منه ويطالبه بالاصغاء ، وعندما انبطح سابروف على الارض ثانية ، عاد الصوت ليكرر قائلا :

ـ اصغ الى تلك الجلبة !

وعرف سابروف في الصوت شخص كونيوكوف فادار راسه دون ان يرفع بعنقه وسأله :

ـ هل حالنا في هذه الحرب اسوأ من حالكم في تلك الحرب ؟

فاجابه كونيوكوف :

ـ كلا ! انها ليست باسوأ من حالنا في الحرب العالمية الاولى ، ولكن هل سنصادف اسلاكا شائكة هناك ؟

ـ الخارطة تقول لا !

ـ اذن فوضعنا الان لافضل الف مرة من وضعنا في تلك الحرب ، لقد كان الالمان يومذاك يحيطون مراكزهم باثني عشر حاجزا من الاسلاك الشائكة ، وكنا نقطع فيها ونقطع لكننا كنا دائما نجد امامنا حواجز آخرى منها .

قال هذا كونيوكوف بصوت هادىء كأنه يعد نفسه للاسترسال في رواية قصة طويلة ، ولكن قنبلة صخابة انقضت تلك اللحظة فاحتضن كلاهما الارض ، وصاح سابروف بجنوده ان تقدموا وذلك حينما انحرف رشاش الماني كان يطلق نيرانه اطلاقا أعمى ، ليسدد عياراته الى مكان ما يقع على ميسرتهم ،فاستجاب الجنود لاوامر النقيب وركضوا بضعة خطوات الى الامام ثم انبطحوا ارضا، وهكذا دواليك طيلة خمس دقائق من الزمن وأحس سابروف فجأة بشعور هو مزيج من الرعب والارتياح اذ تحقق من انه قد قام بعمله وفق ماأمل واراد ، فلقد ركز الالمان عليه ضرباتهم الشديدة ، وهذا مما يتيح لجرودنكو وبارفينوف ان يتدبرا امريهما فيتسللا من خلال المهاوي والساحات الخلفية الى البنايتين الواقعتين على جانبي الحي. وكان مما لا شك فيه ان كل شيء سيجري على ما يراد له لولا هذا الفيض من الضياء الابيض والاصفر والاخضر المرعب الدائم الدفق ، وعندما بلغ سابروف نقطة تبعد خمسة عشر متزا عن هدفه ، لم يعد بحاجة الى ان يجر أيا من جنوده معه ،فعقب ان انتظروا انتهاء احد الرشاشات الالمانية من ثرثرته اندفعوا كالصاعقة نحو سور الساحة الذي اصبح الان بمتناول يدهم اذ وجدوا فيه ملجأ وملاذا ، فهم لايهتمون الان اكانت تلك الساحة تعج بالالمان او العفاريت او الشياطين ، فانها لاشك لاسعد حالا واقل رعبا من ذاك الحي العاري المكشوف الذي كان عليهم ان يجروا فيه انفسهم جرا ، وتلبستهم رغبة من تلك الرغبات التي تزيد ضراوة على ضراوة في نفس اي انسان مهاجم يقترب من نهاية المسافة التي تفصله عن هدفه ، فأحسوا دون ماوعي بانهم يرغبون في الاستيلاء على شيء ما بالحراب ويتوقون الى مد ايديهم ليتحسسوا جنديا المانيا، وعندما بلغ سابروف جدار البناية الفى ان نافذة الطابق الاول شاهقة الارتفاع فتقدم منه مراسله « بطيرسن » فقفز الى كتفه وامسك سابروف باحدى يديه بافريز النافذة بيده الاخرى ، وبكل قواه ، قنبلة ثقيلة من القنابل

المضادة للدبابات ، من خلال النافذة الى الداخل ثم قفز ثانية الى السباحة ، ودوى اثر ذلك انفجار عنيف مروع ، فعاد بطيرس ليرفع سابروف مرة اخرى الـــى النافذة وعندما بلغها مد بيده الى بطيرس فأمسك بها وارتفع اليه ، ثم مد بطيرس يده الى جندي اخر فحذا هذا حذوه ، فانزلق الثلاثة من النافذة الى داخل المنزل وما كاد سابروف يصبح في الداخل حتى قام بتطبيق ماتعلمه من الالمان فاطلـق من مسدسه الرشاش الذي شد عقبه الى بطنه شحنة كاملة من العيارات النارية وجاء اطلاقه لها دونما تهديف وعلى شكل مروحة وذلك كضامن للسلامة وتأمين، وترامى الى اذني سباروف من داخل الغرف أنين وتأوه ، لكن سباروف انطلق ليتحسس دربه وعندما وصل الباب ركله برجله ثم اندفع الى ممر المنزل والفى الممر اعمى لا نوافذ له ، يشع من على طرفي جانبيه ، من ايسر وايمن، مصباحان صغيران لم يطفئهما الالمان ، وفجأة انطلق عدد من الرجال يعدون من باب يقع بعيدا تحت احر طرفي الممر ، فتحقق ، أو بالاحرى خالـج سباروف حس غريزي بانهم لا شك ألمان ، فانحنى واطلق شحنة أخرى من مسدسه الرشاش من خلال الثلمة في الباب ، فتساقط بعض الرجال الهاربين ، واندفع احـد هؤلاء بخطى متعثرة يلوح بيديه حتى بلغ سباروف فانهار طريحا عند قدميه، وكان أخر يزوغ من حائط الى حائط .واخيرا قفز متخطيا سباروف ، لكنــه اصطدم بشخص صاح بصوت وحشي باللغة الروسية قائلا :

ــ ها ! لقد ارديته !

فرد سباروف على الصوت :

ــ اتبعني يا بطيرس !

ــ تلاحم الروس والالمان والتحموا ، فكانوا احيـــانا يغرسون فوهـات مسدساتهم بعضهم بصدور بعض قبل ان يطلقوها ، واخرى يتماسكون بالايدي، وغيرها يتضاربون باعقاب المسدسات ، وطورا يلقون القنابل ، وتارة يعـاودون اطلاق النار ، ولقد اتضح من الركض والضوضاء والحيرة ، ومن طريقة تدحرج الالمان من الطابق الى الطابق الذي تحته ، ومن ثم الى ما تحته ايضا ، آن الالمان مذعورون مرعبون ، وبهذا تحقق حلم الجنود الروس المرابطين في ساحـة البناية ، اذ هاجموا الالمان بحرابهم وبأيديهم ، وانتقل القتال بصورة تدريجية الى الساحة ، ثم توقف ، فالالمان الآن بين قتيل وهارب ومختبيء ، لكن مدافع المورتر الالمانية التي نصبت في الشارع الآخر اخذت تقصف البناية ، وهـذا

مما دل على أن البناية قد عادت ملكا لنا .

بدأت تلوح تباشير الفجر في الافق وارسل سباروف بنجابين الى جوردنكو وبارفنوف ، وقد تبين لسباروف من تهديف الالمان وتسديدهم لنيرانهم ، ومن مراكز اسلحتهم ، ان جرودنكو وبارفينوف ، قد انجزا هما ايضا مهمتيهما واستوليا على البنايتين الواقعتين على جانبي الشارع من ايسر وايمن ، واخيرا عندما انقشع الظلام وغمر الضوء المدينة اطل اللازم الاول « تزوف » وهو يعرج وكان يسير خلفه ثلاثة من جنود الجيش الاحمر وهم يسوقون امامهم خمسة من الالمان ربطت ايديهم خلف ظهورهم . وبادر « تزوف » سباروف قائلا :

ــ ها هم ! ماذا تعتقد ؟ . . لقد عثرنا عليهم في غرفة المرجل ، لقد تسللوا الى داخل المرجل نفسه ، نعم داخل المرجل . . !؟

كان صوت « تزوف » وهو يروي لسباروف واقعة إسره لهؤلاء الجنود يفضح دهشته من دهاء الالمان ومخاتلتهم اللذين لا يخفيان على الروس ، لذلك اخذ يكرر روايته فرحا مغتبطا اذ انه تمكن بالرغم من المراوغة المطبوع عليها الجندي الالماني من ان يأسر هؤلاء ، والحق ان غبطة سباروف لم تكن لتقل عن غبطة « تزوف » فهو فرح اذ يراه لا يزال حيا يرزق ومغتبط باسره للالمان ، لكن فجأة ثنى التعب ساقيه فجلس على اقرب كرسي اليه وهو يخاطب « تزوف » سائلا :

ــ احقا تعني انهم كانوا داخل المرجل ؟ فانت لا شك لا تعنيه ؟؟

فكرر « تزوف » هذه الجملة للمرة الثالثة مزهوا مختالا :

ــ نعم داخل المرجل !

ــ هل تنوي العودة الى فوجك ، والى مركز قيادتك الخاص ؟

ــ طبعا !

ــ اذن خذ بعض الحرس لحراسة هؤلاء الاسرى وسلمهم الى السلطات المختصة !

فاجاب تزوف فرحا :

ــ لا مانع من اصطحاب الاسرى ، لكنني لست بحاجة الى حرس ، فهؤلاء

لن يفروا مني !

ـ هل انت واثق من البلوغ بهم حيث تقصد ؟

ـ طبعاً انني لواثق ، ولكن هل تعرف موقعك هنا تقريبـا ؟

ـ اعرفه !

ـ اذن سأنصرف لكنني لن اودعك فسأعود لزيارتك فأجابه سباروف باسما:

ـ على الرحب والسعة ، وسأعثر لنفسي على شقة في هذه البناية .

ـ حسـنا تفعل !

وقبل ان يستدير « تزوف » لينصرف استدرك قائلا :

ـ لكن فلتكن شقتك في الطابق الارضي ، فالشقق في الطوابق العليـا معرضة دائما لتيارات الهواء ، والالمان اذا ما شاهدوك في الطابق الاول فانهم سيدمرون الجدران والمنافذ ، ولتكن واثقا من حقيقة ما اقول .

اختار سباروف من غرفة في الطابق الارضي مركزاً موقتا لقيـادة كتيبته، وكانت هذه الغرفة رحبة فسيحة مضيافة للشمس ونورها ، وبينما كان يجلس ويفكر بما يتوجب عليه عمله دخل عليه « كونيوكوف » وهو يسوق امامه اسيرا المانيا احمر الشعر جاوز منتصف عمره او كاد ، وبادر سباروف قائلا :

ـ لقد امسكت به ايها الرفيق النقيب ! لقد امسـكت به انظر ! وها انني ادفع بـه اليك !

كانت ترتسم على وجه كونيوكوف » خيلاء الفاتح وهو يتحدث الى النقيب، وكان « كتزوف »، قد ربط ساعدي الاسير وراء ظهره ، لكنـه كان في الوقت نفسه يربت بود وبصورة مستمرة على كتف الاسير ، فهذا الالماني هو غنيمته، و « كونيوكوف » يعامله كأنه ملك خاص به ، وقد لاحظ سباروف ان الاسـير رقيب اول فسأله بضعة اسئلة بلغة المانية عرجاء متعثرة فاجاب الاسير بصوت مبحوح ، لكن كونيوكوف عاد ليقاطع مثنى وثلاث ويسأل :

ـ ما الذي يقوله ؟ ما الذي يقوله ؟

ـ انه يقول كل ما يتوجب عليه الاجابة به !

ـ لكن صوته قد بح فجأة ، وقد لا يستعيده قبل مضي اسبوعين او شهر ، وذلك لانني ضغطت على عنقه قليلا . .

كان كونيوكوف يروي هذه الواقعة بصوت يشوبه بعض دهشة وتقاطعه بعض لمحات اعتداد كان يرمق بها الاسير وبضع اشارات من يديه لا تزال تتلهف الى المعركة ، أما سباروف فكان يوزع نظراته بين الاسير وكونيوكوف ، واخيرا تأمل في كونيوكوف وسأله :

ـ اية رتبة بلغت في الجيش السابق ؟

فأجاب كونيوكوف :

ـ رتبة رقيب !

ـ حسنا ! انه رقيب مثلك !

فتمتم كونيوكوف بمرارة وخيبة امل :

ـ يا للعجب ! لقد اعتقدت بانه عقيد !

ـ عقيد ؟! ولماذا ؟

ـ انظر كم من الخطوط تزين كتفيه ! لقد ظننته عقيدا ، وقلت في نفسي فلأحسن معاملته ! ولكن انظر الآن ما هو ؟؟ تبا له ! لو كنت اعرف بحقيقته لكنت تابعت ضغطي على عنقه !

ساد نوع من الهدوء والنظام تدريجيا المنطقة التي اكتسبت ، وبلغ عدد الاسرى أحد عشر رجلا سجنوا جميعا داخل المخزن في القبو ، ومُد خط هاتفي بين مركز سباروف ومركز جورندونكو ، اما مسلنكوف ، واعتماداً على أنباء النجابين فانه وبقية الكتيبة في طريقه اليه . واحتلت زمر المدافع الرشاشة والمسدسات الرشاشة مراكزها على نوافذ الطابق الارضي ، عقب ان حصنت هذه النوافذ بالحجارة والاثاث ، وبكل ما وقعت ايديها عليه ، وكان رجال مدافع الموزتر يحفرون وراء الحائط حيث اشار سباروف خنادق لهم ، اما اقامة مطبخ الميدان قبل حلول ليل تال ، فانها فكرة غير واردة اطلاقا ، لذلك أمر سباروف جنوده ان يأخذوا وجباتهم من ميرة الطوارىء ، وكان احد الراصدين على السطح المحروق يخبر بين فينة واخرى بتحركات الالمان ، اما جوردينكو

فانه اعلم سباروف هاتفيا بان كل شيء هادىء ومنتظم في قطاعه ، وانه قد أسر اربعة من الالمان ، وانه يحصن الآن مراكزه انتظارا لتلقي اوامر اخرى ، لكن سباروف اعلمه بان هناك امرا واحداً منتظرا ، وهو ان يحصن موقعه باسرع ما يمكنه .

وعندما انتهى حديث جوردينكو ورئيسه ، رن الهاتف من جديد فتناول سابروف السماعة واصغى الى صوت غض رهيف يتهادى اليه من مركز « برفونوف » ويقول :

ــ انني الملازم « جرجوريف »

ــ أين بارفونوف ؟

ــ انه لا يستطيع ان يتحدث بالهاتف !

ــ لماذا لا يستطيع ؟

ــ أنه جريح !

فالقى سباروف بالسماعة ، واطل في تلك اللحظة مسلنكوف ، ملهوفا لكنه فرح سعيد ، وبادر رئيسه وهو يرى حالة سرواله التي مزقها الرصاص ويقول :

انظر على ماذا حصلت !

فابتسم سباروف واجاب :

ــ اذا كان هذا هو الذي يسعدك ، فانني لاراهن مراهنة مضمونة على ان السعادة ستغمرك في هذا الموقع بفيض دفاق ، وعلى كل حال فانني ارى ان لديك كثيرا من الفرص لاصلاح بزتك هنا في ستالينغراد، ولكن هل جئت بالرجال؟

ــ نعم جئت بهم جميعا ..

ــ ودونما خسائر كما آمل !

ــ ثلاثة منهم فقط أصيبوا بجراح

فأجابه سباروف بصوت حزين هادىء :

ــ هذا امر لا يعتد به او يؤبه له ، فانا فقدت يا صديقي عشرين قتيلا ،

انتظرني هنا فسأعود اليك سريعا .

خرج سباروف من الغرفة مصطحبا « بطيرس » وانحدرا في الممر يمينا ثم انزلقا من ثغرة في الحائط وهما يتوقيان بشجيرات صغيرة تافهة ، وعلى ما يبدو ان الالمان لم يلحظوها في باديء الامر ، اذ تطاير فوق راسيهما عدد جد قليل من عيارات اعتسافية ،واخيرا بلغا مركز « بورفونوف » فدخلا غرفته وشاهدا جرجوريف يجلس الى الهاتف « وبوربونوف » يضطجع أرضا ، وقد وسد رأسه بمزودتين عسكريتين ، بمزودته ومزودة جندي آخر ، وكانت دماؤه تنزف بغزارة ، فلقدمزقت احدى الشظايا معدته شر ممزق ، لذلكلم يستطع عندما دخل عليه سباروف الا ان يتطلع اليه بوجه ترتسم عليه أمائر الاسى لكنه لم ينبس ببنت شفة ، فرثى سباروف لحاله ، كما اعتاد ان يرثي خاصة لحال اولئك الذين يخرون صرعى في اول معركة لهم ، فسباروف وفق ما يعرفه عن « بورفونوف » أن هذا الاخير كان منذ بداية الحرب عاملا سياسيا في الجيش المحارب على الجبهة الغربية . وهو رجل قصير القامة ناحل الجسد ، ذو وجه صريح وعينين بنيتين لطيفتين ، وهو يجهل كل الجهل بتدبير الامور او اصدار الاوامر أو انتهار اي انسان حوله ، لكنه الآن يسلك سلوك الشجاع ولا ينبس بكلمة واحدة ، بينما هو يعاني الآن سكرات الموت ، لذلك أحس سباروف برغبة في الاقتراب منه وفي التحدث اليه باحسن ما يسعفه به بيانه من كلمات . فحدق في جرحه الفاغر المرعب والذي لم يكن قد ضمد بعد، وخيل اليه انه من الافضل « لبوربونوف » الا تكون له بعض قوة تمكنه من الارتفاع برأسه من على وسادته المرتجلة ليتأمل جرحه . فأحنى سباروف عليه وجلس القرفصاء واخذ يتطلع في وجهه ثم مسح براحته شعر الجريح المبلل والمتشابك وقال :

ـ كيف حالك ، وبم تحس يا بارفينتش ؟

لقد بدا أن « باربوتوف » يرهب من ان يتكلم اذ يضطر عندئذ أن يتخلى عن كظم أسنانه ، ويخاف اذا ما فرج عنها ان يعلو صوته ألما وشكوى ، لذلك فتح عينيه ثم اغلقهما ثانية كأنه يريد ان يقول :

ـ ان جرحي طفيف لا يؤبه له

ادرك سباروف ان « بوربونوف » في النزع الاخير ، وخطر لسباروف

خاطر هو مزيج تقاسمه الفكر والخيال ، لكنه كان خاطرا نقيا صافيا واضحا ، اذ رأي بعيني خاطره كيف كان هذا الرجل القصير القامة يعـدو منذ فترة جد وجيزة في طليعة المهاجمين دون ان ينتهر أحدا ودون ان ينبس ببنت شفة، ولا شك ، لا بل فوق الشك ، انه كان يندفع نحو الالمان دون ان يحني ظهره، ومن المحتمل انه لم يكن يرغب ابدا في الاحديداب اذ انه كان قصير القـامة على كل حال . لكن سباروف لم يجد اخيرا الا ان يكرر هذه الكلمات الغبية ، لكـن الودودة ، وهو يحنو على بورفونوف ويقبل شفتيه المضفوطتين ويقول :

ـ ستتحسن حالتك يا بارفينتش !! ستتحسـن حالتك يا بارفينتش !

- ٥ -

ومع تباشير الفجر ، وعقب هدوء عاش ساعتين ، نشبت معركة قدر لها ان تستمر اياما اربعة ، وقد افتتحت الطائرات الالمانية المعركة واصيب سباروف بجرح طفيف كان جرحه الخامس منذ ابتداء الحرب . وكان القصف الجوي طويلا في مدته لا يرحم ، واشتركت الطائرات الالمانية من طراز يونكر ٨٨ مع اخواتها من طراز ٨٧ في قصف مراكز كتيبة سباروف ، وكانت هذه الطائرات هي تلك الطائرات المنقضة ذات القنابل الزعاقة التي استأثرت بحديث النـاس اثناء غزو الالمان لفرنسا . والواقع انه لم تكن هناك قنابل زعاقة ، بل ان كـل ما في الامر هو ان الالمان قد ركبوا على جناحي كل طائرة جهازين يرسلان بزعيق مرعب كلما انقضت الطائرة على هدفها ، ولم يكن هذا باختراع بارع ماهر ، بل انما كان تطويرا لآلة الضوضاء التي تركب على طائرات الاطفال . ولم يكـن سباروف الذي اعتاد على مثل هذه الطائرات ، او اكثـرية جنـوده ، الذيـن يسمعون الان زعيقها لاول مرة ، بالغي الرعب من هذه الطائرات واجهزتها . اذ كانوا يقولون كلما رفعوا برؤوسهم علاء: فلتعو ما طاب لها العواء ! وقـد ذهل سباروف من تبدل حال « كونيوكوف » المفاجيء ، اذ رآه الان جبانا رعديدا ينبطح ارضا امام الغارات ، وهو الذي حارب بشجاعة خارقة طيلة الليـل فاتجه نحو وهو يصيح به :

كونيوكوف ! كونيوكوف !

فرفع كونيوكوف راسه حذرا ورأى النقيب ثم قفز فجاة وامسك بكتفي سباروف وهو يصيح بصوت غير طبيعي :

ـ انسدح ! انبطح !

لكن سباروف بعد ان تخلص من ساعدي كونيوكوف بصعوبة ، جلس الى جانبه وبادره سائلا :

ـ ماذا تعني بـ (انبطح) ؟

ـ انبطح !

قالها كونيوكوف وهو يحاول ثانية ان يطرح النقيب أرضا ، فادرك سباروف ان الانضباط الاصيل وعادة الجندي على حراسة رئيسه ، هما وحدهما اللذان يستطيعان ان يرغما كونيوكوف المرعوب على ان يقفز من الارض ويمسك به ليبطحه الى جانبه فسأله سباروف بهدوء وبساطة وفهم :

ـ أتخاف هذا ؟

فأجابه « كونيوكوف » بمثل بساطته وصراحته :

ـ آه ! انه حقا لمرعب ! انه لفأل سيء !

ـ لكن هل تريد ان تبقى منبطحا هنا طيلة الوقت ؟

ـ وفق ما تأمرني ! انني طوع امرك ايها الرفيق النقيب !

ـ حسنا اذن ! فان امري لك أن تابع انبطاحك ولتعتد عليه ! لكن لماذا تبدد وقتك ؟ فعندما تنقض الطائرات بالقنابل انبطح ، وعندما تغادرك قف !

ـ لكنه والحق لمرعب ايها الرفيق النقيب! لا تعتقد بانني لن احتمله ! لكنه يرعبني حتى الذهول !

لقد كانت صراحة كونيوكوف هذه هي التي اقنعت سباروف بانه سيحتمل غارات الطائرات وزعيقها المرعب ، وأنه سيعتاد عليه ، فلقد كانت تلك السنوات من الحرب الاولى التي خاض كونيوكوف كل معاركها ، وتسلق كل حواجزها من الاسلاك الشائكة التي كان الحاجز منها يبلغ اثني عشر صفا في كفة واحدة وكانت غارات هذه الطائرات الزعاقة التي لم يسبق له ان اختبرها في كفة أخرى ، وهو لذلك لا شك سيعتادها ويألفها ، وقبيل الظهر اتصل بابشنكو بسباروف هاتفيا وقال :

ـ انني لا أستطيع ان آتي اليك الآن ، فعلي ان اقوم بزيارة قطاع اخر، ولكن من المحتمل ان يفد عليك « الرئيس » ..

ثم انهى بابشنكو محادثته الهاتفية قائلا :

ـ فاحترس !

كان « الرئيس » في الغرفة هو العقيد بروتسنكو ، وكان مفهوم كلمة احترس أن على سباروف ان يبذل قصارى جهده كي لا يسمح « للرئيس » بأن يزور اشد المواقع خطرا والتي قد يرغب في زيارتها ، وفجأة دخل بروتسنكو على سباروف وهو يصطحب مرافقه وجنديا من جنود المسدسات الرشاشة وعقب ان اطلعه سباروف على الحال سأله بروتسنكو كعادته :

ـ كيف حالك يا الكسي ايفانوفيتش؟ ثم مد اليه بيده اليسرى وذلك لان يده اليمنى كانت عقب الاصابة التي نزلت بها عاجزة عن العمل لهذا كان يحرك اصابعه دائما وهو يتحدث كي يساعد الدم على القيام بدورته فيها وذلك تنفيذاً لنصائح الاطباء وقد اجابه سباروف على سؤاله وبروتسنكو يجول في الغرفة ويحدق في سقفها :

ـ جيدة ! انهــا جيدة !

ثم عاد بروتسنكو ليقول بان فرتيز(1) ، ونطق هذه الكلمة كما اعتاد دائما ان ينطق بها ، اي بلهجة اوكرانية صميمية ، ان فرتيز سيحتاج الى خمسماية كيلوغرام ، ان عليه ان يبدد على الاقل مثل هذه الكمية اذا كان حقــا لا يحبك ، اما اذا لم يشأ ان يبددها فانك ستكون على احسن حال !

خرج سباروف برفقة بروتسنكو واخذا يتجولان حول اعشاش المدافــع الرشاشة ، ثم اتجها الى الحائط الذي خندقت وراءه زمر مدافع المورتر فأخذ بروتسنكو يتفحص بعين ناقدة الخنادق الضحلة ، ثم انطلق يتحدث بصوت عال كأنه لم يكن يعلم بان جنود مدفعية المورتر على مقربة منه اذ قال :

ـ يا للروس من امة عجيبة!

من هم الذين يقتلوننا في هذه الحرب يا آلكسي ايفانوفيتش ؟ انك لا شك ستجيبنني انهم الالمان ، وانا اثني على هذا القول ، لكن الالمان يقتلون اثنين من كل ثلاثة من قتلانا ، اما الثالث فانما يقتله الكسل .

قال هذا والتفت فجأة الى الجنود وسأل الرقيب الواقف الى جانبه :

ـ هل سمعت بالطائر الافريقي ، النعامة ؟

---

(1) اسم يطلق على الرجل الالماني بصورة عامة

ـ نعم

ـ هل تعرف لماذا تشبه انت النعامة ؟ كلا لا تعرف ، وذلك لانك انـت ايضا تحاول ان تخفي نفسك بواسطة اخفاء راسك ، لكنك تترك عجزك مكشوفا وتعتقد مع هذا بانك مختف عن العيون .

وفجأة صاح بصوت خشن :

ـ انبطح آرضـا !

ـ ما هذا ؟ سأل الرقيب

فاجابه بروتسنكو :

ـ انها قنبلة ! انبطح في خندقك طالما لا تزال حيا !

فقفز الرقيب الى الخندق ، وقد وجده ضحلا ضيقا كما قال آمر الفرقة ولهذا بادره بروتسنكو قائلا :

ـ وهكذا ترى ان رأسك مختف تماما ، لكنهم كان باستطاعتهم ان يمزقوا ردفك ، وبمقدورك ان تعتبره الان ممزقا !

ثم صاح به بخشونة وقال :

ـ قـف !!

فانتصب الرقيب على قدميه مبتسما ابتسامة حائر مرتبك ، غير ان آمر الفرقة التفت الى سباروف وقال :

ـ لتصدر اوامرك الآن !

وقال هذا واستدار ثم انطلق ليتابع جولته ، اما سباروف فبعد ان اصدر اوامره الى جنود المورتر بتعميق الخنادق ، انطلق يعدو ليلحق ببروتسنكو . وكان قد أقيم بالقرب من السور الحجري عش لمدفع رشاش ربض فيه جنديان التصقا بالسور التصاقا جد وثيق أصبحت معه فوهة الرشاش مسددة الـى العلاء ، فتقدم نحوهما بروتسنكو واضطجع وراء الرشاش وفحص منظاره ثم انتصب واقفا على قدميه ونفض غبار الاجر عن ركبتيه والتفت الى رقيب متقدم في العمر نخر الجدري وجهه وسأله :

ـ هل انت قناص ؟

فأجابه الرقيب بلهجة مهذبة يقتضيها حديث قصير مع الضابط الآمر :

ـ نعم ، بين حين وآخر ، ايها الرفيق العقيد .

ـ انني ارى هذا ، فأنتقناص تريد صيد البط بفوهة الرشاش المسددة الى العلاء ، ولكن من المؤسف ان الالمان لا يطيرون بل انما يمشون على الارض ، ولولا ذلك لاضطررت ان اقر لك بان تسديدك لمدفعك الرشاش تسديد رائع .

ثم انطلق بروتسنكو ليتابع جولته بخطوات متوانية كالمعتاد ، اما الرقيب فالتفت وراءه مرتبكا ثم استدار لينحي باللائمة على الجندي ويقول :

ـ الم اقل لك من قبل بان فوهة المدفع مسددة الى العلاء ؟ لماذا قمت بتسديدها على هذه الصورة ؟

فحاول الجندي ان يبرر مسلكه اذ قال :

ـ لكنك شاركتني عملي ايضا ، فانا لم اقم الا بما ..

ـ لا بأس ! فلتنس ما قلته ! لكن من مهام مساعدي ان يشاركني في اختيار الموقع ايضا ..

لم يستمع سباروف الى بقية النقاش بين الرقيب والجندي اذ كان عليه ان يلحق ببروتسنكو الذي كان يحرك اصابع يده الجريحة وهو يسير كأنه يوقت نغما يختزنه ذهنه ، وقد خاطب سباروف بصوت عال دون ان يلتفت اليه ، وهذا مما يدل على انه في حالة نفسية غاضبة وقال :

ـ على ما يبدو لي أن من المتوجب على آمر الفرقة ان يعلم الجنود متى يسددوا مدافعهم الرشاشة الى العلاء أو الى الامام . حقا ان هذا لامر رائع . وأظن ان كل دراستي في الاكاديمية العسكرية كانت ترمي الى اتقان هذا ... متى ستتعلم ان تخجل ؟

ثم التفت غاضبا الى سباروف وصاح به :

ـ كيف استطيع ان اعلمك الخجل ؟

لكن سباروف بقي صامتا ، فالعقيد محق ومصيب ، وهو ليس عنده ما

يجيب به حتى ولو كانت الانظمة تسمح له بذلك ، الا ان آمر الفرقة استرسل في تأنيبه قائلا :

ــ عندما لا يضطر آمر الفرقة ان يشرف على تسديد الرشاشات وعندما تتعلم الخجل حينذاك نستطيع ان نكسب الحرب ، اما قبل ان يتم ما ذكرت فاننا لا شك خاسرون ، وانت نفسك تدرك هذا الواقع أيضا !

ما كاد بروتسنكو وسباروف يتدبران امر عودتهما الى مركز قيادة الكتيبة حتى بدات المدفعية والطائرات الالمانية تمهد للهجوم والتفت آمر الفرقة الى سباروف وقال :

ــ انك ستعتمد لا شك ما قلت ، لكن عليك ان تعلم جنودك ليلا نهارا ، عليك ان تعلمهم . وذلك لانك اذا لم تدرب الجندي اليوم فانه سيسارع بنفسه الى مصرعه غدا ، وهو لن يقتل فقط ، فالقتل هو دستور الحرب ، بل انما سيقتل رخيصا وبغباء ، وهذا هو المحزن في الامر .. أين اقمت نقطة مراقبتك؟

ــ انها في الطابق الرابع .

ــ حسنا ! إصعد اليها وانظر ماذا يدور ، وقل لجندك ان يقدموا لي في هذا الاثناء شيئا آكله .

قبل ان يغادر سباروف الغرفة همس بأذن « بطيرس » طالبا منه ان يطعم العقيد ، ثم صعد الى الطابق الرابع ونفذ من نافذة فرنسية الطراز الى شرفة محروقة استطاع منها ان يرى كل مايجري امامه ، فشاهد في الشارع المجاور الالمان يتراكضون من منزل الى منزل ومن سياج الى سياج ورأى القنابل تضرب الارض فتنتصب اثرها اعمدة من غبار تتسامى شاهقة امام البناية التي يحتلها، ورأى غيرها تنقض مرعدة على جدران البناية فترتجف هذه هلعة كأن موجة عرمة جبارة عملت فيها لطما وصفعا . ولاحظ سباروف ان النيران الشديدة المسددة الى البناية تنطلق من اليمين حيث كان مسلنكوف قد حل آمرا للسرية محل بورفونوف لذلك انحدر السلم مسرعا ودخل غرفته واتصل بالهاتف بمسلنكوف ثم بجوردنكو منذرا اياهما بالهجوم الالماني المرتقب ، وقد اجابه كلاهما بانهما قد لاحظا الشيء نفسه وانهما مستعدان للقتال . اما بروتسنكو الذي كان لايحب آن يتدخل في تدابير مرؤوسيه الا في حالات الضرورة القصوى فانه كان يجلس صامتا ويأكل بعض البسكويت والنقانق الجافة . وعندما بدأ

الالمان اخيرا هجومهم وقبل ان تهدأ ضوضاء مدافع المورتر وعربدتها صعد بروتسنكو ، بالرغم من معارضة سابروف الشديدة ، الى مركز المراقبة ، وبقيا فيه لمدة ساعة تقريبا ، وكان سابروف طيلة هذه الساعة منفعلا اذ انه كان يريد لبروتسنكو انينحدر منه الى اي مركز آخر . لذلك عندما اخترقت احدى القنابل الثقيلة الجدار الحجري وانفجرت في غرفة من غرف البناية وتطايرت اثر انفجارها من ثغرة في الحائط شظايا الاجر والملاط أمسك سابروف بكتف العقيد وحاول ان ينزله بالقوة من المنظار ، لكن بروتسنكو تحرر من قبضة سابروف ، وبدلا من ان يوبخه بوصفه ضابطا أعلى منه رتبة على عمله كما كان منتظرا في مثل هذه الحال التفت اليه وقال :

ــ كم سنة حاربنا معا ؟ انهما سنتان ؟ وهما لمدة طويلة على كل حال كي تجرني من يدي ... اعتبر بروتسنكو الموضوع منتهيا فخلع عمرته وبدأ ينفض بعناية عنها غبار الملاط ، وعندما فشل اول هجوم معاكس قام به الالمان وبدأ سابروف وبروتسنكو ينحدران من منظار المراقبة انقضت قنبلة على السلم في الطابق تحتهم فدمرت جزءا كبيرا منه ، لذلك اضطرا ان يتعلقا ببقايا معترضات السلم كي ينحدرا .وقبل ان يبلغا مركز قيادة الكتيبة توقف بروتسنكو وقال :

ــ ها انك ترى الان لماذا يتوجب عليك الا تستعجل امرك فلو اننا استعجلنا لكنت قد القيت بي الى تلك القنبلة . ما الذي قاله لك بابشنكو ؟ احترس الرئيس قادم اليك ! اعتن بـه !

وفجأة بدأ يقلد صوت بابشنكو بلهجة ساخرة ويقول :

وبالرغم من توصيات بابشنكو لك ، كنت تريد أن تدفع بي مباشرة الى تلك القنبلة .. اترى مايحدث ..؟

ترك بروتسنكو مقر الكتيبة خلال ساعة من قعقعة وارعاد فصلت بين الهجومين الالمانيين المعاكسين الاول والثاني . وقبل ان يغادر سباروف خاطبه قائلا :

ــ حسنا ! فلتعتن بنفسك ! انك تعلم بانني عندما اقتنع من انني قد اتقنت حقا فن القتال فعندئذ لن اقوم بزيارة الكتائب ، وسأترك لقواد الافواج القيام بهذا العمل ، وسأقصر زيارتي على قيادات الافواج ، لكنني سأزورك بين حين وآخر ، نظرا لما بيننا من ذكريات قديمة مشتركة . فهؤلاء الذين حاربوا

معا في فورينيج ، شأنهم شأن اولئك الذين حضروا معا احتفال عماد ، لذلك سآتي لزيارتك بين فترة واخرى لنثرثر معا .

ثم استدار بروتسنكو وهو يعرج كعادته دائما قليلا ويداعب بأصابعه الهواء .

وقبل حلول المساء عاود الالمان كرتهم مرة ثالثة ، لكنهم صدوا على اعقابهم خائبين ، واحضر « بطيرس » الى سباروف قبيل الظلام صحنا مليئا بالبطاطة المسلوقة فتطلع سابروف الى البطاطا متعجبا وسأله :

ـ من أين استحصلت على هذه ؟

ـ من محل هنا يقع وراء الزاوية .

ـ قل لي تماما من أين احضرتها ؟

فكرر بطيرس اجابته السابقة مراوغا متملصا :

ـ من محل قريب ، وهو لايبعد عن موقعنا طويلا .

كان سابروف جائعا ، لذلك لم يكن لديه من وقت للاستيضاح والاستفسار فأخذ يحشو معدته ويملأ وجهه بالبطاطا ، بينما كان بطيرس يقف الى جانبه ويتأمله وهو يأكل كما تتأمل الام في طفلها ، وعقب ان التهم سابروف بعضها عاد ليسأل بطيرس بفم محشو بالبطاطا :

ـ حقا من اين استحصلت عليها ؟

فارتسمت على وجه بطيرس ملامح تعبر عن صراع باطني يعانيه ، اذ كان عليه ان يجيب اولا على سؤال رئيسه ، وكان من جهة اخرى يرغب في اخفاء سر اكتشافه لمخزن المؤن الجديد عن سباروف ، لكن سباروف حدق في وجهه المتحجر وابتسم ، فهو يعرف بان بطيرس يتحلى بشجاعة خارقة ودراية واسعة وفطرة مرحة ، وهذه هي الصفات الثلاث التي يريد كل ضابط لمراسله ان يتحلى بها . ولقد سبق لبطيرس قبل الحرب ان عمل كعميل مورد في مصنع في موسكو ، وقد تعشق عمله هذا خلال مشروع السنوات الخمس الاول واحبه حبا جما ، فكان بارعا ، لا بل ساحرا في تأمين كل مايحتاج اليه المصنع ، والله وحده يعلم كيف ومن أين كان يؤمنه ، فكان يستطيع ان يحصل أي شيء يستعصي

على غيره ، وكان يستطيع ان يؤمن ألواح الخشب المعاكس من يالطا ، العنب من كوستروما ، وخشب البناء من كراكوم ، وزبدة القول ان المستحيل نفسه كان طوع بنانه ، وفي هذا كان يجد غبطته وسروره . والحق انه لم يكن ابدا يتوخى من وراء اندفاعه وحبه لعمله اية فائدة شخصية ، ولم يجن أي ربح شخصي ، وكان مستعدا لان يقوم باي عمل بغية الحصول على المواد التي يحتاج اليها المصنع . مستعدا ليرشو ، ومستعدا حتى ليسرق ، لذلك كان موضع حسد زملائه ، واعجاب رؤسائه .

وعندما دفعت به الحرب ليصبح مراسلا لسابروف أبدى شجاعة خارقة أمام العدو ، لكن شجاعته كانت أعظم وأبسل امام المصاعب التي تعترض سبيله الى مؤن الجيش . فكان سابروف عندما لاتجد الكتيبة شيئا تأكله ، يرسل « ببطيرس » ليفتش للكتيبة عن طعام ، وكان بطيرس ينجح دائما في مهمته ، وعندما كانت الكتيبة لاتجد لفائف التبغ ، كان بطيرس يتدبر أمر لفائفها ، وعندما كان الجنود لايجدون شيئا يحتسونه ، كان بطيرس يسارع الى الاستحصال لهم على برميل صغير من الفودكا ، ولقد بدا بطيرس في هذا الميدان انه فضاض كل مشكلة وحلال كل عقدة ، حتى أمسى موضع شك سباروف في انه يملك مستودعا سريا يخفي فيه المؤن لحالات الطوارىء ، وكان على بطيرس مأخذ واحد بالرغم من انه لم يقم بأي عمل مناف للقانون ، وهو انه كان يحب دائما ، لا بل يعشق تغليف انتصاراته بالسرية والكتمان ، لذلك كان قلبه يطفح دائما بالمرارة اذا ما استوضحه سابروف او غيره عن نهجه في عمله ، لكن سابروف كرر سؤاله للمرة الثالثة وقال :

ــ هيا ! قل من اين استحصلت على البطاطا !

وعندما تحقق بطيرس من ان لامناص له من الاجابة قرر ان يعترف فقال :

ــ هنا يوجد بيت صغير في الساحة ، ويوجد تحت البيت قبو ، ويوجد في القبو امراة ..

فارتفع حاجبا سابروف دهشة وذهولا وسأل :

ــ أي نوع من النساء هي ؟

ــ انها امراة من ستالينغراد ، كانت تسكن المنزل الصغير ، وقد لاقى زوجها مصرعه ، لذلك انحدرت لتقطن واولادها الثلاثة في القبو ، ووجدتها تجلس هناك ، ولديها كل شيء ، لديها بطاطا وكل انواع الخضار كي لاتموت جوعا

حتى انه لديها معزى ، لكن المعزى كما تقول قد جف ضرعاها بسبب الظلام . ولقد قلت لها ان ضابطي الآمر يكن احتراما عميقا للبطاطا ، ودون ان تجيب باية كلمة على ملاحظتي سارعت الى سلق طنجرة منها وقدمتها الي وهي تقول : باستطاعتك ان تحصل مني على البطاطا كلما احتجت اليها . ولقد اعطتني حتى بعض شحم الخنزير .

ثم أضاف بطيرس يقول كأنه يؤنب نفسه :

وبهذه المناسبة فانت تأكل الان بطاطا سكب عليها سلاء شحم الخنزير .

ذهل سابروف اذ إكتشف فجأة ان هناك امراة تقيم واولادها الثلاثة بين هذه الانقاض والخرائب ، فانتصب واقفا على قدميه وهو يطلب من بطيرس ان يقوده اليها ، فانحدرا معا الممرات العديدة واخذا يعدوان احيانا مقرفصين واخرى زاحفين وهما يخترقان الساحة المكشوفة الى المنزل ، وشاهد سابروف بين الجدران المهشمة شيئا ما شبيها بباب تدعمه بضعة الواح وحجارة ، فولجاه وانحدرا بضع درجات افضت بهما الى قبو فسيح تقريبا ، وقد بدا ان هذا القبو قد وسع اثناء القصف الجوي والقتال ، ورأى سابروف طابخا مشتعلا ومركزا على برميل في احد الزوايا ومغطى ببعض الالواح ، وشاهد بالقرب من الطابخ امراة لم يخط بها العمر بعيدا ، لكن وجهها بدا ميدانا توسدت الالام غضونه وتمددت الاحزان في اخاديده ، وابصر بها تجلس على كعبيها وتهدهد طفلا رضيعا ، ورأى طفلتين بدتا كأنهما في العاشرة والثامنة من عمريهما يجلسان القرفصاء الى جانب أمهما ويتطلعان اليه وآلى رفيقه بعيون تفيض فضولا وبادر سابروف المرأة سائلا :

ــ كيف حالك ؟

ــ كيف حالي ؟!

ــ لماذا بقيت هنا ؟

ــ هل لي من مكان اخر اذهب اليه ؟!

ــ لكن الالمان كانوا يحتلون هذه البناية

فأجابت المرأة بصوت هادىء :

ـ لقد غطينا كل شيء فوقنا كي لايشاهدونا .

ـ اغطيت كل مافوق ؟! الم تخافي من الاختناق ؟!

ـ لن يكون الالمان افضل حالا من الاختناق !

فرد سابروف :

ـ لقد تجاوزنا الوقت الان ، لكن غدا سأفكر بالمكان الذي سأرسل بك اليه.

ـ شكرا لك ! لا اريد ان اغادر هذا المكان

ـ ماذا تقولين ؟

فكررت المرأة قولها بعناد :

ـ لست بمغادرته ، أين لي ان اذهب ؟!

ـ الى الجانب الاخر من الفولغا !

ـ لو انني كنت وحدي لذهبت ، ولكن ومعي أطفالي ؟!

فانني لن أذهب . وحتى الان سارت بنا الامور سيرا حسنا ، لكن اطفالي سيموتون اذا ماعبرنا الفولغا .

ـ وهنا ؟! اليسوا معرضين للموت ايضا ؟!

ـ لا ادري ! لقد احضرت كل مانملك الى هذا القبو ، وقد يمتد القتـال شهرا ، او شهرين ، وعندئذ قد تطردون الالمان ، لكنني اذا ماغادرت واطفالي هذا المكان فانهم سيموتون حتما ، وانا لواثقة مما اقول :

ـ ولكن هل فكرت بانه قد تنقض عليك فجأة قنبلة ؟

هذا ماسأله سابروف ، فهو لم يعد براغب في اقناعها ، الا انه كان فـي الوقت نفسه غير قادر على هضم الفكرة القائلة بان هناك امرأة تعيش وأطفالها الثلاثة جنبا الى جنب والجنود ، وانها لمستعدة لان تتمسك بمثل هذا الجوار، لكن المرأة قطعت عليه سلسلة أشجانه لتقول بصوت هادىء :

ـ وإذا ما انقضت القنبلة ؟! انها ستمزقنا جميعا ، انها ستنهي أمرنا فورا.

لم يعرف سابروف بما يجيب به على المرأة لذلك خيم على جو القبو صمت

طويل عميق قطعته اخيرا المراة لتقول :

ـ اذا ما أردتم ان اطبخ لكم شيئا فسأطبخه ، ولدي كمية وافرة من البطاطا ، وعليك فقط ان تطلب اليه مشيرة الى بطيرس ان يخبرني بأي شيء قد تحتاج اليه ، فانا أعرف كيف اطبخ حساء الملفوف ايضا ، لكن دون لحم .

ثم اضافت بعد بديهة :

ـ لكنني استطيع ان اذبح المعزى ، واذا ماذبحتها عندئذ تحصلون على حساء الملفوف باللحم .

أحست من نظرات سابروف بانه قد ادرك وضعها ، وانه لن يصر على اخراجها من القبو وترحليها عبر الفولغا ، ولم يكن حديثها عن براعتها في الطبخ يستهدف اغراءه ، بل انما كان حديثا مألوفا ينبع من رغبة عميقة تجتاح جميع النساء العجائز الروسيات في الاعتناء بالجنود البعيدين عن منازلهم وأهليهم ، وهي لاتميز بين الرتب العسكرية ولا تفهمها أصلا ، بل انما تنظر اليهم بوصفهم اشخاصا متسخي الثياب جائعين متعبين ، وانهم سيعودون في يوم لايعرفه الا الله ، الى منازلهم وذويهم ، وهي تحس بان عليها ان تطبخ لهم ، طالما هم موجودون في جوارها ، وحتى لو طبخت لهم حساء الملفوف فقط ، واذا ماكلفوها بطبخ هذا الحساء ، فلماذا لاتذبح عندئذ المعزى ؟! انها لم تعد ذات فائدة الان على كل حال ، فهي لم تعد تدر لبنا .

خرج سابروف من القبو إلى الهواء الطلق ، وعندما كان يتطلع في الخرائب والانقاض عاوده الخاطر الذي داهمه في قرية « التنسكايا » هذا الخاطر الذي ساءله الى اين دفعوا بكم ؟ فلقد كان يرى أمامه على امتداد بصره غربا المانيا فقط ، فتطلع حوله وتأمل في البناية المهشمة المثلومة التي عملت فيها الشظايا والطلقات نهشا وكدشا ، فاعلمه واقعه بانه لايزال فيها مقيما ، وتحقق من انه لايملك في الوقت الحاضر مكانا خارجها .

تقادم الليل وهو يعللهم بدوي قنابل وعواء رصاص ، وفي الفجر شن الالمان هجومهم الثالث ، لكنهم لم ينجحوا في تقدمهم المباشر نحو البناية التي كان يحتلها سابروف ، إلا انهم شقوا طريقهم يمنة منه ويسارا وتغلغلوا في جوانب الحي ، وفي الساعة التاسعة صباحا نقل الهاتف اليه صوت بابشنكو الجاف المتذمر :

ـ حسنا ! كيف تسير الامور ، انك لاشك صامد .

ـ نعم انني لصامد !

ـ اصمد ! وعض بالنواجذ على موقعك وانا قادم اليك .

كانت هـذه آخر كلمات نقـلها الهاتف الى سباروف ، فعقب دقيقة واحدة قطع الخط ، ومع أنه لم يكن ليحب بابشنكو او صوته المناجز ، الا انه حافـظ على استذكار تلك الكلمات طيلة نهارات الايام الثلاثة المتعاقبة ولياليها ، فلم يكن لديه حينذاك خط من خط هاتفي يربطه الى أين انسان. وقد ساعدتهتلك الكلمات على الايمان بانه ليس وحيدا متوحدا ، وبانه سيكون له في يوم من الايام خط هاتفي جديد ، وسيكون له ايضا بابشنكو وستكون له فرقته ، وسيكون له كل ما تمثله هذه الاشياء وتعنيه .

لقد قطعت كل خطوط مواصلاته ، وبالطبع لم يحضر بابشنكو ، واحتل الالمان كل الحي وما وراءه والبنايات المحيطة به ، وقد ألفى سباروف نفسه وكتيبته في الموضع الذي يعبر عنه في الحرب ، مهما كانت الظروف الخاصـة ، بكلمة مطوق ، فكان عليه ان يبقى حيث يقف ، وعليه ان يصد الالمـان وعليـه اما ان ينتظر من رفاقه الاخرين ان يشقوا طريقهم اليه ، أو ان ينتظر نفاذ آخـر قنبلة وطلقة ، فيستشهد وكتيبته ويموت . ومع انه كان في بعض الاحيـان يميل الى الاعتقاد بان الاحتمال الاول هو الذي سيتحقق ، وبانه سيـأتي على آخر قنبلة وطلقة لديه ، لكنه كان يجاهد ابدا ليقنع ضباطه وجنوده بان العكس هو الذي سيحدث ويصير . ولما كان كل من هؤلاء يعرف بما عنده من قنـابل وعيارات نارية ، لذلك كان يعتقد الواحد منهم بان سباروف بوصفه نقيبـا وقائدا للكتيبة ، لا يزال يملك الكثير من الذخيرة الاحتياطية ، لكنه هـو وحده كان يعرف بانه لا يستطيع ان يستحصل على اية كمية من الذخيرة الاحتيـاطية، وهذا مما كان أشد قسوة على نفسه من الاخرين . لقد وعظ جنوده بنفسه ان عليهم ان يطلقوا اسلحتهم ليقتلوا ، وان عليهم الا يطلقوها الا على اهداف محققة ، ولقد صادر الذخيرة من بعض الجنود ليسلمها الى أمهر القناصـة منهم، واعطى الاخرين قنابل يدوية ليقذفوا بها الالمان الذين قد يقتحمون البنـاية اقتحاما مباشرا ، ولقد اقتحم الالمان البناية مرتين خلال هذه الايام الثلاثة من القتال ، وفي كل مرة كانوا يصدون على اعقابهم خائبين ، وكانت جثث الالمان متناثرة حول جدران البناية وامام النوافذ المهشمة ، ولم يقدم اي انسان على

تصريفها ، فلم يكن هناك لدى الجنود وقت او قوة او رغبة في التخلص منها . وفي اليوم الثالث للمعركة اخترقت قنبلة الجدار وانفجرت داخل الغرفة التي اتخذها سباروف مركزا له ، ومن عجائب الصدف ، انها لم تقتل احدا ، فبطيرس كان خارج الغرفة ، وسباروف الذي كان يضطجع في سرير الميدان أطار به الانفجار ليلقي به سليما على الارض ، لكنه عندما انتصب واقفا على قدميه بدا له ان ما فوق رأسه من الجدار كأنه ملطخ ببقع من دماء ، لكنه تحقق من ان تلك البقع ليست سوى مئات الاجرات المتحررة من قناع الملاط الابيض . وقد وجد أن عليه ان ينتقل الى شقة في الطابق الاول ، شقة نجت باعجوبة من الدمار ، وكثيراً ما الح بطيرس ، قبل يومين او ثلاثة على الانتقال اليها ، وكانت نجاة الشقة من كل دمار هي التي اثارت في نفس بطيرس خزعبلة تقول بان هذه الشقة ستنجو من كل قنبلة .

وفي اليوم الرابع ، عندما كان قصف المدفعية يراقص الوجود ويهزه هزا عنيفاً اطلت المرأة اطلالة هادئة رابطة الجأش وكانت تحمل طنجرة وضعتها على المائدة وهي تقول:

ــ لقد طبخت لكم بعض الملفوف ، فجربوه!

فأجابها سباروف :

ــ شكرا لك !

ــ اذا رغبتم في المزيد منه فسأحضره .

اكتفى سباروف بالتطلع اليها ولم يجب ، فهذا كله لغريب ، لا بل مناف للعقل ، قبو ، وامرأة وثلاثة اطفال ، ومن ثم اعداد حساء ملفوف ، لكن شيئا ما خياليا برز الى مخيلته ليؤكد ما يراه ، شيئا ما جعله يتذكر المدفعي المضاد للدبابات ، وهو يرفع بمدفعه ويضع سيجارته على حافة الخندق بدلا من ان يرمي بها أو يسحقها بكعبه ، وذلك كي يستكمل تدخينها بعد ان يتدبر امر الدبابة المتقدمة ، وقد أحس سباروف بان هناك شيئا ما من برودة ذلك المدفعي في المرأة ، في مشيتها وهي تخطو داخلا . لهذا كرر سباروف شكره ، وهو يراها لا تزال واقفة هادئة صامتة في مكانها ، وحزر السبب الذي يدعوها الى الانتظار فسحب ملعقته من جزمته وبدأ يلعق الحساء ثم قال :

ــ انه لحساء شهي ! جد شهي ! لكن من المستحسن ان تعودي الى القبو!

فانهم سيبدأون الآن باطلاق النار .

وفي الليل اغتنم مسلنكوف ظلماءه وتسلل الى سباروف ، ولم يستطع هذا الاخير ان يتبينه من خلال العتمة الا بعد جهد طويل ، فالفاه ذا لحية استرسل شعرها ، وذا جسم نما نموا مفاجئا ، لكن مسلنكوف اعتقد وهو يتأمل في سباروف أن هذه الايام قد عملت ايضا في النقيب تبديلا وتغييرا ، فهو متعب حتى الموت ، لكن تعبه لم يكن ناشئا عن احساسه الدائم بالخطر ، بل انما كان مبعثه المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وهو لم يكن يعرف ماذا يدور حوله جنوبا او شمالا ، لكنه استنتاجا من قصف المدفعية ، رأى ان عليه ان يقاتل ضمن دائرة تحيط به . ولقد كان واثقا من شيء واحد فقط ، لقد كان واثقا من هذه البنايات الثلاث ، بما لها من نوافذ مهشمة ، وشقق متداعية ، وواثق من انه هو نفسه ، وجنوده الاحياء منهم والقتلى ، والمرأة واطفالها الثلاثة ، هم جميعا روسيو القومية ، وعليه هو سباروف ان يدافع عنهم . فاذا ما قدر له ان يقتل او يستسلم فان هذه البقعة من الارض ، لن تعود بقعة روسية ، بل انما ستصبح أرضا المانية ، وهذا أمر سينحر سباروف خياله اذا ما راود ذهنه عليه .

وصدع اذنيه ، طيلة الليلة الاخيرة لتطويقه ، زعيق ثنائية بائسة من قصف المدافع وهزيمها ، ثنائية ترسل بضوضائها يسرة منه ويمينا . وقد بدا ان كلا من المدفعية الروسية والالمانية تقصف الساحة ، وتقصف البناية قصفا مباشرا ، واتضح له صباحا ان القنابل الروسية كانت اوفر عددا من الالمانية .

وعند الفجر ، لم يستطع سباروف ان يصدق عينيه ، الا ان الفجر باضوائه أرغمه على تصديقها ، فلقد شاهد بام عينه ان عددا من الجنود قد شقوا طريقهم اليه ، اذ اندفع عقب الفجر بقليل بعض من الجنود المعرورقين المتسخين الى الساحة ، وقد ظن هؤلاء باديء ذي بدء ان الالمان موجودون في هذه البناية أيضا ، لذلك كان من الصعب في اول الامر على سباروف ان يحول بينهم وبين تفتيش البناية بحثا عن الالمان ، وكان اول رجل شاهده سباروف من هؤلاء الجنود وعانقه هو بابشنكو ، وهو نفسه بابشنكو الفظ غير المرغوب فيه والمناجز ، وهو ذاته بابشنكو اللاحليق ، والجميل ، والمرتقب طويلا ، وها هو يعانقه بمسدسه الرشاش المتدلي من حزام يحيط بعنقه ، ويديه وساقيه الملطخة بالوحل والجير ، وبادره بابشنكو بصوت منتهر تقريبا حاول فيه ان يغطي

انفعاله الذي بدا له انه لا يليق بضابط يخاطب مرؤوسه اذ قال :

ـ ألم اقل لك بانني قادم اليك .

كان بابشنكو لا يزال يبتسم بصورة شاذة ، بعد ان ذرع الغرفة مرتين جيئة وذهابا ، ثم نزع سلاحه وجلس الى الطاولة واتكأ عليها ، وأخيرا افتعل محياه تلك التعابير غير السارة وسأل سباروف بلهجته الفظة المألوفة :

ـ كم عدد خسائرك ؟

ـ ثلاثة وخمسون قتيلا ومئة وخمسة واربعون جريحا

ـ انك لا تعتني برجالك ، انك لا تعتني بهم ، انك تسيء العناية ، لكنك قد صمدت على كل حال ، قل لهم ان يأتيني احدهم بماء !

فالتفت سباروف الى بطيرس وطلب منه أن يلبي أمر المقدم ، لكنه عندما تطلع الى بابشنكو ثانية ، اتضح له ان المقدم لم يعد بحاجة الى الماء ، فلقد انحنى على الطاولة وتوسد عقب مسدسه الرشاش ، وغط في سبات عميق . فخيل الى سباروف ان قائده لم يعرف النوم طيلة الايام الاربعة الماضية ، لكن حاله لا تختلف عن حال بابشنكو ، وفجأة بينما كان يستعيد الى ذآكرته ما مر به من اهوال احس بالنعاس يكتسحه ويدك عظامه دكا ، وكي يتفادى الانسداح على المائدة كما فعل بابشنكو ، استند الى الحائط ، واخرج بعد لأي من جيبه ساعته الضخمة وتطلع فيها فالفاها تشير الى التاسعة وخمس عشرة دقيقة ، فادرك ان اربعة ايام وسبع ساعات قد مضت على قفزه الى كتفي بطيرس ، وقذفه بالقنبلة من خلال النافذة المكسورة ، وعودته الى هذه الغرفة.

- ٦ -

وتوجت الايام الاربعة من القتا ل، أيام اربعة اخرى من حركات سريعة مفاجئة ، فلقد ضجت اجواء هذه الايام بزعيق الطائرات المنقضة واعوالها ، وبخبطات اصوات القنابل ألغبية وبثرثرة المدافع الرشاشة الجافة التي فاضت بها الهجمات الالمانية المعاكسة ، وفي اليوم التاسع فقط ساد شيء يشابه الهدوء ويماثل السكينة ، فاستسلم سباروف للنوم عقيب الظلام ، لكنه لم ينم اطول من ساعات ثلاث ، اذ سرعان ما ايقظه الهاتف ، فبابشنكو الذي لم يكن يريد لمرؤوسيه ان يناموا طالما هو مستيقظ امر الجندي المناوب بايقاظ سباروف الذي سارع الى الهاتف ليسمع صوت بابشنكو يموج اليه عميقا بعيدا ويقول :

ـ هل كنت نائما ؟

ـ نعم

ـ نائم ؟! هل كل شيء منتظم ؟

فأجابه سباروف وهو يحس بان كل ثانية من هذه المحادثة المجنة تستنزف النوم منه قطرات قطرات وقال :

ـ نعم كل شيء منتظم

ـ هل اتخذت الاجراءات اللازمة لهجوم ليلي محتمل ؟

ـ نعم لقد أتخذت .

ـ اذن عد إلى نومك

استطاع ، مسلنكوف الذي كان قد اوقظ ايضا ، وكان يجلس على سرير قبالة آمره ، ان يخمن بوضوح كاف من طريقة تثاؤب سباروف محتوى المحادثة ، واستطاع ان يشعر بأن النقيب غاضب اشد من المعتاد ، وقد سأله :

ـ هل كان المتحدث هو المقدم؟

فأومأ سباروف برأسه موافقا . وحاول ثانية ان يضطجع وينام ، ولكن كما يحدث مرارا في ايام خاصة من التعب والاجهاد ، فان النوم لم يكن يرغب في معاودته ، فعقب ان اضطجع سباروف لبضعة دقائق اخذ يهز قدميه العاريتين ثم اشعل لفافة وبدا للمرة الاولى يتأمل بعناية في الغرفة التي اتخذ منها مقرا لقيادة كتيبته منذ تسعة ايام . لم يكن سباروف من اولئك الناس الذين يكثرون من الاسئلة . فلقد بدا له شاذا ومن غير الضروري ان يسأل الناس عن شيء حتى يرغب هؤلاء انفسهم في التحدث عنه . وكان في طبعه قليل الكلام ، لكنه كان عميق الاهتمام بالاشياء . فالاشياء هي هادئة صامتة كنفسه ، وقد بدا له دائما ان في الاشياء كما في ذاته ، كثيرا مما لم يقل ، الا انه لذيذ مفيد . وكان هناك على المشمع الذي يغطي الطاولة حلقتان حديديتان لا تزال تعلوهما آثار لهب حديث العهد ، فالكبرى على ما يبدو حلقة مقلاة ، اما الصغرى فخاتم ابريق قهوة . ومن المحتمل ان صاحب المنزل قد أجلى عائلته مسبقا عن المنزل ، وعاش وحيدا عيشة عازب لم يعتد عليها . وكان ضغط الانفجارات قد هشم ابواب « البوفيه » الزجاجية ، ولم يكن فيها شيء يدل على هوية من كان يقطن المنزل ، اذ انها جردت من كل محتوياتها . ولكن كانت هناك على المكتب آثار عديدة لحياة عائلة كاملة . فعليه أبر وثياب لم ينته خياطها ، ورزمة من مجلات « تقنية » ومؤلفات تشيكوف ، وبعض كتب مدرسية خاصة بالصف الثالث الابتدائي ، ورزمة جديدة جميلة من كتب الصف الرابع الابتدائي . ولقد لفته نظر سباروف دفتر انشاء ، فأخذ يقلب صفحاته بفضول رجل محترف درس في احد الايام ليصبح معلما . وقد شاهد في الصفحة الاولى موضوع انشاء يحمل العنوان التالي :

« كيف ذهبنا الى المطحنة »

« لقد ذهبنا امس الى المطحنة وشاهدنا كيف يصنعون الطحين ... »

ورأى سباروف حرفا في احدى الكلمات قد شطب ، ثم كتب بصورة مختلفة ، ثم شطب من جديد ، وأخيرا كتب كما يجب ان يكتب .

وقد استرسل التلميذ في موضوعه فكتب :

« انهم ينقلون الحنطة اولا الى المخزن وينقلونها من المخزن الى سيارة الشحن التي تنقلها بدورها الى المطحنة وبعدئذ ... »

اغلق سباروف الدفتر وتذكر كيف شاهد حينما كان لا يزال بعيدا ما وراء ضفة الفولغا النار تلتهم مخزنا ضخما للحنطة، ومن يدري فقد يكون هذا المخزن الذي يقرأ عنه الآن في دفتر انشاء هذا الطفل ، هو ذاك الذي شاهده.

كان مسلنكوف يجلس قبالته ويؤرجح ساقيه ، وكان هو ايضا قد تناول رزمة الدفاتر واخذ يقلبها ببطء . وفجأة بدأ يتحدث عن طفولته . وكان دائما يعود حين حديثه وسباروف منذ لقائهما الاول الى طرق هذا الموضوع، وكان سباروف يحس بان مسلنكوف لم يكن يتوخى من اثارة هذا الموضوع مرارا وتكرارا ان يحدثه بهذا الاسهاب الواسع عن طفولته ، بل انما كان يرمي الى استدراجه للتحدث عن ماضيه الخاص . لكن سباروف كان كما قلنا رجلا قصير اللسان قليل الكلام ، ولم يكن هذا ناشئا عن كآبة او مبدأ ، بل انما كان ناشئا عن انهماكه الدائم تقريبا في العمل ، ولانه كان يرغب في ان يترك وحيدا وافكاره ، زد على ذلك انه كان اذا ما ضمته رفقة او زمالة مع غيره يفضل دائما الاصغاء الى الاخرين ، فهو مقتنع في اعماق قلبه بانه لم يقم حتى الان الا بالقليل ، وبان ما انجزه في حياته هو لا شيء تقريبا ، وبان سيرة حياته لن تستأثر باهتمام اي انسان غيره ، وهكذا فانه الان يفضل الاستماع الى مسلنكوف صامتا هادئا ، ويفكر احيانا بما يرويه رفيقه ، وأخرى يستسلم الى افكاره الخاصة ، لكنه كان طيلة الوقت يتفحص بانتباه واناة الاشياء الموجودة على المكتب .

واتضح لسباروف ان الطفل الثاني من سكان المنزل كان لا شك طفلا صغيرا . فلقد رأى على المكتب عدة صفحات انتزعت من دفتر وغطيت بعلامات واشارات زرقاء وحمراء . وكان يمكن للانسان ان يستنبط من هذه الاشارات وتلك العلامات صورا لمنازل مقوضة ودبابات فاشية محترقة ، وطائرات المانية تسقط مشتعلة وهي تجر وراءها ذيولا من دخان ، ويعلو كل هذه المناظر طائرة مطاردة سوفياتية رسمت باللون الاحمر . فخيل الى سباروف ان هذه الرسوم كلها كانت صورة الحرب التي تنطبع من حين الى اخر على مخيلة كل طفل. وكان يستطيع المرء ان يستخلص من هذه الخطوط ، ان فريقا واحدا من المصطرعين كان يحتكر اطلاق النار ، وان الهجمات الفاشية كانت دوما تنتهي الى الفشل والدمار . ومع ان ذكراه لاخطاء الماضي تسيل مرارة وحزنا ، لكنه يعرف بان صورة الحرب التي كانت تنطبع على اذهان المراهقين من الروس ما

قبل الحرب ، لم تكن تختلف كثيرا عن هذه الصورة التي يستنبطها سباروف من « شخبطات » هذا الطفل. فالحرب امست « حديثا » بالنسبة الى سباروف القاسم المشترك الاعظم لكل وقائع حياته السابقة ، وقد اختزلت كل شيء مر به، وقسمته الى حسن وسيء ، ولم تكن تعتمد في تقسيمها التجريد ، بل انما كانت تعتمد تقدير ارتباط هذه الوقائع بالحرب . فهناك بعض نوازع وعادات مدنية تعيقه الآن عن الحرب ، ولكن هناك اخرى تساعده عليها . ولكن النوازع والعادات الثانية كانت اوفر عددا مما يتوجب ان تكون . فالاشخاص الذين بدأوا حياتهم الاستقلالية خلال مشروع السنوات الخمس الاول ، كما بدأها هو، قد مروا بمدرسة حياة خشنة النظام قاسيته ، لكنهم تعلموا فيها الانضباط وضبط النفس الى درجة جعلتهم لا يحسون بانهم سينهارون تحت وطأة مصاعب الحرب او يرون في الحرب شيئا جديدا عليهم ، وذلك اذا ما استثنينا تعرضهم الدائم للقتل .

كان سباروف كمعظم الاشخاص الذين يناهزونه عمرا، ابنا لجيله. وعندما كان لا يزال صبيا يافعا كان ينقل من ورشة الى اخرى ، ولقد حاول مرارا ان يتعلم ويدرس، لكن الكوموسمول قطع عليه محاولته فاستدعاه الى العمل، وعندما انتهت مدة عمله ، وعاود الدراسة ، استدعاه الحزب الشيوعي ثانية ، فلم يستطع ان يتابع دراسته اذ عاد الى العمل . وعندما حان دور قرعته استدعاه الجيش فخدم فيه سنتين كاملتين سرح عقبهما برتبة ملازم ثان . فعاد أخيرا الى مهنته بوصفه مناظرا على اعمال البناء التي يشرف عليها مجلس الاعمار ، وهكذا بدأ ثانية ينفق نهاراته ولياليه في بناء قناطر الخزانات وفي العمل على سلالم مصنع الفولاذ في ماجنتوجورسك .

وقد استأثرت السنوات الخمس الاولى بحماسه كما استأثرت بحماس غيره نظرا لما انتابها من حمى انشاء وتعمير . لكننا اذا ما جمعنا بين كل هذه الامور ، ولخصناها الى نتيجة واحدة ، نرى انها قد حالت بينه وبين تحقيق كل ما كان يحلم به منذ طفولته ، ومرة اخرى ، حذا حذو الكثيرين من ابناء جيله ، فوجد في نفسه من القوة ما جعله يتخلى عن عمله الذي الفه ، وعن مرتبه وعن حياته العادية ، وان يبادل على كل هذه الاشياء ، بالرغم من انه لم يعد حديث سن ، بمكتب طالب وسرير بحار في غرفة نوم وبمئة روبل مرتبا شهريا . وقبل اندلاع نيران الحرب بسنة واحدة استحصل على درجة

علمية في التاريخ من جامعة موسكو . وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر حزيران نجح في امتحاناته الجامعية الاولى نجاحا باهرا اذهل جميع من يعرفه من الطلاب . وفي اليوم التالي لذلك اليوم سمع صوت مولوتوف يعلن في المذياع عن الغزو الفاشي لروسيا . وهكذا وقع ما كان يترقبه كل انسان، ووقع ما كان يؤمن كل انسان باطنا بانه لن يقع ابدا . فلقد بدأت الحرب ، وهي تلك الحرب التي قدر لها ان تدفع بسباروف ، عقب سنة وثلاثة شهور من اندلاعها ، سباروف هذا الذي أراد يوما ان يكون استاذا للتاريخ ، سباروف الذي كسر الطوق حوله مرات ثلاث وانعم عليه بوسامين ، واصيب بخمسة جروح طفيفة ، نعم ، لقد قدر لهذه الحرب ان تدفع به اليوم الى ستالينغراد، وتقوده الى هذه الغرفة التي قد تذكره في اية لحظة بالسلام ، أفلم يكن هناك مسدس رشاش معلق على مسند مقعد باهت اللون ، ومزين بغطاء مطرز ، طرزته انامل ربة المنزل.

تجاوز الليل منتصفه بعيدا ، وسباروف لا يزال يستمع الى روايات مسلنكوف عن حياته ، تائه الخاطر غائب الذهن ، ويتأمل ، في الوقت ذاته حالما ، في ماضيه الخاص ، ولف سباروف ببطء لفافة تبغ واولج طرفها في فوهة المسل « البز » بعناية وتأنق واشعلها ، وفجأة صمت مسلنكوف وكان يجلس قباله سباروف ، وهكذا خيم عليهما صمت دام خمس او عشر دقائق قطعه مسلنكوف ليتحدث ثانية ، لكن حديثه اليه كان هذه المرة يدور حول مواضيع الهوى والغرام . وقد استهل حديثه بوصف حماسه وانفعالاته يوم كان تلميذا في المدرسة ، وكان يصفها بجدية طفل صغير، وبادره مسلنكوف سائلا :

ـ وانت ؟؟ ألم تحب ؟
ـ ماذا تعني بالحب ؟
ـ الم تعشق ، الم تحب حقا ؟

« الحب ؟؟ » وسرح سباروف بخواطره ، وسحب نفسا عميقا من لفافته ثم اغمض عينيه ، وساءل نفسه احقا لم يعرف الحب طريقه الى قلبي بعد ؟ لكنه لا يزال يستطيع ان يتذكر امرأتين او ثلاثا مررن بحياته مرورا عابرا ، تماما كمروره هو بحياتهن . ولربما لم يكن هذا بالمستحسن ... ولكن من يستطيع ان يقرر هذا ؟ ولربما كان هذا ككل شيء اخر عرفه ، فلقد انتهت

علاقاته بمن عرف من نساء انتهاء لينا هينا ، ولم يكن انتهاؤها على هذه الصورة ناجما عن ازوراره عن الحب ، بل انما كان ناشئا عن رغبته الضارية فيه ، فهو لم يجد في كلتا المرأتين ولا حتى في النهاية التي آلت اليه علاقته بهما شيئا يشابه الحب او يماثله ، وقد خيل اليه انه لم يحاول ابدا طيلة معرفته بكل منهما ان يدعي بان ما يشده الى اية واحدة من تينك المرأتين كان الحب الحقيقي ، لكنه احتفظ بهذه الخواطر لنفسه لذلك عندما عاد مسلنكوف ليسأله من جديد :

ـ الم تحب حقا ؟

اجابه :

ـ لا أعرف ، واعتقد بانني لم احبب .

ثم نهض عن المقعد واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وداهمه خاطر يقول بانه لمن المستحيل عليه الا يعرف مستقبلا الحب والهوى ، وانه وان لم يكن قد عرفه فيما مضى فانه لا شك ملاقيه ومصادفه في يوم قريب او بعيد . وفجأة وجد ذاكرته تستعيد اليها كلمات تلك الفتاة (الممرضة) التي قابلها على ظهر المعدية ، ويتأمل فيما تحدثت به اليه حينما قالت ان الموت هو اشد ما ترهبه وتخشاه ، وذلك لانها لم تعشق او تهوى ، وقارن بين حالها وحاله ، وكيف يتوجب عليه الا يخاف او يرهب لانه قد عجم كل عود ولاكه ، لكن خاطرا آخر اكتسحه ، خاطر قال له ، انت لم تعرف كل شيء ، انت لم تختبر كل شيء ، فالحياة مترعة باشياء وفيرة وانت لم تر منها الا القليل ، وكم تبدو الحياة غبية ومستحيلة في ناظري اي انسان يعتقد ولو للحظة واحدة ، بأنه لبس منها حتى افنى ثيابها ! فعاد ليذرع الغرفة ثانية ثم ليتجه مباشرة الى مسلنكوف وليضع أخيرا راحته على كتفه وليقول بصوت كان يحاول بواسطته ان يجيب على اسئلة رفيقه :

ـ اسمع يا ميشا ! يجب علي وعليك الا نموت ، يجب علينا الا نقتل مهما كانت الاحوال والظروف !

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري ! فكل ما اعرفه انه يجب علينا الا نقتل او نموت . وفجأة دخل جندي عليهما الغرفة وبادرهما قائلا :

ـ انهم يهاجمون !

ـ فجلس سباروف على المقعد وارتدى ثيابه بحركة واحدة تقريبا ثم لف القماطين حول ساقيه وانتعل حذاءه ، وبحركة واحدة ايضا ارتدى معطفــه وهو يخاطب مسلنكوف ويشد حزامه ويقول :

ـ حسنا ! لم تتح لنا فرصة واحدة لننام

أحس ماسلنكوف بان كلمات النقيب تفيض بسخرية حزينة نجيعة فكل ما تدفقت به عاطفة كتلك من أحاديث وتأملات لم تكن لها اية قيمة او وزن اذا ما قورنت بتلك الكلمات القليلة التي طفحت فوق حافتي حياتهما ، كلمات : ان الالمان يهاجمون ...

كانت ليلة ايلول هذه كريمة بزمهريرها كثيفة في ظلامها ، وكان كل شيء في ستالينغراد قد اصبح خلال هذين الاسبوعين من القتال فريسة فوضى وميدان حيرة وارتباك . وكانت الجبهة تتنقل انتقاليا خياليا من حي الى حي ، ومن بناية الى بنــاية ، ومن طابق الى طابق ، ومن غرفــة الى اخــرى حتى خشي الالمان من ان يتركوا لطائراتهم ومدافعهم الحرية في القصف ليلا ، خوفا من ان يقصفوا جنودهم بالذات ، ولم يكن بامكان غير طائراتنا المدعوة بالصياغ (١) يو ٢ ان تدمر اذا ما صدرت اليها الاوامر ، الجناح الايسر من بناية يحتل جناحها الايمــن الروس . حتى قيل تندرا بان « الصياغ » يستطيعون ان يرسوا طيلة الليل فوق رؤوس الالمان ويمطروهم بالقنابل قنبلة فقنبلة .

ويوجد بالقرب من دار الاوبرا رواق اتخذه جيشنا منذ اسبوعين مــركزا لقيادته العامة ، لكن الجحافل الالمانية تحتل الان هذا الرواق ، زد على ذلــك ان الالمان يحتلون اليوم نصف مساحة قمة جرف « ماماي كورجان » حيــث تناول « ماكفييف » منذ تسعة ايام الشاي تحت اشجار الزيزفون والتلياء . وكان لايزال دائرا في محطة السكة الحديدية ، وفي متاجر حي اكتوبر الاحمــر ودكاكينه ، وفي مصانع الجرارات الزراعية في ستالينغراد ، وفي أبنية المستعمرة التي بنتها الشركة الفرنسية صاحبة الامتياز منذ زمن طويل واسمتها « فرنسا الجديدة » . وكان كل مافي المدينة مزدحما وملتصقا بعضه ببعض . واصبحت المسافات تقاس بمئات الامتار ، واحيانا بعشراتها ، وحتى ان قيادات الجحافل

(١) طائرات مراقبة صغيرة استخدمها الطيارون الروس في بداية الحرب في القصف التكتيكي.

الالمانية وخروجا على عادتها المالوفة ، اتخذت مراكز لها لاتبعد الا بضعة كيلومترات عن الجبهة ، وكانت هذه المراكز تقوم في اقبية الابنية وطوابقها الارضية الواقعة في احياء المدينة الغربية ، وكانت سيارات هيئة الاركان الالمانية تجوب ليلا الشوارع المحترقةالتي كانت اجواؤها لا تزال تعبق بروائحثقيلة مرة تنبعثمن لهب منهوك يتصاعد من الدبابات المحترقة . اما في احياء المدينة الشرقية ، وفي مركزها ، فان تبادل النار كان طيلة الليل متواصلا مستمرا . ومع ان الالمان كانوا قد وطدوا اقدامهم في الاحياء الغربية ، وكانت احذيتهم الثقيلة تضرب شوارعها ضربا صارخا مجلجلا ، الا انهم كانوا منتشين بالنصر وخائفين معا ، خائفين من هذه المدينة الغريبة الصامتة المشوهة .

وفي اللحظة ذاتها التي كان ينطلق سباروف ومسلنكوف من مركزهما ، حال سماعهما بنبأ هجوم الالمان ، كان يجلس في الوقت نفسه في غرفة ارضية تقع في شارع فلادمير رقيب يرتدي بزة من بزز الجيش الاحمر . وكانت هذه الغرفة هي مركز قيادة احدى الفرق الالمانية . وهي غرفة فسيحة واسعة أثثت بمقاعد ناعمة جمعت من جميع طوابق البناية . وكان ضابط الركن المناوب، ضابطا المانيا برتبة نقيب اول ، وكان ناحل الجسد متعبا وفي حالة نفسية شيطانية سببتها قلة النوم . وكان هذا الضابط يسأل الرقيب :

ـ من هو آمر فرقتك ؟

ـ انه العقيد بروتسنكو .

ـ من هو آمر فوجك ؟

ـ انه المقدم بابشنكو .

ـ من هو آمر كتيبتك ؟

ـ انه النقيب سباروف .

فحدق النقيب الالماني بنظارتيه المستديرتين في قصاصة ورق امامه ثم قال :

ـ ان كل ماقلته صحيح ، ولكنك بالاضافة الى ذلك تزعم ...

ـ انني لا أزعم ! فما قلته هو حق وواقع .

ـ ماهو برهانك ؟

فأجاب بصوت هادىء :

ـ انني اعتقد بانك لاشك تعلم بانه ليس من المفترض في ان احمل أي برهان معي ، فهذا الامر ليس مباحا لي .

قال هذا وسكت بضعة ثوآن ثم اضاف :

ـ المعسكر رقم ٣ في كراكو ، المدرسة الخاصة . قائد مجموعتنا كان النقيب آلاول هانكي ، رقمي كان ٣٤ .

هل تكفيك هذه التفاصيل ...

فأجابه النقيب الاول :

ـ انها حتى الان مرضية .

ثم التفت واشار الى وسام علقه الرقيب على صدره وقال :

ـ كيف آستحصلت علىهذا ؟ لشجاعتك على مايبدو ؟!

ـ طبعا ! فانني لم ادرس لتذهب دراستي عبثا .

ـ قلت ان اسمك هو فاسيلييف ؟

ـ نعـم .

ـ وانك في جولة استكشافية الان ؟

ـ نعـم .

ـ كم لديك متسع من الوقت ؟

ـ ان الشمس تشرق في الساعة السادسة ، وهذا ما يعني ان لدي خمس ساعات ، شريطة ان تعطيني بندقية ووثائق ثبوتية لشخص ما ، ومن المفضل ان تكون وثائق ثبوتية لضابط ، وذلك كي استطيع العودة لابرهن لهم على ان رحلتي كانت ناجحة .

ـ حسنا ! اي نوع من المعلومات قد استصحبت معك ؟

فتطلع فاسيلييف الى ساعة رسغه الضخمة المستديرة وقال :

ــ لما لم يكن لدينا المزيد من الوقت ، ولما كان علي ان اكرر كل مااقوله لـك على مسامع العقيد فلماذا لاتسمح لي بمقابلة العقيد مباشرة ؟

فحلق النقيب الاول ببصره فوق نظارتيه ثم قال « حسنا » ونهض مـن وراء مكتبه وغادر الغرفة ، اما فاسيلييف فبقي جالسا على كرسيه وقد جلـس وراءه جندي الماني كان يداعب بندقيته براحتيه ، ولم ينبس فاسيلييف ببنت شفة بل اكتفى بالنقر باصابعه على المكتب ، فهو يعرف بما هو آت ، ويعـرف بانهم سيأخذونه الى العقيد ، وبانهم سيشكون باديء ذي بدء في أمره ، وبانـه سيبرهن لهم فيما بعد على صحة اقواله السابقة ، وعندئذ سيصدقونه ويصغون الى ما يقوله وسيكلفونه بمهمة من المهـام ، وسـيطلقون الرصـاص فـي الهواء عندما يغادرهم وقد يطلق الروس عليه الرصاص اذا ماعاد ، وذلك اذا ماحسبه احد آلمانيا ، واذا لم يصب فعندئذ سيعود الى مركز ذاك الـ « سباروف» الطويل الناحل الغبي ، وعندئذ سيستمتع بثلاثة او اربعة ايام من هدوء نسبي حتى يرسلوا به ثانية في جولة استكشافية جديدة ، وحينما يحضر ثانية الـى هذا المكان ، فسيتكرر كل شيء ، كما حدث له تماما في المرات السبع او آلثمان خلال هذه الحرب ، وزبدة القول ، ان مهنته هذه لاتؤمن له حياة هادئة هانئة . فكل ماكانت لديه من آمال وأحلام تحققت من حيث انه لايزال حيا فقط . ولكنها على كل حال حياة شبيهة « بيانصيب » مجنون ، يكون المرء واثقا من انها ستحمل اليه عاجلا أم اجلا آلاعدام والموت ، ولكن خاطرا واحدا عزاه ، وهو انه قد عرف الخطر امام دنبروبتروفسك وروستوف وفورنيج ، وانه يصادفه الان من جديد في ستالينغراد ، وهذا مايشير الى ان نهاية الحرب يجب ان تكون قد دنـت تقريبا . لذلك فليس عليه الا ان يصمد حتى النهاية ولا يمكن ان تكون آلنهايـة بعد الان بعيدة المجال ، ويكفيه اذا ما استطاع هذه الليلة ان يتدبر أمر حضور الاجتماع السري الذي كان يفكر به ، والذي جعله يتطوع مختارا للقيام بهـذه المهمة الاستكشافية قبل ان يطلب احد منه هذا الامر ، لذلك فاذا ماهبت الرياح وفق مايشتهيه فان كل شيء سينتهي عندئذ الى الحسن ، لابل الى أحسن مـن الحسن . عاد ألنقيب الاول الى الغرفة وبعد ان جلس على كرسيه قال يخاطب فاسيلييف :

ــ لابأس ! سندخل كلانا عقب دقيقتين !

ــ ان لي طلبا ايها النقيب الاول ، وانا اريد منك ان تدعمني عندما اعرضه على العقيد .

ــ ماهو طلبك ؟

ــ على بعد ستة كيلو مترات من هنا تقع قرية تدعى جوروديشا ، وقد تركت والدي فيها ، ولم اره منذ وقت طويل ، ومن المحتمل ان يكون قد غادرها ، ولكن من المحتمل ايضا انه لايزال فيها ، وهي لاتبعد اكثر من خمسة عشر دقيقة بالسيارة واخرى مثلها منها ، واذا ماوجدته لايزال فيها فتكفيني نصف ساعة . .

ــ من هو ابوك ؟

ــ انه كاهن كنيسة القرية .

فأجابه النقيب الاول :

ــ لا ادري !؟ لا ادري ؟! سل العقيد ! ربما يستجيب الى طلبك .

امتعض النقيب من طلب فاسيلييف ، فهذا الروسي مع انه جاسوس خبير ممتهن ، لكنه لايزال روسيا فلقد خدعه واستطاع ان يدلي بمعلوماته الى العقيد مباشرة ، لذلك اتضح له ان حرص هذا الجاسوس على الوقت ناشيء عن رغبته في مشاهدة ابيه ، لذلك بادره بصوت جاف :

ــ هيا بنا !

فنهض فاسيلييف واتجه الى الباب تتبعه جلبة حذاء الجندي الالماني المسلح وعقب ساعة من الزمن كان يجلس بالقرب من سائق سيارة « الاوبل » الصغيرة ضابط متأنق برتبة ملازم هو مرافق العقيد ، بينما كان فاسيلييف وجندي آخر محشورين في المقعد الخلفي ، وانطلقت السيارة بانوارها المموهة ، لكن المضيئة في الشارع المظلم ، واخترقت بهم لدقائق عديدة الابنية المهدمة في ضواحي المدينة ، ثم انعطفوا الى طريق رئيسي ، وبعدها انعطفوا ليسيروا في درب ريفي كثير الاخاديد غفير الثلم افضت بهم الى الشارع الرئيسي في قرية جوروديشا ، التي لم تكن تختلف في حالها عن حال أي مكان آخر قدر له ان يكون ميدانا لكر وفر ، اذ كانت بعض بيوتها سليمة وغيرها خرائب وانقاضا . وتوقفت السيارة امام هيكل كنيسة ،

يقع تماما الى جانبها بيت صغير ثلاثي النوافذ ، او بالاحرى مابقي منه . اذ اختفى جزء منه وكان سطح هذا الجزء ينحني ليعانق الارض وبادر الملازم سائلا فاسيلييف :

ــ هنــا ؟!

فرد عليه ليقول ، نعم هنا ، وقد رددها بصوت منفعل قليلا ، ثم ترجـل من السيارة وهو يتبع الملازم . نعم ! لقد كان هذا هو البيت ، انه البيت الـذي أبصر فيه بالنور لاول مرة ، وهو البيت الذي ترعرع بين جدرانه ونما .

ولج الالماني الباب الى الجزء الذي كان لا يزال قائمـا من البيت ، واقتفى فاسيلييف اثره ، وشاهد الجنود يضطجعون على ارض الغرفة الوحيـــدة التي عف عنها الدمار وعفا ، وأضاء الملازم مصباح الجيب ، لكن الجنود المنهوكـي القوى بقوا يغطون في نوم عميق الى درجة كان من الصعب معها ايقاظ أي واحد منهم ، لذلك ايقظ الملازم العريف برفسة من قدمه ، فانتصب العريـف واقفا وادى التحية ووقف وقفة تأهب ، وتطلع الى الملازم بعينين تتراعشـان نعاسا ، فسأل الملازم الرقيب عدة اسئلة ، وقد استطاع فاسيليف الذي كـان يعرف قليلا من الالمانية ، ان يدرك فحواها ، اما الملازم فاجابه :

ــ ان اباك ليس موجودا هنا ، وهم قد بلغوا هذا المكان الامس فقط ، وهـم لايعرفون ماذا او من كان في هذا المنزل قبلهم ، ولا يوجد الان أي انسان فـي البيت ماعدا جنودنا .

ثم عاد ليسأل العريف ثانية ، وعقب ان اجابه هذا على سؤاله قال الملازم يخاطب فاسيلييف :

ــ يقول العريف ان هناك شيخا مجنونا في الساحة او في القبو ، فربما كان هذا الشيخ المجنون اباك ؟

فهز فاسيلييف بكتفيه دون ان يجيب ، فما كان من الالماني الا ان سأله :

ــ هل ترغب في التحدث اليه ؟

فأجابه فاسيلييف ايجابا ثم اخذ يحدق في الغرفة ويتأملها ، فهذه هـي الغرفة التي كانت تضم المائدة التي كانوا يأكلون عليها ، وهناك كانت الخزانـة التي كانت تحتضن كتب والده ، وهنا كان « الكوتش » والمقعد المنخفض ذو

المسندين الذي اعتاد والده ان يلتقي بالوسن فيه ، وكـان الجنود يدخلون اليها ويخرجون منها ، ولولا سطل من نفاية لما اعتقد انسان بانه كان لهذا البيـت اهلوه وسكانـه .

جلس اللازم على المقعد المستطيل واخذ يدخن لفافته وهو يسند ظهـره الى الجدار وطلب من العريف باللغة الالمانية ان يصحب فاسيلييف ليشاهـد الرجل الشيخ ، وأمره بان يبقى الى جانبيهما أثناء حديثهما ، وطلـب اليه الا تستغرق المحادثة اكثر من دقائق خمس . والحق انه كان من المتوجب علـى اللازم ان يرافق فاسيلييف وان يحضر حديثه والشيخ بدلا من العريف ، فهو يعرف الروسية ، لكنه احس بتراخ وكسل ورغب في ان يدخن ، زد على ذلـك ان الهواء في الخارج كان يزأر ويزمجر ، لذلك كله اكتفى بان كرر امره للعريف بالا تمتد المحادثة أكثر من دقائق خمس .

خرج فاسيلييف وراء العريف ، واستدار حول البيت ليتجها الى طرفـه الذي حط فيه الدمار ، وأضاء العريف مصباح جيبه عدة مرات في فتـرات متقطعة ، واخيرا توقف وضرب بكعبه على صفيحة معدنية افترشت الارض ، فارتفع من تحتها راس شيخ أتى الشيب عليه فبادره العريف قائلا :

ـ تقدم ! تعال !

فجاهد الشيخ ليبعث جسده من وجاره وخطا لتقعقع خطواته على الصفيحة التنكية ، واخذ يتخطف بعينيه المتعبتين الهرمتين نظرات ولمحات اذ كان المصباح مسلطا على مقلتيه . فتطلع فيه فاسيلييف مشدوها ، وعرف فيمن يـراه « تيموفاي » . انه « تيموفاي » فوق كل شك وريبة ، انـه الشماس في كنيسة ابيه ، فهذه هي لحيته الطويلة ، وهذا هو وجهه الذي تغوص فيه الغضون عميقا عميقا ، ولكن ولمدة لحظة ، كان من المصعب على فاسيلييف ان يصدق عينيه ، وان يؤمن بان هذا المخلوق الذي يقف امامه هو « تيموفاي » بلحمه وشحمـه وعظمه . فلقد كان الرجل محدودبا احديدابا بالغا كأن انسانا ما كسر بعصـاه عمود الفقري ، وقد اصبح وجهه كتفاحة طبخها اللهب فهو أجعد متجعد ذو لحية مدعوكة كاللباد ، لكن عينيه كانتا حمراوين تشعان ضراما ، وكان شعره ينتفش متمردا على راسه ، فناداه فاسيلييف :

ـ تيموفاي !

لكن الشيخ لم يرد عليه فكرر نداءه وخطا مقتربا منه وعاد ليثلث نداءه وليضع راحته على كتفه ، وهنا رد عليه الشيخ :

ـ من تكون انت ؟

ـ انا ابن الاب ألكسي ! انـا ايفان الكسفتيش ، ماذا دهاك أنسيتني ؟ هيا استيقظ !

ثم هز كتف الرجل هزا عنيفا وهزه غاضبا تقريبا واخذ يسأله :

ـ أين أبي ؟ أين أمي ؟ اين هما ؟

أمسى فاسيلييف على مقربة جد وثيقة من الشيخ أنه يرى الان كل اسارير وجهه ويرى الغضون العميقة ، واللثتين اللتين ثكلتا اسنانهما ، والعينين الممتلئتين بالدمع ، وقد بعثت كلمات فاسيلييف الاخيرة شيئا ما في نفس الشيخ ، حيث رأى فاسيلييف للمرة الاولى تعبيرا انسانيا يرتسم على وجهه لكن الشيخ سأله بصوت منخفض كأنه لم يسمع ماقاله فاسيلييف لتوه :

ـ لكن من تكون انت ؟ من انت ؟

فرد عليه غاضبا ومكررا :

ـ أنـا ايفان الكسوفيتش ! ايفان الكسوفيتش ! الا تذكرني ؟! أين أبي ؟!

فانحنى الشيخ على فاسيلييف ، ونفخ برائحة كريهة تنبعث من لثتيه في وجهه وقال :

ـ لقد توفى ابوك ، وكذلك امك .

ثم استدار برأسه نحو الالماني وحدق فيه كأنه يشعر بالالماني يصغي اليـه وانفجر فجأة بقهقهات مجنونة ، فارتجف فاسيلييف لكن الشيخ تابع قهقهاته حتى اصبح ضحكه سعالا ، فاخذ يضرب صدره محاولا استرجاع انفاسه ولكن السعال كان يهزه بنوباته هزا ، واخيرا انحنى ثانية نحو فاسيلييف ، وهو يخبط صدره ويهمس بأذنه بالصوت الخافت ذاته ،لقد قتلا :

فاصغى فاسيلييف ، ثم تهافت قليلا وهو يصغي الى وقع خطوات الالماني واخيرا قال :

ـ لقد قتل كل اهلي .

واضاف هامسا :

ـ انني الوحيد الذي بقي حيا .

لكنه عاد ليسأل الشيخ كأنه لم يفهم مقالته المرعبة :

ـ اين ابي ؟

فقهقه الشيخ ثانية ، واتجه بسمعه الى ناحية الالماني الذي كان قد ابتعد عنهما مسافة ليست بالقليلة ، وامسك هذه المرة بقميص فاسيلييف وتسلق اليه وهمس بسرعة في اذنه :

ـ لقد القوا بقنبلة على البيت ، وقتلوا الشيخ ، وقتلوا ايضا عجوزك ، وقتلوا كل أهلي ايضا !

ثم رفع الشيخ راسه واصغى الى خطوات الحارس فالفاه لايزال بعيـدا فقال هامسا :

ـ ماذا تفعل انت هنا ؟

لم يجب فاسيلييف على سؤاله ، فلم يكن قادرا على ان يصدق ما ادلـى به الشيخ اليه وهو يرسل حديثه قهقهة ، لكنه الان بعد ان اصغى الى هذا الصوت الهادىء لابل الهامس فلقد تحقق من ان الشيخ لم يفقد عقله بل انما يتظاهر بفقدانه حينما يرى الالمان يحيطون به ، لذلك فان مايهمس به الشيخ الان في اذنه ، هو بالضروري الحقيقة الحقة ، ولهذا سأله :

ـ متى حدث هذا الامر ؟

فأجاب الشيخ وهو يتهانف ثانية :

ـ منذ اسبوع ، لقد كان يوم احد .

فغطى فاسيلييف وجهه براحتيه ، واحس للحظة بالدموع تكاد تطفر مـن عينيه ، لكنه عصى دمعه ، ففرك براحتيه عبر وجهه كأنه يطرد حلما شريـرا عنه ، وهمس الشيخ بمزيد من القول لكنه لم يكن بمصغ اليه ، وهو يعرف بداهة بان الالمان قد قصفوا جورودیشا ، وعرف بهذا الامر من قبل فتطلع الى البيت الذي اصبح ثلثاه خرائب وانقاضا ، وشاهد عوارض واجرا ، متناثرة حـول قدميه ، وفجأة خيل اليه ان اباه وامه لم يلاقيا حتى من يواريهما التراب ، وانهما

مسجيان الان تحت الانقاض في مكان ما هنا ، فأحس بنهشة سريعة من حزن واصبحت راحتاه غريزإيا قبضتين ، فست سنوات من الزمان قد باعدت بينه وبينهما ، وقبل أن يرسلوا به الى معسكرات الاعتقال ، كان قد تخلى منذ طويل زمن عنهما او عن استذكار وجهيهما ، لكنه الان وعقب ان تخيلهما فجأة مسجيين هنا ، وتحت هذه الانقاض ، احس برغبة طاغية جبارة تتمرد على كل قواه في مشاهدتهما ، وأحس للحيظة بانه سيرفض مغادرة هذا المكان ، وبانه سيشمر عن ساعديه ويبدأ بنبش هذا الاجر بيديه العاريتين ، وهمس في سريرته ، « اولاد الخنازير » وبدأ لاول مرة في هذه الليلة يفكر بالالمان حاقدا غاضبا ، فكان يردد ويقول « يالهم من خنازير ! » ولقد احس لبرهة برغبة في ان يقبض على ساقي العريف ، وان يرفع به علاء ويضرب برأسه بالاجر ، لكن خاطره عاد ليكرر متسائلا عن السبب الذي استوجبهم ذلك ، وعن السبب الذي استوجبهم كل ذلك ، لكن الشيخ كرر سؤآله :

ـ ماذا تفعل الان ؟ هل تعمل معهم يا ايفان الكسفيتش ؟

فاجاب فاسيلييف حائر الذهن ذاهله :

ـ نعم ! نعم !

لكنه سرعان ما استدرك عندما تحقق مما قاله الشيخ :

ـ ماذا تعني بقولك اعملمعهم ؟ انني اسير لقد اسروني .

فانطلق الشيخ يقهقه وهو يسمع خطى الالماني ويقول :

ـ إذن فانت اسير حرب ؟

ـ نعم انني اسير حرب .

وكرر قوله :

ـ لقد اسروني ..

وشعر فاسيلييف والالماني يقترب اليه ، بانه يستطيع ان يموه ثانية على الالماني اذا ماخاطب الشيخ بلهجة عادية فقال :

ـ نعم انني اسير حرب ، وهم يجرونني من مكان الى اخر ويوجهون الي

مختلف الاسئلة ، من اين انت ؟ وماذا كنت تعمل ؟ و . . .

اقترب منهما الالماني وخيل الىفاسيلييف ان ضرب راس هذا الجندي بالحائط امر مبهج ولذيذ ، وهذا الخيال الذي راوده لم يكن يمثل عملا ما قد يقدم على اتيانه ، بل انما كان يمثل فعلا يسر تماما في ان يأتيه . لكنه انطاق في ظلمة الانقاض والخرائب وحاول ان يجمع شتات فكره فقال في سريرته ، لقد قتلا ، وعلى كل فهذه هي الحرب وحالها ، ولكن والحق لا يلام الالمان على هذا بل الملام هو الذي ارسلني الى معسكر الاعتقال . ومع ان هذه الافكار لم تقنعه ، الا كل امر قام بهفي العام الماضي جعل من المستحيل عليه أنيفكر في اي شيء اخر ، فأقسم بصوت عال ايمانا مغلظة بشعة ، ولو انك سألتهلمن يقسم هذه الايمان ، الهؤلاء الذين يخونهم ، ام لهؤلاء (١) الذين يعمل معهم لما استطاع ان يجيب على سوآلك . فلقد كان يقسمعلى كل الاشياء ، على السماء ، على الارض ، على الناس ، على هذا الالماني الذي يرافقه ، على هذا الشيخ ، لكنه كان يقسم على حياته القذرة الخشنة اكثر من اي شيء اخر تقريبا ، واضاء الالماني مصباحه الكهربائي واعلمه بان الوقت المحدد لزيارته قد انتهى ، اما الشيخ فكان لايزال يقهقه ضاحكا ولكن صوته كان أشد جلبة وضوضاء هذه المرة لذلك خيل الى فاسيلييف أنه قد يكون حقا مجنونا ، او انه قد يكون مس مسا خفيفا فحدق ثانية في وجه الشيخ بامعان ، لكن الشيخ لم يتحرك من مكانه ، فلقد كانوجهه يتراقص ضاحكا وهو يقول :

ـ اذن وداعا !

وعندما استدار فاسيلييف ليتبع الالماني قال مخاطبا الشيخ في سريرته من حقك ان تنفلع ، وعقب ان ابتعدا عشر خطوات توقف الشيخ عن ضحكه وإنتصب واقفا على قدميه ومد برأسه الى الامام واخذ يتطلع صامتا ولمدة طويلة الى الظهرين وهما يختفيان عن ناظريه في العتمة ، ظهر الالماني ، وظهر نجل الكاهن ، العريض والكروي تقريبا .

---

(١) يريد المؤلف ان يخفي عن القاريء القوم الذين يعمل معهم فاسيلييف لذلك كرر كلمة هؤلاء المترجم

- ٧ -

دنا الصباح وعاد سباروف الى مركز قيادته عقب ان اتضح له ان الانـذار بالهجوم الالماني كان انذارا كاذبا ، لكنه لم يضطجع ، فالساعة قد بلغت الخامسة صباحا ، ولقد كانت أهدأ ساعات اليوم ، وأزاح سباروف ستارا كان بمثابة باب للغرفة يفضي الى الممر ، وكان يريد من بطيرس ان يعد له شيئا يأكله ، وعندما ازاح الستار توقف ليشاهد بطيرس يقتعد ارض الغرفة المجاورة لغرفتهويتحدث مع جندي ونجابين اخرين وسمع بطيرس يقول بصوت هادىء لطيف ، لكنه كانت تشوبه بعض نبرات من سلطان ، نبرآت رجل ذي اطلاع واسع ومعرفة خطيـرة بالامور ، قال :

ـ انك تسألني متى تنتهي الحرب ، كيف لي ان اعرف ذلك ؟ وانا لا اعلم متى تنتهي ، لكنني اعرف بانها لاشك ستنتهي عندما نهزم الالمان ، لكن متـى سنهزم الالمان فهذا مما لا ادري به .

وسمع سباروف النجاب الحديث السن يقول وهو ينفخ بدخان سيجارته حلقات حلقات ويحدق في السقف :

ـ آه ! ان طريقنا لدحرهم جد طويل !

ثم اضاف .

ـ نعم انه جد طويل .

وقد بدا واضحا من لهجة النجاب ، انه عميق الايمان راسخ القناعة بدحر الالمان ، وان كل مايشغل باله هي المسافة وطولها ، المسافة التي تفصله الان عن حدود بلاده الغربية .

لم يرد سباروف ان يشعر الجنود بانه كان يسترق السمع الى احاديثهم لذلك عاد الى غرفته بعد ان انزل الستارة ، وجلس وراء مكتبه وصرخ يستدعي بطيرس اليه وسرعان ما انتصب بطيرس في الباب امامه فبادره سباروف :

ـ مارايك في ان تحلم لي بنوع من الطار ؟

ـ هذا ما استطيع تدبر أمره .

ثم خرج ، وترامت اثر خروجه الى مسامع سباروف ضوضاء قصاع وعلب من تنك ، ثم سمع فجأة اقداما تضرب الارض بأحذية ثقيلة وراى بطيرس يعود اليه ويقول :

ـ لقد عاد جندي الاستطلاع فهل اسمح له بالدخول عليك ؟

ـ فليدخل !

دخل فاسيلييف الغرفة، وكانت بزته ملطخة بالوحل وغبار الاجر وبقع الدم ، وقد تدلى من رقبته مسدسه الرشاش الخاص ، بينما كان يجر مسدسا رشاشا المانيا اخر بحزامه على الارض وبادره سباروف :

ـ يبدو لي انك نجحت في مهمتك ؟

ـ نعم لقد صادفني حظ سعيد .

قال فاسيلييف هذا ثم اسند ظهره على المسدس الرشاش الى الحائط ، وسحب رزمة من الوثائق من جيبه ووضعها على المكتب امام سباروف وهو يقول :

ـ انها ممزقة بعض الشيء ، فالظلام كان مدلهما كثيفا الى درجة لاتتمكن معها من رؤية اي شيء ايها الرفيق النقيب .

فسأله سباروف :

ـ أين باناسيوك ؟

ـ لقد ذهب ! لقد قتله الالمان بينما كان يزحف على محاذاتي .

ـ اين ؟

ـ على الجانب الاخر من خنادقهم .

ثم دفع فاسيلييف بالوثائق ثانية ليدنو بها من النقيب ، وبعدها استطرد :

ـ لكنني قد قتلت احدهم بدلا باناسيوك ، وبهدوء ايضا .

وسحب حربة من جزمته كانت ملطخة بالدم فطلب اليه سباروف ان يجلس ويرتاح ثم امسك بالوثائق واخذ يطالعها ، جلس فاسيلييف على حافـــة « الكوتش » واخذ يجول بناظريه في انحاء الغرفة . فهذه هي الغرفة التي وصفها اليوم للالمان وصفا مفصلا ، وسيتخذ الالمان من الاجراءات ما هو كفيل بـالا يترك منها حجرا فوق حجر ، ثم عاد ليتطلع الى سباروف فابتأس وحزن اذ خيل اليه ان قنابل الالمان قد لا تقتل سباروف، اذ انه لا شك سينطلق الى الجبهة حال بداية القصف .

وفي هذه الاثناء كان سباروف يفحص الوثائق فالفاها اوراقا تعـود الى عريف الماني يدعى هانس « شبانو » ، وكانت تتألف من عدة رسائل وبعض الصور الشمسية المزخرفة الجوانب . فصورة منها لبيت صغير ، واخرى لامرأة تحتضن طفلا وثالثة للمرأة نفسها ، ورابعة لجنود المان يجلسون على ضاف نهر « شبري»، المرأة ذاتها ، وجنود اخرين ، يسكرون ويعربدون ، والبيت الصغير نفسه ، فبدا لسباروف انه قد شاهد هذه المناظر مرات ومرات ، فتطلع الى مسلنكوف وقال:

ـ انها صور صحيحة ، وانها فرقة المشاة الـ ١٣٤ وعلينا ان نرفع هذه الاوراق والصور الى قيادة الفرقة ، فهم وحدهم يستطيعون ان يدرسوا كـل صورة على على حدة ، وقد تحتوي ايضا هذه الرسائل على معلومات تلذ لهم .

ثم عاد ليسأل فاسيلييف وهو لا يزال يتأمل في الوثائق :

ـ ولكن باناسيوك .. لقد كان جنديا صنديدا.. كيف لاقى مصرعه ؟

ـ لقد افرغت شحنة كاملة من مسدس رشاش في ظهره ، وقد حدث هذا الامر بعد ان قتلت الالماني .

ـ الى أي حد بلغت ، اقترب ودلني على هذه الخارطة على البقعة التي وصلتها .

فتقدم فاسيلييف من المكتب حيث كان سباروف يدرس خارطة ميدان وكان الشارع الذي يحتله الالمان ينعطف على الخارطة انعطافا قائم الزوايا في محاذاته للخط الاحمر الذي كان يمثل الجبهة ، وقال فاسيلييف وهو يضـع اصبعه على بقعة في الخارطة :

ـ هنا ، لقد كنت ورفيقي نزحف بين هذه الخرائب ، ثم عبرنا الجدول ،

وهنــا عند هذا الجانب من الخنــادق قتــلت الحارس الالماني واستوليت على اوراقه ، لكننا عندما كنا نزحف عائدين ، قتل باناسيوك .

ـ لقد صادفه حظ سيء ، باستطاعتك ان تذهب الان ، فلقــد قمــت بعملك على احسن وجه .

ـ اذا ما احتجت الى شيء آخر فارسل بي ايها الرفيق النقيب !

ـ حسنا ! سأعمد اليك ، اذهب وارتح الان !

لكن فاسيلييف سأله وهو يشير الى المسدس الرشاش الالماني الذي كان قد اسنده الى الحائط ..

ـ هل أتركه هنا ؟

ـ لا بأس ! اتركه مكانه ، اذهب وارتح !

خرج فاسيلييف ، وانحنى سباروف على الخارطة واخذ يرسم بنقــاط صغيرة الدرب التي سلكها فاسيلييف ثم التفت الى ماسلنكوف وقال :

ـ هل تعلم ؟! ان هذا يعني انهم لا يضعون حراسة خاصة هناك، وربمــا مكننا هذا الامر من القيام بخدعة خبيثة ضدهم . انني آسف لمصير باناسيوك، لكن كل شيء آخر يبدو على ما يرام . ثم نهض من وراء مكتبه واخذ يتجــول في انحاء الغرفة ، فلقد وقع القدر ، ومقتل باناسيوك ، لا يدفع ، اكثر مــن مصارع الكثيرين غيره، لكن باناسيوك كان واحدا من اولئك الذين حاربوا الى جانبه بالقرب من فورنييج ، ومع هذا كان عليه ان يخر هنا قتيلا في اول جولة استطلاعية تعهد اليه في ستالينغراد ، وقطع مسلنكوف عليه تأملاتــه ليقول :

ـ ان لفاسيلييف ذاك شجاعة !

فاجابه سباروف بصوت محاذر :

ـ هكذا يبدو

فسباروف لم يرتح اليه عندما شاهده يستل حربته ، لكنه لم يأبه لذلك، فالمهم عنده ان المهمة الاستطلاعية قد انتهت الى النجاح ، وان الالمان كما هــو واضح كانوا شديدي الاهمــال في وضع حراسة قوية حتى حول هذه البقعة،

بالرغم مما عرف عنهم من يقظة وحذر شديدين . وتطلع سباروف الى مسلنكوف وسأله :

ــ كيف حال جرحانا هل نقلوا الى ما وراء الجبهة ؟

فأجابه مسلنكوف :

ــ لم يتبق منهم ليلة الامس سوى ثمانية عشر جريحا . لقد كبدنا القصف خسائر جسيمة ، فالشظايا والحجارة وشظايا الزجاج كانت تتناوب العمل فيما بينها .

ــ نعم ان الميدان الطليق افضل حالا من موقعنا هذا وعقب ان نطق سباروف بهذا القول صمت لحظة ثم عبس وتجهم ، وارتسمت على وجهه تلك النظرة الشيطانية التي كانت ترتسم عادة على محياه حينما يفكر بشيء يعرف به منذ طويل ، لكنه مع ذلك لا يحب ان يفكر به ،الا انه بادر مسلنكوف سائلا :

ــ وبالمناسبة ، هل تعرف ان هناك خطا دفاعيا يحيط بستالينغراد ؟

ــ أعرف ذلك ، ولقد أطلعني احدهم على هذا الامر

ــ لقد حفروا على بعد خمسة عشر كيلومترا من المدينة خنادق وحفرا وأقاموا نقاطا قوية، وقد غطوا هذه كلها بالاسمنت المسلح، وقد قيل لي أن الالاف من الناس كانوا يعملون ليلا نهارا لانجازها ، ولكن لم تتح لنا فرصة واحدة لنحارب فيها

ــ لماذا ؟

فأجابه سباروف متجهما :

ــ لو تعرف فقط يا ميشا ، كم عدد المرات التي رأيت فيها ، في سنة واحدة ، الخنادق والحفر التي شقت دون جدوى وطائل ؟! لقد نقلت ملايين الامتار المكعبة من « القاذورات » ومن الحدود الى هنا ، لكن هذه الجهود ذهبت جميعا ادراج الرياح . ولماذا ؟ لاننا كثيرا من الاحيان ننشيء خطا دفاعيا وراء جبهتنا ، لكننا لا نزوده مسبقا بالحاميات اللازمة له ، واذا ما وضعنا فيه بعض جنود ، فاننا لا نزودهم بالبنادق والرشاشات ولا نمدهم باي نوع من السلاح ليقاتلوا به ، لذلك فعندما يطوقنا الالمان فانهم يبلغون مثل هذه الخطوط

الدفاعية قبلنا ، وهكذا تضيع تحصيناتنا مرة بعد أخرى ، بينما نتراجع نحن الى المدينة ونسند ظهورنا اليها ونحفر خنادق جديدة ، خنادق لا يستغرق منا حفرها ثلاثة شهور ، بل ثلاثة أيام ، هي كل ما نستطيع ان نحصل عليها من فرصة ، وعندئذ يتوجب علينا ان نقاتل فيها حتى النهاية ، حتى الموت . وهذا واقع قاس لا بل معيب مهين .. حسنا ..

ــ هل قلت بأنه قد تبقى لدينا ليـلة الامس ثمانية عشر جريحا ؟

ثم بدل موضوع الحديث وسأله راجيا :

ــ ما قولك لو ذهبت لترى ما اذا كانوا قد نقلوا جرحانا من هنا ، أم لم ينقلوهم ؟

فخرج مسلنكوف والتقط سباروف سكينا أخذ يحك بها اطار شـعلة المصباح الزيتي ، وكان هذا المصباح المعروف باسم « كاتيوشا » قد صنع من ظرف قنبلة من عيار ۷۷ مم، فكان الجند يقصون ظرف هذه القنبلة ثم يطرقونه ويضعون داخله فتيلا وأخيراً يثقبون على ارتفاع قليل من وسطه ثقبا يسدونه بفلينة ، وكانوا يسكبون الى بطنه من خلال هذا الثقب بالكاز ، أو بأي نوع من « الغازولين » شريطة ان يضاف اليه بعض من ملح ، وذلك اذا لم يكن الكاز متوفرا لديهم .

عقب ان قص سباروف الفتيل ، اخذ يحرك بشوكته ، بتراخ وكسل ، اللحم المعلب الساخن الذي جاءه به بطيرس ، فهو لم يكن يرغب في الاكل حقا، فلماذا يتوجب عليه ان يأكل ؟ ولربما خيل اليه ، ان الساعة السادسة صباحا ليست بالساعة اللائمة ليتناول فيها طعام العشاء . لكن الساعات يختلط بعضها ببعض ، وأحس برغبة في استنشاق الهواء الطلق ، وكان قد سبق له أن وضع معطفه على كتفيه حينما عاد اليه مسلنكوف ليقول :

ــ لقد نقلوهم جميعا اثناء الليل .

ثم استطرد :

ــ هل تعرف من جاء لنقل الجرحى ؟ انها الفتاة نفسها التي انتشلناها من الماء

فاجابه سباروف :

ــ حسنا !

ــ لقد بدا لي انها هي التي قامت بالقسط الاوفر من العمل ، لكنني لم أرها الا منذ هنيهة وقد اصطحبتها معي ..

ثم أضاف بصوت خافت :

ــ فلتسمح لها بالجلوس ، لترتاح قليلا

ــ طبعا ، دعها ترتاح !

وفجأة تذكر سباروف انه هو المضيف هنا ، وان احدى واجباته الفقيرة ان يقري ضيفه ، وخرج مسلنكوف الى الممر واخذ ينادي بصوت عال :

ــ آنيا ! آنيــا ! اين انت ؟

فاقبلت عليه الفتاة ووقفت خجلة على العتبة ، وبدا لسباروف ان الايام الثمانية الماضية قد زادت في نحولها نحولا فطلب اليها سباروف ان تجلس ، وانهمك في استقبالها ، وحاول ان يكون مكرما ، لكن كل محاولاته هــذه جاءت متكلفة سمجة ، فبدلا من ان يقدم اليها الكرسي الصغير ، رفعه علاء ثم القى به على الارض ، بقوة جعلت الفتاة تحدق فيه مشدوهة مذهولة ثم سألها بلهجة يبدو منها انه لا يخص احدا بالذات بسؤاله وقال :

ــ كيف حالك ؟

فابتسمت الفتاة وأجابت وهي تجلس :

ــ بخير .. وحالك انت ؟

ــ انني بخير ايضاً

وقاطعها مسلنكوف المرح :

ــ ماذا تعني بقولك « بخير » ؟ اننا في اروع الحالات وابهجها انظــر ما امامك وما حولك ...

قال هذا وهو يلوح بيده باعتزاز وفخر كأن كل شيء حولهم يمثل حقا حياة هانئة جميلة .

لكن سباروف استطرد يسأل الفتاة :

ـ على ما يبدو انك قد نقلت جرحانا .

فاجابته :

ـ لم اكن انا .. في اليوم الاول ، لكنني انا .... في الايام الثلاثة الاخيرة.

ـ على كل حال لقد نقلت ١٠٨ جرحى

ـ نعم بما فيهم اولئك الذين نقلوا في اليوم الاول ، اما انا نفسي فلم انقل سوى تسعين جريحا .

ـ لا شك انك لم تلتقي بأحد منهم في النهر حينما كنت تعبرينه .

فابتسمت الفتاة اذ تذكرت كيف القي بها بالذات في النهر وقالت :

ـ لا ! ولا واحد منهم ، لكن في المساء اطلقت علينا احدى الطائرات نيرانها حينما كنا لا نزال على الطوق وقد قتلت رجالا اربعة .

ـ من رجالي ؟

ـ نعم من رجالك ؟

ـ لقد اختفيت سريعا تلك المرة

ـ نعم لقد نسيت ان آشكرك

ـ لا شكر على واجب !

ـ انا أعرف ، وعلى كل حال ، شكرا لك

ـ متى تعودين ؟

ـ علي ان انتظر حتى المساء ، فلقد تأخرت هذه المرة في عملي ، والنهار أمسى وشيكا .

ـ نعم فعندما تشرق الشمس فانك لا تستطيعين العودة بالجرحى ، ولكن لا بأس ! بمقدورك ان ترتاحي ايضا هنا .

ـ سأذهب فورا لارتاح ، فاعواني يضطجعون منذ هنيهة خارج غرفتك ، فلقد مضت عليهم ليلتان لم يذوقوا فيهما طعما للكرى .

ثم أنتصبت الفتاة واقفة واتجهت نحو الباب لكن سباروف سارع ليقول لها ملهوفا :

ــ كلا ! الى أين تذهبين ؟ الى ايـن تذهبين ؟ بمقدورك ان ترتاحي هنـا في غرفتي ، فانا والملازم ذاهبان لتونا ، ولذلك فلتضطجعي هنا ولترتاحي !

ــ ولكن الا اثقل عليك ؟

شعر سباروف من لهجتها بانها كانت متعبة حتى الموت ، وانها كانت ترى تلك اللحظة في سرير الميدان ، وبطانية تلتحفها مجرد حلم تقريبا لذلك أجابها:

ــ أبدا ! ابـدا

فردت الفتاة :

ــ حسنا ! اذن سآخذ قسطا من الراحة

ــ لكن عليك ان تأكلي اولا .

ــ حسنا ! اشكرك !

فصاح النقيب مناديا بطيرس وطلب اليه ان يحضر للفتاة بعض طعـام لكن بطيرس عندما دخل عليهم وسمع ما امره به سباروف قال :

ــ لكن المقلاة لا تزال امامك ايها الرفيق النقيب !

فدفع سابروف بالمقلاة الى الفتاة وكان لما يذق منها شيئا وقال:

ــ آه ! صحيح !

لكن الفتاة عندما شاهدته يقدم اليها المقلاة قالت :

ــ وأنت ؟ الا تريد ان تأكل ؟

ــ سأشاركك الطعام ايضا ..

ثم تناول سباروف مزادة (مطرة) المانية ونزع منها سدادتها وسكب لنفسه ولمسلنكوف بعض الشراب في قدحين صنعا من ظروف القنابل ، وكان يعرف مثل هذا القدح بين الجنود باسم « اللغم الارضي » وكانت هذه الاقـداح كلما امتدت الايام بالحرب تحل اكثر فاكثـر محل الاقداح الزجاجية والمعدنية في

خنادق الضباط ومواقعهم . وعندما ملأ سباروف القدحين التفت الى الفتاة وسألها :

هل تحتسين الخمرة ؟

ـ انني احتسيها فقط في حالة التعب ، لكن ارجوك ان تسكب لي نصف قدح فقط .

فاستجاب سباروف الى طلبها وتناولت الفتاة القدح وشربت ما فيه بهدوء دون ان ترتعش كأنها طفل مطيع يتناول دواء . وبادرها مسلنكوف سائلا :

ـ هل تحسنين الغناء ايضا ؟

ـ لقد اعتدت الغناء على انغام الجيتار .

لا شك ان جيتارك معلق الان فوق سريرك في منزلك ، وانني لواثق من ان له شريطا جميلا .

فأجابته :

ـ كان له شريط ، لكن لم يعد له الان ولشريطه وجود ، فانا من هنا .. كما قد تعرف !

كانت كلمتا « من هنا » كافيتين ليفهم ثلاثتهم بان كل ما كانت تملكه الفتاة قد اتى عليه الدمار ، وان الحرب لم تترك لها شيئا من متاعها واراد النقيب ان يمازحها فقال سائلا :

ـ حسنا ! هل كففت عن الخوف ؟ انك لا شك تذكرين الحديث الذي دار بيني وبينك ؟

فأجابته :

ـ لن اكف عنه ابدا ، ولقد سبق لي أن إطلعتك على اسباب خوفي ، فكيف تريد لي ان اكف عنه ؟ لن اكف عنه .

ثم اضافت بعد لحيظة من صمت :

ـ لم أكن اعتقد بانني سأصادفك ثانية

فرد عليها سباروف :

ـ لكنني انا كنت واثقا من انني سألتقي بك ثانية في احد الايام

ـ لمـاذا ؟

ـ لقد لاحظت ان الانسان في الحرب قلما يقابل الناس مرة واحدة فقط . . اين كنت تسكنين . . ابعيدا من هنا ؟

ـ لا ، بل انما جد قريب من هذا المكان ، انه في الطابق الثالث من ذاك الشارع المنعطف يمينا .

ـ هذا ما معناه أن الالمان لا يزالون يحتلون بيتك ؟

ـ نعم

وفجأة صاح سباروف وهو يتذكر أمرا ما وقال :

ـ « آنيا » ! « آنيا » ! هل تعرفين بانني أخبيء لك مفاجأة كما اعتقد ، وربما قد لايكون ماأخفيه بمفاجأة لك ، لا ادري ، فقد لاتفاجئين بما اقوله .

لم يكن سباروف واثقا من حقيقة ما اعتلجت به ذاكرته ، لكن بدا له على نحو ما ، انه اذا ماكانت الصدفة قد شاءت له أن يرى هذه الفتاة التي انتشلها من الماء مرة ثانية ،وشاءت أن تقودها اليه لتتفقد جرحاه ، فما الذي يمنع الصدفة اذن من أن تدهمه بغريب ؟

ـ ما هي المفاجأة التي تخفيها ؟

ـ هل اسم عائلتك كليمنكو ؟

ـ نعـم !

ـ اذن فانني لواثق من مفاجأتي لك ، لكنها ستكون مفاجاة سعيدة ، لقـد شاهـدت امـك .

ـ أمي ؟ اين ؟

ـ على الضفة الشرقية للنهر ،وفي قرية « آلتنسكايا » وقد قالت لي بـان اباك يقيم في مكان ما هنا في المدينة . . الا يقيم هنا ؟

ـ فاجابته آنيا :

ـ نعـم !

ـ لقد رأيت امك في « التنسكايا » منذ تسعة ايام ، أي اليوم نفسه الذي عبرنا فيه النهر سوية ،لكنني يومذاك لم اكن اعرف اسمك ولهذا لم اذكر لك أي شيء عن هذا الامر .

ـ ماحالها ... كيف حالها ؟

ـ انها بخير ، ولقد وصلت القرية سيرا على قدميها ، وقالت لي بان القصف قد فصل بينك وبينها .

فردت الفتاة :

ـ نعم كانت في المنزل أثناء القصف ، وانا كنت متغيبة عنه .. لكن كيف حالهـا ؟

فاجابها سباروف :

ـ انها في احسن حال ، ولقد مشت كل الطريق الى « التنسكايا » .

ـ في اي مكان رأيتها ؟ كيف استطيع ان اعثر عليها ؟

ـ لاادري ! لقد شاهدتها في التنسكايا تجلس الى قرب احد البيوت ، واعتقد بانها بلغت تلك القرية اليوم ذاته الذي شاهدتها فيه .

ـ كيف كانت تبدو ؟ وكيف كانت حالتها ، متعبة جدا ؟!

ـ قليـلا .

فردت آنيا :

ـ المهم كل المهم انها لاتزال على قيد الحياة .

فابتسم سباروف وقال :

ـ هذا هو ايضا ماقالته لي امك بالحرف الواحد عنك ، اذ قالت لي : المهم كل المهم انك لاتزالين على قيد الحياة .

فاجابت الفتاة :

صدقت ! فهذا هو الشيء الرئيسي في ايامنا هذه .

احنت الفتاة راسها قليلا اذ ارادت ان تستجوب سباروف عن امها ، لكن ما الذي يستطيع ان يضيفه على اقواله ، فلقد شاهدها لمدة دقيقتين فقط وبادرها سباروف :

ــ فلتضطجعي ! ولتنامي على سرير الميدان ، وانني ساتركك لتوي ولن اعود قبل المساء ، وسأوقظك عندما يتوجب عليك ان تستيقظي ..

فقاطعته بلهجة واثقة من نفسها :

ــ سأستيقظ بنفسي .

ثم مشت الى سرير الميدان وجلست عليه ، ثم طفرت عليه كالطفل طفرة او طفرتين ، فتجاوبت معها رفاساته فقالت عاجبة مذهولة :

ــ انه لوثير ، ولقد مضى علي زمن طويل لم اعرف النوم على أي شيء يشابه هذا .

فأجابها مسلكنوف :

ــ هناك أشياء اخرى من الاثاث سنضيفها الى اثاثنا هذا فلقد رايت كرسيين جلديين بين الانقاض وهما لا يحتاجان الا الى القليل من التنظيف، لكنهما سيجعلان عندئذ هذا المكان يبدو كأنه ردهة استقبال .

فسألته الفتاة :

ــ ألم تعثر على أي جيتار بين الخرائب ؟

ــ كلا .

ــ يالاسف الشديد !.. لو انك وجدته لعزفت لكم بعض الانغام .

ــ لابأس .. فهذه لن تكون اخر زياراتك لنا ..

ــ من المحتمل الا تكون ... لا لن تكون اخر مرة ..

ــ اذن سأعثر لك على جيتار .

ثم استأذن مسلنكوف النقيب :

ـ هل تسمح لي بالذهاب الى السرية الأولى ؟

ـ فلتذهب لتوك فسأقصد السرية نفسها بعد قليل .

وعندما غادر مسلكنوف الغرفة سألت الفتاة سباروف .

ـ ماشأنه عندك ؟

ـ انه رئيس اركان حربي .

ـ هل هـو لطيف ايضا ؟

ـ ماذا تعنين بـ أيضا ؟

ـ اعني لطيف مثلك ... لااعني مثلك تماما ، مثلي انا ، اي لا اعني بانه ليس لطيفا ، أي مثلي لكن أنا ..

وأرتبكت وحارت ولم تعرف كيف تنهي جملتها ، لكنها ابتسمت عقـب لحظة وقالت :

ـ لقد اردت ان اقول بانه مثلي تماما لايزال شابا غض الاهاب طري العود، بينما انك انت مكتمل الرجولة ، هذا ماأردت قوله .

فهز سباروف رأسه وقال :

ـ اذن فلقد حكمت علي بانني شيخ هرم .

فأجابته جـادة :

ـ لا ! انك لست بالشيخ ، ولماذا شيخ ؟ فكل ما اراه ان رجولتك قـد اكتملت بينما لاازال انا ورفيقك في ريعان الصبا ، ولا شك انك عشت مـن الحياة جزءا كبيرا ، أليس كذلك ؟

فاجابها سباروف موافقا وشاكا :

ـ لااعرف ! لكن قد يكون ماتقولينه صحيحا ، واعتقد بانه صحيح .

ـ اما أنا ـ انا ـ لم أعشه ، وليس عندي من شيء استطيع حتى ان اتذكره واحيانا اتذكر فقط ماكانت عليه ستالينغراد من حال .. الم تزر ستالينغراد قبل الحـرب ؟

ـ ابـدا .

ـ لقد كانت مدينة جميلة جدا ، وانا اعرف بان موسكو قد تكون اجمـل منها ، لكنه كان يبدو لي دائما انه لا يمكن ان يضاف الى ستالينغراد جمال فوق جمالها . ومن يدري فقد يكون سبب شعوري هذا ناشئا عن ان هـذه المدينة هي مسقط رأسي . .

وفجأة انفعلت الفتاة واستطردت :

ـ انه لعار مشين . . انها لحسرة مرعبة ، يالها من حسرة لاتستطيع ان تتصورها . . . لم تكن أمي تبكي ، هل كانت تبكي عندما كنت تتحدث اليها ؟

ـ كـلا !

ـ هل تعرف بان امي من نوع غريب من النسـاء ، فهي تبكي لاتفه الاشياء، لقد كانت تبكي حتى اذا ماكسرت صحنا ، لكنها لاتبكي ابدا اذا ماحلت داهية دهياء ، بل تسكت وتصمت ولا تعلق على الامر حتى بكلمة واحدة .

فسألها سباروف :

ـ ماذا حل بأبيك ؟

ـ لا اعرف ، كل ما اعرفه بانه لم يعبر النهر لقد قال لي فلتسمعي يا آنيا: « لست بمغادر ستالينغراد » وهو لم يغادرها وانا واثقة من هذا ، والحق ان كلاهما كانا طيبين معي ،وعندما عدت مرة الى البيت وقلت لهما بانني سألتحق بالجيش وكان ذلك عقب ثلاثة ايام فقط من مقتل اخي الاكبر « ميشا » ،اعتقدت بانهما لن يوافقا على رغبتي ، وكان بامكاني ان التحق بالجيش غير عابئة بموافقتهما لكنني كنت مع هذا لاازال اخشى مناقشتهما ، لكنهما اجابا ببساطة مذهلة إذ اكتفيا بان قالا لي« فلتذهبي» .

ثم اضافت تقول بصراحة غير منتظرة دلت على انها لاتزال تنظر الى والديها نظرة الطفل الذي يرى في والديه شخصين قلما يفهمان أي شيء على حقيقته، لذلك يدهشانه ويريحانه عندما يفهمان مايقوله او يفعله او يعرضه عليهما .

ـ الحق انها لرحمة كون والدي واعيين مدركين .

ثم استطردت :

ـ وانني لسعيدة بالتقائي بك اليوم ، فلقد كنت عندما اقوم بتفقد الجرحى من جنودك اسمعهم يتحدثون بعضا الى بعض ، وكانوا طيلة احاديثهم يرددون اسمك ولم اكن اعرف بان سباروف ذاك هو انت . ومن ثم فلقد اردت ان اراك واشكرك . لقد كنا معا في معدية صغيرة ولقد تحدثت اليك بما هب ودب ،ولقد كنت ذاك اليوم في حالة نفسية أحسست خلالها برغبة في ان افشي بكل مايختزنه صدري ، وعقب ان غادرتك بدا لي فجأة انه اذا ماقابلتك مرة ثانية، فانني ارغب في ان أحدثك بكل ماحدثتك به مرة ثانية .

ـ بماذا مثلا ؟

ـ لا ادري بماذا .. ولكن بكل شيء بصورة عامة ، ولو انك لم تنزل هنا، في ستالينغراد ، لما قدر لنا ابدا ان نلتقي ثانية .

ـ لماذا .. الا ترغبين في متابعتك دراستك ؟

ـ نعم .

ـ اذن فهذا ما معناه انك ـ ستنتهين الى جامعة موسكو ، حيث سأكون استاذا فيها .

ـ هل كنت حقا مدرسا قبل الحرب ؟

ـ كلا ، كنت لاازال طالبا ، لكنني كنت على وشك ان اصبح مدرسا .

ـ لم يخيل الي هذا الامر ابدا لقد اعتقدت بانك ستمضي كل حياتك في الجيش .

سر سباروف باعتقادها الخاطيء هذا سرور كل انسان من الاحتياطي جعلت الحرب منه ضابطا لذلك سألها :

ـ ما سبب اعتقادك هذا ؟

ـ هذا ماخيل الي ، فمظهرك مظهر عسكري يدل على انك لم تعرف غير الجندية مهنة ، ولك نظرة ..

لم تنه جملتها بل غطت فمها براحتها وهي تتثاءب فبادرها سباروف طالبا اليها ان تنام وترتاح ، فاضطجعت على السرير وتناول سباروف معطفه ودثرها به فما كان منها الا ان سألته :

ـ ولكن تريد ان تخرج بـلا معطف ؟

ـ انني لا ارتدي المعطف نهارا .

ـ ماتقوله ليس صحيحا .

ـ نعم انه الصحيح ، وكل ما اقوله صحيح فلتذكري هذا الامر مستقبلا !

فاجابته :

حسنا ! كم عمرك ؟

ـ تسعة وعشرون

ـ هل هذا صحيح ايضا ؟

ـ لقد سبق لي فاعلمتك بانني لا انطق الا بالصدق .

فتطلعت اليه شاكة وقالت :

ـ حسنا ! انا اعرف ، وطبعا فانها الحقيقة، اذا كان هذا قولك ، لكن منظرك لايوحي بانك ابن للتاسعة والعشرين ، اذ تبدو على شكل ما اكبر من سنك.

ثم اغمضت عينيها لكنها عادت لتفتحهما من جديد وتقول :

ـ هل تعرف ؟ انني تعبة تعبا مرعبا ، لقد كنت اينما حللت طيلة اليومين الماضيين افكر دائما بروعة النوم وجماله .

ـ اذن فلتنامي !

ـ سأنام فورا ... لكن هل لك اولاد ؟

ـ لا

ـ اليست لك زوجة ؟

ـ لا

ـ احقا تقـول ؟

فضحك سباروف وقال :

ـ لقد سبق لي آن اتفقت معك على ان ماأقوله هو دائما الحق .

فأجابته :

ـ حسنا ! انني أصدقك ، لكنني وجهت اليك هذا السؤال لانكم معشر الجنود عندما تتحدثون الينا ، واعني الينا نحن الفتيات ، يبدو كأن هناك سابق اتفاق فيما بينكم على القول بانكم غير متزوجين ، ومن ثم تضحكون .. انظر فها أنك تضحك انت ايضا .. أنظر الى نفسك .

ـ نعم انني اضحك ، لكن الامر سيان عندي فما قلته هو الحقيقة .

ـ اذن لماذا تضحك وممن تضحك ؟

ـ اضحك لانك وجهت الي سؤالك بلهجة غريبة مضحكة .

ـ وما هي الغرابة فيها ؟

ثم استطردت تقول بلهجة تقطر نعاسا :

ـ لقد اردت ان أعرف فسألت .

وقف سباروف يتأملها لبرهة ثم جلس الى مكتبه واخذ يبحث في جيوبه فلقد اختفى كيس تبغه فانطلق يبحث عنه في حقيبته ، ولدهشته عثر بين الخارطة ودفتر ملاحظاته على العلبة التي سبق له ان قدم منها الى كل من جوردينكو وبارفونوف المنكود سيجارة وذلك قبل ان يباشروا الهجوم الليلي على هذا البيت الذي يحتلونه الان . فوجد فيها سيجارة ، السيجارة التي كان قد اعدها ليدخنها بعد انتهاء الهجوم ، وكان قد نسيها منذ ذاك الحين فحدق في العلبة ثانية ثم اخرج اللفافة منها كأن مناسبة خاصة تستحق منه ان يدخن هذه السيجارة الاخيرة واشعلها وسحب منها نفسا عميقا .

اخذ الضوء يتسرب من النافذة ، وأطل نهار جديد يحمل معه أعباء قاصمة للظهر ، فهو يوم آخر من ايام الحصار ، ويوم اخر من الايام التي بدأ يعتاد عليها، لكن هذا اليوم يحمل اليه ايضا ، فوق مايحمله من قلق ، قلقا جديدا ، وهو قلق لايريد ان يعترف به حتى لنفسه ، مع انه يحس به اكيدا ، انه قلقه على هذه الفتاة المضطجعة تحت معطفه في الزاوية . فهو يشعر شعورا غامضا بان هذه الفتاة قد اصبحت بصورة ما ، مرتبطة وثيق ارتباط بكل ماقد يفكر به مستقبلا، وبالمعركة وبالموت اللذين يحاصرانه ، وبواقعه القائل بانك مطوق يا سباروف في هذه البنايات ، وفي المدينة التي ولدت فيها الفتاة وترعرعت ، فتطلع ثانية لا بل

ثالثة الى الفتاة النائمة ، وفجأة احس بانه عندما يحل المساء ، وعندما تغادر الفتاة هذه الغرفة وتعبر النهر بانه سيفتقدها افتقادا يتجاوز خياله ، فانهى لفافته وانتصب واقفا وبادره بطيرس وهو يراه يخرج من غرفته :

ـ أتخرج دون معطفك ؟

ـ انه جد ثقيل ، بالاضافة الى ان هذا اليوم دافيء .

ـ أثقيلا كان ام خفيفا ؟! فسأحمله لك عندماتشتد الحرارة .

ـ لست بحاجة اليه ، هيا بنا !

٨ -

اخذ النهار يجر خطاه بطيئا ثقيلا ، وقد امضى سباروف معظم وقته مع السرية الثانية ، حيث كانت تتمركز على الجانب الايسر من شارع عريض يمر بالبنايات التي يحتلها ليفيض في الساحة . وكان القصف المعتاد قد بدأ في الصباح ، لكنه كان هذه المرة اشد وحشية وترويعا وادق تسديدا وتهديفا ، لذلك اقتنع سباروف ان هذا النهار لن ينتهي قبل ان يتمخض عن هجوم قاس عنيف . وعند الظهر اتضحت صحة ماذهب اليه ، فعقب ان قصفت البنايات مرات ثلاثة عمد الالمان الى قصفها بمدفعية المورتر الثقيلة وانطلقت الدبابات الالمانية تزحف في الشارع تحت ستار كثيف من قنابل مدافع المورتر ، وكان جنود المشاة الالمان يتراكضون وراءها ويقفزون من زاوية الى زاوية ومن جدار الى جدار ، وقد استطاع سباروف ان يقدر عدد المهاجمين بسريتين ، وتمكن من صد الهجوم الالماني الاول ، وعقب ساعتين شن الالمان هجوما ثانيا على مواقع سباروف ، وقد استطاعت دبابتان المانيتان خلال هذا الهجوم ان تشق طريقها الى ساحة البناية ، قبل ان تحرقا وقد دهستا عددا من الجنود وسحقتا كامل طاقم مدفع مضاد للدبابات . واشتعلت النار في الدبابة الاولى فبدت كأنها شعلة من لهب ، ولم ينج اي جندي من جنودها ، اما الدبابة الثانية فعطلت عن العمل ، ولم يتمكن الروس من اضرام النار فيها الا بعد ان حرنت وتوقفت. اذ قذفها الجند بزجاجات البترول . وقد استطاع جنديان من جنودها ان يترجلا منها ، لكنهما ارديا فورا مع انه كان بالامكان اسرهما والحق ان سباروف لم يمنع جنوده من قتلهما، فلقد رأى بام عينه كيف دهستهذه الدبابة جنود طاقم المدفع وشاهد جثثهم المشوهة تشويها مرعبا .

وفي الساعة الرابعة بدأ القصف من جديد واستمر حتى الخامسة ، وفي الساعة السادسة وبعد تمهيد اخر قامت به مدافع المورتر الالمانية ، بدأ الهجوم الالماني الثالث ، وهجم الالمان هذه المرة دون دبابات وقد تمكنوا في احد المواقع من الاستيلاء على بناية صغيرة كانت تضم فيما مضى محولا كهربائيا ، كما

استولوا ايضا على انقاض جدار . وقبيل انتشار الظلام ، وفي غبشة الغسق جمع سباروف خمسة عشر جنديا من جنوده ، فهو كان مقتنعا بانه لايستطيع ان يترك الامور على حالها حتى الصباح ، فزحف بهم متقدما نحو البناية الصغيرة وعقب تبادل عنيف من اطلاق الرصاص استطاع سباروف وجنوده ان يستعيدوها، وقد كلفت هذه الهجمة سباروف عددا من القتلى والجرحى ، لكنه لم يلحظ خسائره في بداية الامر اذ كان لايزال يعاني فوضى المعركة وارتباكها ، وكان بالاضافة إلى ذلك تعبا منهوك القوى ، وكانت كمه قد شقتها من رسغه حتى كتفه رصاصة لفحت جلد ساعده لفحا .

وكان عند الظهر قد عصف به ارتجاج قنبلة انفجرت بالقرب منه في الحائط ، وقد جعله هذا الارتجاج نصف اصم ، ولذلك كان كل ماقام به بقية النهار يصدر عن روح بليدة وعن نفس منقبضة ، وكان يتحرك بصورة الية تقريبا ، وقد هده التعب هدا ، ولهذا عندما استعاد البيت الصغير تهاوى الى ارضه تعبا واسند ظهره الى شظية من جدار ، ثم نزع سدادة المزادة ، وجرع منها عدة جرعات ، وأحس بالبرد ، وتحقق لاول مرة هذا النهار من انه لايرتدي معطفه ، وكان بطيرس قد قرأ افكاره فسارع الى تقديم معطف اليه ، ولا شك انه كان معطف احد القتلى . وقد القاه سباروف صغيرا عليه فوضعه اولا على كتفيه لكن بطيرس ارغمه آخيرا على ارتدائه .

لم يعد سباروف ومسلنكوف الى موقعهما الا بعد ان خيم الظلام وانتشر، وعندما دخلا الغرفة شاهدا مصباحا مشعا على الطاولة ، وتطلع سباروف بحذر الى سرير الميدان فالفى الفتاة لاتزال مستغرقة في نومها ، فقال في سريرته انها لاشك متعبة لكن عليها ان تستيقظ الان ، وفجأة تذكر انه ابتداء من الدقيقة التي تحقق فيها من ان الالمان سيشنون هجوما عنيفا عليهم حتى لحظة عودته الى مقره ، لم يفكر ولو مرة واحدة بالفتاة . ودون ان يخلعا معطفيهما جلس سباروف ومسلنكوف متقابلين الى الطاولة ، وسكب سباروف الفودكا في كأسين من صنع الجبهة . واخذا يحتسيانها ، ولم يتوقفا عن الشراب الا بسبب عدم توفر شيء يأكلانه مع الفودكا ، فأخذ سباروف يبحث في درج الطاولة ثم اخرج علبة من اللحم الاميركي ، وكانت العلبة تحمل على جوانبها الاربعة صورا لالوان الطعام التي يستطيع المرء ان يعده من محتواها . وكان قد الصق بالعلبة مفتاحها فانتزع سباروف المفتاح ووضعه بفاتحتها ثم اخذ يفتح العلبة ، وسمعا صوتا

يستاذن بالدخول عليهما ، فاذنا لصاحبه فدخل عليهما رجل قصير القامة يزين كتفه بشريط واحد ، وتقدم نحو الطاولة وهو يعرض متكئا على عصا ووقف امام الطاولة وادى التحية دون بادي اهتمام وقال :

ـ انني المعلم الاول السياسي فانين ، وقد عينت قوميسيرا لكتيبتك .

فانتصب سباروف واقفا على قدميه وصافحه وهو يقول :

ـ مرحبا بك ! أنني سعيد بقدومك ، تفضل اجلس !

صافح فانين مسلنكوف ايضا وجلس على كرسي زعاق ، وكمدني خلع عمرته ووضعها على المكتب ثم فك حزامه الجلدي ، وبدا انه لم يرتح الى مجلسه الا بعد ان خفف من قيود بزته ، فأخذ سباروف يتأمل في هذا الشخص الذي سيصبح منذ اليوم فصاعدا مساعده الاول ، فالفاه شخصا كبير الرأس يكسوه شعر متموج قليلا ، تتدلى على جبهته بعض خصلات من شعر كستنائي، وذا عينين زرقاوين صافيتين ظليلتين ظلالا قلما يجدها المرء لدى اناس اخرين . دنا سباروف بالمصباح اليه واخذ يقرأ كتاب اعتماد فانين ، وكان الكتاب هو نسخة عن امر صادر عن قيادة الفرقة سمي بموجبه فانين قوميسيرا للكتيبة الثانية من فرقة المشاة رقم ٦٩٣

لم يستغرق اطلاع فانين على احوال الفرقة اكثر من عشر دقائق ، فلقد شرح سباروف له الوضع بكلمات مبتسرة وجمل مختصرة ، واوضح له ظروف الحصار ، واخبره بان ذخيرتهم من القنابل والالغام تتناقص يوما بعد يوم ، وان مخزونهم من العيارات النارية قليل ايضا لكنه ليست في قلة الالغام والقنابل، وان الطعام الساخن يوزع ليلا على الجنود من « الترامس » لكن لديهم من الفودكا ما يزيد على المعين ، وذلك لان الرقباء كعادتهم يتلكأون في حذف اسماء القتلى والجرحى من لوائح مخصصات الفودكا ، اما بزات الجنود ، فنظرا لانه قد مضت عليهم ايام ثمانية وهم بين مخندق وزاحف ، لذلك فانها امست اما اسمالا وخلقا بالية ، واما مغطاة بالوحل والطين .

لم تكن هذه الامور بجديدة على أي رجل امضى في الجبهة ولو بضعة شهور ، وانحنى سباروف كعادته ليستند بكرسيه على الحائط ثم بدأ يلف لفافة تبغ وبذلك اشعر من حوله بان الحديث الرسمي قد انتهى وبادر سباروف سائلا فانين :

ـ لاشك أنك تقيم هنا في المدينة منذ مدة طويلة ؟

فاجابه فانين :

ـ لقد عبرت هذا الصباح فقط النهر ، وانا عائد لتوي من المستشفى .

ـ هل كنت في ستالينغراد من قبل ؟

ـ لقد كنت .

ثم عاد فانين وقد ارتسمت على وجهه تعابيرغريبة فكرر وهو يتثاءب قائـلا :

ـ لقد كنت فيها . ولقد كنت قبل الحرب سكرتيرا لكومسمول ستالينغراد

ـ احقا تقول ؟

ـ نعم ، فمنذ ثلاثة اشهر عندما غادرت ستالينغراد الى الجبهة الجنوبية كنا جميعا نظـن ان هذه المدينة تقع بعيدا في المؤخرة ، وكانت تفصلها عـن الجبهة مسافة شاسعة يصعب معها على المرء ان يتصور انني سأجلس اليك هذه الليلة في هذه البناية . . انت تعرف انه كانت توجد حديقة امام البناية ، ولكنني اعتقد بانه لم يبق منها الان الا الشيء القليل . .

ـ نعم ! شيء جد قليل ، بضع شجرات ، ورافعتان لشبكة الكرة الطائرة.

فضحك فانين وقال :

ـ حسنا ! حسنا ! رافعتا شبكة الطائرة ! هل تعرف باننا لم ننجح فـي تمهيد ملاعب للتنس ، فقبيل الحرب بقليل استدعيت شباب الكوموسمول في يوم احد ، ثم سلفنا سطحها وبعدئذ مررنا بالمداحل عليه ، لكن لاشك ان القنابل قد اعادته الان اخاديد وحفرا .

فاجاب سباروف موافقا :

ـ نعم أخاديد وحفر .

فتجهم وجه فانين وعلت محياه امائر تأمل عميق ثم قال :

ـ ان الشيطان وحده يعرف ، كما اعتقد ، بان القتال هنا شاق وعسير ، والحق انه لمن المرعب ان يقع الفولغا على مثل هذه المسافة القصيرة منا ، وعلى

كل حال فانتم افضل حالا مني، فانا اعرف كل رقعة وزاوية من هذه المدينة ، نعم كل رقعة وزاوية ، بما لهذه الكلمة من مفهوم حرفي . وانا لا اقول هـــذا متوخيا ان اخطب فيكم . فمنذ أثني عشر عاما قررنا ان نشق حزاما اخضر حول المدينة وان نشجره كي نقي المدينة من الغبار . ولم تكن يومذاك نعتقد بان الحرب ستلتهم اشجار الزيزفون عقب عشرة اعوام والتلياء تلك ، وان اولئك الصبيان الذي غرسوها والذين لم يكن اكبرهم حينذاك يتجاوز الخامسة عشرة من سنة لن يبلغوا الثلاثين من العمر ، وانه قد كتب عليهم ان يموتوا فـي هـذه الشوارع . واظن انك أنت نفسك لم يخيل اليك يومذاك مثل هذا .

ــ ربما لا .

فمد فانين بذراعيه ثم القى بنظرة فاحصة على سباروف وقال :

ــ اين اهلوك ؟

ــ ان اهلي حيث اوجد .

ــ وقبل هــذا الوقت ؟

ــ في حوض الدونتز .

ــ ان هذا ما معنــاه أنك لم تعرف بيتا لك لاكثر من سنة ، ومع ذلــك فانك قد نجحت لا أقول في تعلقك به ، بل على الاقل في التعود على سكنــاه لكن أنا ؟! تصور انني كنت هذا الصباح اتطلع الى المدينة من الضفة الاخرى .. لا ! لا ! انك لا تستطيع ان تتصور .. فلربما أن آمر فرقتك قد أطار بعقلــك كما أطار بعقلي اذ كان علي ان اجيب على اسئلته كالآلة : نعم ! لا ! نعم ! لا ! نعم ! لا ! ومن المحتمل انك لا تفهم ما اتحدث به اليك الآن ؟

ــ لماذا لا افهم حديثك ؟ ليس من الصعب على فهم ما تعنيه .. هل تعرف بانه عندما تهب الريح مساء لتحمل الرماد والغبار الحار ، يخيل الي كثيرا مــن الاحيان ، انها ريح تهب من الغرب ، من مدن شارنيجوف وكييف وبولتافا ... الى الجبهة .. فأنا افهم ما تعنيه تماما ، لكنني بدلا من أن احــزن واكتئــب ، ينهشني أحيانا مرير شعور .

ــ ومن يختار شعورك ليصب نقمته عليه ؟

ـ يختارني ويختار بعض الناس الاخرين ، والله يعلم من يختار غيرهم ايضا .ولربما كان علينا فيما مضى ان نولي أشجارك وتشجيرك الاقل مـــن الاهتمام ، وان نكرس لاشياء اخرى مزيدا منه . انظر لقد خدمت‌عندما حان دور قرعتي سنتين في الجيش ، وعندما انتهت خدمتي ووجدوني أصر على العودة الى الحياة المدنية ، قالوا لي يا للخسارة ! لقد كان باستطاعتنا ان نجعل منك جنديا ممتازا ، لكنني مع هذا لم أصغ لكلامهم . ولتذكر بانني لو كنت يومذاك مقتنعا بانه لـن تنشب الحرب ، لكنت محقا فيما اتخذته مـن قرار ، لكنني كنت حينذاك مؤمنــا بان الحرب ستنشب ان عاجلا او آجلا وهـذا ما معناه انني لم اكن محقا في أصراري على العودة الى الحياة المدنية ، لقـد كان علي ان ابقى في الجيش

فأجابه فانين :

ـ انا ادرك ما تقصده ، ولكن من المستحيل ان يمتهن جميعنــا الجندية. وانت لا شك توافقني على قولي .

ـ انني اوافقك بتحفظ واحد ، لقد اصبحنا الآن جميعا جنودا ، ولكننــا بلغنا هذه الحال في وقت متأخر عما يجب ، ولكن ما جدوى أن يتـــذكر المرء كل هذا ، فمهنتنا اليوم هي مهنة الجندي بغض النظر عن اوهامنا الخاصة السابقة واوهام الاخرين من الناس . فالآن امامنا هذه البنايات الثلاث فقط ، وهذا كل ما لنا في الوقت الحاضر ، ولـن نفرط بهذه البنايات ابدا اليس كذلك؟

فابتسم فانين وقال :

ـ آمل الا نفرط بها

ثم صمت قليلا واستطرد قائلا :

ـ هل تعرف ماذا قال لي آمر الفرقة عندما ارسل بي اليك ؟

ـ ماذا قال ؟

ـ لقد قال لي اذهب الى سباروف ! وهو ليس بالمقاتل الرديء ، لكنه يحب الجدل ويعشق النقاش ، وهو دائما في حالة نفسية ما ، فسألته ما هي حالته تلك ؟ فأجابني : هو بصورة عامة في حالة نفسية ما ، ثم لوح بيــده كأنه قد شرح لي كل شيء واسهب .

فضحك سباروف وقال :

ـ شكرا لك على صراحتك ! و انا اقر بانه تنتابني احيانا بعض الحالات النفسية ، وتارة تكون من هذا النوع وطورا من ذاك ، وعلى كل حال فانا اعتقد بان الانسان لا يستطيع ان يعيش دون حالات نفسية يعانيها احيانا ، ولا أخالك الا موافقا لي على هذا الواقع ؟

ـ نعم هذا ما اعتقد به انا ايضا

وفجأة اذ بسباروف يغير موضوع الحديث فيسأله :

ـ هل تعرف ملعبك لكرة الطائرة ، انه سالم من كل اذى تقريبا ، وليس فيه سوى خمس او ست حفر حفرتها القنابل ، وما عليك الا ان تملأهـا ببعض تراب ،وان تدحلها مرتين او ثلاثا حتى يعود ملعبك الى حاله ، زد على ذلك ان رافعتي الشبكة لا تزالان قائمتين ،وتتدلى من كل واحدة منهما قطعة من الشبكة.

ثم أشار سباروف باصبعه الى مسلنكوف الجالس الى جانبه واستطرد:

ـ ان هذا الملازم كان عضوا في فريق كرة طائرة من الدرجة الاولى ، والان قد نبهتني الى الامر الذي كان يجعله يطلب مني دائما ان اسمح له بالذهاب الى السرية الثانية ، سريته المفضلة هذه ، لقد أصبحت اعرف الان السبب الـذي يدعوه لذلك ، فملعب الكرة الطائرة تدافع عنه السرية الثانية ، ولا شك انـه يستوحيه بعض الذكريات السعيدة .

فرد مسلنكوف على النقيب ضاحكا ، لكن لهجته كشفت عن بعـض تأثر وقال :

ـ ان النقيب يرفض دائما ان يحمل قولي على محمل الجد ، فهو لا يستطيع ان ينسى ابدا انني في الثانية والعشرين فقط من عمري .. لا انني لا افكر بالكرة الطائرة اكثر مما تفكر بها أنت ، وانني لاقسم على هذا الامر

فأجابه سباروف :

ـ لا يوجد هناك من سبب يدعوك الا تفكر بها ، فالعشرون هي مرحـلة جميلة من العمر ، هل تعرف يا ميشا بانك ستبلغ في أحد الايام الثلاثين ، لكنني عندئذ سأكون انا في الاربعين ، وعندما تصبح أنت في الاربعين أكون انا في

الخمسين ، وهكذا فانك لن تستطيع أبدا ان تلحق بي ، وكلما امتد بك العمر، كلما اتضح لك بجلاء ان كون الانسان عشر سنوات اصغر افضل بكثير من كونه عشر سنوات اكبر .. هل فهمت ؟

قال هذا سباروف .وطوق مسالنكوف بذراعه وضمه اليه والتفت الى فانين وقال :

ـ كلا يا قوميسيير ، ان لي ولك رئيس اركان مدهشا عجيبا ، وهو طيب ، واصيب بجرح ، ورابط الجأش بارد القلب تحت النار ، لكنه يفكر لا بل يحلم كثيرا بعمل خاص يأتيه ليرفعه الى مرتبة البطل الحقيقي ، مثلا مخزن بارود وفتيل بيده ، شيء ما من هذا النوع ، وباستثناء هذا الامر فهو خير مقاتل ، ولشاربيه بعيض شعرات كريمة، وعيناه تشعان بنظرات فولاذية أريبة.. انني امزح يا ميشا ! انا امزح لا تغضب ، قف وضع لنا اسطوانة نستمع اليها !

فسأله فانين :

ـ الديكم حقا جراموفون ؟

ـ طبعا ! لقد فكرنا بان ننقل البيانو من الطابق الثالث الى هنا ، لكنهم قصفوه بقنبلة لم تبق منه غير اوتاره وفجأة هز الغرفة صوت انفجارين قريبين عنيفين متتاليين فخيم عليهم بعض من صمت قطعه سباروف قائلا :

ـ يظهر انه من الافضل الا نحضر اي شيء الى هذه الغرفة ، فعلى ما يبدو انه من المتوجب علينا ان نبدل الطابق الذي نحن فيه ، فطيلة هذا اليوم كانوا يطلقون قنابلهم كأنهم يتعمدوننا بصورة خاصة .

ـ لم يعبأ مسلنكوف وفانين بكلام سباروف ، اذ انهما قصدا المدفأة الموضوع عليها الجراموفون وقلبا الاسطوانات دون ما اهتمام ثم التقط فانين إحداها وقال :

ـ لنجرب هذه !

فملأ مسلنكوف الجراموفون واداره ، فانبعث لحن حزين منه ، جعل فانين يبتعد قليلا ليقف في الظلال مصغيا اليه وهو ممسك رأسه براحتيه ، وعندما انتهت الاسطوانة مسح دموعه دون ما حياء وبهدوء وطلب من مسلنكوف ان يعيدها على مسمعه مرة ثانية ، فاستجاب مسلنكوف الى رجائه وعندما توقف

الجراموفون عن الغناء قال سباروف :

ـ ان الفتاة لا تزال مستغرقة في نوم عميق هنيء ، حتى الموسيقى لم توقظها ، ومن المؤسف ان عليها ان تستيقظ .

قال هذا وعبر الغرفة وتوجه الىسرير الميدان ، وعندما حدق في السرير، وجد ان ما خاله الفتاة لم يكن سوى معطفه فعقدت الدهشة لسانه لكنه التفت الى بطيرس وسأله :

ـ هذا امر غريب ! اين المرضة يا بطيرس ؟

فأجاب بطيرس الذي كان ككل مراسل يعرف بكل شيء بان الفتاة قد غادرت الغرفة منذ ما يقارب الساعتين ، لكن سباروف لم يكتف بجوابه هذا اذ عاد ليسأله :

ـ أين ذهبت ؟ هل عبرت النهر؟

ـ كلا ايها الرفيق النقيب . انها لا تزال هنا فلقد حدث امر ما وهذا هو الامر الذي حدث . فهناك من المنطقة الحرام كان ينبعث أنين جريح ، وقد بدأ كأن انسانا ما يستغيث ويستنجد ، وقد جاء من اعلم الجندي المناوب بالامر ، وعندئذ استيقظت الفتاة، وذهبت، اليه برفقة من ذهب، أي انهم اخذوا يزحفون في ذاك الاتجاه .

ـ من ذهب ؟

ـ طبعا هي ذهبت. . .

ـ هي ذهبت ؟ عليك ان تخجل من الاقرار بمثل هذا الامر ، فانتم كتيبة كاملة من الرجال ، لكن عندما تسمعون احدا يئن ، تتركون المرضة تذهب اليه، وهي تابعة لوحدة غير وحدتكم . . أي نوع من تقاليد الضيافة تقاليدكم هذه ؟

ـ كلا ايها النقيب لم تذهب وحدها انما اصطحبت معها حامل النقالة و « كونيوكوفنا » ايضا ، فهو كان الحارس المناوب في هذا الموقع.

ـ متى حدث هذا الامر ؟

فاجاب بطيرس وهو يتطلع الى ساعته :

ــ هذه اللحظة . . أعني منذ ساعتين ؛

فطلب سباروف من بطيروس ان يستدعي الحارس بينما كان يلبس معطفه ثم التفت الى رفيقيه وطلب منهما ان يبقيا حيث هما واعدا اياهما بالا يتغيب طويلا وكان الليل باردا والسحب تغطي من الجلد نصفه ، لكن القمر كان يغمر الصقع بنوره ، فارتجف سباروف بردا واسرع اليه الجندي المناوب وقد بادره سباروف سائلا :

ــ في اي اتجاه زحفوا ؟

فأشار الجندي باصبعه وقال :

ــ في ذاك الاتجاه ايها الرفيق النقيب ، لقد كانوا يزحفون بين السياج ومن ثم انعطفوا يسارا بمحاذاة الخرائب .

ــ ماذا سمعت ؟

ــ لم اسمه بصوت خاص يثير الانتباه ايها النقيب ، لكنهم قد ألقوا ببعض القنابل منذ ثلاثين دقيقة في ذلك المكان تقريبا ، ولم اسمع بشيء أخر غيره .

أحس سباروف لمدة لحظة برغبة في أن يزحف الى الامام كي يرى بعينيه ماذا يدور هناك ، لكنه سرعان ما ضبط اعصابه ، فهذه ليست المناسبة التي يحق له فيها ان يغامر بحياته، لذلك اكتفى بان امر الجندي بان يبلغه حالا بما يستجد، لكن لم يكن مضطرا لينتظر طويلا ، اذ سرعان ما برزت له من الظلام ثلاثة اشباح تتقدم من الاتجاه ذاته ، من خرائب البناية ، نحوه ورأى شخصين يعضدان ثالثا ، فانطلق سباروف ليستقبلهم فشاهد كونيوكوف وحامل النقالة يعضدان آنيا ، ومع انه لم يتمكن من رؤية وجهها الا انه ادرك وهو يراها تتدلى من كتفي الجنديين ، ان جرحها شديد الحرج .

ــ هل تأذن لي بالحديث ؟

بهذا بادر كونيوكوف النقيب وهو يعضد آنيا بيساره ويؤدي التحية بيمناه لكن سباروف استمهله وطلب اليه ان ينقل الفتاة الجريحة الى الغرفة ، او مقر الحرس ، وكان مقر الحرس هذا يتألف من استراحة جد صغيرة تقع بين السلم

والجدار ، لكن حائطها الرابع كان يتألف من ستارة ، وكانت هذه الاستراحة تضم مكتبا وكرسيا ثلاثي القوائم خصص ليجلس عليه عامل الهاتف وقد حشر فيه ايضا كرسي غير منجد جيء به من احدى الشقق . وقد مدت في احدى الزوايا مرتبة من مراتب الجيش اضجع كونيوكوف والمراسل الفتاة عليها ، ثم وسدها كونيوكوف بمعطف وخرج ورفيقه ليبادره سباروف سائلا :

ـ حسنا ! هل تدبرتم أمرها ؟

فأجابه كونيوكوف :

ـ نعم ايها الرفيق النقيب ، هل تسمح لي بالحديث ؟

ـ هيــا !

ـ لقد سمعنا بعض أنين .. هذا ما قالته الفتاة .. ثم اوما براسه نحو الاستراحة حيث تضطجع الفتاة واسترسل : ثم بادرتني تقول بانها ستزحف لتستطلع مصدره اذ انها تعتقد بان الانين منبعث من شخص جريح فاستدعت حمالي النقالة ، وكان احدهم صغير القامة يبدو كـأنه نصف ميت ، وهو صبي حديث السن ، وقد ابدى استعداده لمرافقتها ، لكنني وجدته غير مبتهج برفقتها تلك ، لذلك قلت له سأذهب بدلا منك ...

ـ وبعدئذ ؟

ـ اسمح لي .. فذهبنا نزحف جميعنا ، وكان كل شيء هادئا حولنــا ، ولقد زحفنا مســافة تقارب المئة والخمســين ياردة ، وعندئذ وجدنــاه وراء الخرائب ..

ـ من وجدتم ؟

ـ انظر ! اسمح لي بأن اريك ..

ثم أخذ كونيوكوف يبحث في جيوب قميصه وأخيرا أخرج رزمة مــن الاوراق ، فسلط سباروف ضوء مصباحه عليها لمدة برهة وجيزة ، فالفاها اوراق الرقيب باناسيوك فسارع يسأله :

ـ اين وجدته ؟ هل كان اقرب الينا مما هو الى الالمان ام العكس بالعكس؟

فأجابه كونيوكوف :

ـ اسمح لي بان اتابع حديثي ! .. وكي اكون دقيقا في قولي ، اقول بانه كان ممددا في الوسط ، وقد تبين لي بوضوح ان المنكود كان يزحف الينا لكن قواه خارت اخيرا ولهذا انطلق يستنجد ويستغيث

فقاطعه سباروف ملهوفا :

ـ اين هو ؟

ـ لقد تركناه هناك . ولا شك انه توفي الان !

ـ ماذا تعني ، توفي ؟

فرد كونيوكوف :

ـ عندما وصلنا اليه كان لا يزال حيا ، والفيناه جريحا يئن ويتأوه ويستغيث بكل ما تبقى لصوته من قوى فبادرته قائلا: ـ اخرس انهم سيطلقون عليك الرصاص اذا ما تابعت انينك بمثل هذا الصوت المرتفع ، فهدأناه ، لكن الالمان عندما تحققوا من انهم لا يستطيعون أن يصطادونا برصاص بنادقهم بسبب الاجر، اخذوا يقذفوننا ببعض القنابل اليدوية ، فقضوا عليه ، قضوا نهائيا عليه ، واصابوا الفتاة في ساقها ، كما وان شظايا الحجارة قد الحقت بها اصابات اخرى ، لذلك اخذنا اوراقه ، لكننا تركناه حيث هو ، ثم سحبنا الفتاة وجئنا بها الى هنا واسمح لي ايها الرفيق النقيب بان اتحدث ايضا ..

ـ هل في جعبتك من شيء اخر ؟

ـ انني جد آسف على الفتاة ! بحق السماء ! الا يوجد حقا من الرجال عدد كاف ، كي يقوموا بمثل عملها ، لا مانع عندي ان تعتني الفتاة بالجرحى في مؤخرة الجبهة ، في المستشفى ، لكن في الخطوط الامامية ايضا ؟!! لقد كنت احملها ، فبدا لي انني احمل ريشة لذلك بدأت افكر سائلا نفسي عن السبب الذي يستوجبهم ارسال فتاة صغيرة كهذه الى خطوط النار ؟ هل تسمح لي بالانصراف ؟

فأذن له سباروف ثم دخل استراحة الحرس فوجد آنيا تضطجع هادئة على المرتبة وعندما شاهدته يدخل عليها فتحت عينيها وتطلعت اليه فسألها سباروف :

ـ ماذا دهاك ؟

ورغب سباروف في ان يؤنبها على فعلتها الحمقاء وانطلاقها دون أن تستأذن احدا ، لكنه كان يعرف بان تانيبها لن يجدي فتيلا ولهذا عاد ليكرر سـؤاله :

ـ ماذا دهاك ؟

فأجابته :

ـ لقد أصابوني ، ثم صدم راسي شيء ثقيل ، لكن جرحه جرح سطحي كما اعتقد ، مجرد خدش .

ـ هل ضمدوا جراحك ؟

ـ نعم لقد ضمدوها

ـ وكيف حال ساقك ؟

فأجابه حامل النقالة الذي كان يقف فوق راسها :

ـ نعم لقد ضمدنا ساقها ايضا . . هل ترغبين في جرعة ماء ايتها المرضة؟

ـ كلا ! شكرا

كان سباروف في تلك اللحظة يتأرجح بين قرارين ، فكان من جهة يرى انه من المستحسن الا يلمس احد الفتاة لمدة يومين او ثلاثة ، يترك فيها لها أن تتدبر جروحها بنفسها ، وكان من جهة اخرى مطلعا على الامر الذي صدر عن قيـادة الفرقة والقاضي بنقل كل جندي اصيب صباحا بجرح بسيط ، ويمكن لهـذا الجرح ان يصبح في المساء خطيرا ، فالخطيرو الجراح من المحتمل ان يصبحوا امواتا لذلك قرر سباروف ان يعامل الفتاة معاملته لاي جندي ، فيرسل بها عبـر النهر في الليلة ذاتها ، واخيرا بادرها سائلا :

ـ انك لاتقوين على المشي ، أليس كذلك ؟

ـ أخشى انني لا استطيعه هذه اللحظة .

ـ اذا فعلينا ان ننقلك الى الضفة مع الجـرحى الاخريـن ، وفـورا ،

(٨)

وبأفضلية اولى .

ترقب سباروف ان تجيب الفتاة بان جرحها ليس خطيرا ، وأنه باستطاعتها ان تنتظر لتنقل مع الدفعة الاخيرة من الجرحى ، لكنها فهمت من ملامح سباروف انه عازم على ارسالها مع الدفعة الاولى من جرحاه لذلك تقبلت قراره بسكوت وصمت ، لكنها بادرته فجاة لتقول بصوت تحاول فيه أن تبرر مسلكها :

ـ لو أنهم لم يجرحوني ، لكان بمقدورنا ان ننقله الى هنا ، فهما بعد ان اصبت لم يعد باستطاعتهما ان يتدبرا الامر وحدهما .. لانه كان قد قتل..
فرد عليها سباروف برقة غير مرتقبة من صوته وقال :

ـ لا بأس ! لا بأس .

ثم سحب بالكرسي وجلس الى جانبها وهو يقول :

ـ سيعبرون بك النهر فورا ، ويجب أن تشفي بسرعة ، وعندئذ ستعودين الى العناية بالجرحى فابتسمت وقالت :

انك تتحدث الان تماما كما نتحدث نحن دائما الى الجرحى ، اذ نقول للجريح منهم لا بأس عليك ايها الصبي الهرم ، ستشفى بسرعة .

فأجابها سباروف :

ـ ولماذا لا ؟ انك انت جريحة الان ، وعلي ان اتحدث اليك بنفس الاسلوب المتوجب على الانسان التحدث به الى الجريح.

فقالت :

لقد كنت افكر الآن كيف انه من المرعب حقا ان ينقل الجرحى عبر الفولغا والقتال مستعر الوطيس ، فلقد كنت فيما مضى اتجول بينهم ، واقوم بالمترتب علي ، بينما يكونون هم ينتظرون ممددين مترقبين ، اما الان وقد اصبحت حالي كحالهم ، لذلك كنت أفكر بالرعب الذي كان ينتابهم آنذاك .

ـ هل انت خائفة ايضا ؟

فأجابت الفتاة :

ـ كلا ، انني لسبب ما لست بخائفة الان ، وهذه هي اول مرة لاينتابني فيها احساس بالخوف ... اعطني سيجارة !

ـ هل تدخنين ؟

ـ لا ! لا ادخن عادة ، لكنني ارغب في سيجارة الان

ـ آسف ! لا توجد سيجارة ، وعلي أن الف لك واحدة .

ـ لا مانع !

فلف لها لفافة وعندما انتهى من لفها تردد قبل ان يبلل حافتها بلعابه كي يلصقها ، الا انها بادرته تطلب منه ان يلصقها بنفسه ، فمر على حافة الورقة بلسانه ، ثم الصقها وناولها اللفافة ، فوضعتها بين شفتيها بصورة غريبة ، وتقدم منها واشعلها لها ، وعندما اضاء نور الثقاب المترنح وجهها وجدها سباروف فاتنة جميلة فاطال فيها النظر ، فبادرته سائلة :

ـ لماذا تحدق في وجهي ، انني لا ابكي ؛ لقد زحفنا في الوحل وبعض برك الماء ولذلك ترى وجهي مبللا .. هيا اعطني منديلك كي اجففه فاخرج سباروف منديله من جيبه والقى عليه نظرة فارتبك وحار اذ وجد المنديل قذرا ومغطى بفتات التبغ ، لكنها تناولته منه ومسحت وجهها به ثم اعادته اليه وسألته :

ـ هل سينقلونني فوراً ؟

ـ نعم ، نعم !

بهذا اجاب سباروف وهو يحاول أن يعطي كلمة نعم الثانية النبرة ذاتها التي تنطلق بها شفتا ضابط اعلى رتبة ، والتي انطلقت بها شفتاه من قبل ، لكنه لم يستطع اليها سبيلا .وفجأة سألته الفتاة :

ـ هل ستفكر بي !

ـ سأفكر !

ـ لا تنس ! انني سأشفى حقا بسرعة ، ولا اقول هذا القول الذي يقوله كل جريح ، فأنا اعنيه ، واحس به ، لذا عليك ان تفكر بي !

فاجابها سباروف حزينا :

ـ كيف استطيع ان لا افكر بك ، سأفكر بك اكيدا ..

وعقب بضعة دقائق حضر حاملا النقالة لينقلاها فوقفت وجلست على النقالة ، لكنه بدا واضحا انها لاقت بعض مشاق وهي تقف وبادرته تقول بانها تشعر بصداع اليم ، واقبل حاملا النقالة وعاضداها واضجعاها برفق على النقالة، اما سباروف فسأل عما اذا كانوا قد بدأوا ايضا بنقل الجرحى الاخرين ، فأجابه أحدهم ايجابا واعلمه بانهم سينطلقون جميعا معا .

غمرت الشارع غبشة من ظلام وتحقق سباروف من انه لم يقل للفتاة اية كلمة من الكلمات التي كان يرغب رغبة شديدة في ان يسمعها اياها، وخطا حاملا النقالة بضعة خطوات ، وبدات النقالة تتحرك ، وهو لما يقل للفتاة شيئا بعد ، لكن لسانه عصى رغبته الضارية تلك ، فهو لايعرف كيف يقولها ولا يجرؤ على قولها ، وأحس برثاء حاد لا عقلاني لحال هذه الممرضة ، التي سبق لها ان ضمدت الكثيرين من الجرحى ورافقتهم ، والتي تضطجع الان لا حول لها ولا طول على النقالة ، ولدهشته وجد نفسه ينحني على الفتاة وهو يشبك بين راحتيه وراء ظهره كي لا يؤلمها ، ثم يقترب بحركة غير متقنة بوجنته الى وجهها ، ودون ان يعرف ما يفعل طبع قبلة على عينيها ، واخرى على جبهتها وثالثة على شفتيها . وعندما رفع رأسه ، شاهدها تنظر اليه بعينين مفتوحتين ، تفيضان فهما وصفاء ، فبدا له انه لم يقبل فتاة جريحة لا تستطيع الحركة او الاعتراض بل انما قبل فتاة توافق على تقبيله لا بل ترغب في قبلة وتشتهيها ايضا .

عاد سباروف الى مقره ونادى بطيرس وطلب منه ان يستدعي فاسيلييف فورا اليه ، وعقب بضعة دقائق حضر فاسيلييف ووقف في الباب هادئا وبادره سباروف قائلا :

ـ لقد قلت لي ان باناسيوك قد قتل في الجانب الالماني من الجبهة

ـ نعم

ـ هذا ليس صحيحا !

ـ لكنه قتل حيث قلت

ـ كلا لم يقتل هناك ، لقد عثر عليه في المنطقة الحرام

صمت فاسيلييف ، واستطاع ان يدرك من التعابير المرتسمة على وجه

النقيب ، ان خطأ ما قد وقع ، لكن اسوأ الاحتمالات وأقساها ان يكون باناسيوك لايزال حيا ، فان هذا مما لم يخطر على بال فاسيلييف ، اما سباروف فاسترسل سائلا :

ـ لقد وجدوه فيالمنطقة الحرام مصابا بجرح خطير،فكيف تفسر هذا الامر:

ـ لا أعرف له تفسيرا ايها الرفيق النقيب ، فـدع باناسيـوك ان يفسره طالمـا هو لايزال حيا .

ـ لكنه قد قتل ، وقتل فيما بعد ، وهو لايستطيع بعد ان قتل ان يفسر او ...

فأجابه فاسيلييف بارتياح :

ـ لااعرف ، لابد انه زحف الينا ..

فرد عليه سباروف غاضبا :

ـ سأفسره دون ماحاجة الى مساعدتك ، لكن عليك الان ان تشرح لـي كيف خولت لك نفسك أن تترك رفيقا لك جريحا في خطوط الالمان ؟

ـ لا اعرف ! لقد اعتقدت بانه قتل . لقد اصغيت واصغيت ، واصخت السمع الى صدره فلم أسمع له نفسا ، وكان مخضبا بالدم من راسه حتى اخمص قدمه ، فاعتقدت بانه مـات .

ساد صمت طويل قطعه سباروف بصوت بارد وقال :

ـ فلتصغ في المرة القادمة افضل من اصغائك ذاك هل فهمت ؟

ـ نعم فهمت لكن أسمح لي بكلمة واحدة ايها الرفيق النقيب !

ـ قلها !

ـ ليتني كنت اعرف ... لكنني لم اكن اعرف ... الان اقسم لك ايهـا الرفيق النقيب على انني سأقتل ثلاثة المان عوضا عنه .

ـ فلتذهب الان !

وعندما غادر فاسيلييف الغرفة اخرج سباروف دفتر ملاحظاته ، اذ كان

عليه ان يكتب تقريره اليومي ، التقرير الذي سيرفع الى بابشنكو آمر الفـوج، والذي سترفع فقرة منه الى بروتسنكو آمر الفرقة ، والذي قد تتسرب منـه نبذة الى تقرير القيادة العامة للجيش ، آلذي سيجده ستالين صباحا علـى مكتبـه .

وكـان سباروف يقوم عادة بوضع تقاريره مساء ، وكان حينما يضعها يفكر بكامل آلجبهة ، بالجبهة التي لاتشكل كتيبته وهذه البنايات الثلاث التي يدافع عنها ، سوى نقطة واحدة من نقاط لاتعد ولا تحصى . وقد بدا له ان روسيا بأكملها ، روسيا التي لابداية لها ولا نهاية تمتد منه يمينا ويسارا امتدادا غيـر متناه وتحيط بهذه البنايات الثلاث التي يصمد فيها هو النقيب سباروف وكتيبته المتناقصة عددا يوما بعد يوم .

- ٩ -

خيم هدوء نسبي على القطاع الذي تحتله فرقة بروتسنكو ، ولو ان سباروف لم يكن مقتنعا بان الالمان لم يتخلوا عن اصرارهم على متابعة الهجوم ، ولـــم يكلوا او يملوا ، بل انما كانوا يعبئون فرقتهم ويعيدون تنظيمها كي يخترقــوا الجبهة ويبلغوا نهر الفولغا ويشطروا بذلك ستالينغراد الىشطرين ، أقــول لولا كل هذا ، لبدا لسباروف إن هذا الهدوء الذي يخيم على قطاع فرقته راحـــة مكتسبه عقب مادار فيه من معارك ومجازر .

لقد كانت تترامى الى آذانهم من الجنوب ليلا نهارا أصداء قصف المدافع، لكن قطاعهم كان هادئا صامتا ، واعني بالهدوء الهدوء وفق مفهوم ستالينغراد . اذ كان الالمان يقصفونهم ايضا بين فترة واخرى ، فلقد اعتادوا ان يقصفـــوا البنايات التي يحتلها سباروف خمس أو ست مرات كل يوم ، وكانوا يقصفون طورا هذه البناية وتارة تلك وثالثة هاتيك ، وكثيرا ماكان بعض المشاة الالمان يحاولون انيستولوا على بضعة امتار من الخرائب والانقاض ، لكن جميع هجماتهم هذه كانت هجمات جد هزيلة لاتمثل قتالا حقيقيا اذا ماقورنت بسابقاتها .

وكان الالمان يتوخون من وراء مثل هذه الهجمات آن يرغموا الروس علـى الا ينقلوا أي جندي من قطاع سباروف لتدعيمالجبهة الجنوبية . والحق ان شعور سباروف بالقلق الناجم عن توقف القتال نسبيا كان يطغي على أي شعـــور مبهج اخر ، فسباروف قد يشعر بانه لايزال حيا ، وان ساعات الهدوء اقـل خطرا على حياته من ساعات القتال ، لكن كل هذه الاحاسيس كانت تتلاشى وتذوب في شعور عميق بالقلق . واعتاد جنود الكتيبة خلال هذه الايام مـــن الهدوء على تلك الحياة الخاصة ، حياة الحصار التي قد تذهل كل قادم جديـد الى ستالينغراد باستقرارها وهدوئها ، واحيانا بمرحها . ونجح الالمان عقب ثلاثة ايام من إطلاق نيران مدافعهم في تدمير الغرفة التي كان سباروف قد اتخذها فيما مضى مقرا له ، ومن حسن الحظ ان عدد ضحايا قصفهم لم يتجاوز عامل الهاتف الذي اصيب بجرح بسيط . اما الان فسباروف قد انتقل الى القبـو

الذي كان في سالف الايام مخصصا لاجهزة التدفئة المركزية ، كما وأن كامل كتيبته قد انتقلت ايضا الى انفاق تحت الارض ، ولهذا اصبحت الحياة انظف واكثر انتظاما .

وقد علق احدهم على عامود في النفق الذي يأوي النجابون صندوقـــا بريديا حقيقيا ، وقد التقط هذا الصندوق بين الخرائب خارج البناية ، ولقـــد بقي لهذا الصندوق ، كل مااللصناديق البريدية في الايام العادية من علائـــم واشارات ، فلا تزال كلمتا « صندوق بريد » واضحتين ، ولا يزال يحمل رقمه البريدي ، ولا يزال غطاء فوهته سليما ، وهذا مما جعل سباروف يعلق مازحا ويقول بان هذا الصندوق لاينقصه سوى اشارة « مركز البريد العام » وقـــد راق هذا القول للنجابين فعلق احدهم مساء لوحة على الصندوق كتب عليها :

« مركز البريد ـ الرسائل الواردة والصادرة »

وقام جندي سبق له ان كان « ساعاتيا » ماهرا في « اوديسا » بارتجال غرفة في النفق وشق في حائطه منفذا سده بشظية من مرآة افترضها نافـــذة واخذ يمتهن تصليح الساعات ، وقام سباروف ، بعد ان وجد ان نكتته عـــن صندوق البريد قد راقت لجنوده ، فحفر على شظية المرآة :

« محل لتصليح الساعات ـ التوقيت المضبوط »

ومع ان هذه النكتة لم تكن مستملحة بصورة خاصة ، لكنها كانت تعتبـــر في الخنادق نكتة لاباس بها . اما بطيرس فلقد شغل نفسه طيلة اليومين السابقين بانشاء نوع من حمام وقد شق بمساعدة بعض المهندسين نفقا خاصا وقد سقفه ببعض شظايا الابواب ، وبنى من الاجر مرتبة من الحجارة الساخنة التي يمـــر عليها الماء في الحمامات الروسية ليمسي بخارا ثم غرس برميلا في الارض يسيل اليه الماء ، وكان الدخان يعبق في اجواء حفرة الحمام ، كما وان ارضها كانـــت مليئة بالقاذورات والطين ، ولكن مع هذا فانه لم يسبق لاي من هؤلاء الجند ، طيلة وجودهم في جبهتهم هذه ان استحموا بمثل هذا الارتياح والغبطة ، وحتى بابشنكو نفسه الذي لم يكن لديه حمام كان يأتي الى سباروف ليستحم . وكان كلما يخرج من الحمام يقول انه في المرة القادمة ، سيحضر معه آمر الفرقـــة، لكنه لم يكن ينسى ابدا ان يتبع قوله هذا بالتنبيه على سباروف بان يكون كـــل شيء منتظما تماما عندما يحضر « الرئيس » .

وأصبحت العمة « ماشا » طباخة للكتيبة ، وهي تلك المرأة التي عثر عليها بطيرس وسباروف في القبو في الايام الاولى لاحتلالهم لمواقعهم هذه . فلقد عزمت على ان تبقى مع الكتيبة حتى النهاية ، وعلى الا تسمح لاحد بترحيلها .

وكانت علائم اليأس الكئيب المشاكس التي شاهدها سباروف فيما مضى مرتسمة على وجهها قد اختفت الان ، فلقد اصبحت الان امرأة بسيطة طيبة القلب ، لكنها مع ذلك كانت لاتزال تحافظ على نزق ومجازفة يرى الشعب الروسي خلاصه وعزاءه فيهما عندما تحيق به المخاطر ، ولم تعد تذكر حتى كيف انه يكفي لقنبلة واحدة ان تقتلها واولادها معا ، فهي تؤمن الان بان القنبلة التي تنقض لتقتلها واولادها لم تصنع بعد .

وكان سباروف يغتنم كل ليلة فرصة لاتزيد عن النصف ساعة يطالع فيها كتابا او اخر من كتب بعثرها قصف المدافع وجمع بعضها جنوده .

وقد وجد بين هذه الكتب مؤلف « كليوتشفسكي » المعروف باسم « تاريخ روسيا » في خمسة مجلدات . وقد امل سباروف في ان يمتد الحصار فترة من الزمن يتمكن خلالها من مطالعة هذه المجلدات الخمسة ، ولذلك سخر مسلنكوف وفانين من امله هذا اذ قال احدهم بان السرعة التي يقرأ بها سباروف تستدعي ان يطول الحصار سنتين كاملتين على الاقل ، كي يتمكن من الانتهاء من قراءة هذه المجلدات الخمسة . كان الروس يقومون بعملياتهم العسكرية الرئيسية خلال هذه الفترة من الهدوء النسبي ليلا ، فكان سباروف يرسل ببعض من جنوده ليتسللوا ليلا ليعودوا « بلسان » الماني ، كما تعودوا على ان يسموا الاسير الذي يستطيع أن يتكلم ، او ان يقوموا ببعض الاعمال الروتينية التي تنغص على الالمان عيشهم . وقد اشترك مسلنكوف في ليلتين متتاليتين بمثل هذه المهمات ، فعجلته لم تمكنه من التمتع بامتيازاته كضابط ، فكان يناقش ويجادل ويلح على الاشتراك بمثل هذه المناوشات بنفسه ، ويقول بانه يجب عليه ان يقوم بعمل ما وهو يرى رفاقه يموتون في الجنوب على بعد ثلاثة كيلو مترات منه ، ومع ان هذا الشعور لم يكن ايضا غريبا على سباروف لكنه كان يرى ان خروج مسلنكوف في مهمات متتالية خلال ليلة واحدة امر غير مرغوب ، فهو يرى ان دوره ودور مسلنكوف الحقيقيين في المعركة اتيان قريبا ، لذلك منعه ، ولكن عندما اصر مسلنكوف مرة على أن يخرج للمرة الثانية شعر سباروف بانه لايحق له بان لايستجيب الى رغبته ، لذلك استدعى

كونيوكوف جانبا وطلب اليه ان يبقى بالقرب من مسلنكوف .وان يعتني به ،فوافق كونيوكوف بسرور ولهفة على الاشتراك في المناوشة الليلية ، اما عن موضوع مسلنكوف فانه اكتفى قائلا :

ـ لاتخف ايها الرفيق النقيب ، ان كل شيء سينتهي الى مايرام .

كان كونيوكوف يعشق العمليات الليلية ، وكان اذا ماتحدث ورفاقه يعبر عن أسفه لتخلي الالمان كليا تقريبا عن قطع الاسلاك الشائكة ، وقد قال لهم مرة ان باستطاعة الانسان في الحرب ان يزحف بهدوء وصمت الى الاسلاك الشائكة ويقطعها بسرعة تثلج الصدر وتشيع الغبطة في النفس ، والحق ان كونيوكوف كان خبيرا اخصائيا في قطع الاسلاك ، لذلك كان يشكو مرير الشكوى من انه لاتتاح له الفرصة ليظهر مهارته ويعرض براعته .

وفي النهار التالي عندما كان مسلنكوف لايزال نائما بعد عودته من مناوشة ليلية ثانية التقط سباروف معطف الملازم فالفاه مليئا بثقوب الشظايا، فلقد انفجرت قنبلة مورتر اثناء الليل بالقرب منه تماما ، ونجا منها مسلنكوف باعجوبة ، لذلك عندما حل الليل وآن ارسال الدوريات المناوشة وشاهد سباروف التعابير المرتسمة على وجه مسلنكوف تطفح بالرغبة في الاشتراك فيها بادره سباروف قائلا :

ـ ايها الرفيق الملازم ان عملك سيستغرق ليلك كله .

فأجاب مسلنكوف بسرور :

ـ حاضر !

ـ اذن عليك آن تصلح معطفك !

ـ معطفي ؟!

فاجابه سباروف :

ـ نعم معطفك ، ولن تشترك في اية مناوشة ليلية اخرى قبل ان تصلح كل ثقب فيه . هذا ماأقوله لك !

كان لمسلنكوف روحه المزوح ايضا ، لكن هذه الروح كانت ابدا تتخلى عنه اذا ماجعل انسان ما حداثة سنه موضوعا لتفكهه ولا شك في ان مسلنكوف كان سيحتمل « تنكيت » غيره باناة وصبر لو لم يكن اخوه غير الشقيق .والاكبر

منه طيارا مشهورا ومعروفا ببطولته في الاتحاد السوفياتي ، الى درجة لم يكن مسلنكوف يرغب معها في الاتيان على ذكر اخيه لامه . ولم يطلع احدا من الكتيبة غير سباروف على هذه الحقيقة ، واطلعه عليه في نوبة من نوبات الثقة المفاجئة . وقد نما مسلنكوف وترعرع في احضان عائلة كانت تعبد هذا الاخ .

وكان مسلنكوف يحبه ايضا ، ولكن حبه لاخيه كانت تشوبه غيرة مريرة منه ، حتى كثيرا ماخيل اليه ان السبب الرئيسي لحظه السيء انما يعود اولا واخيرا الى كونه اصغر من اخيه بثمانية عوام . وعندما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية واشترك أخوه فيها كان مسلنكوف لما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بعد ، وكان يومذاك مستعدا لان يتخلى عن كل شيء في الحياة لقاء السماح له بالسفر الى اسبانيا . وبعد ان انتقل اخوه الى منغوليا ، واصبح مسلنكوف في سن يتوجب عليه فيها ان يختار له حرفة ، تضرعت اليه امه ان يتعلم الرصد الجوي لا الطيران ، حبا منها في ان توفق بين اعتزازها بابنها الاكبر وخوفها على ابنها الصغير ، ولكن عندما نشبت الحرب ، وعندما لم يعد هناك اي انسان قادرا على الوقوف بينه وبين رغباته التحق باول مدرسة مشاة عثر عليها . وكان شابا طموحا مغرورا ، لكن غروره كان من ذاك النوع الذي يصعب على الانسان انتقاده في ايام الحرب ، فهو يرغب رغبة ضارية في ان يصبح بطلا ، ومن اجل تحقيق هذه الرغبة كان مستعدا لقبول اية مهمة يعهد بها اليه ، حتى اخطر المهمات واشدها تعرضا للتهلكة .

اما سباروف فانه كان يعرف ماذا يستطيع الطموح وحتى الغرور ان يعنيا في الحياة ، لكنهما بالنسبة اليه قد تلاشيا واختفيا في حروب نهمة دموية طاحنة اكول ، لكن بمقدوره ان يفهم مسلنكوف وان لايدينه ، وهو لذلك كان يبذل حثيث جهوده ليكبح جماحه ، وكثيراً مارأى في مسلنكوف ابنا له ، يصغره تسعة اعوام عمرا وسنة حربا ، وهذا مامعناه انه اصغر منه بأكثر من عشر سنوات ، ولذلك حينما كلفه باصلاح معطفه بادره يقول :

ـ هل تعرف « ياميشا » بانني عندما ارغب في ان اقدم على امر تحف به المخاطر فانني كثيرا ما اكبح جماح رغبتي بواسطة التفكير بالحرب . فهذه الحرب ستكون حربا طويلة ، وكلما طالت ايامها ازدادت قيمة الرجال الذين حاربوها منذ البداية حتى النهاية وخرجوا منها احياء ، فاذا ماقدر لي يوما ان اقود فوجا فعندئذ ستكون انت قائد كتيبة ، ومن المهم كل الاهمية بان تعيش

لتصبح قائد كتيبة . كيف ترى قولي هذا ؟ الا توافقني عليه .

فاجابه مسلنكوف بنفاد صبر :

ــ كلا لا أوافقك عليه ، مع انني اريد للكل ماتريده انت لي ، لكنني لا اريده لنفسي .

فابتسم سباروف وقال :

ــ اذن لاتوافقني على ما اقول ، وعلى كل حال فليس المهم ان توافق او ترفض ماأقول ، بل انما المهم والمتوجب عليك ان تطيع اوامري ، لذلك باشر في اصلاح معطفك !

فتناول مسلنكوف معطفه ووضعه على ركبتيه ثم ابتسم واخذ يحدق فيما به من ثقوب ، وقد دارت هذه المحادثة بينهما في الليلة الثامنة للهدوء الذي شهده قطاع فرقتهم ، بينما لم تعرف القطاعات الجنوبية طيلة هذه الليالي فترة من راحة ، فكانت المدافع تزمجر وتصخب وتعربد ولا تعرف كللا او مللا . ومع ان سباروف لم يستطع ابدا ان يتخلى عن ايمانه بالفأل السعيد ، فأله وفأل كتيبته ، الا انه بدا تلك الليلة قلقا منقبض النفس ، وفجأة قرع الهاتف فتناول سباروف السماع وسمع صوت بابشنكو يأمره باسناد قيادة الكتيبة الىالقومسير وبحضوره فورا الى مركز قيادة الفرقة ، اذن أن « الرئيس » على حد تعبير بابشنكو يطلب حضوره فتطلع سباروف الى مسلنكوف وطلب اليه ان يعلم فانين بانه قد ذهب لمقابلة « الرئيس » .

كان بروتسنكو يذرع نفقه الخاص بخطى سريعة جيئة وذهابا ، وكان نفقه يقع بالقرب الى خرائب احدى البنايات ، وهو نفق ككل الانفاق التي عرفها العقيد آمر الفرقة مقرا له ، اي نظيف وانيق . فلقد سبق لبرتسنكو ان زار الانفاق الالمانية قبل غزو هؤلاء لروسيا ، في الجبهة الغربية ، واعجب بها ، لذلك كان يبني انفاقه الخاصة على طراز هاتيك . وهو مع انه لم يكن ابدا يتهيب المغامرة بحياته اذا ما اقتضته الضرورة ذلك الا انه كان يرغب دائما في ان يكون نفقه حصينا ، لهذا كان لنفقه دائما خمسة او ستة سقوف ، لاتستطيع اية قنبلة طارئة ان تهدمها ، وكان دؤوبا على عمله ولا يطيق الكسل في مساعديه ، فكان حالما يتخذ له في أي مكان مقرا جديدا يغرق مهندسيه بالعمل والعرق ، اذ كان يريد لمقره ان يكون حصينا رحبا فسيحا يشتمل على مكتب وبضعة مقاعد ومكان

ينام فيه ، فهذا هو طراز حياة رجل دقيق مدقق لم يكن يخوض غمرات حربه الاولى ، والذي اصبح النفق في نظره منذ زمن طويل بيتا او شقة من طابق . فهو لم يكن ابدا يطيق ان يرى ضباطه يقيمون مراكزهم وحتى تحت نيران العدو دون ماعناية باهمال شديد لايتمكن معه المرء من ان ينشر خارطة امامه وزبدة القول انه كان لايطيق من ضباطه ان يضيفوا الى متاعب حياة الحرب متاعب جديدة . ولقد كانت تدور طيلة الايام الماضية معارك عنيفة في الجنوب يمنة منه ، وادرك بروتسنكو خلال هذا اليوم ان ساعة اختراق الالمان الخطوط للوصول الى الفولغا لم تعد بعيدة ، وهذا ما معناه قطع كل خط يربط فرقته ببقية الفرق الروسية المقاتلة جنوبا منه ، واسوأ من كل هذا عزله عن مركز القيادة العامة للجيش . ومنذ نصف ساعة فقط تأكد من صحة ماذهب اليه ، فلقد قطعت خطوط مواصلاته الهاتفية بقيادة الجيش ، ومن عجائب الصدف ان اخر من سمعه يتحدث اليه من قيادة الجيش كان « ماتفييف » عضو اللجنة العسكرية بصوته العميق الذي استدعاه ليسأله عن حال صموده وليقول له كأن كل شيء يسير منتظما في مجراه :

ـ تهاني القلبية

فاجابه بروتسنكو :

ـ على ماذا ؟

ـ ألم تسمع الراديو ؟

ـ كلا !

ـ لقد اذاع الراديو اليوم مرسوما خاصا يرقيك الى رتبة لواء ولذلك اهنئك ايها الرفيق اللواء .

وبدا صوت ماتفييف وهو يتحدث اليه متعبا ، ولا شك انهم في الجنوب يعانون اياما حرجة شاقة ، ولذلك فان تهنئة ماتفييف له في مثل ظروفه تلك هي والحق لبادرة جميلة تصدر عن حصافة اصيلة . لكن لم يكن لدى بروتسنكو مايقوله الا :

ـ شكرا لك ، وسأحاول لاثبت جدارتي بالرتبة الجديدة .

وبعد ان قال هذا انتظر طويلا جواب ماتفييف ، لكن ماتفييف لم يعلق على

ماقاله فانطلق هو قائلا :

ـ لدي كل ما احتاج اليه هالو ! هالو !

لكن ماتفييف لم يرد عليه فلقد أمسى الهاتف هامدا . وقد ظن بروتسنكو في باديء الامر ان الخط قد قطع في احد قطاعاته فطلب عامل الهاتف فاجـاب عليه ، وكان من الافضل الا يجيب اذ تحقق له ان اتصاله الهاتفي بقيادة الجيش قد قطع تماما . فالى اليسار من فرقة بروتسنكو ، بلغ الالمان ضفاف الفولغا وقطعوا جميع الخطوط من مواصلات وهاتفية ، فلم تعد تبدر له بادرة حياة من جيرانه ، وغرقت قيادة الجيش في صمت عميق ، ولكن كان عليه في كل حـال ان يرسل بتقريره اليومي اليها ، ولم يكن امامه من وسيلة سوى ان يرسل بمن يعبر نهر الفولغا الى الضفة الاخرى وان يسير بعدئذ بمحاذاة الضفة جنوبـا ومن ثم يعود ليعبر الفولغا ثانية ليصل الى مركز قيادة الجيش العامة . وكـان يريد ان يرسل باحد يثق به ويعتمد عليه ، وفكر في باديء الامر بارسال مرافقه الخاص ، لكنه وجده منطرحا على الارض يغط في سبات عميق بعد يوم طويـل امضاه بين هرولة وركض ، فاحتار في من يرسل بديلا عن مرافقه الى القيادة العامة في مثل هذه اللحظة الخطرة ، فهو يريد ان يرسل بضابط لاتكون مهمته فقط ان ينقل تقريره الى القيادة العامة ، بل انما يكون قادرا ايضا على ان يعرف بالتحديد ماتريد القيادة من بروتسنكو ان يقوم به ، لهذا رفع سماعة الهاتـف وطلب بابشنكو وقال :

ـ هل كل شيء هاديء في قطاعك ؟

ـ نعـم !

ـ اذن ارسل لي بسباروف !

وانتظارا لقدوم سباروف بدأ بروتسنكو يعد تقريره اعتمادا على تقاريـر افواج فرقته ، وعلى غير عادة منه قام بكتابة تقريره بخط يده ، ثم دفع به الى الالة الكاتبة ، وكان ضارب الالة لايزال يطبعه عندما دخل سباروف على بروتسنكو وادى له التحية العسكرية حيث بادره الاخير سائلا :

ـ كيف حالك يا الكسي ايفانوفيتش ؟

فاجابه سباروف :

ـ كيف حالك ايها الرفيق العقيد ؟

فقال بروتسنكو :

ـ لم اعد عقيدا ، انني لواء اليوم الم تسمع الراديو ؟

ـ كـلا !

ـ اذا لم تكن قد سمعته ، يترتب علي ان اخبرك بانني لواء ، فلقد رقوني هذا اليوم اليها .

ثم اضاف قائلا وهو يشير الى الهاتف الخامد :

ـ ان الشيطان وحده يعرف ... والحق انني ارغب في هذه الرتبة لكنني لم اكن ارغب في ان اسمع عنها في يوم كهذا اليوم .. لقد استدعيتك كـي تحمل فورا هذا التقرير الى القيادة العامة .

فاجابه سباروف وهو يشير الى الهاتف :

ـ ماذا تعني ، اخامد هذا ؟

ـ نعم انه خامد ، وقد لاتدب الحرارة باوصاله لفترة اخرى من الزمن ، لهذا علي ان اجعلك هاتفي الحي لهذه الليلة .

ثم تناول هاتفا محليا وطلب مرفأ النهر وقال :

ـ اعدوا حالا زورقا بخاريا ، او زورقا ، او أي شيء اخر !

ثم التفت الى سباروف ثانية وقال :

ـ حسنا ! يا الكسي ايفانوفيتش ، انك ستستطيع أن تعرف عندما تعبر النهر مااذا كانت القيادة العامة لاتزال في مقرها القديم . وعندئذ عليك ان تعبر النهر ثانية ، ولتجد مقرها اينما كان !

ثم التفت الى احد ضباط اركانه وسأله :

ـ هل انتهيتم من طباعة التقرير ؟

فأجابه :

ـ سننتهي منه خلال خمس دقائق

فعاد ليتحدث الى سباروف :

ـ حسنا يا الكسي ايفانوفيتش ، باستطاعتك ان تنطلق عقب هنيهـة ... وطبعا اننا سنعيد تجديد خطوطنا ، ولكن اريد ان اقول لـك بانني لا املـك الصبر على الانتظار . وانني لاقسم بشرفي انني افضل الف مرة ان يهاجمنـي الالمان ، فهم عندما يهاجمون فانت تعرف ما عليك ان تفعله ، وما عليك الا تفعله، لكن عندما يهاجمون جيرانك ويتركونك ، فهذا اسوأ ما يعانيه المرء ، فقلبك لا يكف عن وجيفه ، ولا شك ان حالك كحالي في مثل هذا الامر ، اليس كذلك؟

فاجابه سباروف :

ـ انني اشعر نفس شعورك

ـ انا اعرف بهذا ، لذلك عليك ان تحاول العبور الى القيادة كي يكف قلبانا عن الوجيف .

قال هذا ثم التفت الى شظية من مرآة وتأمل نفسه فيها واخيرا تطلـع الى سباروف وسأله :

ـ قل لي يا الكسي ايفانوفيتش ، هل تعتقد بانه سيكون لبزة جنرال مظهر جميل علي ؟ ماذا تعتقد ؟

ـ يجب ان يكون لها مثل هذا المظهر ايها الرفيق الجنرال ويجب ان تليـق بك .

فابتسم بروتسنكو وقال :

ـ ايها الرفيق الجنرال !! اسمع انك تلقبني بالرفيق الجنرال ، لكن هل تعلم ، بانه لمن المحتمل انك تقول لنفسك الان انني اتملق هذا الغبي الهـرم واداهنه . اهذا ما كنت تفكر به اليس كذلك ؟

فابتسم سباروف واجاب :

ـ صدقت هذا هو تماما ما كنت اقوله لنفسي .

فاجاب بروتسنكو :

ـ معك الحق كل الحق في ان تعتقد به .. وهي رتبة مبهجة نعم مبهجة ،

لكنها لا تعني لي الا المسئولية الثقيلة ، فنحن نستطيع ان نطلق الالقاب الآن، ولكن الكلمات هي اشياء لا نقدر على فهمها دائما .

صمت بروتسنكو لفترة ارتسمت فيها على وجهه امائر تأمل عميق ثم اشعل سيجارة وتطلع في سباروف ، فلقد كان عميق الانفعال وكان يريد ان يطرد خاطرا ما من ذهنه فقال بروية وامعان :

ان رتبة لواء هي عمل شاق وهل تعرف يا سباروف لماذا هي عمل شاق ؟ وذلك لان من يبلغ هذه الرتبة لا يعود يكتفي بان يحارب ببعض بسالة او ببسالة كاملة ، بل انما يشعر بانه عليه ان يحارب كي يحول فيما بعد ولاطول مدة ممكنة دون ان يضطر للحرب ثانية . هل تعرف يا سباروف بانني لا اؤمن بالقول بان هذه الحرب ستكون اخر حرب في التاريخ . لقد قلنا هذا القول نفسه في الحرب العالمية الاولى ، وما عليك الا ان تقرأ التاريخ ، فبعد هذه الحرب ستنشب الحرب من جديد ، وقد تنشب بعد ثلاثين او خمسين عاما . ولكن بيدنا نحن الا نسمح لها بان تنشب سريعا ، واذا كان لا بد لها من ان تنشب فيجب ان تنتهي الى النصر ، فهذه هي مهمة الجيش ، ومن اجل هذا يوجد الجيش . وطبعا هناك جماهير غفيرة تأمل في سلم دائم ، وكل انسان يستطيع ان ينقض قولي اذا ما اراد .. انت مثلا ؟

فأجاب سباروف :

نعم ارغب في ان اعارضك ولا اريد ان افكر بوقوع حرب جديدة .

ــ طبعا انت لا تريد التفكير بمثل هذا الامر ، وانا لا اريد مثلك ، ان افكر به ولكن من المتوجب علينا ان نفكر به فعندئذ اذا ما فكرنا به فلربما لن تنشب حرب جديدة .

جاء احد ضباط الاركان بالتقرير وقدمه الى بروتسنكو فاخرج بروتسنكو نظارتين مستديرتين من جيبه ، وكان بروتسنكو لا يستعين بنظارتيه الا حين قراءته للوثائق الهامة ، فوضعهما على عينيه ثم قرأ التقرير قراءة مدققة واخيرا وقعه بامضائه وبعد ان غلفه ناوله الى سباروف وهو يقول :

ــ هيا به ! وسيحرسونك من هنا حتى الزورق ، وبعده عليك ان تتدبر نفسك ، وستعبر الفولغا واذا كنت سعيد الحظ فلم يلمحوك فعندئذ ستتمتع برحلة نهرية جميلة ، ينساب خلالها الماء من تحتك وتشع النجوم براقة غمازة من

فوقك . . يا له من منظر جميل ورحلة جميلة لو لم تكن هذه الرحلة في الفولغا بل كانت في نهر الفستولا او الاودر . . . حسنا ! هيا انطلق !

اخذ سباروف يشق طريقه خلال الظلام الى المرفأ النهري ، وعندما بلغه وجد ان القائمين على المرفأ لا يملكون زورقا بخاريا ، فلقد اصطدم الزورق البخاري الوحيد الذي كان لهم بلغم قبيل ساعات وتطاير شظايا في الهواء ، لكنهم قدموا اليه قاربا عاديا ذا أربعة مجاذيف . فجلس سباروف في القارب وامسك اربعة جنود كل منهم بمجذاف ، ثم اضاء للحظة مصباح الجيب الكهربائي فالفى ان القارب مطلي باللون الابيض ويحيط به خط أزرق ويحمل رقما . وقد كان هذا القارب فيما مضى ملك محطة نزهات بحرية ، وكان بامكان المرء منذ زمن ليس ببعيد ان يستأجره بروبل واحد أو بروبل ونصف الروبل في الساعة .

جلس رجال الجيش الاحمر الى المجاذيف ، واستقر سباروف عند الدفة، وانطلق القارب بسكينة وهدوء . ولم يكن الالمان انذاك يطلقون النار ، وكان المنظر تماما كما وصفه بروتسنكو له ، فالماء ينساب من تحته ، والنجوم تتألق من فوقه، وليل هادىء ساكن يلفه ، بالرغم من ثرثرة رشاشات متقطعة تسمع بين حين وآخر منطلقة من مسافة تبعد ما بين ثلاثة واربعة كيلومترات لكنه لم يأبه بها او يكترث . والحق انه كان بامكانه ان يجلس طيلة العشرين او الثلاثين دقيقة التي تفصله عن الضفة الاخرى ، وان يفكر بالقنابل الالمانية الثقيلة التي تنطلق كل يوم واحيانا اثناء الليل فوق النهر لتنفجر فيه او بالقرب من عشرات المرافيء النهرية الصغيرة التي يعمل رجالها من الغبشة حتى الفجر في تدبر نقل الجرحى وتلقي الذخائر الحربية والخبز والفودكا المخصصة للجيش المقاتل . وكان الالمان قد بلغوا نهر الفولغا ، وكانوا يحيطون به يمنة ويسارا . وكانت روسيا تقع الى الشرق ، وكثيرا ما تحدث سباروف مازحا ومسلنكوف وواصفا موقع كتيبته بانها جزيرة من قوة ، وبان الضفة الاخرى من الفولغا هي القارة العظمى . وكان يقول في نفسه اثناء الرحلة بانه اذا ما رغب ان يذهب حتى الى موسكو فان من المتوجب عليه عندئذ أن يعبر « القارة العظمى » ، وعليه من ثم ان يعبرها مرة ثانية في مكان ما يقع الى الشمال الغربي منه . فعلى الضفة الاخرى يقع كل شيء بما فيه « آنيا » . وهكذا وجد سباروف نفسه يفكر بها ، وقال في سريرته بانه اذا ما كان جرحها طفيفا فانه لا شك سيجدها في مكان ما على هذه الضفة حيث كان يقع مركز عملها . فطمأنه خاطر على ان جرحها لا ريب

طفيف ولم يستند هذا الخاطر الى المنطق في اصدار حكمه ، بل انما استند الى قولها هي ، وذلك حينما قالت تودع سباروف بانها ستشفى سريعا وستعود، ولقد قالت هذه الجملة بلهجة لا تختلف عن اللهجة التي تنطق بها كل جملة اخرى من جملها ، لقد قالتها بقناعة طفل وعناده جعلاه يعتقد بان قولها سيتحقق آكيدا ، وقد القى القبض في الايام الاخيرة على نفسه متلبسة بالتطلع آليا مرتين او ثلاثا حول نفقه كلما عاد الى مركزه .

بلغ القارب الشاطىء وجر الى رماله وترجل سباروف منه واخذ يفتش عن اقرب موقع يعبر منه الى اقرب نقطة الى قيادة الجيش العامة . وقد اتضح له انهم قد نقلو المعبر الى مركز آخر يقع على بعد كيلومتر ونصف جنوبا، ولهذا عاد ثانية الى القارب وانطلق الجنود يجذفونه بمحاذاة الشاطىء . وعندما بلغوا المعبر ربطوا القارب الى عامود خشبي ، وبقي الجنود في القارب اما سباروف فانتقل الى صندل كان على اهبة الانطلاق الى ضفة النهر اليمنى وكان هذا الصندل مترعا بالمؤن من اللحوم المعلبة . ومع ان الصندل كان تقريبا خاليا من البحارة الا ان هذه التلال الضخمة من المؤن تشهد على مدى ما يلاقيه رجال المرافيء النهرية الصغيرة من مشاق ومصاعب هائلة في امدادهم جيشا كاملا يقاتل على الضفة الاخرى بالذخائر والمؤن . وعقب نصف ساعة بلغ الصندل احد مرافيء ستالينغراد ، ولدهشته وجد ان القيادة العامة لا تزال تحتل مركزها القديم بالرغم من ان نقطة المعبر قد انتقلت الى مركز جديد . وكان سباروف قد اطلعه بروتسنكو الذي سبق له ان زار القيادة العامة مرتين او ثلاثا على ان مركزها يقع في رواق ضخم تحت الارض بالقرب من مستودع حنطة محروق. وكان على سباروف ان يقطع من المعبر بمحاذاة الشاطىء مسافة تقارب الكيلومتر الواحد سيرا على قدميه كي يبلغ مركز القيادة العامة . وكان الالمان انذاك يطلقون قنابل المورتر على الشاطىء اطلاقا منهاجيا اذ كثيرا ما انفجر بعضها امامه وغيرها وراءه ، لكن سباروف تابع سيره بمحاذاة الشاطىء غير هياب او مكترث غير انه لم يستطع ان يبصر بظلال المخزن المحروق الذي كان دليله الى مركز القيادة العامة ، فأغذ في السير واخذت تعلو لعلعة الرشاشة وترتفع وادرك سباروف انه لا يبعد اكثر من كيلو متر واحد عن الخطوط الامامية ، فاعتقد بان احدهم قد ضلله كما يحدث كثيرا في الحرب ، وان القيادة العامة قد انتقلت هذا اليوم الى مركز اخر ، غير آنه حالما اقترب مما افترض،

حسبما رأت عيناه ، بانه الخط الامامي شاهد فجأة أمامه هيكل مخزن الحبوب وعقب دقيقة واحدة وجد نفسه امام حارس يقف على مدخل نفق فسأله :

ـ هل هذه هي قيادة الجيش العامة ؟

ففحص الحارس على ضوء مصباح جيبه الكهربائي اوراق سباروف ثم أجابه ايجابا فعاد سباروف ليسأل بصوت هادىء :

ـ كيف يستطيع المرء ان يقابل رئيس الاركان العامة ؟

ـ رئيس الاركان العامة ؟!

لكن سباروف سمع صوتا مألوفا لاذنيه يسأل من ورائه :

ـ من يريد مقابلة رئيس الاركان العامة ؟

ـ أنا اريد ذلك .

ـ من أرسل بـك ؟

ـ بروتسنكو

فاجاب الصوت :

ـ حسنا ! حسنا ! ان هذا لمثير ! هيا بنا !

وعندما دخلا الى النفق الذي ملئت جوانبه باللوحات تطلع سباروف حوله فرأى وراءه الجنرال نفسه الذي شاهده في اول ليلة له في ستالينغراد بصحبة بروتسنكو فبادره سباروف سائلا :

ـ هل تسمح لي ايها الرفيق القائد بالحديث إليك ؟

فاجابه القائد :

ـ طبعا ! هيا تحدث !

ثم فتح القائد بابا صغيرا صنع من الواح خشبية ودخل الى غرفة وترك بابها مفتوحا فاعتبر سباروف هذا الكل دعوة من القائد ليدخل وراءه فولج الغرفة وشاهد وراء الباب غرفة صغيرة حفرت في الارض واثثت « بكوتش » غطي بمشمع ، وبطاولة ضخمة فسيحة فجلس الجنرال الى الطاولة ثم طلب

من سباروف ان يقدم اليه الكرسي الثلاثي القوائم فحمل اليه سباروف ما طلب دون ان يفهم سببا لطلبه فرفع الجنرال ساقه ووضعها على الكرسي ثم قال:

ــ لقد انفتق جرح قديم في ساقي ، لذلك تراني بدأت اعرج والان ما لديك من اخبار ؟

فقص عليه سباروف حقيقة الحال بلهجة رسمية ثم ناوله تقرير بروتسنكو فأخذ يقرأه بعناية وامعان وبعد ان انتهى من قراءته تطلع الى سباروف سائلا :

ــ ماورد في تقريره يشير الى ان كل شيء هاديء عندكم ؟

ــ نعم هاديء تماما

ــ هذا أمر بديع حقا ، وهو يعني انهم لا يملكون قوى كافية تمكنهم من الهجوم على كل القطاعات ، هل نزلت بكم خسائر فادحة في هذه الايام الاخيرة القليلة ؟

فاجابه سباروف :

ــ لا اعرف بالدقة عدد خسائرنا

ــ كلا! انا لا اسألك عن الفرقة ، فخسائر الفرقة مدونة كلها هنا ، لكن اسألك عن خسائر كتيبتك ، فانت آمر كتيبة اليس كذلك ؟

ــ تماما

ــ كم عدد خسائرك

ــ لقد خسرنا في الايام الثمانية الاخيرة ستة قتلى وعشرين جريحا ، لكننا خسرنا في الايام الثمانية الاولى ثمانين قتيلا ومئتي جريح واثنين .

ــ هذا عدد كبير ! ولكن هل تجولت طويلا على الشاطيء كي تعثر على مركزنا ؟

ــ كلا لقد استطعت ان اعثر عليكم سريعا ، لكنني بدات قبل ان اصلك بدات اتساءل في نفسي عما اذا كنتم لم تنقلوا مركزكم بعد وخاصة بعد ان بلغت بي قدماي الى مسافة لا تبعد ثلاثماية متر عن خط النار .

فأجابه الجنرال :

ـ نعم ! كدنا ننتقل من مركزنا هذا فلقد قرر اركان حربي ان ينتقلوا هذه الليلة ، لكنني عندما عدت هذا المساء من مركز قيادة احدى الفرق منعتهم من ذلك . فعندما تتحرج الحال كما هي حالنا اليوم ، ومن الغباء ان ننكر هذه الحقيقة ، فعندئذ عليك دائما ان تذكر ايها النقيب ، انك لا تستطيع ان تتبع قواعد الحس السليم المعتادة فتنقل مركز قيادتك عندما يتضح لك انه من الواجب عليك ان تنقله . فأهم شيء لا بل اعمق قواعد الحس السليم رشدا ، هو ان يشعر الجنود في اوقات كهذه بالاستقرار هل تفهم ما اقول ؟ والاستقرار ينبع من شعور الناس بان الاماكن لا تتبدل ، ولذلك فطالما استطيع ان اصدر اوامري من هذا المكان فانني سأبقى مقيما فيه . انك ضابط شاب وانا اقول لك هذا القول كي تحذو حذوي في كتيبتك . وانني آمل بانك لا تؤمن بان الهدوء الذي يخيم عليكم الان سيمتد به الاجل طويلا .

فأجاب سباروف :

ـ كلا لا اعتقد بذلك !

ـ حسنا اياك ان تعتقد به

قال الجنرال هذا واستدعى مرافقه سيفيلييف وطلب اليه ان يجلس ويكتب مايمليه عليه فجلس واخذ الجنرال يملي عليه امرا وجهه الى بروتسنكو يطلب منه فيه ان يبذل قصارى جهده كي يمنع الالمان من سحب اي عدد من الجنود من قطاعه ، ثم اضاف مقترحا عليه ان يقوم بعدة هجمات محلية على جناحه الجنوبي حيث اخترقه الالمان وبلغوا من جراء ذلك الفولغا ، واخيرا اضاف يقول :

ـ اكتب ايضا انني اهنئك بترقيتك الى رتبة لواء واعطني الامر لاوقعه .

وقبل ان يصرف القائد سباروف تطلع اليه بعينين احاطت بهما هالات زرقاء دلت على قلة ما يتوفر له من لحظات النوم ثم سأل سباروف :

ـ يبدو لي انك تعرف بروتسنكو منذ زمن طويل ؟

ـ نعم اعرفه منذ بداية الحرب تقريبا

فاجابه القائد :

ـ اذا ما اردت يومـا ان تصبح ضابطا ممتازا فتعلم منه . هل تعرف بانه ليس هو بذلك الانسان الذي تخاله حينما تلمحه لاول وهلة ، فهو داهية اريب وعنيد ، انه أوكراني . ولدينـا الكثير من الضباط الذين يتصنعون الهدوء والبرود ، لكن بروتسنكو هادىء وبارد في طبيعته ، ولهذا السبب عليك ان تتعلم منه . وقد حدثني عنك وقال انك قمت باعمـال طيبة في الايام الاولـى من الحصار المضروب عليك . فان المهم فيأحوال كهذه هو أن يكون الانسـان هادئا باردا . وسنعيد وصل خطوطنا بكم ، لكن الماء لا يـزال مـاء .. فاذكـر كلماتي هذه !

ثم وقف الجنرال ومد يده اليه وصافحه وهو يقول :

ـ لكن الماء كثير ما يؤدي لنا الجليل من الخدمـات عندما يكون وراءنا، مثلا على ذلك اوديسا وسابستبول ، وآمل ان تصبح ستالينغراد مثلا ثالثا ، لكن الفرق بينها وبين المدينتين السابقتين هو اننا لن نسلم بها ابدا ، ومهما كانـت الظروف والاحوال . باستطاعتك ان تنصرف الان . وعندما كان سباروف يعود من القيادة العامة الى المرفأ النهري وجد انه من الغرابة قليلا ان يكون القائد العام في مثل هذه الحالة النفسية الطيبة .

فلقد بدا له ان الجنرال كان مخلصا في هدوئه وتصميمه على تنفيذ ماقال وقد بديا طبيعيين كالحقيقة نفسها كأن هذا الرجل يؤمن حقا بما يقول ، مع ان احداث ذلك اليوم تستوجب عكس ما وصل اليه القائد من استنتاجات وحالة نفسية ، لذلك قال سباروف لنفسه ربما ان القائد يعرف بشيء ما لا نعرفه ، وربما كان هذا الشيء امدادات وقوى ، وربما انهم يبيتون امرا في مكان ما . لكنه سرعان ما اطرح هذه الافكار جانبا ، فهي لم تكن بالحقيقية فلقد ادرك فجأة من ان السبب لحالته النفسية الهادئة انما يعود اولا واخيراً الى معرفته بان اسوأ ما يقع من حوادث ، قد وقع وانتهى . فالالمان قد شقوا طريقهم الى الفولغـا وشطروا الجيش شطرين . وكان الالمان يقاتلون طيلة الايام الاخيرة لبلوغ هـذا الهدف ولم يكن لدى القائد العام من قوى كافية تحول بين الالمان وبين غايتهم . ولكن الان وعقب ان وقع أسوأ ما يمكن ان يقع ، وبعد ان حقق الالمان غايتهم ووصلوا الى هدفهم الذي اعتقدوا بانه سيكون نهاية الحرب في ستالينغراد وخاتمة المعارك فيها ، فان الجيش المدافع عن ستالينغراد لم يقر بهزيمته بل

تابع قتاله ، فبقي مركز القيادة العامة مكانه كأن امرا كهذا لم يقع ، ووصل مع هذا ضابط من الفرقة المعزولة الى القيادة العامة ليسلم تقرير الفرقة المرفوع اليها في الوقت المحدد لتسليمه . وهذا هو السبب الذي جعل القائد العام كما يعتقد سباروف في تلك الحالة النفسية الطيبة ، وهو السبب ايضا الذي جعل من ذاك الرجل المعروف بشكاسته يمضي خمس دقائق كاملة من وقته في التحدث الى سباروف الذي لم يكن سوى ضابط ارتباط عادي ، وجعله ايضا يبدي بضعة ملاحظات تبدو انها لاتمت الى الموضوع الذي جاء سباروف من اجله باية صلة .

وبعد خمس ساعات من مغادرة سباروف لمركز بروتسنكو ، عاد سباروف الى النفق ذاته الذي انطلق منه وأخرج من دفتر ملاحظاته ورقة قدمها الى بروتسنكو كتب عليها امر القائد العام وعقب ان قرأها سأله :

ـ حسنا ! كيف هي الحال هناك ؟

وعندما اعلمه سباروف بان القيادة العامة لاتزال في مركزها السابق شاهد ابتسامة رضا ، تعبر وجهه ، فاتضح لسباروف أن قائده يشاركه شعوره ، وانه هو ايضا مسرور ببقاء القيادة العامة في مركزها . فمثل هذا القرار يبدو صادرا عن حس سليم بالرغم من انه لاينطبق في الحرب على المنطق .

وفي طريقه الى موقعه توقف سباروف عند نفق بابشنكو اذ انهم اخبروه في قيادة الفرقة بان بابشنكو قد هتف اليهم مستفسرا عنه . فدخل سباروف على بابشنكو والفاه يجلس الى مكتبه ويعد تقريره وبادره دون أن يرفع رأسه طالبا منه الجلوس وهو لايزال يتابع عمله . وهذه كانت عادته ، اذ انه لم يكن يتوقف عن اداء عمله اذا مادخل عليه مرؤوسوه الذين يستدعيهم ، فلقد كان يجد في التوقف عن العمل امرا لايتناسب وسلطانه . اما سباروف الذي كان يألف هذه العادة من رئيسه فطلب منه ان يسمح له بالخروج ليدخن سيجارة ، لكنه ماكاد يخرج من الباب حتى التقى بالملازم الاول يرنين آمر سرية الاشارة والذي التحق بالفرقة منذ بداية الحرب فاقبل عليه يرنين يصافحه بحرارة ويقول:

ـ انني مغادر الفرقة .

فاجابه سباروف :

ـ الى اين ؟

ـ سألتحق بأكاديمية المواصلات العسكرية .. ان هذا الامر لغريب أن تنقل من ستالينغراد الى تلك اليس كذلك ! لكن الاوامر هي الاوامر وعلي ان إذهب ولهذا جئت لاودع المقدم .

ـ متى تذهب ؟

ـ فورا . حالما يصل الزورق سأغادركم .

اعتقد سباروف بان وصول يرنين الذي يعرفه بابشنكو من زمن طويل ودخوله عليه لوداعه ، سينتزع المقدم من اوراقه ، لذلك دخل وراء يرنين الذي بادر بابشنكو قائلا :

ـ ايها الرفيق المقدم ، فلتعذر قطعي عليك عملك !

فأجابه بابشنكو وهو لايزال يتطلع في اوراقه :

ـ نعم ! ماذا تريد ؟

ـ انني مغادرك ايها الرفيق المقدم

ـ متى ؟

فورا ، وقد جئته لوداعك !

فسأله بابشنكو وهو لايزال مركزا ناظريه على مكتبه :

ـ هل اوامر سفرك جاهزة ؟

ثم ناوله ورقة فوقع بابشنكو الورقة دون ان ينظر اليه وأعادها الى يرنين ، واعقب ذلك صمت كان خلاله ينقل ثقله من قدم الى اخر وهو مرتبك حائـــر وبعد بضعة دقائق بادر يرنين المقدم يقول :

ـ حسنا ! هذا كل ماقي الامر ! انني ذاهب !

فأجابه المقدم :

لامانع فلتذهب .

ـ لقد جئت فقط لاودعك ايها الرفيق المقدم !

فرفع اخيرا بابشنكو راسه والقى عليه بعض لمحة وقال :

ـ حسنا! اتمنى لك التوفيق في دراستك .

ثم مد بيده الى يرنين فصافحه وكان يرنين يريد ان يقول شيئا ما لكن المقدم عقب ان صافحه تناساه تماما ودفن نفسه ثانية في اوراقه ، فعاد يرنين ليقول بتردد وهو يتطلع الى سباروف .

ـ وداعا أيها الرفيق المقدم .

فادرك سباروف من نظراته ان يرنين منزعج اكثر مما هو متألم ، فهو لايعرف كيف يودع بابشنكو ولا يعرف الكلمات التي يتوجب عليه ان ينطق بها في مثل هذه المناسبة ، لكنه مع ذلك لم يعتقد بان وداعه سيكون باردا الى هذا الحد ، الا انه كرر ثالثة :

ـ استودعك الله ايها الرفيق المقدم !

لكن بابشنكو لم يكن يصغي اليه ، فلقد بلغ المراجعة الاخيرة لتقريره وكان يرسم خطا مستعينا بالمسطرة ، على الورق ، فنقل يرنين قدميه قليلا ثم توجه ببطء الى سباروف ، وبعد ان صافحه بحرارة خاصة خرج من النفق ، فرافقه سباروف حتى مخرج النفق ثم عانقه وقبله مودعا وعاد ادراجه الى بابشنكو ، لكنه الفاه لايزال غارقا في تقريره ، فتطلع سباروف اليه منفعلا وحدق في وجهه العنيد وفي صدغيه اللذين بدا الصلع يحصد شعرهما ، ولم يستطع سباروف ان يفهم كيف يعجز المقدم عن الاحساس باية عاطفة في هذه اللحظة نحو رجل كذاك الذي قاتل معه جنبا الى جنب لمدة سنة كاملة وغامر بحياته معه وتناول واياه الطعام من قصعة واحدة ، ولربما دفع ايضا بصدره الموت عنه في الميدان . لقد كان سباروف يجد دائما في تبلد الحس هذا لدى بعض الناس في الجيش امرا غير مألوف . وقد بلغت نقمته على بابشنكو انذاك حدا جعله يجيب على اسئلة هذا الاخير عن أمور القيادة العامة بصوت ناشف ولهجة جافة وتحفظ لم يألفه منه بابشنكو من قبل . فلقد كان سباروف يرغب حينذاك في امر واحد فقط هو ان ينهي حديثه باسرع مايمكن كي يستطيع بابشنكو العودة الى اوراقه دون ان يتجاهله كما تجاهل يرنين .

وخيل الى سباروف وهو يعود الى كتيبته انه لمن المستغرب حقا أن ينقلوا ضابطا من ستالينغراد في اشد ايامها محنة ويرسلوا به ليدرس في الاكاديمية العسكرية ، ومع ان هذا الاجراء بدا لاول وهلة في نظر سباروف اجراء عقيما سخيفا ، لكنه كان في الواقع جزءا من زحف الحوادث العام الضخم ، هذا الزحف الذي لايستطيع أحد ان يقف في وجهه او يقاوم تياره .

— ١٠ —

عاد سباروف الى مركزه ليجد ضيفا بانتظاره . فلقد شاهد رجلا غريبا في منتصف العمر يلبس نظارتين طبيتين ويزين كتفه بشريطين ويجلس الى الطاولة قبالة القوميسير . وعندما دخل عليهما سباروف هب كل من الغريب والقومسير منتصبين على اقدامهما وبادر القومسير سباروف قائلا :

ــ يا الكسي ايفانوفيتش اسمح لي بتقديم الرفيق افيديف المراسل الصحفي من موسكو .

فصافحه سباروف ورحب به وسأله باهتمام :

ــ هل تركت موسكو منذ زمن طويل ؟

فاجابه افيديف :

ــ لقد كنت صباح الامس لاازال انتظر في المطار المركزي في موسكو .

ــ يبدو لي انني قرأت بعضا من مقالاتك واظن في صحيفة الازفستيا ، اليس كذلك !

ــ نعم انني انشر معظمها في تلك الصحيفة .

فاستطرد سباروف يقول بلهجة حاسدة :

ــ الامس في موسكو ، واليوم هنا .. حسنا ماذا انطباعات موسكو عنا ؟

فابتسم افيديف اذ ان السؤال الذي وجهه اليه سباروف كان يوجهه اليه كل من يصادفه من الضباط والجنود ، فاجاب جوابه المعتاد :

ــ انها حسنة ، وموسكو لاتزال صامدة وهي على سابق عهدها .. هل أنت من موسكو ؟

ــ كلا لكنني درست فيها . هل مضى عليك طويل وقت هنا ؟

فسارع فانين الى الاجابة :

ـ لقد دخل علينا حالما غادرتنا ، ولقد تحدثنا معا بعض الوقت .

ـ من ارسل بـك ؟

ـ ارسل بي آمر فرقتك ، لكنهم نصحوني في القيادة العامة بزيارتكم .

فسأله سباروف عاجبا :

ـ احقا تقول ؟

ـ نعم لقد قالوا لي زر كتيبة سباروف !

فاجابه سباروف وهو يحاول ان يخفي سروره وقال :

ـ حسنا ! حسنا ! لقد حصلنا على اسم رسمي ثم آستطرد سائلا بصراحة غير مرتقبة :

ـ ماذا قالوا لك عندما ارسلوا بك الينا ؟ والحق انه ليطيب لي ان اسمــع ماقالوه لك .

ـ لقد قالوا لي بانك احتللت ثلاث بنايات بعد معركة صعبة وانك لم تعد شبرا واحدا منها الى الالمان طيلة الايام الست عشرة الماضية .

فاجابه سباروف :

ـ هذا صحيح ، فنحن لم نرد الى الالمان مترا واحدا ، مع انهم في الاسبوع الماضي لم يبذلوا أي جهد يذكر لاسترجاعها .

ولو انك وصلت هنا قبل سبعة ايام لشاهدت مايسرك ويلذ لك .

لقد كان يبدو للجند دائما آن مايجري في الحاضر ليس مما يستأثر حقــا بالاهتمام ، وان ماهو جدير بالاهتمام هو مامضى لهم من افعال ، او ماتنتظرهم من معارك ، لكن المراسل اجابه :

ـ لابأس ! سابقى عندكم وقتا قصيرا وسأجمع بعض المعلومات والمواد . والحق انه ليناسبني تماما الهدوء الذي يخيم على قطاعكم فهذا مما يساعدني على التحدث الى جنودك .

فاجابه سباروف موافقا وقائلا :

ـ نعم اثناء القتال لاتستطيع ان تكثر من الاحاديث ، ولكن ماذا يكتبون الان من ستالينغراد ، وماذا يتحدث الناس عنا بصورة عامة ؟

وجه سباروف هذا السؤال بلهفة المرء الذي لم يطلع منذ مدة طويلة على اية صحيفة .وقد أجابه افيديف قائلا :

ـ انهم يكتبون الكثير عنكم ، لكنهم يتحدثون عن الاكثر ، غير انهم دائما يفكرون بكم ، فمنذ مدة وجيزة كنت ازور الجبهة الشمالية وقد وجدت الكثيرين من ضباطها يحسدونكم وسمعتهم يقولون : انظروا ها اننا نجلس هنا بينما في ستالينغراد . . وتعلمون بان اولئك جميعا لايرتابون للحظة واحدة في آنكم تخوضون غمار الجحيم ، لكنهم لايأبهون بذلك ، ويحنون الى القدوم اليكم .

فسأله سباروف :

ـ هل ستبقى بيننا مدة طويلة ؟

ـ كلا سأبقى يوما او يومين ، ثم اعود الى القطاع الجنوبي .

فأجابه سباروف :

ـ حسنا تفعل ! ففي ذاك القطاع تجد لذتك اكثر مما تجدها عندنا .

ـ من تنصحني بالتحدث اليه ؟

ـ حسنا بامكانك ان تتحدث الى كونيوكوف ، وهذا جندي قديم ثم عندك ايضا فاسيلييف وقد قام اخيرا ببعض المهام الاستطلاعية الناجحة ، او باستطاعتك ان تتحدث اليهما معاً ، فجوردنكو هو آمر السرية الاولى ، ومسلنكوف هو رئيس اركان حربي ، وهو ضابط شاب ممتاز . . هل تريد ان تتحدث الى الضباط ايضا ؟

ـ طبعا !

ـ آذن انصحك بالتحدث الى مسلنكوف .

ـ لكنني اريد ان اتحدث معك بصورة خاصة !

فاجابه سباروف :

ـ معي ! طبعا تستطيع ان تتحدث الي شريطة ان تنهي قبل ذلك احاديثك مع غيري وتتعرف على الكتيبة ، فانت تستطيع ان تعرف الآمر بعد ان تعرف كتيبته ،اما مايقوله الآمر عن نفسه فهذا ليس بالمهم ، اليس هذا صحيحا ايها القومسير ؟

فاجابه فانين :

ـ انه صحيح ! لكن اذا مانسي آمر هذه الكتيبة ان يحدثك عن نفسه ، فعندئذ سأذكره بذلك .

وسأل سباروف عن الوقت ثم تطلع الى ساعته وقال :

ـ انها الرابعة ! ولقد سرت مسافة طويلة واحتاج الى الراحة فما هو قولك ؟

فاجاب افيديف موافقا :

ـ أنا لا اعترض على ماتريد

ـ اذا مابقيت ضيفا علينا ، فاننا سنحضر لك غدا سرير ميدان ، لكن عليك الليلة ان تنام مع القومسير او رئيس اركاني في سرير واحد ، ولكل منهما بنية معقولة توفر لك مكانا في السرير . وباستطاعتك ان تنام معي في سريري لكنني اخشى ان تجني على نفسك حينذاك .

فاجابه افيديف وهو يحملق في جثته الضخمة وقال :

ـ نعم هذا مااخشاه .

كان سباروف يتهيأ للنوم ، لكنه كان يفكر بتدبير بطانية للضيف ، وفجأة وقعت عيناه على زجاجة وضعت على الطاولة فأحس برغبة في ان يحتسي جرعة منها ، وفي الجلوس قليلا وتوجيه أي سؤال يخطر على باله الى هذا الرجل الذي جاء من موسكو ، لذلك بادر سباروف افيديف سائلا :

ـ هل ترغب حقا في النوم ؟

ـ كلا ! ليست لي رغبة خاصة فيه الان

ثم سأل سباروف :

ـ هل اطعمته ايها القومسير ؟

ـ نعم قليلا .

ـ اذن ! اذا كنت قد اطعمته قليلا فقط ، فهذا مامعناه انه لم يأكل ، فهيا بنا نتناول عشاءنا اذا لم تكن لك رغبة حقيقية في النوم .

بينما كان بطيرس يعد المائدة طرح سباروف سؤالا غير مرتقب على المراسل وقال :

ـ هل لاتزال المتاريس قائمة في موسكو ؟

ـ كلا لقد نزعوها .

ـ لكن التحصينات لاتزال موجودة ، فهل اضافوا اليها تحصينات جديدة؟

ـ على حسب ما اعلم انهم قد اضافوا اليها .

ـ هذا حسن ! وهذا ما معناه انها تحصينات حقيقية ..

وهل لها حاميات دائمة من الجنود ؟

ـ على ماأعرف ان حامياتها حاميات دائمة .

ـ حسنا ! هل زرت الاوبرا مؤخرا ؟

ـ نعم .

ـ ماالذي كانت تعرضه ؟

ـ يوجين اونجين

فاجاب سباروف

ـ انها اوبرا جميلة ، لا لسبب انني ارغب في رؤيتها بنفسي ، فالاوبرا لاتلذ لي كثيرا ، بل بسبب ان الناس لايزالون يجلسون ويستمعون كسابق العهد بهم ، وهذا هو مايطيب لي ، وكم اتمنى ان القي بلمحة عليهم ..

هل تعرف .. انني بصورة عامة لا احب الاوبرا .

فأجابه افيديف :

ـ ولا احبها انا ايضا !

فرد سباروف :

ان المغنين ضخام الاجساد وجميعهم يقومون بادوار الفتيات الصغيرات، وهذا من غير المناسب ، ولكن من يدري فقد تكون اجسادهم قد نحلت بسبب الحرب ، أنحلت اجسادهم ؟

فابتسم افيديف وقال :

ـ كلا لا يزالون ضخام الاجساد

فاجاب سباروف :

ـ لا بأس ، فانا التذ بسماع غنائهم عندما اغلق عيني ، ولكن هل لا يزال عمال الصالة يلبسون القفازات البيضاء كما كانوا يلبسونها في السابق ؟

ـ هل تعلم ؟ انني لم الحظ هذا فهناك بعض الامور لا تلحظها .

فرد سباروف :

ليس هذا بالامر الهام ، مع انه قد يكون يكون من جهة اخرى هاما ، ولا شك ان عدد السيارات قد انخفض في الشوارع ؟

ـ نعم لقد انخفض عدد السيارات ، لكن عدد السكان قد تزايد ، ولم يعد على الحال التي كان فيها في شهر ديسمبر الماضي ، هل كنت في موسكو في شهر ديسمبر ؟

ـ نعم كنت فيها ، وكان شهر ديسمبر لطيفا جميلا وقد قضيت منه يوما كاملا في موسكو ، فالفيتها خالية من السكان وهادئة .

دخل بطيرس عليهم وهو يحمل مقلاة ملئت بلحم حار لا يزال يرسل بطشيشه فبادر سباروف ضيفه :

ـ ان هذا لحم اميركي ، تفضل !

ثم سأله مترددا وهو يضع كأسا امام افيديف صنع في الجبهة وقال :

ـ هل تحتسي الخمرة ؟

كان افيديف قد الف مثل هذا السؤال الذي سبق ان وجهه اليه الكثيرون من الناس، حتى في الجبهة حيث اعتاد الجنود على الا يسألوا ما اذا كنت تحتسي الخمر ام لا، ولم يكن يدري ما اذا كان عمره البالغ منتصفه، ام مظهره العلمي، ام نظارتاه السميكتان ، اللتان اضفتا عليه منظر المفكر ، ام لهجته البطيئة الحالمة ، ام كل هذه جميعا ، هي التي جعلت الناس الذين لا يعرفونه يعتقدون بانه رجل بالغ الجدية، متزمت لا يحتسي الخمرة. زد على ذلك انه كان يحس بان الناس يتحفظون في حضوره حين اطلاقهم للنكات ، ويتورعون عن الشتائم والسباب او تناول قدح اخر . لكنه اجاب على سؤال سباروف وهو يجاهد ليفتح اجفانه السجينة وراء نظارتيه الثقيلتين وقال مبتسما :

ــ طبعا انني أشرب الخمرة

فاحتسيا معا كأسا ثم اتبعاها باخرى ، واحس سباروف باثقال التعب تنيخ على جسده ، اضف الى ذلك ان الفودكا لم تصعد الى راسه لكنها جعلته يحس بالدفء والراحة وبالبيئة الودود التي تحيط به في نفقه . وبادر سباروف ضيفه وقال :

ــ هل تعرف ؟ ارى ان عليك آن تذهب غدا الى السرية الثانية فلدينا فيها بعض الجنود الممتازين ، وانصحك بان تتحدث بصورة خاصة الى كونيوكوف وعلى كل حال اذهب واختر من يلائمك !

ثم صمت قليلا كأن خاطرا غير منتظر قد داهمه فجأة ، وعاد ليسترسل ويقول :

ــ مع ان الاخطار تحيق بنا هنا اشد مما تحيق بك ، الا آن الحرب ترعبك اكثر مما ترعبنا .

فرد عليه افيديف :

ــ ولماذا ؟

ــ لانك تقوم بعملك فيما بعد ، أي عندما تعود الى موسكو ، او تقصد مكتب التلغراف ، او القيادة العامة ، اما هنا عندنا فانك تكتفي فقط بمشاهدة الامور ، وذلك كي تكتبها فيما بعد ، وهذا الواقع هو مما يثير الخوف والرعب . هل تعرف لماذا لاينتابني الرعب الذي ينتابك ؟ لانني دائما منهمك في العمل

وليس لدي دقيقة واحدة اتنفس فيها . فهنا يطلقون النار .وتنفجر القنابل ، وامسك بالهاتف فلا يرد علي عامل الهاتف فاشتم امه واسب اباه ، وهكذا تراني انسى في دوامة هذه الامور انفجار القنابل حولي ، اما بالنسبة اليك ونظرا لانه ليس لديك ماتعمله ، فانك تجلس وتتساءل عما اذا كانت هذه القنبلة او تلسك او هاتيك ستنقض مباشرة عليك ام لا ، وهذا مما يبعث المخاوف والرعب فيك ، ولا تحاول ان تعترض على ماأقول .

فأجابه آفيديف :

ــ من الجائز ان تكون محقا فيما تقول .

وبعد فترة من صمت سأله سباروف :

ــ هل تريد لنا ان ننام ؟

فأجابه افيديف مترددا :

ــ مهلا ! دقيقة واحدة !

فأفيديف لم يكن يرغب في قطع الحديث ، فلقد أصبح مؤمنا عقب سنة من اندلاع الحرب ، بان الناس قد ازدادوا بساطة ونقاء .وذكاء ، واعتقد بان هذا الامر لا يدل على ان جوهرهم ازداد طيبة وخيرا ، بل انما يدل على أن جوهرهم قد بدأ يطفو على السطح ، وذلك لان الاحكام على مسلكهم لم تعد تصدر استنادا الى المستويات الرسمية للافراد ، فلم يعد الانسان يقاس بحضوره لاجتماع مـــا أو بلطفه وامتنانه ، أو ببراعته لامور لا يحبها او يشتهيهـــا . وفجأة اندلعت الحرب واتضح للناس ان جميع هذه الامور هي من النوافل ، وتوقفوا امــام الموت عن التفكير بمظهرهم البادي للعيان ، او بالمظهر الذي يجب ان يتبدوا فيه، اذ لم يعد لدى الناس وقت لمثل هذه الامور ، او رغبة فيها ولذة . ولقد سمع افيديف خلال هذه السنة من الحرب من الاحاديث الجريئة الصريحة اكثر مما سمع منها طيلة حياته الصحفية . لذلك لم يكن يعبأ بالتعب ، فهو مهما بلغ تعبه فانه يحاول ابدا ودائما ان يمد قدر استطاعته بحبال اي حديث اذا مـــا الفى مثل هذا الحديث حديثا اعترافيا او فلسفيا . لكنه اخيرا بادر سباروف :

ــ لنأو الى فراشنا ! لكنني كنت اريد فقط ان اسألك . . .

لم يستطع سباروف ان يعرف السؤال الذي يريد افيديف ان يوجهه اليه،

إذ دخل عليهم بطيرس في تلك اللحظة ليعلم سباروف بان دورية الاستكشاف قد عادت لتوها . فتطلع سباروف الى ساعته ، فألفاها تشير الى الخامسة صباحا فسأل سباروف :

ـ من ذهب هذه الليلة مستكشفا ؟

ـ انه فاسيلييف .

فضحك سباروف وقال :

ـ لقد عاد ايضا في المرة الاخيرة في الساعة الخامسة تماما ولربما عاد هذه المرة ايضا بأوراق ضابط صف وبمسدس رشاش الماني اخر ، حسنا ، دعه يدخل !

دخل فاسيلييف وهو يحمل مسدسا رشاشا بين يديه ، وعقب ان ادى التحية للنقيب وضع أمامه على المكتب بعض اوراق ، وكانت الاوراق التي جاء بها هذه المرة اوراق احد الرقباء الالمان فبادره سباروف :

ـ حسنا فعلت ! أين اصطدته ؟

ـ في النقطة رقم ٤ ووجدته يفتش على الحرس ، وقد اصطدته وهو في منتصف المسافة الفاصلة بين مركزي حارسين .

ـ هل أسرته ؟

ـ كلا ايها الرفيق النقيب ! لقد قتلته ، فلم استطع ان أعود به حيا .

ـ هل جئت بمسدسه الرشاش ؟

ـ كلا !

قالها فاسيلييف وهو يشتم في نفسه النقيب الاول الالماني الذي رفض هذه المرة ان يعطيه مسدسا اخر ، لذلك فان غباء البخل الالماني يضطره الان لاختراع كذبة خاصة ، والكذبات الخاصة غير مأمونة العواقب ابدا ، لهذا بادر يقول :

ـ لقد كان يحمل مسدسا وقد استوليت على مسدسه ، لكنه وقع مني بينما كنت أزحف عائدا اليكم . ولقد كنت أرغب في ان أقدمه اليكم شخصيا أيها الرفيق النقيب ، فهو مسدس جديد فولاذه ازرق .

وكان فاسيلييف عندما وصف هذا السدس قد شاهد مثيلا له على مكتب النقيب الالماني اما سباروف فطلب اليه وهو يتفحص الاوراق ان يجاس على الكرسي فوجف قلب فاسيلييف ، اذ لم يسبق للنقيب ان طلب منه البقاء ابدا واخيرا قال سباروف :

ـ هذا مراسل صحفي وهو يريد ان يتحدث اليك .

ثم التفت الى المراسل واستطرد :

ـ هذا هو فاسيلييف نفسه الذي كنت اتحدث اليك عنه ، فلتجلسا ولتتحدثا معا ، اما انا فذاهب الان للتفتيش على الحرس .

بادر افيديف فاسيلييف سائلا :

ـ كم مرة ذهبت في دوريات استطلاعية ؟

ـ وقبل ان يجيب فاسيلييف على سؤاله قال سباروف الذي توقف عند الباب :

ـ من الافضل الا تسأله عن هذه الرحلة ، بل سله عن الرحلة السابقة لها، فلقد انتهت تلك الرحلة الى نتيجة فاجعة جدا ، وهي لا شك سيلذ لك سماعها.

خرج سباروف واخذ افيديف يوجه الى جليسه نظرات فاحصة ، فألفاه شابا في الثلاثين من عمره ، ذا وجه جامد اخرس وذا عينين كسولتين هادئتين ، وعقب فترة سأله :

ـ اذن لقد قمت برحلتين فقط ؟

ـ نعم !

ـ حدثني عن الرحلة الاولى التي ذكرها النقيب .

ـ ماذا يجب ان أحدثك عنها ؟

هذا ما سأله فاسيلييف حينما علم بأن جليسه مراسل صحفي ، والحق ان معرفته بشخصية جليسه قد اثلجت صدره واشاعت في فؤاده فرحا شديدا شرسا وهو يفكر بمكاسبه حينما تكتب عنه صحيفة الازفستيا او البرافدا ، اما افيديف فعاد ليطلب اليه :

ـ حدثني بما مر بك بالتسلسل !

فأجاب فاسيلييف :

ـ ماذا استطيع ان اتحدث به ؟ لقد خرجنا في الساعة الحادية عشر ليلا، انا ورفيقي ، واستطعنا ان نتسلل الى الخطوط الالمانية ، فأمسكت برقيب الماني واغمدت حربتي في صدره ، ثم عدنا زاحفين لكن رفيقي صرع اثناء عودتنا، وهذا ما اتضح فيما بعد . وكان قد أصيب في باديء الامر بجرح خطر ، حاول اثره ان يعود زاحفا ، بينما كنت اعتقد بأنه قد قتل .

لكن افيديف أجابه :

ـ انك لا تروي لي القصة على حقيقتها !

فشعر فاسيلييف بقلق باطني لكنه أجاب بهدوء :

ـ ماذا تعني على حقيقتها ؟

ـ اعني انك ترويها لي كما يرويها النقيب في تقريره الى القيادة . وهذا هو ما لا اريده . فحدثني بالواقعة خطوة فخطوة ، كيف ذهبت وبماذا أحسست وانت تزحف ، وكيف قتلت الالماني وبماذا شعرت حينما وبعد ما قتلته ، وكيف عدت زاحفا ، وماذا كان يدور في خلدك ، حدثني بهذه الاشياء كلها !

فأجاب فاسيلييف :

ـ حسنا ! لقد كلفت انا وباناسيوك بمهمة استطلاع ، فخرجت ، لا خرجنا معا . . .

ثم توقف قليلا عن الحديث اذ أحس فجأة بالحيرة والقلق يعصفان بفؤاده كأن هذا الرجل الهاديء ذا النظارتين السميكتين والجالس امامه مطلع على كل امر ، وهو يوجه الاسئلة اليه كي يتأكد فقط مما يعرفه . وقد بدا له ان شرطيا للتحري لا مراسلا صحافيا يجلس امامه ، لكن الواقع يكذب له هذا الخاطر ، فكل شيء هو على ما يرام ، وهذا هو مراسل صحفي وما على فاسيلييف الا ان يصف له الحادث ببساطة وهدوء . . . لذلك استطرد :

ـ حسنا لقد ذهبنا وقصدنا اولا الخط . . .

فقاطعه افيديف :

ـ عما كنتما تتحدثان آنذاك ؟

ـ نتحدث ؟! لم نكن نتحدث .

ـ حسنا بماذا كنت تفكر حينذاك ؟

بماذا كان يفكر ؟ لقد تذكر فاسيلييف انه كان يتساءل آنذاك عما اذا كان من الافضل له ان يقتل باناسيوك عند الخط ، او بعدما يعبره الى الخطوط الالمانية ، لكنه تساءل ايضا يومذاك كيف يستطيع اذا ما قتل رفيقه ان يتابع زحفه دون ان يثير انتباه الرماة الالمان . وبم كان يفكر ايضا ؟ لقد فكر ايضا بأبيه ، وقطع افيديف عليه تأملاته ليسأله من جديد :

ـ نعم بماذا كنت تفكر ؟

كان فاسيلييف ماهرا في الكذب ، وقد انجز مرارا كذبات ناجحة ، لكنه لم يكن يعرف الان كيف يلفق هذه الكذبة لذلك قال :

ـ لم أكن أفكر بأي أمر .

ـ هذا امر مستحيل ، فالانسان يفكر دائما بشيء ما ، فحاول ان تتذكر، فهذا يلذ لي ويطيب .

فأجاب فاسيلييف بعناد :

ـ لقد كنت أفكر كيف اقوم بالمهمة المسندة آلي . . .

ثم اضاف :

ـ هذا كل ما كنت أفكر به .

ـ حسنا بماذا شعرت وانت تزحف نحو الالماني ؟

بماذا حقا شعر فاسيلييف ؟

واستطرد افيديف سائلا :

ـ لقد كنت آنذاك داخل الخطوط الالمانية ، هل همست الى رفيقك ، او اشرت اليه بما يجب أن يفعل ؟ الا تذكر شيئا ؟

نعم لقد كان فاسيلييف يذكر ، وكان يذكر كيف كان باناسيوك يزحف

متقدما أمامه الى اليسار قليلا وكيف انحرف هو الى اليمين بعض انحراف كي يتمكن من أن يغمد حربته في خاصرة رفيقه ، وكيف طعنه وكيف أخذ باناسيوك اثر الطعنة يشد براحتيه على الاجر امامه ، وكيف صدرت عنه بعض ضجة . وتذكر ايضا كيف أمسك بذراعي باناسيوك كي يمنعه من الصراخ وهو يحتضر، وذلك لانهم قد يطلقون نيرانهم على مصدر الضجيج . لكن فاسيلييف لا يستطيع بداهة ان يذكر للمراسل كل هذه الامور لذلك اكتفى بان قال :

ـ كلا لم نقم بأي عمل ! لم نهمس ، بل زحفنا فقط نحو الالماني .

ـ حسنا ! ولكن عندما زحفت انت نحو الالماني بماذا كنت تشعر ؟

فأجاب فاسيلييف وهو يتذكر ثانية كيف أغمد حربته في خاصرة رفيقه فقـال :

ـ لقد كان قريبا منا ، فأغمدت حربتي في خاصرته .

ـ هل قفزت واغمدت الحربة ؟

ـ كلا ! لماذا أقفز ؟ اعني نعم ! طبعا قفزت واغمدت حربتي في جانبه .

ـ ماذا كان رفيقك يفعل حينذاك ؟

فأجاب فاسيلييف :

ـ لا شيء ، كان يساعدني .

ـ كيف ؟

ـ لقد ساعدني فيما بعد ، وذلك عندما بدأنا في تفتيش الالماني .

ـ كيف زحفتما عندئذ ؟

ـ لقد زحفنا كما يزحف كل انسان عادة ، وبعدها لاقى باناسيوك مصرعه .

ـ كيف لاقى مصرعه ؟

ـ بدأوا باطلاق النار فقتلوه .

ـ الم يقل شيئا عقب اصابته ، لماذا أصابوه ؟ لقد كان جريحا فقط، أليس كذلك ؟

ـ نعم كان جريحا ولم يقل شيئا لذلك اعتقدت بأنه قد مات .

بدأت هذه الاسئلة تشيع في فاسيلييف قلقا عميقا فأحس بانقباض نفس وتقلص معدة ، لكنه لم يشعر بالندامة وتأنيب الضمير على فعله ، فلقد حل محل هذين الشعورين سخط شديد ونقمة جامحة على هذا المراسل الذي استطاع ان يوجه اليه اسئلة دقيقة محرجة عجز معها عن تلفيق أجوبة عليها ، وهكذا انهى فاسيلييف حديثه قائلا :

ـ ثم عدت الى النقيب واخبرته بما جرى .

قال فاسيلييف هذا وانتصب واقفا على قدميه واستأذن المراسل بان يسمح له بالانصراف فأذن له وخرج وبعد هنيهة عاد سباروف الى مقره وبادر أفيديف سائلا :

ـ هل تحدثت اليه ، وكيف انتهت رحلتك الاستطلاعية معه ؟

ـ لا بأس ! لا بأس !

ـ هل ستكتب عنه ؟

ـ لا اعرف ، وما أعتقد بأنني سأكتب عنه ، فالناس عندما يتحدثون الي أحاول دائما ان اتلمس مشاعرهم وأعرف ماذا يدور في أذهانهم . لكن هذا « ألفاسيلييف » عندما كان يتحدث الي لم استطع ان أكون عنه صورة واضحة في نفسي ، فلقد كان يتحدث كأنه ينطق بكلمات انسان غيره ... لا ! لا ! لن أكتب عنه .

فأجابه سباروف :

ـ هذا أمر مألوف ، فالمرء قد يقوم بعمل ما لكنه يعجز عن التحدث به .

ـ لا ! بامكانك دائما ان تحصل على القصة الحقيقية اذا ما عرفت ان توجه الاسئلة الصحيحة المناسبة . فكثيرا من الاحيان لا يرغب الجندي في الحديث لكن هذا لا يعني ابدا ان الجندي عاجز عن الحديث ، بل انما يعني انه لا يريد ان يتحدث، وعندما يحدث مثل هذا الامر ، فانما يدل على أن الانسان يرغب في ان يقص كذبة قصيرة ، لكنه يخشى ان يفتضح أمره اذا ما حقق في كذبته استيضاحا واستجوابا ، عندئذ لا يصف مثل هذا الانسان ما حدث له ، وذلك

لا لانه عاجز عن وصفه ، بل لان ذاك الامر لم يحدث ابدا .

لكن سباروف أجابه :

ـ لكن ما حدثك به فاسيلييف قد وقع وحدث .

فأجابه أفيديف :

ـ جائز ! لا أعرف ! لكن ليس هناك من امر أستطيع آن اكتبه عنه ، فلم تخرج من فمه كلمة حية واحدة .

فرد عليه سباروف :

ـ لا بأس باستطاعتك غدا ان تتحدث الى آخرين غيره ، وان تكتشف بنفسك الشخص الذي تراه يستحق أن تتحدث اليه . فلدي الكثيرون من الناس الطيبين ، وكلهم ممتازون تقريبا ، ومن الجائز ، انك سمعت وتسمع جميع الضباط يتحدثون عن رجالهم كما أتحدث أليس كذلك ؟

فأجاب آفيديف ايجابا اما سباروف فاستطرد :

ـ لا ادري اي نوع من الرجال كان هؤلاء قبل الحرب ، ولا ادري اي نوع من الرجال يريدون ان يكونوه بعد الحرب ، لكنهم جميعا طيبون تقريبا ، وأعتقد بان معظمهم سيحافظون على طبيعتهم ، واعني طبعا معظم من يبقى حيا منهم .. هل تعرف بأنني واثق تقريبا مما اقول ... هيا بنا الى النوم !

اتجه سباروف نحو فانين حيث كان هذا يغط منذ زمن في سبات عميق، فرفعه بيديه ووضعه على حافة السرير فاعترض افيديف على عمل سباروف هذا قائلا :

ـ انك ستوقظه !

فأجاب سباروف :

ـ لا ! سيبقى نائما ، لكن الهاتف اذا ما قرع فعندئذ تراه يهب فجأة وينطلق كالعيار الناري اليه ، اما اذا ما ازجحته ثلاث مرات على هذه الشاكلة فلن تفلح في ايقاظه ، وما قلته لك صادر عن خبرة به ، فهيا اضطجع ، ان لك نصف السرير .

خلع افيديف حذاءه واضطجع دون ان ينزع عنه ثيابه ، وغطى جسده بمعطفه ، بينما جلس سباروف على سريره وخلع سترته وسرواله وطواهما بعناية واهتمام ووضع حذاءه تحت سريره بعد أن وضع قماطيه القطنيين فوقه، ثم دثر جسده ببطانية وأشعل سيجارة وهو يخاطب افيديف ويقول :

ــ انني انزع ثيابي قبل النوم في كل فرصة تتاح لي ، ولقد سبق لي ان خدمت على الحدود ، وهكذا تراني أضع كل شيء من ملابسي بانتظام ، كما يفعل حرس الحدود ، ولهذا لا احتاج الى اكثر من ١٥ ثانية لارتديها . وقد قمت بتوقيت هذه العملية . زد على ذلك ان الحرب ستستغرق وقتا طويلا ، وهكذا تراني أنام تحت بطانية ايضا .

ثم سأل باسما :

ــ ما بك الا توافقني على ما أقول ؟

فأجابه افيديف :

ــ انني موافق معك واتمنى لك ليلة سعيدة !

فأسند سباروف رأسه على وسادته وسحب بضعة أنفاس عميقة من سيجارته ، فهو لا يحس برغبة في النوم ، فأخذ يصغي الى صوت المطر يترامى اليه رتيبا حزينا من باب النفق المفتوح ، وقد يكون هذا آخر مطر تشهده ستالينغراد في عامها الحالي .

- ١١ -

استيقظ أفديف في الصباح الباكر وقصد برفقة فانين السرية الاولى ، اما سباروف فبقي في مقره اذ كان يرغب في انجاز بعض اعماله المكتبية المتراكمة فجلس ومسلنكوف لمدة ساعتين او ثلاثة يحضران مختلف التقارير العسكرية ، وقد كان بعض هذه التقارير هاما وبعضها يبدو لناظري سباروف عقيما تافها، افترضتها عاطفة اعتاد عليهـا ايام السلم . وعندما خرج مسلنكوف ، كرس سباروف وقته لانجاز عمل كان قد أجله طويلا ، لكنه كان دائما يثقل ضميره، اذ أخذ يجيب على رسائل وردت الى جنود امسوا في عداد القتلى ، وكان قد أخذ على نفسه منذ بداية الحرب ان يجيب على مثل هذه الرسائل . وكـان يحزنه كثيرا ان لا يجيب المرء على رسائل ذوي القتلى بغية امساك آلنبأ عنهم أطول مدة ممكنة ، كأن عدم الاجابة على رسائل كهذه امر ممكن وليس بعسير . وكان يرى ان مثل هذا النازع انما ينشأ عن رغبة المرء في تجاهل أحزان الغير، كي لا يشترك هو نفسه فيها . ولقد كانت الرسالة الاولى آلتي بدأ بها رسالة وجهتها زوجة بارفنوف الى زوجها ، وقد استهلت رسالتها كاتبة :

عزيزي بطيرس !

ولم يكن سباروف يعلم بان بارفونوف يلقب ببطيرس تحببا !

ثم استرسلت :

اننا نفتقدك كثيرا ، واننا ننتظر نهاية الحرب بلهفة كي تتمكن من العودة الينا ، لقد أصبحت جالوشكا الان بنتا كبيرة وتستطيع ان تسير على قدميهـا دون مساعدة احد ، ونادرا ما تقع ...

قرأ سباروف الكتاب بعناية وإهتمام حتى نهايته . ولم يكن الكتاب طويلا، بل كان يحمل اليه تحيات عائلته، وبعض كلمات عن العمل ، واملا بالنصر السريع على الفاشيين ، وكان ولده الاكبر قـد كتب في نهـايته سطرين ذات كلمـات متراقصة حائرة ، وقامت ابنته بمساعدة امها برسم خطوط منحنية متعرجة

كتبت الام تحتها تقول بان جولوشكا قد كتبتها بنفسها .

فبماذا يستطيع سباروف ان يجيب ؟

لقد كان سباروف يعلم دائما ان المرء يقول في حالات كهذه : انه قد قتل، وانه ميت، لكنه كان دائما يفكر طويلا بصيغة كل جواب ، كأن كل جواب يرسل به هو الجواب الاول الذي يكتبه في حياته . فبماذا يستطيع ان يجيب ؟

وفي الواقع ماذا هناك من شيء يستطيع قوله ؟

فهو لا يزال بارفونوف الضئيل الجسـد ممدداً على ارض الغرفـة ، ويذكر وجهه الشاحب الابيض ورأسه الموسد على مزودتين عسكريتين . فهذا الرجل الذي خر صريعا في اول معركة يخوضها ، والذي لم تكن له به معرفة من قبل ، كان رفيقا له في السلاح ، وهو رفيق سلاح من عدد كبير من الرفاق أمثاله الذين قاتلوا معه جنبا الى جنب ، وخروا صرعى ، بينما كتب له القدر النجاة بطريقة ما . وسباروف قد اعتاد هذه الحال كما اعتاد الحرب ، وكـان من اليسير عليه ان يقول لنفسه ببساطة بان ذاك قد حارب هنا وقتل ، لكن ان يوجه مثل هذا القول الى اولئك الذين يقطنون في مدينة بنزا ــ شارع كارل ماركس رقم ٢٤ ، فهذا امر لا يرتضيه لنفسه ، فمثل هذه الكلمات ، لن تنزل على ذوي القتيل كلمات بل انما ستنقض نوائب وكوارث ، فلن يطلق بعد الان على الزوجة اسم زوجة ، بل أرملة ، ولن يمسي اسماء الاطفال اطفالا بل ايتاما، وهذا الواقع لا يمثل مجرد حزن بل انما يمثل تبديلا جذريا كاملا يطرأ عـلى حياة اولئك المنكودين ومستقبلهم . وكان أصعب ما يلاقيه سباروف حين كتابته لمثل هذه الرسائل ، أن توحي الى اي انسان يقرأها بان كاتبها قد خطها بيسر بالغ ، وكتبها بسهولة متهاونة . لقد كان يريد دائما حينما يكتب ان يشعر ذوي القتيل بأنه يشاركهم اتراحهم ، وبأنه رفيق حزن ، وبأنه انسان لا يقل حزنه عن حزنهم ابدا .

وبهذا رأى سباروف ان النبأ لن يكون له من وقع شديد ، وان الحزن لن يوقف المحزون عن قراءة الرسالة حتى نهايتها . لقد كان يعرف بان على الانسان ان يكذب أحيانا على الاخرين ، فهؤلاء يريدون لمن يحبون موت بطـل ، او ان يعرفوا على الاقل بأنه قد لاقى مصرع الشجاع . وهم لا يريدون له أن يموت ببساطة ، بل ان يخر وهو يقوم بانجاز عمل عظيم ، ويريدون فوق هذه الاشياء

كلها أن يعتقدوا بانه كان يفكر بهم قبل موته .

وكان سباروف يحاول دائما اشباع هذه الرغبة في آلناس عندما يجيب على رسائلهم الى آلقتلى ، لذلك كان يرى عند الضرورة في الكذب معوانا رحيما. وكان كذبه يأتي دائما متناسبا وضرورات الحال . وهذه هي الاكاذيب الوحيدة التي لم تكن لتثقل على ضميره .

فتناول قلمه وانتزع صفحة من دفتره وانطلق يكتب بيد سريعة ضخمة جريئة . فاستهل رسالته واصفا كيف خدم وبارفونوف لفترة طويلة ، وكيف لاقى بارفونوف مصرع آلبطل وهو يقاتل لَيلا في ستالينغراد (وهذا حق) وكيف اردى قبل مصرعه ثلاثة من الالمان (وهذا ليس بصحيح) وكيف عندما كان يلفظ انفاسه بين ساعدي سباروف يردد اسم ابنه « فلوديا » ويطلب بأن يقال لابنه ألا ينساه . وعندما انتهى سباروف من كتابة رسالته التقط صورة فوتوغرافية قبل ان يلصق الغلاف ، وكانت هذه الصورة قد التقطت في ساراتوف ، حيث قام احد المصورين المتجولين بالتقاطها، وكانت تظهر بارفونوف الضئيل الحجم وهو يناطح حافة الصورة العليا برأسه ويضع يده على حزامه الجلدي ، (ولا شك ان المصور لم يصر على بارفونوف في وضع يده على حزامه) .

وعقب ان انتهى سباروف من كتابة رسالته الى عائلة بارفونوف بدأ يقرأ رسالة واردة إلى الرقيب تاراسوف من السرية الاولى ، لقد كان سباروف يعلم بأن الرقيب المذكور قد قتل في اول معركة له ، لكنه لم يكن يعلم بالظروف التي أدت الى مقتله ، وكانت الرسالة الواردة الى الرقيب القتيل رسالة ريفية بسيطة وقد كتبت على صفحة انتزعت من دفتر وخططت بالمربعات ، لكن كل كلمة فيها كانت تفيض بالمحبة ، وبحزن لم يحسن التعبير عنه لكنه لم يكن دون تلك قوة في اثارة الاحاسيس . ومع آن سباروف كما سبق لنا ان قلنا لم يكن يعلم بتفاصيل مقتل الرقيب تاراسوف الا انه خط الى ذوي القتيل رسالة يقول فيها بان كاراسوف قد لاقى مصرع الشجاع وانه هو بوصفه آمرا له ليفخر به شديد الفخر واعمقه .

وعندما انتهى سباروف من هذه الرسالة تناول رسالة ثالثة وما كاد ينتهي منها حتى تناول بسماعة آلهاتف وطلب السرية الاولى التي كان القومسير وافيديف قد قصداها . فأعلمه جوردنكو بأن القومسير وافيديف هما الان في

طريق العودة اليه فسأله سباروف عما اذا كانا قد قاما بجولة واسعة فأجابه جوردنكو ايجابا وسمع سباروف جوردنكو يهنف قليلا وهو يجيب على سؤاله فأعاد سباروف السماعة الى مكانها وزفر زفرة غبطة وارتياح .

جلس سباروف مساء الى المائدة لتناول طعام العشاء برفقة اربعة اخرين بالاضافة الى أفيديف والقومسير ، وكان مسلنكوف حاضرا ايضا . وجلس فانين جلسة الهناءة ، اما افيديف فبدا منهوك القوى متعبا . وقد أحس أفيديف ببعض احاسيس ملطفة من السرور والاثارة لعودته الى مقره ، وهذه الاحاسيس مألوفة لدى كل انسان في الحرب وخاصة عندما يحل الاطمئنان النسبي في نفسه محل ادراك المخاطر ووعيها . وعقب ان انتهوا من تناول طعامهم بدأوا يتحدثون عن موضوع الخطر والمخاطر بالذات وقد افتتح أفيديف الحديث قائلا :

ـ هل تعلم ، ولنقلها بصراحة ، بان الاحساس بالخطر والشعور بالتعرض للموت ، هما احساسان منهكان متعبان ، وانك تشعر بوطأتيهما الكاسحتين .. اليس ما أقوله هو الحق ؟

فأجاب سباروف موافقا واستطرد أفيديف قائلا :

ـ ان الجندي يذكرني احيانا بالغطاس الذي يغوص في الماء تدريجيا ، وبالضغط المتزايد مع كل حركة غوص تنزل به الى الاعماق ، وهذه هي حال الجندي ايضا ، فالمخاطر تزداد مع كل لحظة وانت تعتاد عليها تدريجيا ايضا . والناس في المؤخرة لا يدركون بان الخطر ليس بالكمية الثابتة ، وان كل ما في الجبهة من امور وأحوال انما هي امور وأحوال نسبية . فعندما يرتمي احد جنودك في الخندق عقب هجمة من الهجمات فانه يحس بأمن واطمئنان . وانا عندما أعود من زيارتي الى احدى السرايا الى مركز قيادة كتيبتك ، فان هذه الحفرة الصغيرة تبدو لناظري كأنها قلعة جبارة ، وانت عندما تنتقل الى مركز القيادة العامة فانك لا شك تحس بان هدوءا عميقا يخيم على ذاك المركز ، اما اذا ما انتقلت الى ضفة نهر الفولغا الاخرى ، ومع ان هذه الضفة تنال دائما نصيبها من القصف فانك لا شك ستشعر بانك قد وجدت في تلك الضفة ملاذا لك ومنتجعا ، زد على ذلك انه اذا ما دفعت يد القدر بأحدهم من المؤخرة الى تلك الضفة فان مثل ذاك المرء سيحس بان ذاك المكان مكان محفوف بالمخاطر الشديدة ... ما رأيك ألا تراني على صواب ؟

فأجابه سباروف :

ـ لقد نطقت بالحق ! لكن لي تحفظا واحدا على ما قلت وذلك بالنسبة إلى ستالينغراد ، فمركز القيادة العامة نفسه هنا ، هو في بعض الاحيان قريب كمركزنا نحن من الخطوط الالمانية ، وهم ايضا معرضون مثلنا تماما للاخطار ذاتها ، ولتتامل بهذا الهدوء الذي يخيم على هذا القطاع الان ، أنه والحق هدوء أشد خطرا من الحرب .

وعقب هذا الحديث الموجز نهض سباروف وارتدى معطفه وقال :

ـ انني ذاهب لاتفقد السرية الثانية .

وقد خيل الى افيديف ان سباروف انما نطق بهذا القول ليدعوه الى مرافقته او ليتحداه كي يرافقه لهذا ما كاد سباروف ينتهي من التفوه بتلك الجملة حتى انتصب أفيديف بهدوء واقفا على قدميه وارتدى معطفه فبادره سباروف سائلا :

ـ الى أين ...؟

فأجابه افيديف :

ـ اريد مرافقتك !

أخذ سباروف يحدق في وجه أفيديف المتعب ، وشعر بأنه يريد الا يستجيب الى رغبته ، الا ان سباروف كان يدرك ان هذا الرجل حالما يسمع بجملة واحدة بسيطة ، جملة لم توجه حتى اليه ، تتضمن اقتراحا بمرافقته ، فان هذا الرجل سيصر شديد الاصرار على رفقته ، وانه لمن العبث ان يحاول المرء ان يثنيه عن عزمه . ولما كان سباروف لا يميل بطبعه الى الجدل العقيم لذلك أجاب أفيديف :

ـ حسنا ، اذن فلننطلق !

كان باطابوف السيبيري الاصل والمنبت لا يزال آمر السرية الثانية ، وعندما شاهد سباروف يصطحب رجلا غريبا ، رجلا قد يكون من القيادة العامة، اتبع التقليد المألوف في الجبهة ، فدعاهما الى تناول الطعام معه في خندقه ، وقال وهو يدعوهما بأنه طبعا لن يقدم اليهما سوى ما هو متيسر ، وهو ليس باللون الخاص ، بل انما بعضا من « الزلابياء » السيبيرية المحشوة باللحم . وكان سباروف يعلم بانه اذا ما كان لدى باطابوف « زلابياء » فانها لا شك ستكون

شهية الطعم ، ولقد ادرك سباروف هذا من الطريقة التي لفظ بها باطابوف ، جملة « ليس باللون الخاص » ، فهذه الجملة كانت تضغط فيها دائما كبرياء الخطوط الامامية عندما يدعو صغار الضباط رؤساءهم لتناول الطعام معهم . وكان الضباط الصغار يبذلون في مثل هذه الاحيان كل جهد ومسعى ليتدبروا بما عندهم احسن الالوان واطيبها وكثيرا ما نجح طباخوهم في البرهنة على انهم افضل حالا وأطول باعا من طباخي كبار الضباط . لكن سباروف وأفيديف أبيا الاستجابة الى اغراء « الزلابياء » وسارا بمحاذاة الخندق ليجدا وراء جدار البناية ، الزمرة التي يقودها كونيوكوف . لقد كان الخندق قد حفر تحت الجدار نفسه وبمحاذاة الاساس ، وقد موه ببراعة فائقة بواسطة الاجر المكسور والتراب . وكان هناك دربا مواصلات يمران من تحت آلبناية الي خندق غطي بالعوارض الخشبية المحروقة . وكان هناك ايضا عشان من أعشاش المدافع الرشاشة ومناظر للقناصة ، كما واقيمت في الخندق رفوف نضدت عليها كل ما يحتاج اليه الجنود ، من تبغ ومعلبات وغيرها من الميره والمؤن الاخرى . وعندما شاهد سباروف احد الجنود يحاول ان يطفيء سيجارته بادره قائلا :

ـ لا بأس عليك ! أكمل لفافتك !

ثم التفت الى كونيوكوف وسأله :

ـ كيف تسير امورك يا كونيوكوف ؟

ـ ممتازة ايها الرفيق النقيب !

لم يكن كونيوكوف قد فقد بعد روحه الانضباطية ، ولكن عقب مضي نصف شهر عليه في قتال مرير احس بان شيئا ما قد لطف داخله ، فلقد بدأ يشعر بان روحا من الزمالة اوثق وشيجة تشده الى رؤسائه في وجه الاخطار والمخاطر .

ـ هل اعتدت على القنابل ؟

بهذا سأل سباروف كونيوكوف الذي اجابه :

ـ تماما ! هذا هو ما اعتدت عليه ، واذا لم تعتد عليها ، فباستطاعته ، واسمح لي بان اقول ، ان يذهب ليرمي بها في الفولغا (وضمير الغائب هنا يعود وفق مصطلح الجنود آلى الالمان) وان يتابع القاءها في النهر . انه يعلمنا

الان ويدربنا ، فكيف لا يستطيع المرء ان يتعود عليها .

فالتفت سباروف الى افيديف وقال :

ـ هذا هو الرقيب الاول كونيوكوف ، ولقد طلبت من القيادة في اليوم السابع والعشرين من هذا الشهر ان تمنحه وساما لشجاعته .

فابتسم كونيوكوف مسرورا بما سمع . والحق انه قد سمع منذ امد بان آمر كتيبته قد طلب له وساما ، لكن تكرار سباروف لهذا الواقع وبصوت جهوري مسموع من جميع جنود كونيوكوف قد اشاع في نفسه غبطة خاصة . وكما يحدث في كثير من الاحيان وفي لحظات الانتشاء العاطفي ، الشديد ، فان كونيوكوف لم يعد يتذكر ما كان عليه ان يقوله في مثل هذه الاحوال ، لذلك تفوه ببعض كلمات كان قد تعلمها منذ زمن طويل وفي الحرب العالمية الاولى ، اذ قال بلهجة مخطوفة الكلمات ، « انني لمسرور بان ابذل جهدي » ، وعندما انتهى من النطق بهذه الجملة اخذ يصارع ليلجم لسانه عن اتباعها بالاصطلاح المألوف قبل الثورة ، اي « يا صاحب السعادة »!

وعاد سباروف ليقول لكونيوكوف :

ـ ان هذا الرفيق هو قوميسير كتيبة من موسكو فارو له يا كونيوكوف ما قمت به في اليوم السابع والعشريـن من هذا الشهر ، واعطني منظارك الان !

فقدم كونيوكوف الى سباروف منظار ميدان ضخم من طراز « زيس » كان قد التقطه في اليوم الاول من المعركة التي دارت لاسترجاع البناية ، وكان هذا المنظار يتدلى من رقبته وهذا ما جعله يبدو بمظهر الضابط وليس بمظهر الرقيب . والحق ان كونيوكوف كان فخورا بالمنظار ، لذلك احس ببعض من وجل وهو يقدم المنظار الى سباروف اذ تذكر مدى شغف الضباط الامار في الاستيلاء على المغانم التي تقع بين ايدي مرؤوسيهم .

وبينما كان سباروف يسند بظهره الى الحائط ويفحص بالمنظار الخرائب في الشارع المجاور اخذ كونيوكوف يروي اسطورته باسلوب متراخ كسول. فلقد كان كونيوكوف يعتبر اليوم السابع والعشرين يوم حظه السعيد ، لذلك اخذ يتحدث عنه بغبطة وارتياح عميقين . ففي ذلك اليوم كان يقوم بمهمة النجاب (الساعي) ، ولقد زحف في تلك الليلة مرات سبعا في خلاء مكشوف يفصل السرية الثانية عن السرية الاولى ، واتبع في زحفه خط السير ذاته

الذي لاقى فيه كل ساع غيره مصرعه ، لهذا فانه كان يصور اعمـاله تلـك الى افيديف بتعابير انطباعية حية ، تعابير الجندي القديم وكان مما قاله :

ـ « لقد كنت أزحف وكان الرصاص يتطاير من فوقي ومـن امامـي وورائي ، وكنت احمل تلك الليلة على ظهري جرابي ، وكان الجراب يحتوي على بعض من التبغ وعلى كسرة من الخبز ، وعلى كل حال ، ومع انه مـن الاسهل للانسان ان يزحف دون جراب ، لكنك لا تستطيع ان تسمح لنفسـك بان تترك الخبز او التبغ وراءك . فانت في مثل تلك الحالات لا تعرف ابـدا الى ايـن قد تنتهي بك طريقك ، ومن الجائز ايضا انك لن تستطيع العـودة زاحفا . او قد تجرح أثناء زحفك ، وعندئذ عليك ان تدخن لفافة او ان تمضغ كسرة من الخبز على الاقل ، كما وان في فوة جرابي مقلاة، فاي نوع من الطعام تستطيع ان تأكله دون مقلاة ؟ وهكذا رأيتني ازحف وازحف والمقلاة تتأرجح من جانـب فـوهة الجراب الى جانبها الاخر ، فتصدر عن تأرجحها قرقعات وقرقعات ، ولم يكـن سبب القرقعات انني لم احسن ربطها ، بل انمـا كان سببها الرصاص الذي ملأها بالثقوب ، وعلى ما ترى فان الرصاص كان عالي التهديف بالنسبة الي ، وفجأة ، وبينما كنت أزحف ، شعرت بشيء ما يحترق فوق ظهري ، فاستللت سكيني وقطعت الحزام الذي يشد الجراب الى ظهري ودفعت بالجراب جانبا فوقع قريبا مني ، وهل تصدق انني رايت الجـراب مشتعلا ، لقد اشعلت الاعيرة النارية الالمانية الحارقة النار فيه فأخذت اضحك عاليا وانا اشهد جرابي طعما للنار ، يا لغبائهم ! هل كانوا يعتقدون بانني دبابة؟ حقا لقد اشعلوا النار في برجيّ ، لذلك تركت جرابي وانا اشهد بأسى احتراق التبغ فيه وتابعت زحفي الى مكان منبسط تماما يقع بمحاذاة الدرب وملـيء بالحفر والطين ، ثم استأنفت زحفي وانا أضرب في الوحل والثلج وابذل جهدي لالتصق بالارض التصاقا كليا ، وقد بلغ التصاقي بها حدا جعلني اجرف الوحل بوجهي حذائي ، وكانوا هم يتابعون اطلاق النار علي بينما كنت انا أضغط بكـل جسدي على التربة . وعندما بلغ كونيوكوف هذا الحد من روايته اخذ يتـأمل في الجنود المحيطين به والذين كانوا يصغون اليه ، والحق ان هؤلاء الجنـود لم يكونوا يسمعون قصة كونيوكوف هذه للمرة الاولى ، لذلك فان ملامح وجوههم كانت ترى ان كونيوكوف سينطلق الان الى رواية احدى النوادر ، وكان الجنود يعرفون بالنادرة التي سيرويها كونيوكوف لهذا كانوا يترقبونها بمرح شديد ، إما كونيوكوف فاستطرد يقول :

ـ ولأقل لك بانني كنت ازحف على الارض وانا اعتصر تربتها بقـوة اشد بكثير من اعتصاري لزوجتي الشابة في السنة الاولى لزواجنا ، والله على ما أقول شهيد ، وانني لأرسم علامة الصليب اثباتا لما اقول .

قال هذا ثم رسم علامة الصليب بوقار ومهابة ، غـير عابيء بضحك رفاقه، واستطرد يروي :

ثم تسللت وراء الخراب حيث لا تستطيع ان تنالني رصاصات المدافـع الرشاشة ، ولكنهم على ما يظهر لم يكـونوا يرغبون في ان يتركوني حيـا ، اذ بدا ان بقائي حيا اهانة لهم وسبة ، وهذه هي الحرب الثانية آلتي يحاولون فيها قتلي ويفشلون ، ولم يكن من حولي وتحتي شيء سوى الطين ، فاندفعـت نحوي القنابل وتناثرت حولي الشظايا فبدت وهي تضرب الطين كانها الخراف تغوص في الوحل وهنا تدخل سباروف ليقاطع كونيوكوف وليطلب منه ان يتابع روايته لافيديف ، وليخبرهما بانه سيذهب لتفقد زمرة اخرى من جنود السرية وقبل ان يغادرهما اعاد المنظار الى كونيوكوف الذي تلقفه بغبطة وفرح .

وعقب مضي ما يقارب الثلاثين دقيقة من الزمن وبينما كان يعد نفسـه للعودة ثانية الى افيديف سمع عواء طويلا لرشاشات تنطلق باتجاه كونيوكوف وافيديف ويعقبها انفجارات قنابل خمس او ست ، فلم يستطع ان يخمـن سباروف الهدف الذي يقصده الالمان من عملهم هذا . فانتظر سـباروف لدقيقة واحدة ، ثم اخذ يزحف عائدا وعندما بلغ كونيوكوف وجده جالسا قبالة افيديف في قعر الخندق ، وهو لا يزال مسترسلا في روايته وسمع كونيوكوف يقـول :

ـ أترى ؟! لقد قلت لك ذلك ، فحالما صفعناه رد لنا الصفعة .

فأجابه افيديف بلهجة تفيض ببعض من احاسيس وقال :

ـ انك لعلى حق ! انك وبالتأكيد لعلى حق ، وهذه هي الطريقة المتوجـب اتبـاعها .

فتدخل سباروف ليسأل :

ـ ما الذي يحدث هنا ؟ آمل آلا تكون تلك الرشاشات والقنابل قد رست على أي احد منا ؟

فانتصب كونيوكوف على قدميه وهو يقهقه ضاحكا ويرفع باصبعيه عمرة افيديف التي كانت مقلوبة رأسا على عقب الى جانب الخندق وقال :

ــ كلا ! لقد اتلفوا هذه العمرة ، فلقد خلعها عندما بدأ يهـدف ووضعهـا هناك ، وانظر لقد اصابها الالمان اصابة جميلة جمال الدجاجة وهي تبيض بيضتها في سلة صنعت من لحاء الصفصاف .

أمسك سباروف بالعمرة فالفى ان شظتين قد خرقتا العمرة لكنهما لـم تنفذا منها ، بل انما قرضتاها فقط ، كما يقرض العث النسيج، فاخرج سباروف الشظيتين وقال :

ــ لن يصدقك احد اذا ما قلت ان هذه الثقوب هي ثقوب احدثتها الشظايا اذ ان الجميع سيقولون ان العث وحده هو سببها .

فأجاب افيديف :

ــ لن اتحدث عنها على كل حال

فسأله سباروف :

ــ اذن فانت هو الذي اطلق النار على ما اعتقد ؟

ــ نعم ! لقد اطلقتها باتجاه تلك الخرائب اذ قيل لي ان الالمان يجلسـون بينها.

فرد كونيوكوف :

ــ نعم كانوا يجلسون هناك ، نعم انهم كانوا هناك ولهذا فانهم اجابـوا على نيرانك بالمثل لانهم كانوا هناك .

فعلق افيديف قائلا :

ــ اترى ؟! لقد كان كل شيء هادئا ، لكنه لم يعد بهاديء الآن ، لماذا تبخلون باطلاق النار ؟ هل تتعمدون توفير الذخيرة ؟

فصاح كونيوكوف :

ــ لتذهب الذخيرة الى الشيطان ! اننا لا نوفر الاعيرة النارية ، ولكن مـا الذي يدعوك لاطلاق النار عندما لا تراهم ؟ فنحن حالما نبصرهم نطلق عليهم النار ولكن عندما لا تستطيع ان تبصر بهم ..

وهنا قاطعه سباروف سائلا :

ـ هل انتهيتما من حديثكما ؟

فأجابه افيديف ايجابا ، وطلب من سباروف آن يعود به ، وعندما كانا في طريقهما الى خندق باطابوف التفت افيديف الى سباروف وبادره فجأة قائلا :

ـ هل تعرف ، لقد تعمدت اطلاق النار ، لقد اطلقتها مدفوعا بمبدأ .

فسأله سباروف :

ـ هل تعني انك كنت تريد ان تقتل بنفسك المانيا ؟

فرد افيديف :

ـ كلا ! لا تغضب ، ومن الجائز انني اتدخل في عملك ، لكنه بدا لي انه مما يجافي الحق ..؟

ـ ما الذي يجافي الحق ؟

ـ كل هذا الهدوء ، هذا النوع من الهدنة

ـ لماذا ؟

فرد افيديف :

ـ لعلك على حق ! فانت عندما لا ترى الالمان فليس هناك من داع لاطلاق النار ، لكنه بدا لي انه لربما كانوا متوقفين عن اطلاق النار ، لاسباب اخرى .

ـ ما هي الاسباب الاخرى ؟

ـ ربما آنهم لم يكونوا يرغبون في الرد على نيرانهم بالمثل ، وهكذا اطلقت بعض شحنات من الرشاش ، فاجابني الالمان عليها ببضعة قنابل ، وهكذا اتضح لي باننا اذا لم نطلق النار عليهم فلن يطلقوا النار علينا ، وهذا مما لا أريده او اشتهيه ، مارأيك فيما اقول ؟

فرد سباروف قائلا :

ـ لعلك على حق !

اما افيديف فاسترسل يقول :

ـ ما الذي دعاني الى التفكير بكل هذا ؟ لقد لاحظت في الربيع الماضي ، وفي الجبهة الغربية ، انه كان يسود نوع من الهدوء عقب كل معركة . فكانوا يصمتون صمتهم اليوم هذا ، وكان احيانا صمتهم يمتد لفترة اطول مما تستدعيها الضرورة كما كان يخيل الي ..

فأجابه سباروف موافقا ، وقد بدا له ان هذا الرجل لاشك مصيب في قوله . فعقب كل قتال مرير ، وفي اللحظة التي يكون فيها الجميع معرضين للخطر ، فان كل جندي ، وحتى هو نفسه ، سباروف ، لم يكن ، وبدون وعي منه ، يرغب في انهاء حالة الهدوء ولو فترة قليلة ، يبدد فيها اعيرة المدافع الرشاشة والقنابل . وهذا امر بديهي ، لكنه في الوقت نفسه امر غير مصيب ، وسباروف يعتقد بان افيديف على حق فيما قال ،وفعل ، لذلك عزم سباروف على ان يصدر اوامره الى كتيبته بان يقوم الجنود بالاضافة الى غاراتهم الليلية لا بالرد فقط على نيران الالمان بالمثل نهارا ، بل ان يزعجوا ايضا الالمان ويقضوا مضاجعهم بين فترة واخرى وحتى بالنيران العمياء اذا ما اقتضت الضرورة ، وذلك كي يبقوا الالمان في حالة من القلق والتوتر والانفعال .

بلغ سباروف ورفيقه خندق بطابوف ليجداه في انتظارهما عند عتبته . فاخذ يتحدث اليهما ثانية عن « زلابيانه » المحشوة باللحم ، اذ انه كان قد طلب من طباخه ان يعد شيئا منها اثناء غيابهما عنه ، لذلك فانه كان الان بادي العزم على مطالبتهما بالاستجابة الى رغبته وهذا ما جعله يخاطب النقيب ويقول :

ـ ارجوك ايها الرفيق النقيب ، لا بل اطلب اليك ، وحتى لو كان من اجل تكريم ضيفنا فقط ..

لكنه لم يكد ينهي جملته هذه حتى انفجرت ثلاث او اربعة قنابل وراء الخندق مباشرة فدفع سباروف بافيديف داخل الخندق واعتصره على حائطه ، واعقب انفجار الدفعة الاولى من القنابل ، انفجار دفعة ثانية يتراوح عددها بين العشر والثلاث عشرة قنبلة ، ثم تلاها قصف المورتر لمدة تجاوزت ربع الساعة من الزمن ، وكان بطابوف يصدر اثناء القصف الاوامر الى السعاة ، بصوت يسعى لان يرتفع به فوق اصوات الانفجارات والانحطام ، وكان السعاة يتراكضون لنقل اوامره الى الزمر .

اخذ سباروف يتطلع الى الجلد ، فشاهد الطائرات الالمانية تتجه نحـــوه كأنها اسراب من بط بري ، وقد بدا ان من العسير عليه ان يحصي عددها وهي لاتزال على تلك المسافة البعيدة منه ، لكنه قال في نفسه انها لاشك لاتقل في اية حال عن الستين طائرة . وعقب بريهة بدأت المدفعية باطلاق نيرانها ثانية،فارتفعت ما وراء الخندق ينابيع سوداء تتسامى بشآبيبها عاليا عاليا والتفت سباروف الى افيديف وقال بصوت هادىء بدا كانه يخاطب به نفسه اكثر من خطابه لافيديف وقـــال :

ـ حسنا ! لقد انتهى الهدوء على ما اعتقد

ثم صاح مناديا :

ـ بطابـوف .

فـرد بطابـوف :

ـ أمـرك !

فاجابه سباروف :

ـ آن قومسير الكتيبة سيبقى عندك حتى تنتهي المدفعية من اطلاق نيرانها وعندئذ عليك ان تغتنم احدى الفرص وترسل به مخفورا الي ، اما انا فسأعود الان الى قيادة مركز الكتيبة ..

لكن افيديف قاطعه :

ـ ايها الرفيق سباروف ، انني سأرافقك .

فانتهره سباروف :

ـ كلا ! لن ترافقني ! لاتجادلني ! آنني السيد هنا ، يابطيرس هيا بنا !

قال هذا ثم تسلق الخندق الى الخارج وبطيرس يعدو وراءه عائدين الـى مركز قيادة الكتيبة .

حقا لقد انتهى الهدوء ، وسباروف يزحف الان من حفرة قنبلة الى اخرى، وهو يؤمن بان الالمان اذا لم يهاجموا خلال خمس عشرة دقيقة، فانه لا شك يجهل بكل امر من امور الحرب .

- ١٢ -

كان صباحا ، وايام خمسة بلياليها من قتال ضار مرير اعقبت الهجوع والسكينة . وكان فاسيلييف يضطجع في قعر الخندق تحت شراع من الخيش نصبه فوقه ليتقي به المطر ، وقد فتح ثغرة في الشراع ليراقب منها سماء الخريف الرصاصية الغبية ، وكان قد عاد في الليلة السابقة من جولة استطلاعية ناجحة ، وهي الجولة الثالثة له خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن ، لذلك ومكافأة له على نشاطه سمح له بالنوم الى اطول مدة يستطيعها . ولقد نام كالقتيل لمدة ساعات ثلاث ، لكنه استيقظ بعدها ليبقى مضطجعا حيث هو يحملق في السماء بعينين مفتوحتين ويتأمل فيها متمتما مفكرا . فلقد ابرم صفقة مع الالمان بان ينصب شركا في الخرائب الواقعة في المنطقة المحرمة . وكان هذا الشرك شركا نموذجيا في عقليته العسكرية ، فهو ليس بالشرك البارع جدا وليس بالشرك الهين البسيط ، وهو من ذاك النوع الذي يتردى فيه الجنود فيأسرون وذلك اذا سارت الامور كلها وفق ما اعد لها وحسب ، فلم تقع مصادفة خاصة او هفوة غير محسوبة .

لقد عاد فاسيلييف هذه المرة وهو يحمل معه وثائق ضابط الماني ومسدسه وذلك كي يبلغ بروايته مستوى الكمال ، وعقب ان استمع الى ثناء سباروف عليه وشكره له ، اخبره بان هناك ممرا يقع بين الخرائب الجنوبية والبيت الاسود، وان هذا الممر غير محروس كما وان الالغام التي زرعت فيه جرى زرعها دون ما عناية او اهتمام . وانهى فاسيلييف اخباره هذا بقوله :

ــ « اننا اذا ما استطعنا ان نقوم بهجمة ليلية خلال هذا الممر فعندئذ سنحيط بسرية المانية كاملة وسنأسرها ، وهذا امر فوق كل شك ايها الرفيق النقيب ، لكن عليك اولا ان تقوم انت بنفسك بالتأكد منه ودراسته ، وعليك ان ترى بام عينك ما اذا كان هذا الممر سيفضي بك الى مؤخرة الالمان ام لا ، حتى نستطيع ان نقوم بهجمة ليلية في ليلة اخرى . »

كانت فكرة القيام بهجمة ليلية واسر سرية كاملة من الالمان ، وخاصة في

ظروف لا تسير فيها الامور على ما يراد لها ويرام بالنسبة الى المدافعين عن ستالينغراد ، فكرة هي بكل تأكيد جذابة رائعة في نظر سباروف . اما الشك الوحيد الذي خامر الالمان في نجاح الخطة ، فانما كان يتمثل فيما اذا كان سباروف سيستطيع هذا الممر برفقة رجل واحد ام رجلين ، وكان فاسيلييف قد اكد للالمان بان سباروف لا شك سيتردى في الشرك ، لذلك فان الالمان قد اعدوا خطة تمكنهم من القاء القبض عليه بايديهم المجردة وحتى العزلاء .

وقف فاسيلييف امام سباروف واخذ يلخص الخطة ويحدد على الخريطة معالم الممر . ولقد كان يتحدث بلهجة الرجل الحذر والذي تعتلج نفسه بمخاوف او قلق خاص ، لكنه كان في اعماق قلبه شديد القلق ويتساءل في سريرته لجوجا ملحاحا عما اذا كان سباروف سيوافق على خطته ام لا ، واخيرا وافق سباروف على ما ابداه فاسيلييف وسأله قائلا :

ــ اية ساعة هي اكثر الساعات هدوءا هناك ؟

ــ انها الساعة الواقعة بين الحادية عشرة والثانية عشرة

فبادره سباروف آمرا :

ــ اذن فلتذهب الى مقرك ولتنم !

ولتطرد عنك وعثاء النعاس ثم عد الي ثانية في الساعة الحادية عشرة تماما!

كان الخندق غارقا في القاذورات والرطوبة ، وكانت المياه تتدفق عليه من كل جوانبه ، وكان المطر قد اجتمع فوق الشراع واخذ يدلف قطرة بعد اخرى من خلال الثقب الصغير . وكانت السماء قد ارسلت لايام ثلاثة مضت بمطر خريفها المتأخر غزيرا مدرارا ، فبدا كل شيء رطبا مشبعا بالماء الى درجة لم يعد هناك من سقف واحد جاف ،واضطجع سباروف في الخندق وهو يفكر بانه لن يستطيع ان يتابع الى الابد الاعمال التي قام بها خلال الاسابيع القليلة المنصرمة وكثيرا ما احس بشعور طاغ من الحسد وهو ينظر الى الجنود المضطجعين بالقرب منه ويستمع الى القنابل ذاتها المتطايرة من فوقه وفوقهم . فلقد كان الالمان يطلقون النار على مواقعهم وكانوا هم يردون على النار بالمثل ، وكان الخطر ذاته يلفه ويلف من قربه من الجنود ، لذلك احس بغباء موقفه . وعلى كل حال فلقد درس مدة سنة واحدة في المدرسة الخاصة في خركوف ، ومكانه تحت الشمس مضمون ومؤمن حالما يقطف والالمان ثمار النصر ، لكن من يدري ؟ فقد يقتل الان

قبل ان يحين فصل القطاف، وقد تمزق احدى القنابل جثته اربا اربا وتمـزج اشلاءه بالطين ، وعندئذ سيلاقي « مصرع الشجاع » وسيبكيه رفاقه ويكرمون ذكراه بوصفه شهيدا خر وهو يدافع عن الوطن ضد الغزاة الالمان ، فهل هناك من امر أشد غباء من هذا الامر ؟

وعندما اعد فاسيلييف الشرك ليلة الامس ، وعده الالمان باجازة يقضيها بينهم وذلك بعد مايطبق الشرك على فريسته وقد منى نفسه قائلا بانه اذا ماأتاح له الالمان ولو فرصة قصيرة فانه سيعرف بعدئذ كيف يمددها ويزيد في ايامها، وعلى كل حال فان الحرب ستنتهي قريبا ، اما اذا لم تنته كما يؤمل ويخال فعندئذ سيطلب منهم أن يعهدوا اليه بمهمات في منطقة تقع في مؤخرة الجبهة حيث يجري اعادة تشكيل بعض الفرق ، وهذا مما يتيح له عملا اكثر هدوءاً واقـل مخاطـر . واذا كان هناك من امر قد ضاعف في بغضائه للعالم المحيط بـه ، فانه الخوف على حيـاته ، هذا الخوف الـذي تزايد خلال الايـام القليـلة الماضية ، فلقد كان يرهب ان يلقى مصرعا غبيا نتيجة لحادثة ما ، وهذا ما جعله يكره كل ماحوله كراهية اشد واعتى من قبل . وهذا الشعور لم يكن شعورا جديدا عليه ، فلقد عرفه واحس به منذ طويل زمن ، منذ طفولته . ولم يقم ابوه او أمه بتعليمه اياه ، ولذلك فانهما كانا وخاصة ابوه ، لانه لم يعلمه اياه ، محطا لاحتقاره ومقته . فأمه كانت مجرد امراة عادية هادئة بسيطة ، وكانت يد ابيـه هي دائما اليد المسيطرة على المنزل وشؤونه ، ووالده كان رجلا قوي الشخصية، جبارا واحيانا فظا خشنا ، لكنه مع هذا لم يعرف الكراهية والحقد ، ووالده لـم يحبب الجندي السوفياتي المسرح ستبانيوك الذي افتتح فرعا «لجمعية الملحدين» في قريته ، ولم يحبب ايضا رئيس السوفيات في القرية ، هذا الرئيس الـذي اراد اغلاق جميع الكنائس ، كما وانه لم يحبب شخصين أو ثلاثة اخرين والذين هم ايضا لم يودوه بدورهم . ولكنه مع هذا ، فاذا ما اجتمعت كل هذه الاشياء في الشيء الذي اسمه روسيا السوفياتية ، فانه عندئذ عاجز كل العجز عـن كراهيتها والحقد عليها . فلقد كان يدعوها بروسيا ، واحيانا « روسيا الصغيرة» وكان يحب تلالها ومراعيها وغاباتها ويحب قريته « جورروديشا » ويحب النـاس الذين يسكنون في البيوت التي تقع الى جانب بيته . وكانت اجوبته على كـل سؤال يوجهه اليه ابنه فاسيلييف عن الماضي ، اجوبة باردة لا مبالية ولم يكـن الكاهن ليسر بالاخطاء التي كان يقترفها الناس بعضهم ضد بعض ، لكنه كـان يقول بان العالم كان مليئا دائما بالاخطاء ، وان الانسانية لن تشهد للاخطاء خاتمة

ونهاية . ولقد سبق له ان عمد وكلل ودفن في حياته عددا ضخما من الناس ، عددا جعله يعتقد بان الناس لم يتبدلوا كثيرا ، فلقد شهدهم يولدون ويتزوجون ويموتون ، بغض النظر عن العلاقة التي تشدهم اليه ، هو الاب نقولا كاهن كنيسة جورو ديشا ، أمصيبة كانت ام خاطئة ، اذ كان يؤمن بان الله وحده هو الـذي سيدينهم ويدينه . ولم يسبق له ابدا ان رفع يده ليناصر السلطة أو يناهضها، وذلك لانه كان يرى ان كل مايحيط به هو روسيا ، ولهذا فان السلطة التي تحكمها هي سلطة لاتزال روسية مهما كان شكلها او نظامها ، لذلك لم يخول نفسه الحق في ادانتها او تحديها . وبهذا لم يلتق الابن بابيه ، فلقد بدأ الابن منذ ايام دراسته يكره السلطة القائمة .

وكان تلميذا رديئا ولم يحبب اي موضوع من مواضيع الدراسة حبا خاصا وكان يكره اترابه من الذين يدرسون بكد وجد والذين يبدون اهتماما بأي موضوع مدرسي ما . ولقد انهى دراسته الابتدائية نهاية سيئة ، ورفض طلبه حينما رغب في دراسة اعلى . وهكذا أمسى تدريجيا رجلا فاشلا يفيض قلبه حقدا ويضج صدره بالمرارة والمقت . ولم تستثر العقبات التي زرعت في طريقه بوصفه ابنـا لكاهن في نفسه اية رغبة او عزم على تخطيها وذلك بواسطة المزيد من الاجتهاد والذكاء بغية تفوقه على اترابه الاخرين ، والحق انها كانت اعذارا لا عقبات كؤودا بالنسبة اليه . فلقد كان يقول لنفسه بان الناس لا يرغبون فيه لانـه نجل كاهن ، وانه سقط في الامتحان لكونه ابنا لكاهن ، وانه حرم من متابعة دراسته بسبب ابيه الكاهن ، وكثيرا ماكان يقول لو كانت فقط الظروف ماكانت عليه قبل عام ١٩١٧ . . . ومع انه لم يكن يعرف بما كانت عليه الايام الخوالي ، الاانه كـان يحس بأن النـاس ان لـم يحبـوه الان فسـيحبونه فيما بعـد ، وانهم كانوا سيساعدونه ليرتفع فوق كل هؤلاء الذين يرتفعون الان فوقه . وعندما كان والده يقول له في لحظات من حنق وغيظ ، بان حاله لو عادت لتلك الايام لن تكون احسن من حاله اليوم ، وانه الفاشل في الامس واليوم ، كـان يرد قول ابيه هذا الى تبرم الرجل الشيخ وضجره المألوفين . فلقد بدا له انـه لاشك كان سيكون رجلا عظيما لو قدر له ان يعيش في ظل النظام القديم ، وان مجرد اختلاف النظام الحاضر عـن ذاك النظام واختلاف قوانين هذا عن قوانين ذاك ، واختلاف الايدي التي تقبض على الازمة اليوم عن الايدي التي كانت تقبض على أزمة الحكم بالامس ، هو السبب الاول والاخير الذي يحول دون تحقق عظمته وتجسدها في المجتمع . وهكذا صب جام نقمته على السلطة القائمة وعلى

الايدي التي تمسك بازمتها وعلى القوانين التي تصدر عنها وعلى الازمنة التي يعيشها . وفجاة بدأ يحس تدريجيا بانه لم يعد هناك من امر غير ممكن بالنسبة اليه ، فخول نفسه حق السرقة لانه احس بان السلطة القائمة تقتله قتلا بطيئا . ولما كان هو وحده الفاشل ، وهو بذلك على طرفي نقيض وكل من يحيطون به ، لذلك وصل الى القناعة القائلة بانه هو وحده الاصيل ، وان كل انسان وأمر وشيء ماعداه هو تافه وحقير ، لانه لايجمعه اليه وجه شبه او تشده اليه وشيجة من تقارب او صلة . وهكذا انتهى الى ماكان من المتوجب ان ينتهي اليه ، لقد انتهى الى النشاط الاجرامي ، وكان هناك من الدوافع السياسية لهذا النشاط الاجرامي مايكفي لادانته بتهمة القيام بنشاط مناهض للثورة . فلقد سبق له ان سرق ، فيما كان يعمل في احدى المزارع ، قطعتي غيار سيارة وذلك قبيل موسم الحصاد وعندما اكتشف امره اضرم النار في المستودع الذي كانت تخزن فيه قطع الغيار، فحوكم وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص لكن الحكم استبدل بحكم من السجن الطويل . وقد فر في الشهر الاول من الحرب من معتقله وعقد العزم على الاتصال بالالمان ، وقد ساعده الغزو على تحقيق عزمه ، اذ تمكن في احد ايام شهر اب عام ١٩٤١ أن ينضم الى جانبهم في مكان ما يقع بالقرب من سمولنسك . وقد وصف نفسه للضابط الالماني الذي حقق معه بانه العدو اللدود للنظام السوفياتي ثم القى على مسامع الضابط بضعة نبذ وردت في احد مؤلفات نيتشه الذي سبق له ان قرأه في مكتبة والده ، ولم يكترث الالمان بما يعرفه عن نيتشه ، بل انما كان جل همهم يتركز على ان يجعلوا منه عونا مفيدا لهم فاحتضنوه دون ان يدققوا في ماضيه او يتحققوا من خلقه الشخصي . وعلى هذا الشكل دفع به الى مدرسة الجاسوسية في كراكو ليتخرج منها عقب سنة من الدراسة جاسوسا . ولم يكن بامكانه ، عقب ما آل اليه ، ان يعود الى الجادة ، فاذا اضفنا الى هذه الواقعة ، الانضباط الالماني وكراهيته الاكول للنظام السوفياتي نستطيع عندئذ ان نفهم الاسباب التي جعلته يندفع في اعماله الجاسوسية اندفاعا فيه من الاقدام والشجاعة والحسم اكثر بكثير مماكان هو يتوقعه في نفسه . لكنه الان ، في ستالينغراد ، فهو يحس بتعب الخطر الدائم المحيط به وارهاقه ، فيكفي لاي انفجار قريب منه مهما كان بسيطا يشيع الرعب في فؤاده ويملأ جنانه خوفا ووجلا ، وهو الان لايطلب سوى الدعة والراحة مهما غلا ثمنهما وارتفع مهرهما. وفجأة قطع عليه انفجار قنبلة المانية سلسلة افكاره ، فلقد انفجرت على قيد بضعة خطوات من خندقه ، واقتلع الانفجار الشراع وسقط طرفه الموصل المبلل

على وجه فاسيلييف وتهاوت كتل ثقيلة من الطين في الخندق فاغتاظ فاسيلييف وغضب ، فلقد كان يحدث طيلة الايام الخمس الماضية ان تبدأ المدفعية في الوقت ذاته ، في الساعة السادسة صباحا ، ومع شروق الشمس بالقصف ، وكان القصف يستمر مدة خمس عشرة دقيقة ، ومن ثم كان يسمع هدير الدبابات القادمة من بعيد ، ويسمع صوت احدهم يطالبهم بالاستعداد والتأهب ، وكان فاسيلييف يسارع كالاخرين الى الامساك برشيشه ويقف الى جانبهم في الخندق . وكان باستطاعة فاسيلييف أن يشاهد ، كل شيء من مكانه فلقد اخذت الدبابات تنحدر آلشارع وتتجه الى السرية الثالثة ، وهي السرية التي تتمركز الى جانب سرية فاسيلييف الذي شاهد جنود الرشيشات الالمان يتقدمون نحوه ، وكان عددهم هذه المرة اضخم من المألوف ، وعندما بدأ الاخرون باطلاق النار على العدو ، حذا فاسيلييف حذوهم ، والحق ان فاسيلييف قام باطلاق النار مرغما تحت تأثير آلفكرة الشيطانية القائلة بان الالمان لن يميزوا في هذه اللحظة بينه وبين غيره من الجنود ، وانه في نظرهم تافه لاقيمة له او وزن ،وانهم سيقتلونه بالحميا ذاتها التي يقتلون بها غيره من الجند اذا ما استولوا على خندقه . وكما هي حال الناس الذين يعرفون بانهم سيكونون عما قريب في مأمن من كل خطر ، فان الخطر آلذي كان يحدق الان بفاسيلييف قد أثار فيه رعبا خاصا ، فهناك فقط يوم واحد يفصل بينه وبين خلاصه الموقت على الاقل من الخطر المرعب المروع ، وهكذا وجدته يطلق نيران رشيشه بجنون وهو يهمس بين فترة واخرى بالكلمات التي تعود ان يهمس بها ايام طفولته ويقول : يا الهي! يا الهي ! يا الهي !

أيقظ دوي المدافع ذاته سباروف ،وقبل ان يفتح عينيه تناول معطفه الموضوع مطويا الى جانبه وارتداه وجلس على حافة سرير الميدان ، ولقد احس بصداع عنيف يجتاح رأسه بأنينه ويكسحه بأزيزه ، وهذه هي المرة الاولى في الحرب التي يحس فيها سباروف بمثل هذه الصداع . ورأى نقاطا من النار تتراقص في الهواء ثم تجتمع لتكون دوائر من لهب وتدور امام عينيه كأنها دواليب المغازل فانتصب واقفا على قدميه وقصد المصباح وحدق في المرآة التي تناولها من على المائدة ، ثم قال لنفسه :

ـ « لست بحاجة لاحلق ذقني الان »

وقد بدا له ان وجهه لم يعد ابيض بل انما امسى اخضر، وقد له ايضا أن

جو الخندق مكتوم آلنفس مخم ، لكنه في الوقت ذاته رطب مسحوج بارد ، وكانت الرطوبة تتدلى من الجدران ، فأراد ان يعيد المرآة الى الطاولة لكنهـا انزلقت من يده ووقعت ارضا وتناثرت حطاما ، فالتقط اكبر شظاياها ، وهي الشظية التي كان يستطيع ان يرى بواسطتها وجهه ووضعها على آلطاولة ، وقد قال في سريرته وهو يرى المرآة المحطمة ، ان كسر المرآة فأل سيء ، لكنـه ضحك من خاطره هذا ، فالاشياء قد بلغت الان حدا تتحقق عنده ودون استثناء جميع الاحلام بالسيء مع ماتحمله من هواجس بسيء الحظ ، فكل يوم يحمل بالتأكيد معه هذه النكبة آو تلك البلية ، وليس من الصعب على الانسان ان يكون في مثل هذه الظروف متطيرا ، وفجأة تذكر كيف غادره افيديف منذ ليلتـين ليعود اليه عقب لحظات ليأخذ جرابه العسكري وليقول له ضاحكا ان عودته تجلب سيء الفأل ، لكن افيديف قد اصيب تلك الليلة ذاتها بعيار ناري حطم عضده ونقل عبر الفولغا الى الضفة آلثانية .

لف سباروف له لفافة ثم اخرج عود ثقاب وحكه على علبته ، لكن العـود لم يشتعل ، فرمى به .واخرج عودا اخر ، ثم أخر ، حتى بلغت العيدان العشرة عدا ، لكن جميعها لم تشتعل، فرمى باللفافة وعلبة الثقاب معا وهو يبصق مشمئزا قرفا ، فلقد انتشرت من كوربون آلمونواكسايد ، غمائم وسحب جعلت مـن المستحيل اشتعال عيدان الثقاب . ولقد انتقل سباروف الى هذا الخندق منذ يومين فقط ، اي انه انتقل في اليوم الاول للهجوم الـذي أعقب سحر الهدوء فلقد دمرت اصابات مباشرة متعددة غرفة المرجل ، فانتقل الى غرفة ارضية اخرى ، لكن القنابل عادت لتدمر هذه الغرفة ايضا عند المساء . اما خندقه الان هذا فانه يقع حتى تحت مستوى قبو البناية ، ولقد كانت المجارير تمر فيمـا مضى بخندقه الحالي ، ولقد قام مهندسوه خلال ليلة واحدة بتوسيع النفق وشق خندق فيه ، وكان هذا الخندق هو ثالث موقع اتخذه مركزا لقيادة كتيبته خلال الايام آلخمسة الماضية وهذا مما جعله عاجبا مذهولا ، فلم يكن يدري ما اذا كان الحظ قد امسى الان حليفا للالمان ، ام ان هناك عيونا .واذانا لهم في كتيبته ، لكنه حاول اطراح هذه الفكرة جانبا ، فهو في طبعه يميـل الـى الثقـة بالنـاس والاطمئنـان اليهـم ، بالاضافـة الـى انـه لايرغـب ابـدا فـي ان يفكر حتى بوجود امكانية للخيانة بين جنوده فلقد بدا له انه هنـا وفـي ستالينغراد ، حيث يقف الجميع جنبا الى جنب في وجه الموت ، لا يمكـن ان يكون للخيانة أي وجود بينهم ، اذن فان دقةآلالمان في التهديف كانت دقة

ناجمة عن المصادفة ، وهي لذلك بنت صدفة غريبة كما يخال سباروف ويعتقد ، وهذا ما يحدث احيانا في الحرب ، ويتجسد كوقائع ، ومصادفات غريبة كهذه تقع فعلا ، هذا ما فكر به سباروف وآمن .

خرج سباروف من الخندق وتسلق دربا افضى به الى منطار من مناظر المراقبة يمكنه من ادارة وتوجيه الهجوم المعاكس ضد الالمان . ولقد انقطع اتصاله الهاتفي مرات ثلاث ، وقتل خلال ساعة واحدة جنديان من جنود سلاح الاشارة ، واخيرا تمكن سباروف وجنوده من صد الالمان وردهم على اعقابهم خائبين ، لكن اليوم كان ينذر بيوم قمطرير ، لذلك عاد سباروف الى خندقه واستدعى مسلنكوف اليه ,واصدر اليه الاوامر التي رآها كفيلة بصد هجمات جديدة محكمة . ولم يكد سباروف ينهي حديثه ومسلنكوف حتى شاهد محاميا عسكريا ، محققا يعرفه في قيادة الفرقة ، يزحف اليه على رجليه وقدميه ويدخل عليه خندقه ، فنهض سباروف من على سرير الميدان ورحب به ثم قال :

ـ حسنا ! هل تريد ان تحقق مع ستبانوف ؟

فأجابه المحامي العسكري :

ـ نعم !

فرد سباروف قائلا :

ـ ان الاشياء حامية كما ترى ، ولا اعتقد بان الوقت متوفر للتحقيق .
ـ ولكن واذا لم يكن الان من وقت متوفر ؟! لن تكون هناك أية وفرة من الوقت على كل حال ،ولا يعرف اي انسان متى يتوفر الوقت ، وهكذا لن ننهي اي عمل يعهد به الينا . فأجابه سباروف :

ـ انفض الغبار عنك اولا .

وهنا لاحظ المحقق بانه ملطخ بالطين وعاد سباروف ليسأله :

ـ هل جئتنا زاحفا ؟

ـ نعم

ـ انك لمحظوظ اذ نجوت !

ــ نعم انني كذلك تقريبا ، ولكن هل لديكم حذاء (كندرجي) فيكتيبتكم؟

ــ ما حاجتك بــه ؟

فانهض المحقق حذاءه ليشهد سباروف كعب الحذاء المنشطر قسمين وليقول :

ــ انظر ! انهم على ما يبدو كانوا يمازحونني ، فلقد أطاروا بنصف كعب حذائي .

فرد عليه سباروف :

ــ لا يوجد في كتيبتنا اي حذاء ، لقد كان لدينا حتى الامس واحد منهم، لكنه جرح !

ثم التفت سباروف الى بطيرس وقال :

ــ سر بهذا الضابط الى الجندي المناوب ، فستابونوف يعاونه الان !

فالتفت اليه الضابط المحقق وسأله عاجبا :

ــ ماذا تعني بقولك انه يعاون الجندي المناوب الان ؟

فرد عليه سباروف :

ــ ما الذي تريدني ان أفعله معه ؟ هل أضعه تحت الحراسة ؟ فليس عندي ما يكفيني من الرجال لغير هذه المهمة ...

فقاطعه المحقق قائلا :

ــ لكنه موقوف لحساب التحقيق .

ــ حسنا ! إنه كما تقول ، وليس عندي كفايتي من الرجال ، وليس عندي اي رجل أضعه خفيرا على رجل اخر حتى تتوصلوا الى قرار ، ولاقلها بصراحة، انني لغبي اذا ما قمت بهذا الامر في اية حال .

قصد المحقق بطيرس وغادر واياه الخندق ، وأخــذ سباروف يتابعهمــا بباصريه وخاطره يقول له بان الحرب مليئة بالاوضاع الغريبة ، وبعض هــذه الاوضاع غبية شاذة . وبداهة ان هذا المحقق كــان يقوم بالمهمة المكلف بهــا .

ولربما ساق القدر ستابونوف الى المجلس العرفي ، لكن هذا المحقق قد زحف على بطنه ليقوم بالتحقيق معه ، ولكي يستحصل على أجوبة قليلة كان عليه ان يغامر بحياته ، وكان بالامكان ان يلاقي مصرعه في مراحل خمس من مراحل طريقه من مركز قيادة الفرقة اليه ، كما وانه بالامكان ان يقتل وهو يحقق مع سجينه ، ومن يدري فقد يقتل المحقق والسجين معا حين عودته به مخفورا باليسر والسهولة ذاتهما ، وبالرغم من كل هذه المحاذير فان المحقق كان يقوم بكل ما تفرضه عليه القوانين المرعية الاجراء في الجيش . استحضر المحقق ستابونوف مخفورا وفق مقتضيات القانون ، وسار به الى احدى زوايا القبو الخندق ، ووقف به تحت نافذة زجاجها مهشم مكسور ، وامام ثقب في الحائط ينفذ منه البصر الى السماء الغائمة . وقد شقت القنابل ثغرتين في الجدار ، ولطخت ارض القبو الخندق ببقع من دماء دلت على ان هذا المكان قد شهد مصرع أحدهم ، أو ضم للحظة جريحا ، وجلس ستابونوف القرفصاء بالقرب من الحائط ، بينما اقتعد المحقق كومة من الاجر انتصبت في منتصف القبو وقد اخذ يكتب على دفتر وسده الى ركبته . كان ستابونوف فلاحا تعاونيا من المنطقة الواقعة بجوار « بانزا » وهو الان جندي من جنود السرية الثانية، ويبلغ الثلاثين من العمر ، ومتزوج وأب لطفلين . وحالما استدعي الى الجيش دفع به مباشرة الى ستالينغراد . وفي الليلة السابقة لهذه الليلة كان يجلس بالقرب من جندي اخر يدعى سمويشلاييف في احد الاعشاش ويطلقون نيران مدفعهم الطويل المضاد للدبابات على الدبابات الالمانية . ولقد اخطأ هدفه مرتين متتاليتين، واستطاعت الدبابة المتقدمة أن تمر من فوق رأسه وتتجاوز خندقه وتملأ اجواء الخندق برائحة الزيت المحترق ، فأطلق سمويشلاييف صيحة وحشية غير مفهومة ثم قفز الى داخل الخندق وقذف الدبابة باحدى القنابل المضادة للدبابات فاذا بالقنبلة تنفجر تحت سلاسلها وتعطل الدبابة عن السير ، وفي هذه اللحظة بالذات تقدمت دبابة اخرى من الخندق وتجاوزته وهي تزمجر وتهدر، فقفز ستابنوف الى الخندق وجاءت قفزته قفزة رأسية ، فغاص في الوحل، اما سمويشلاييف فلم يتمكن من النجاة ، لذلك عندما استطاع ستابنوف أن ينتصب على قدميه ثانية شاهد الطين في عش مدفعه ممزوجا باشلاء رفيقه سمويشلاييف ، او بالاحرى باشلاء الجزء السفلي من جسده ، فالجزء العاوي من جثة التعيس مزقته الدبابة شر ممزق وطحنته طحنا . وعندما وقع القسم الممزق الدامي من جسد زميله في الخندق بالقرب منه تماما فقد ستانبوف كل

سيطرة على اعصابه ، ودون أن يكبح جماحه اية سلطة من فكر زحف خـارج الخندق ، وتابع زحفه في اتجاه الفولغا ، وهو لا يعي ما يفعله ، بل انما كـان مسوقا بفكرة ،واحدة هي أن يبتعد عن خندقه الى ابعد مكـان يمكن لقواه ان تحمله اليه ، ولكن ما كاد الليل يرخي بسدوله حتى امسى ستابنوف سجينا لدى اركان حرب الفوج ، ولم يكن في مركز يخوله من اخفاء اي امر ، لذلك قص كل ما حدث له جملة وتفصيلا ، فارسل به بابشنكو مخفورا الى سباروف، بعد ان رفع عنه تقريرا الى قيادة الفرقة يتهمه فيه بالفرار امام العدو . ولقد أخبر سباروف بهذه الواقعة ، لكنه نظرا لحمى القتـال ، فانه لم يتمكن مـن التحدث شخصيا الى ستابنوف عنها ، والان ها هوذا المحقق قد حضر ليحقق في القضية بسبب التقرير الذي رفعه بابشنكو الى قيادة الفرقة . وها هوذا ستابنوف يجلس امام المحقق ليجيب على الاسئلة ذاتها التي اجاب عليهـا في الليلة الماضية امام بابشنكو . ولقد كان المحقق ابطأ من المعتاد في تحقيقه ، وقد طرح على المتهم عددا ضخما من الاسئلة ، وقام بطرح هذه الاسئلة لانه لم تكن لديه اية فكرة عما يجب ان يفعله بستابنوف . فالرجل فار من المعركة ، لكنه لم يقم بأي عمل مدفوعا بنية سيئة ، بل انما كل ما في الامر ان صدمة عنيفة بالغة العنف قد داهمته فلم يستطع ان يصمد امامها فعمد الى الفرار ، ومـن يدري بانه لو بلغ ضفة النهر لاستطاع عقب ذلـك ان يستعيد سيطرتـه عـلى نفسه ليعود بعدها الى سريته ثانية ، على هذا النمط كان يفكر المحقق ، وبهذا ايضا كان يفكر ستابنوف الذي شفي الان تمامـا من الصدمـة وآثارها ، لكن حقيقة فراره امام العدو لا تزال حقيقة قائمة ، ونظرا للتعليمات والقـوانين السارية المفعول ، فانه لمن المستحيل ان تترك هذه الواقعة دون عقاب . وعندما لمس ستابنوف ان جعبة المحقق قد فرغت من الاسئلة قال بصوت يدوي ثقـة وقناعة :

ـ انني اقسم بالله على انني كنت سأعود ، وسأعود بنفسي .

وفي هذه اللحظة توقفت المدفعية عن اطلاق نيرانها ، واصبح جنـودنا يسمعون لعلعة الرشاشة تترامى الى اذانهم من مواقع قريبة منهم ، واندفـع بطيرس يعـدو منحدرا الى الخندق القبو ويصيح وهو يركض ويقول :

ـ لقد اخترق الالمان خطوطنـا ! ان النقيب يطلب من كل رجل يحمـل سلاحا ان يشترك في المعركة .

لم يكن المحقق في شرخ الشباب ، فلقد تجاوز هذه المرحلة منذ زمن، وهو في الواقع مدني لا عسكري ، مدني يرتدي البزة العسكرية . فخلع نظارتيه ومسح عدستيهما ثم ثبتهما ثانية على عينيه والتقط رشيشا عن الارض ، ثم زحف ببطء ، لكن بتقصد من خلال الثغرة في الجدار الى النور ، فرمق الجندي حارس ستابنوف المحقق بنظرات تشع ببعض تساؤل من شك ، ثم تطلع الى الثغرة في الجدار ، وعاد اخيرا ليتطلع الى ستابنوف ويقول :

ـ فلتبقَ في مكانك قليلا !

واخيرا اختفى الغفير مقتفيا اثار المحقق .

كانت هذه هي الهجمة العنيفة الثانية التي يشنها الالمان في ذاك اليوم، وقد تمكن خلالها عشرون او ثلاثون جنديا المانيا مسلحين بالرشيشات من اختراق الخطوط الروسية ودخول باحة البناية . وكان يجري اطلاق النار داخل الباحة اطلاقا مباشرا مسددا ، ولقد اشترك جميع جنود كتيبة سباروف في القتال وتسلق سباروف الخندق الى القبو واخذ يوجه بنفسه المعركة التوجيه الذي يسمح به القتال بالايدي ، وخلال نصف ساعة من الزمن قضي على اكثرية الجنود الالمان الذين دخلوا الساحة ، وعاد المحقق والجندي الغفير من خلال الثغرة الى الخندق وارتمى المحقق العسكري بجسده المنهوك على كومة الاجر. وكانت الدماء تنزف من رسغه حيث الحقت به احدى الرصاصات جرحا سطحيا وبادره الجندي الغفير قائلا :

ـ عليك ان تضمد رسغك !

فأجابه المحقق :

ـ انني لا أحمل معي ضمادا .

فسارع ستابنوف الى البحث في جيوبه عن ضماده الخاص ، وعندما عثر عليه قدمه الى المحقق وقام الجندي الغفير بتضميد رسغه الجريح ، ثم عاد ستابنوف ليجلس القرفصاء ثانية الى جانب الجدار . والآن فقط تذكر المحقق والمتهم بان الهجمة الالمانية قد قطعت عليهما التحقيق ، وادركا معا ان عليهما أن يتابعاه . لكن فؤاد المحقق لم يكن منجذبا في تلك اللحظة الى العمل، ورغبة منه في استراق الزمن أخرج بيده السليمة كيس تبغه من جيبه ولف

لنفسه لفافة بصعوبة بالغة وقد ثبتهـا بأصابـع يده المضمـدة ، ثم تطلع الى ستابنوف والغفير ، وبذلك الانعكاس النفساني الذي يجعل الرجال في الجبهة يتقاسمون تبغهم قدم الى ستابنوف والغفير كيس التبغ وهو يقول :

ــ فلنأخذا بعضا من التبغ !

واحتذاء بالجندي الغفير ، اخذ ستابنوف ايضا قليلا من التبغ ، ثم أخرج من جيبه صفحة جريدة كان قد طواها بعناية ، ومزق منهـا قطعة صغيرة ولف فيها التبغ واخذ ثلاثتهم يدخنون ، وامتد هذا التدخين الصامت مدة عشر دقائق ، بدأت خلالها المدفعية بمعاودة القصف . وانطلق المحقق في توجيـه اسئلته بين رعيد المدفعية وهديرها . وكان المحقق اثناء استجوابه يمسك بيده الجريح دفتره بصعوبة بالغة ، لكن سرعان ما انهى المحقق استجوابه ، ولم يبق امامه سوى وضع مطالعته ، وفي هذه اللحظة ، وكما حدث مـن قبل توقفت المدفعية عن القصف وبدأ الالمان هجمتهم الثالثة ، وحالما سمع المحقق لعلعـة الرشيشات التقط رشيشه ثانية وامسك به بيـده السليمة ، وحتى دون ان يتطلع حوله تسلق خارج الخندق ولحق به الجندي الغفير ، وبقي ستابنوف في الخندق ، وللمرة الثانية ، وحيدا ، واخذ يتطلع بلهفة وشوق من جـانب الى جانب ، وقد يسمع ازيز الرصاص يعوي على مقربة منه وراء الجدار ، واخيرا زحف ستابنوف من الثغرة التي توارى الحارس منها منذ هنيهة ، وحالما خرج الى الضوء شاهد بندقية ملقاة الى جانب جثة احد الجنود الروس فالتقطها ، ثم عدا بضعة خطوات انكفأ بعدها على الاجر ، وعلى مقربة من المحقق وحفنة من الجنود كانوا يطلقون النار وهم منبطحون ، وحالما نفذ الالمان من وراء الجدار على ميسرة منهم ، بدأوا جميعا يطلقون النار عليهم ، وفجأة انتصب ستابنوف واقفا وقفز بضعة قفزات ، واهوى بعقب بندقيته على رأس احد الجنود الالمان الذي كان يركض نحوه مباشرة ، ثم انبطح ثانية واخذ يطلق النار على الجنود الالمان الذين كانوا لا يزالون يتحركون في الطرف الثاني من الباحة ، وكان الالمان هم ايضا يطلقون نيرانهم ، وقد نجحوا هذه المرة في ادخال «دزينة» من رجالهم الى الباحة ، لكن لم تكد تمضي دقائق حتى اصبحـوا جميعهم بـين قتيـل وجريح .

انحسر مد الهجمة ، وأصبحت لعلعة الرصاص تسمع على مسافة ما وراء الجدار ، ووقف ستابنوف ، ولما لم يكن يعرف ما يتوجب عليه عمله، قصد الى

مقربة من الجدار حيث كان يجلس المحقق والجندي الغفير ، ووقف الحارس ايضا ، لكن المحقق لم يتحرك من مكانه ، فلقد أصيب بجرح اخر في ساقه ، فحمله ستابنوف ثم تطلع الى ساق المحقق الدامية ، فالفى ان شحنة من رشيش قد قطعتها تقريبا ، ورأى الدماء تنزف منها بغزارة خطيرة ، فحمل المحقق على كتفيه وعاد به الى الخندق ، ثم مدده على الارض ووسد رأسه بأجرتين او ثلاث وبادر المحقق ستابنوف قائلا :

ــ ابحث لي عن ممرضة او حمال نقالة !

وعقب مضي بضعة دقائق عاد ستابنوف بحمال نقالة ، فانحنى هذا على الجريح وبدأ يضمد ساقه ، ولم يئن الجريح او يتأوه بل انما بقي مضطجعا بهدوء وصمت ينتظر ان تخف آلامه او تهدأ ، وقام الجندي الحارس باخراج علبة من تبغ رخيص رديء النوع من جزمة ولف له لفافة ثم ناول بعضا من التبغ الى ستابنوف وهو يسأل المحقق عما اذا كان يرغب في التدخين وعندما اجاب الجريح ايجابا قام الجندي بلف اللفافة وعقب ان مر بلسانه على الورقة لصق اللفافة ووضعها بين شفتي المحقق ثم اشعلها له ، فسحب منها الجريح انفاسا نهمة عميقة .

ومر سباروف بالخندق في طريق عودته الى مركزه ، وكان النقيب هذه المرة بالرغم من قواه الجسدية الهائلة متعبا منهوكا ، اذ انه كان يجر رشيشه وراءه جرا ، وكان عقب الرشيش يصدم الارض عقب كل خطوة يخطوها ، وحالما شاهد الدخان يتصاعد من لفائف المحقق ورفيقيه بادرهم سائلا ، ولفافته الخامدة تتدلى من شفتيه ، فلقد وضع اللفافة قبيل الهجمة ونسي اشعالها والهاه وطيس المعركة عنها ، اقول بادرهم سائلا :

ــ أتدخنون ؟

ثم كرر سؤاله مرة ثانية وتذكر لفافته الخامدة التي لم يشعلها بعد فطلب عود ثقاب ، ولم يتحقق من شخصية الجريح الا عندما وقف أمام الجندي الحارس ، فتطلع الى ستابنوف ثم التفت الى الجريح وسأله :

ــ هل جرحك بليغ ؟

فأجابه المحقق

ـ انه جد بليغ على ما اعتقد .

ـ اذن سأطلب منهم ان ينقلوك حالا من هنا ، فالالمان على وشك ان يبدأوا هجومهم من جديد .

عاد سباروف ليحدق بحنان وعطف في وجه المحقق الابيض الشاحب آلذي غارت فيه دماؤه ، ولما لم يكن يعرف من كلمة يقولها في مثل هذه المناسبة سأله :

ـ هل انتهيت من استجوابك ؟

ـ نعم لقد انتهيت .

هذا ما قاله المحقق وهو يشير برأسه الى ستابنوف ، فعاد سباروف ليسأله :

ـ ما هي مطالعتك ؟

فأجاب المحقق العسكري :

ـ اية مطالعة يمكن ان تكون لي ؟ تابعوا قتالكم ! هذه هي مطالعتي !

قال آلمحقق هذا ثم تناول دفتره وانتزع منه الاوراق التي دون عليها الاستجواب وذيلها بالمطالعة التالية :

« ليس هناك من أدلة كافية لسوق المتهم الى المحكمة العسكرية . لذلك اطلب اعادة آلمتهم الى الخطوط الامامية . »

ثم وقع المحقق بامضائه وهو يكرر بصوت عال وهو يبتسم ساخرا من الالم ويذكر ما مر به من آحداث :

ـ عليه ان يعاد الى الخطوط الامامية .

فضحك سباروف واجاب :

ـ سمعا وطاعة ! لن ترسله الى ابعد من هذه الخطوط ، ولكن ربما ارسلنا به إلى مسافة تبعد عن موقعنا هذا مئة خطوة .

ثم التفت سباروف الى ستانبوف وامره :

ـ التحق بسريتك ! لمن هذه البندقية التي تحمل ؟

ـ لقد اخذتها من احد القتلى ايها الرفيق النقيب .

ـ حسنا ! اعتبرها بندقيتك ! باستطاعتك ان تذهب ! قل لباطابوف بانني ارسلت بـك اليه .

كان ذاك اليوم يوما مرهقا مضنيا ، يوما من تلك الايام التي يبلغ فيـها التوتر العاطفي والنفساني حدا لا يستطيع معه الانسان ان يتغلب على الرغـبة المجنونة في النوم ، وحتى في وطيس المعركة . وعقب هجمتين شنتهما القوات الالمانية صباحا ، عادت لتشن هجمة ثالثة بعد الظهر . وكان يقوم داخل ساحة البناية ، وقبالة الالمان ، مخزن صغير نصف مهدم . وكان هذا المخزن متـين البناء وذا جدران سميكة وقبو عميق . وكان هذا المخزن يقـع على مقربة من البناية التي يحتلها سباروف ، وقد جعل الالمان هذا المخزن هدفـا ركـزوا عليه هجمتهم الثالثة . وعندما نجحت اربع او خمس دبابات في التقدم نحو المخزن وذلك تحت ستار من نيران المدافع المنصوبة وراء الجدران ، اخـذت تطلق قنابل مدافعها الى داخل المخزن مباشرة ، وكان المشاة الالمان يتقدمـون وراءها ، وعقب مضي خمس عشرة دقيقة ازت اخر طلقة داخل المخزن. وكانت اول فكرة راودت خاطر سباروف ، هي ان يستعيد المخزن فورا ، وان يستعيده في ضوء النهار ، لكنه كبح جماح هذه الرغبة ، واستعاض عنها بقـرار حكيـم ، اذ ركز كل نيرانه على ما وراء البناية وذلك كي يحول دون اية فرصة تمكن الالمان من سوق قوى جديدة قبيل الظلام ، وان يوقت هجومه المعاكس مع انتشار الظلام ، وذلك حينما يتفق العزم والمعرفة بالمكان مع العمليات الاقتحامية في الليل التي ستساعده على الاستعاضة عن القوى البشرية التي لا يملكها اصلا .

وعندما ابلغ سباروف هاتفيا بابشنكو باستيلاء الالمان على المخزن ، فان بابشنكو لم يعلق على هذا البلاغ غير بشتائم تناولت ام كل جندي في الفـوج ، شتائم قذرة صادرة عن روح شيطانية شريرة ، وانهى بابشنكو شتائمه قائلا بانه سيحضر بنفسه فورا للاطلاع على واقع الحال ، ولم ينزل قرار بابشنكو هـذا بردا وسلاما على سباروف ، فهو يعرف بان بابشنكو حاد المزاج ناري الطبع ، ومخاوفه هذه لها كل المبررات . وصل بابشنكو زاحفا الى الخندق والعرق يتصبب منه ، وجسده ملطخ بالقاذورات من اخمص القدم الى قمة الراس ، وبدا غاضبا يحترق غيظا وحقدا وبادر سباروف قائلا :

ـ ها انني قد وصلت ! ما هو عمق خندقك ؟

فاجابه سباروف :

ـ ثلاثة أمتار

ـ لماذا لم تنزل الى مكان اعمق من هذا ؟

ـ انني لا احتاج الى مكان اعمق ! فهم لن يلحقوا بنا هنا اي أذى .

فرد عليه بابشنكو بلهجة جافة غاضبة وقال :

ـ لقد دفنت نفسك في الارض كأنك جرذانها

والحق انه لم يكن هناك ما يبرر شكوى بابشنكو وغضبه ، فسباروف لم يحفر الخندق ، الذي اتخذه مركزا له، بل انما كل ما فعله هو قيامه بتوسيعه قليلا ، وكان الخندق في الاصل سردابا شق خصيصا للمجارير ، زد على ذلك ان كون الخندق عميقا وامينا من الاصابات المباشرة ، هو امر مستحسن لا بل مفضل ، لكن بابشنكو كان يريد ان يفوه بكلمات مهينة وذلك لان الالمان قد استولوا على المخزن ثانية لهذا عاد ليقول :

ـ لقد دفنت نفسك !

كان سباروف متعبا ، تتنازعه دوامة عاتية من الحرارة والغضب ولم يكن في الواقع باقل انزعاجا من بابشنكو نفسه بسبب استيلاء الالمان على المخزن، وهو يعلم ان فقدان هذا المخزن سيعذبه كأنه الشظية في جسده حتى المساء ، حتى يستطيع استعادته ثانيا وهكذا اجاب على كلمات بابشنكو بلهجة ترتجف باموج التحدي وقال :

ـ حسنا أيها الرفيق المقدم هل تأمرني بنقل مركز قيادتي الى سطح الارض ؟

فاجابه بابشنكو وهو مدرك للسخرية المريرة التي تفيض بها كلمات سباروف وقال :

ـ كلا ! انني لا آمرك بهذا ، لكن كان عليك الا تفقد المخزن هذا هو ..

لم يجب سباروف بابشنكو على ما ابداه اذ انه كان ينتظر رئيسه لينتهي

مما يريد قوله ، اما بابشنكو فعاد ليسأل سباروف :

ــ حسنا ! ما الذي تنتوي عمله ؟

فلخص سباروف لبابشنكو خطته للهجوم المعاكس الذي عزم على القيام به ليلا ثم تطلع الى ساعته وقال :

ــ حسنا ! انها الساعة الثانية الان ، وهذا ما يعني ان الالمان سيبقون في المخزن حتى الظلام . لكن هل قرأت اوامر القيادة القاضية بعدم التراجع خطوة واحدة ؟ او لعلك لا توافق القيادة على آرائها ؟ فاجابه سباروف وهو يجاهد كي يلجم فورة اعصابه :

ــ سأبدأ الهجوم في الساعة السادسة ، وسأستولي على المخزن في الساعة السابعة !

لكن بابشنكو عاد ليسأل سباروف :

ــ لا تقل لي هذا . هل قرأت اوامر القيادة القاضية بعدم التراجع خطوة واحدة ؟

فاجابه سباروف :

ــ نعم قرأتها

ــ لكنك سلمت المخزن

ــ نعم .

فصاح بابشنكو في وجهه بصوت لم يكن صوته وقفز من على كرسيه ليقول :

ــ اطردهم فورا من المخزن ، واطردهم الان ، وليس في الساعة السابعة كما تقول .

بدا لسباروف من ملامح رئيسه ولهجته ان بابشنكو يترنح على الحافة ذاتها من التعب والانهاك العصبي ، التي يترنح عليها سباروف نفسه ويتأرجح . وادرك عقم خصامه وبابشنكو الان ، ولو ان الامر كان مجرد انطلاق سباروف وحده الى الهجوم الفوري على المخزن وفي رابعة النهار ،فانه كان لا شك سيهب منتصبا على قدميه . وينطلق مسوقا بعواطف من مرير الشعور ، كأنه

لم يكن هناك من امر غير موته ليبرهن على خطأ رئيسه . ولكن القيام الان بهجوم معاكس يحتاج الى رجال ، وهذا ما يعني انه يستطيع ان يفتح عيني بابشنكو على خطأه بواسطة التضحية بغيره لا بنفسه ، لكن سباروف بادر رئيسه قائلا:

ـ هل تسمح لي ايها الرفيق المقدم ؟

ـ حسنا ! تكلم !

فأخذ سباروف يعيد على مسامع بابشنكو الاسباب التي جعلته يؤجل هجومه حتى المساء ، ثم اضاف الى اسبابه هذا قسمه على انه قادر على متابعة تركيز نيرانه على البقعة الواقعة وراء الجدران طيلة ما تبقى من النهار وانه لن يسمح للالمان ابدا بان يضيفوا جنديا واحدا الى الجنود الذين يحتلون المخزن. لكن بابشنكو عاد ليسأله باللهجة الفظة نفسها :

ـ قل لي بربك ، هل قرات الامر القاضي بعدم التراجع خطوة واحدة الى الوراء ؟

فأجابه سباروف وهو يركز عينيه على عيني رئيسه ويحدجه بالنظرات الشريرة ذاتها التي يراها تشتعل في حدقتي بابشنكو وقال :

ـ نعم لقد قراته ، ولكني لا اريد ان ارسل بالرجال الى اماكن ليس من الضروري ان ارسل بهم اليها الان وذلك عندما يكون باستطاعتي ان استعيد كل شيء دون ما خسارة في الارواح .

ـ انك لا تريد ؟ لكنني آمرك .

وفجأة ضج ذهن سباروف بخاطر يقول بان عليه ان يقوم حتى بالمستحيل كي يمنع بابشنكو من تكرار كلماته الانفة الذكر ، وان يرغمه على الصمت وذلك حبا منه في انقاذ حياة الكثيرين من جنوده. وراى ان عليه ان يتصل ببروتسنكو وان يطلعه بعبارة صريحة على انه لا يستطيع ان ينفذ ما يأمره به بابشنكو ، وبعدها فليحدث ما يحدث ، وليفعلوا به ما يشاءون ويريدون ، لكن سرعان ما اكتسحه الانضباط واكتسح خواطره هذه وحال بينه وبين تنفيذها لذلك اجاب رئيسه وهو يتابع التحديج فيه بقلق غاضب :

ـ حسنا ! هل تأمرني بتنفيذ امرك ؟

ـ نعم نفذه !

ان كل ما حدث عقب صدور هذا الامر بقي لمدة طويلة سجينا في ذاكرة سباروف ، كأنه حلم مزعج وكابوس نوم . فلقد تسلق سباروف الخندق الى السطح وجمع كل من وقعت عليه يداه من الرجال ، واصدر بابشنكو اوامره بالهاتف الى بطارية تتألف من خمسة مدافع ميدان كان لا يزال الفوج يملكها ، لمساندة الهجوم المعاكس ، لكن لم يكن بمقدور البطارية ان تقدم اي عون يذكر لسباروف في مثل تلك الظروف ، وعلى هذه الشاكلة بدأ الهجوم المعاكس . ومع ان الكتيبة قد بدأت منذ عشرين يوما بالقتال وهي كاملة العدة والعدد ، الا ان سباروف لم يستطع هذا اليوم حين تنظيمه للهجوم المعاكس ان يجمع حوله اكثر من ثلاثين جنديا . فهؤلاء كانوا يشكلون كل احتياطيه . ولكن ما العمل ؟ فبابشنكو على عجلة من امره ، وهو لا يفهم من الامر القائل بعدم التراجع خطوة واحدة سوى مفهومه الحرفي ، وهولا يريد حتى ان يعتبر الخسائر التي نزلت بكتيبة سباروف هذا اليوم ، أو الخسائر التي قد تنزل بها غدا عندما يستأنف الالمان هجومهم . زد على ذلك ان الهجوم المعاكس جاء هجوما مرتجلا فالمهاجمون لم يتمكنوا حتى من استحضار مدافع المورتر التي ستقدم اليهم بعض اسناد على الاقل، من ميسرتهم، وهكذا رأيت سباروف يعدو وجنوده الثلاثين من جدار الى جدار من حفرة قنبلة الى حفرة ،ويستهل هجمته على المخزن .

انتهى كل شيء كما كان متوقعا له وبقي بعض الرجال ممددين بين الخرائب، ووجد غيرهم نوعا من ستار يحتمون به على مقربة من المخزن ، ولم تكن هناك من قوة على الارض تستطيع ان تجعلهم يقفون ثانية على اقدامهم ، وفشلت الهجمة المعاكسة ، ولقد كان من الواضح انها لن تنجح في مثل هذه الظروف . وبينما كان الجنود لا يزالون يلتصقون بالارض ويعانقون ثراها بدأ الالمان باطلاق مدافع المورتر عليهم ، فادرك الجند ان بقاءهم ممدين حيث هم لا يعني سوى موتهم المحقق . وتزايدت القنابل عددا ، وقد انفجرت احداها على مقربة من سباروف نفسه والحقت به بعض رضوض بسيطة ، واحس فجأة باخدرار كامل جانب وجهه الايسر ، كأنه قد لف بحشوة من قطن ، وكانت احدى شظايا الاجر قد جرحت وجنته ، وكان الدم يسيل على وجهه ، لكنه لم يشعر بجرحه، وعندما اشتد قصف المدافع وامست الحالة لا تحتمل او تطاق ، اشار سباروف الى جنده ليزحفوا عائدين الى حيث انطلقوا . وفي طريق عودتهم قتل جندي

اخر ، وعقب ساعة من الهجوم ، كان سباروف يقف امام بابشنكو وراء مدخل البناية المنخفض ، حيث المقدم ، يقف تقريبا دون ما واق ليشهد الهجمة المعاكسة من اقرب آلمواقع الممكنة ، وهو منتصب بقامته تحت وابل من النار . فادى سباروف التحية لرئيسه والقى برشيشه على الارض ، فأحدث شيئا من ضجة، وكان وجهه ملطخا بالدم والوحل الى درجة ارتعب لها بابشنكو الذي لم يقل في البدء شيئا ، لينطق اخيرا ويقول مخاطبا سباروف :

ــ خذ لك قسطا من الراحة !

فسأله سباروف كانه لم يسمع ما قاله رئيسه :

ــ ماذا ؟

فكرر بابشنكو كلامه الآنف الذكر ، لكن سباروف لم يسمع ثانية ما قاله رئيسه ، وعندئذ صاح المقدم في أذنه مكررا ما قاله فرد عليه سباروف :

ــ اعتقد بانني مصاب بارتجاج خفيف !

فصاح به بابشنكو للمرة الرابعة :

خذ لك قسطا من الراحة !

ثم اتجه الى الخندق فتبعه سباروف ، لكنهما لم ينحدرا اليه بل انما جلسا القرفصاء الى جانب نتوء في الجدار حيث يقوم مركز الحرس ، وبقي كلاهما صامتين ، وكان الواحد منهما يتجنب النظر الى الاخر ولكن بابشنكو قطع اخيرا حبل الصمت اذ بادر سباروف سائلا :

ــ ادماء ؟! هل انت جريح ؟

فأخرج سباروف منديلا قذرا من جيبه له لون التربة وبصق عليه عدة مرات ثم مسح به وجهه ، ورفع رأسه وقال :

ــ كلا ! إنها فقط بعض رضوض وخدوش .

ــ اذن فلتستدع كل من تستطيع جمعه من فوجك ، فسأقود الهجوم بنفسي ..

فسأله سباروف :

ـ كم من الرجال تريد ؟

ـ كل من تستطيع استدعاءه .

ـ اذن لن يكون لدينا اكثر من اربعين جنديا .

فكرر بابشنكو قوله :

ـ لقد سبق لي ان قلت كل من تستطيع استدعاءه

اصدر سباروف اوامره القاضية بجمع المزيد من الرجال ونقل مدافع المورتر الى اماكن اقرب ، فهي قد تقدم بعض العون ، وبالرغم مما عرف عن بابشنكو من عناد ، فانه كان يعلم حقا ، بان سبب فشل الهجمة المعاكسة يعود اليه ، ويعلم بان الهجمة المعاكسة الثانية لن تكون افضل حظا من سابقتها ، ولكن بعدما شاهد بعض الرجال يتساقطون صرعى امام عينيه ، وتحت امرته ، رأى من الضروري كل الضرورة أن يحاول القيام بما فشل فيه مرؤوسوه كي يبرهن على اية حال ، على ان ما طلبه كان ممكنا كل الامكان . وبينما كان الرجال يجرون مدافع المورتر ويتجمعون ، اصدر بابشنكو اخر امر له قبيل الهجمة ثم عادليقف الى جانب شظية الجدار التي كان يقف عندها من قبل . واخذ يتفحص بعناية امتداد الساحة المترامي امامه ، وينقب باحثا عن احسن النقاط واشدها امنا لينطلق بهجمته منها . ووقف سباروف صامتا الى جانبه ، وعلى بعد اربعين خطوة منهما انفجرت قنبلة المانية ثقيلة بدوي شديد وخبطة غبية فبادر سباروف بابشنكو قائلا :

ـ لقد رأونا فلنغادر هذا المكان ايها الرفيق المقدم .

لكن بابشنكو لم يجب ببنت شفة ولم يتحرك من مكانه ، وانفجرت قنبلة اخرى جانبهما ، واختارت هذه ايضا مكانا لا يبعد عنهما اكثر من اربعين خطوة فعاد سباروف ليطلب من بابشنكو مغادرة مكانهما ، لكن المقدم بقي مسمرا في مكانه ، فلقد كان يحس بان الالمان يتحدونه ، وهو يريد ان يظهر مباشرة عقب دفعه بالرجال الى الهجوم ، انه لم يطلب منهم سوى الاستعداد ذاته للموت الذي يطلبه من نفسه ، وهكذا وجد سباروف لسانه يصيح بالمقدم طالبا منه عقب انفجار القنبلة الثالثة بالقرب منهما تماما مغادرة موضعهما ، لكن بابشنكو التفت اليه وحدق في عينيه ثم بصق على الارض ، واخيرا اخرج كيس تبغه

وبدأ يلف لفافة باصابع هادئة رابطة العصب . اما القنبلة الرابعة فانفجرت امام الجدار مباشرة ، وقد دفنت شظايا عديدة نفسها في جدران البناية فوق راسيهما فغمرتهما بالغبار والتراب ، وقد لاحظ سباروف ان بابشنكو قد قفز اثر انفجار هذه القنبلة ، وهذا امر بدهي طبيعي ، وقد خول هذا الانعكاس النفساني سباروف ان يتوجه الى بابشنكو بكلمات ودودة ويقول :

ـ فيليب فيليبوفتش ، لنغادر هذا المكان ، اليس كذلك ؟

لكن بابشنكو بقي صامتا ، واخيرا تذكر لفافته فاخرج ولاعته من جيبه ، وقدح زنادها بضعة مرات ، واخيرا اشتعلت ، فادار ظهره الى الريح ، وانحنى براسه على شعلتها كي يشعل لفافته . ولو انه لم يدر ظهره الى الريح لما كان قد لاقى مصرعه ، فلقد اصابت شظية من قنبلة انفجرت على بعد خمس خطوات منه ، من رأسه مقتلا ، فتهادى بهدوء على اقدام سباروف ، وارتجفت جثته برعشة واحدة فقط اسلم بعدها الروح ، فجلس سباروف القرفصاء الى جانبه، ورفع رأسه الممزق الدامي براحتيه ؛ وقال في سريرته بلامبالاة اذهلته ، هذا ما كان من المتوقع حدوثه ، ثم ضغط باذنه على صدر بابشنكو ليجد اخيرا ان قلب المقدم قد توقف عن الخفقان. لقد مات ، هذا ما قاله سباروف لنفسه ، ثم التفت الى بطيرس وقال :

ـ هيا يا بطيرس ، ولتمدد لي يد العون !

فاقبل عليه بطيرس وتعاون ورئيسه على حمل بابشنكو من كتفيه وساقيه وانحدرا به الى الخندق . وفجأة دخل ملازم على سباروف وبادره قائلا :

ـ لقد احضرنا مدافع المورتر ، هل نبدأ باطلاق النار ؟

فأجابه سباروف :

ـ كلا ! اعد المدافع الى مراكزها السابقة !

قال سباروف هذا ، ثم استدعى مسلنكوف اليه وامره بالغاء جميع استعدادات الهجمة وباعادة الرجال الى مراكزهم ، ثم هتف الى قيادة الفوج، وقد اجاب القوميسير هاتفه ، فاعلمه سباروف بان بابشنكو قد قتل ، وشرح له الظروف التي ادت الى مقتله ، وأنهى حديثه الهاتفي قائلا بانه سيرسل بجثة المقدم الى مركز قيادة الفوج حالما يخيم الظلام .

كان سباروف اسفا حقا لمقتل المقدم ، لكنه في الوقت نفسه كان يشعر باحساس من الارتياح العميق ، فهو يستطيع الان ان يتدبر الامور وفق ما يراه ضروريا ، والان لن تتكرر الهجمة المعاكسة الغبية التي وضع خططها بابشنكو رغبة منه في الحفاظ على سمعته الشخصية ومهابته . ثم اصدر اوامره باسعاف الجرحى والاعداد للهجمة المعاكسة القادمة التي عزم على القيام بها خلال الليل . ولم يأت الالمان في هذه الاثناء باي جديد ، ولقد احس سباروف داخل عظامه بان الالمان لن يقدموا هذا اليوم على القيام بأي عمل اخر ، وانه ليس هناك من سبب واحد يجعله يترقب قيام الالمان بهجمة أخرى قبل صباح اليوم التالي . فأخذ يتحدث بالهاتف الى سراياه ، ثم اضطجع بعد ان امرهم بان يوقظوه في الساعة الخامسة قبيل حلول الظلام .

- ١٣ -

لم يوقظ سباروف اي صوت ، بل انما أيقظه احساسه بأن هناك شخصا يحدق فيه ، ففتح عينيه ليجد المرضة « آنيا » تقف امامه ، وليراها تحملق فيه بعينيها الواسعتين الشبيهتين بعيني طفل ، فاستقعد بهدوء وتطلع اليها وبادرته « انيا » قائلة :

ـ لقد طلبت من مراسلك (خادمك) ان يوقظك ، لكنه لم يستجب الى طلبي ، ولقد مضت علي مدة طويلة من الزمن وانا مقيمة بين جنودك ، وعلي الان أن اغادرك ، لكنني احسست برغبة عميقة في رؤيتك

قالت هذا ومدت بيدها الى سباروف واسترسلت سائلة :

ـ كيف حالك ؟

فتحرك سباروف على سرير الميدان وطلب اليها الجلوس وحينما جلست خاطبها يقول :

ـ ارى انك قد شفيت تماما

فأجابته آنيا :

ـ نعم لقد شفيت تماما ، فجرحي كما رأيته من قبل كان جرحا بسيطا ، ولقد فقدت كمية لا بأس بها من دمي كما تعرف .

ثم اضافت بلهجة سريعة الكلمات وسريعة النبرات ، كأنها تحاول ان تمنعه من التحدث ، فقالت :

ـ لقد عثرت على امي ، واننا نعيش معا الان

ـ معا ؟

ـ طبعا ليس معا تماما ، فهي تقيم الان هناك في القرية مع عائلة قروية

بالقرب من مركز وحدتنا الطبية ، ولذلك فانني امضي ليالي برفقتها ، ولا اعني انني ابيت ليالي معها ، وذلك لانني انام في الصباح وذلك عندما اعود من عبور النهـر .

ـ هل جئت الى هنـا قبل هذه المرة ، عقب ان شفيت من جرحك ؟

ـ كلا انها المرة الاولى لي ، لكن هذا اليوم هو يومي الرابع لاستئنافي العمل، ولقد تحدثت الى امي عنك !

ـ ماذا قلت لها عني ؟

فأجابته « انيا » :

ـ لقد حدثتها بكل ما اعرفه عنك

ـ وما الذي تعرفينه عني ؟

فأجابته « آنيـا » :

ـ انني اعرف الكثير عنك .

ـ حسنا ! ماذا مثلا ؟

ـ كثيرا جدا ، وتقريبا كل شيء

ـ كل شيء ؟

فردت عليه تقول :

ـ نعم كل شيء ، فانا اعرف حتى عمرك، ولقد نطقت صدقا حينما اخبرتني به في المرة الماضية ، فانت في التاسعة والعشرين ، وهذا ما اخبرني به مراسلك.

فاجابها سباروف وهو يتصنع الجد والصرامة :

ـ اذن علي ان اعاقب المراسل لافشائه سرا عسكريا

لكن انيا استرسلت تقول :

ـ ولقد قال لي ايضا بانك كدت تقتل هذا اليوم

ـ وماذا قال لك غير ذلك ؟

ـ ماذا غير ذلك ؟ لا شيء غيره ، فلم يكن متـوفرا لدي الوقـت لاتابـع استجوابي له . اننا ننقل الان جميع الجرحى الى مكان واحد . هل لديك العديد منـهم ؟

فاجابها سباروف متثائبا :

ـ نعم هناك عدد غفير من الجرحى ..

ثم استطرد يسألها :

ـ اتقولين بانه لم يتوفر لديك الوقت ؟ وانه لو كان لديك المزيد من الوقت، فهل كنت ستوجهين الى المراسل باسئلة اكثر ؟

ـ طبعا ! كنت سأطرح عليه المزيد من الاسئلة .

ـ حسنا ! فلتطرحي اسئلتك علي !

قال هذا وتطلع الى ساعته واسترسل :

ـ فلدي الوقت للاجابة عليها

فردت عليه تقول :

ـ من الافضل لك ان تنام ، فلقد ايقظتك .

ـ كيف ايقظتني ؟! لقد استيقظته بنفسي !

ـ كلا لقد كنت انا التي ايقظتك ، فلقد حملقت فيك مدة جد طويلة حيث جعلتك تستيقظ ، ولقد قمت بهذا الامر عامـدة متعمدة ، فلقـد اردتـك ان تستيقظ فأجابها سباروف :

ـ هذا ما معناه ان قوة مغنطيسية مخزونة في عينيك .

لكن سباروف كان يعرف حق المعرفة بانه لم يكن يقول ما يريد حقا قوله لذلك استدرك فوراً مقالته السابقة بلهجة مختلفة وقال :

ـ انني جد مسرور برؤيتك .

فأجابته « آنيا » وهي تحملق في عينيه حملقة مباشرة وقالت :

ـ وأنا كذلك .

فعندئذ ادرك انها لم تنس طعم القبلة غير المرتقبة التي طبعها تلك الليلة على شفتيها وهي ممدودة على النقالة ، وانها بصورة عامة لا تزال تذكر كل القليل الذي دار بينهما هنا ، لكن هذا القليل كان هاما وخطيرا ، وهذا ما احس به الان وهو يتطلع اليها ، غير انه مع ذلك عاد ليقول :

ـ لقد الهتني مشاغلي هنا ، واستأثرت بكل فكري ، ولم تتح لي الا نوادر الفرص لافكر فيك ، وهذه كانت حالي ..

فقاطعته « آنيا » لتقول :

ـ أنني اعرف بها ، ولقد جاء الى محطة وحدتنا الطبية عدد من جنودك الجرحى مرارا متعاقبة ومرات متعددة ، ولقد سألتهم عن مجريات الحوادث هنا .

قالت « آنيا » هذا ثم اخذت تنتش باصابعها حافة بذتها عند الصدر ، وادرك سباروف انها لا تقوم بهذا العمل بسبب حيرتها وارتباكها ، بل انما تقوم به لانها تريد ان تقول امرا هاما بالنسبة اليها ، وانها تسعى بواسطة النتش ، الى اختيار الكلمات المناسبة للتعبير عنه ، وفاجأها سباروف سائلا :

ـ حسنا ؟! ما الذي تريدين قوله ؟

لكنها بقيت صامتة فكرر سؤاله فأجابت بصراحتها الوقورة المألوفة :

ـ لقد فكرت فيك عميقا وفكرت فيك طويلا

ـ وما هي النتائج التي وصلت اليها ؟

ـ لم أصل الى اية نتيجة ، لقد كنت افكر فيك فقط ، وكنت ارغب رغبة شديدة في التحدث اليك مرة ثانية .

وعندما انتهت من كلامها اخذت ترمقه بنظرات متسائلة سائلة منتظرة منه جوابا عليها ، وقد استطاع سباروف أن يحس بانها تترقب منه ان ينطق ببضعة كلمات جميلة ، ويتفوه بنطق ، ينزل على قلبها بردآ وسلاما ، فيقول مثلا ان الامور ستنتهي الى الخير ، وانهما سيخرجان من هذه الحرب سالمين غانمين، او ان يتفوه بتلك الجمل التي ترد على ألسنة الكبار والتي تشعرها بحدبه وحمايته لكن سباروف لم يكن يرغب في الحديث ، بل انما كان جل ما يريده هو ان يطوقها بذراعيه ، لكنه وسد راسه الى كتفها كما وسده اليه حينما كانا يعبران

الفولغا على ظهر القارب ، وجذبها برفق نحوه وقال :

ـ هل تعلمين ، لقد كنت اعرف بانك ستعودين .

فادركت « آنيا » من هذه الكلمات ان سباروف لا يزال هو ايضا يذكر طعم قبلته لها وهي ممددة على النقالة ، واحست بان ذكراه للقبلة هي التي جعلته يقول بانه كان يعرف بعودتها الاكيدة ، وهكذا وجدتها تقول :

ـ هل تعلم ، ان ما قلته يحدث تقريبا لكل انسان ، فيحل أحد الايام ، وتكون أنت على احرّ من الجمر لهفة وشوقا لشيء ما ، وفجأة تراه يحدث ويتحقق . فلقد كنت هذا اليوم اترقب رؤيتك منذ الصباح ترقب واجف ملهوف ، ترقبا جعلني لا اشعر بكل ما يدور حولي ، وكان اطلاق النار في النهار اطلاقا وحشيا ، لكنني لم الحظه او أحس به ، ومن يدري ، فقد يجعلني ترددي عليك شجاعة مقدامة .. ما رايك ؟

فأجابها سباروف :

ـ لكنك الشجاعة المقدامة

ـ لست على هذه الدرجة من الشجاعة ، لكنني عليها اليوم .

وفجأة تطلع سباروف الى ساعته وبادرها يقول :

ـ هل اطلت نذر الليل وهل بدأ الظلام ينشر سدوله خارجا ؟

فاجابته انيا :

ـ نعم ... من الجائز فانا لم اشعر به ، لكنني اعتقد .. لقد حان وقت نقل الجرحى ، وعلي ان اغادرك .

سر سباروف لقولها بان عليها ان تغادره ، فلقد نبهته ساعته الى ان الوقت قد حان ليستعد للهجمة المعاكسة ، وسر أيضا لانها ستكون على رأس اول قافلة تغادرهم من الجرحى ، وبادرها يقول :

ـ اظن انك لن تتمكني من نقل الجرحى كلهم دفعة واحدة فأجابته :

ـ كلا لن نستطيع ، لذلك علي ان اعود مرتين هذا اليوم اليكم ، وسنكون جد محظوظين اذا ما تمكنا من نقلهم جميعا قبيل الصباح .

فانتصب سباروف واقفا وقال :

ــ لقد قتل هذا اليوم آمر فوجنا ، هل تعلمين بهذا الامر ؟

ــ نعم انني اعلم ، ولقد قتل وهو يقف تماما الى جانبك ، وهذا ما قيل لي، هل جرحت اليوم ؟

ــ نعم جرحا طفيفا

قال هذا ثم تطلع اليها وتحقق من انها تتحدث اليه لاول مرة بصوت أعلى من المعتاد ، وربما كان ذلك لانها سمعت بالارتجاج الذي لحق به ، ولهذا عاود سؤالها :

ــ هل اعلمك « بطيرس » بهذا ايضا ؟

ــ نعم ! لكن هل اراك اليوم ايضا ؟

فاجابها سباروف بلهجة سريعة :

ــ نعم ! نعم ! طبعا ! سنرى بعضنا ، ولماذا لا ؟ ولكن . .

فقاطعته انيا :

ــ ولكن ماذا ؟

كان سباروف يريد ان يطلب منها ان تكون اكثر حذرا واشد احتراسا لسلامتها ، لكنه تردد ، فكيف تستطيع أن تكون كما يريد لها ؟ فهناك درب واحد ومألوف يسلكونه حينما ينقلون الجرحى ، وهناك جزء واحد من اليوم يقومون خلاله بهذه المهمة، فكيف اذن تستطيع ان تكون اشد حذرا واحتراسا ؟ لذلك وجد من الغباء ان يلقي على مسامعها مثل هذه النصيحة ، وهكذا اجابها :

ــ لا شيء ! لا باس ، طبعا سنرى بعضنا ، دون شك سنجتمع .

وحينما غادرته انيا جلس سباروف صامتا هادئا لمدة لحظة ثم انتصب واقفا وارتدى معطفه ، فهو يرغب في استعادة المخزن والانتهاء من هجمته في اسرع وقت ممكن ، وليس سبب هذه الرغبة ناجما عن ايمانه بضرورة استعادة المخزن فقط ، بل انما هوناشيء لعلمه بانه سيتمكن من رؤية « آنيا » ثانية عقب انتهاء الهجوم . وعندما فكر بهذا الامر احس برعب وخوف من افكاره

هذه ، فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه فيقنعها بأن هذه الافكار ليست بأفكار العاشق المدنف . لقد اخذت الافكار تتوارد على مخيلته ، لكنها لم تختف ولـم تتلاش ، وبقيت تدور في ذهنه حتى وهو يصدر تعليماته قبيل الهجوم وحتى عقب بدء الهجوم . لقد رافقته وهو يزحف بين الخرائب ، وبقيت ملتصقة بـه حتى وهو يركض تحت وابل النار ،وحتى حينما القى بقنبلتين الى داخل المخزن امامه ، واقتحم على راس جنوده المخزن وغاص في فوضى العراك ، فـوضى اطلاق النار من يد الى صدر ، فوضى امتزجت فيها الصيحات الوحشية فـي انين الجرحى في لهاث المقتتلين لتشكل مايعرف باسم القتال بالايدي . وقد استطاع سباروف هذه المرة ان يستعيد المخزن ،ولم يدفع من ثمن سـوى قتيل واحد وخمسة جرحى ، ومع ان سباروف كان ، كغيره من افراد الشعب الروسي مخلصا كل الاخلاص للمثل القائل ، ان اذكروا محاسن موتاكم ، الاانه كان لايزال يذكر بابشنكو بمرارة تتدفق فوق امواج الغضب . واشترك « فانين » الذي عاد خلال النهار من السرية الثانية، في الهجمة المعاكسة هذه، وبالرغم من ان اشتراكه فيها لم يكن بالعمل الحكيم ، الاانه اصر على الاشتراك في المعركة ، ولم يجـد سباروف في نفسه من القوة مايجعله يقابل اصراره بالرفض ، لقد كان سباروف في حالة نفسية تجعله يلبي مطلب كل جندي من جنوده وضباطه . وقد خاض فانين المعركة جنبا الى جنب وسباروف ، وعاد واياه معا الى الخندق حيث جلس القومسير فانين الى جانبه على سرير الميدان ، وبدأ ينظف مسدسه الذي غطاه الوحل ، وكان يشد بعقب المسدس الى بطنه ويبذل شاق الجهد لاعادة الديـك الى الوراء ، ولاحظ سباروف ان فوهة المسدس مسددة اليه تسديدا مباشرا لذلك بادر القومسير قائلا بلهجة غاضبة :

ـ عندما تنظف سلاحك فعليك ان توجه فوهته الى الارض او الى السقف، وليس الى جارك ، ولتجعل من قولي هذا قانونا وقاعدة !

فأجابه فانين :

ـ لكنه غير ملقم !

ـ الامر سيان !

فهز فانين بكتفيه ، ثم « خرطش » المسدس ليبرهن علىانه ليس ملقمـا، وتابع تنظيفه وهو مسدد فوهته الى الارض ، ثم خاطب سباروف :

ــ ان ذاك المخزن ، بالمناسبة ، منظرة المسرح ، هل ترى تلك البناية التــي تنتصب امامه ، فهي المسرح ، وقد بني المخزن بالقرب منها ليمثل منظرة المسرح. وهل رايت الباحة ؟ لقد وضعنا فيها العجلات ، كي نتمكن من جر منظرة المسرح مباشرة من خشبة المسرح بواسطة شاحنة صغيرة . انه لعمل بارع اليس الامر كذلــك ؟

فأجابه سباروف وشفتاه تنفرج عن ابتسامة غاصبة وقال :

ــ لقد صدقت !

فسأله سباروف :

ــ ماالذي دعــاك للابتسام ؟

ــ آنني ابتسم لانه ، كما يبدو لي ، لايوجد منزل واحد في هذا الحـــي لاتعرف ادق التفاصيل عنه .

ــ ولماذا لا ؟! لقد ساعدت في بناء كل ماتراه الان ، ولا اعني البنايات فقط، فانا اعرف معظم سكانها ايضا ، واعرف الفتاة ، مثلا ، المرضة التي زارتك هذا اليــوم .

فأجابه سباروف حذرا ، اذ خيل اليه أن فانين ، قد يمازحه في هـــذا الموضوع ، لذلك اعد نفسه لمازحته فاكتفى بالقول : .

ــ نعــم ؟!

ــ فرد فانين :

ــ نعم انني اعرف الفتاة ايضا ، ولقد كانت تعمل في مصنع للجرارات الزراعية قبل الحرب ، وفي مخزن لقطع الغيار ، وكانت عاملة نموذجية .ولقد اردنا ان نجعل منها رئيسة للكوموسمول في المصنع .. اني أذكرها جيــدا ..

وقد بدا لسباروف ان هذا هو كل مايريد فانين ان يقوله ، لكنه استرسل في قوله ناسيا « آنيا » ..

ــ نعم انني اذكرهم جميعا ، وانني لاذكر دائما مصنع الجرارات الزراعية، ولا اذكره على حاله الان ، لكنني اذكره على حاله الماضية ، واذكر كل الرجــال

وراء آلاتهم ، وانني لارى الان وجوههم ... ولكن مابك هذا اليوم ؟ فانت تبدو عابس الوجه مقطبه .. هل انت متعب ؟

فأجابه سباروف :

ــ كلا ! لقد نمت خلال النهار ، وانني لمرتاح !

ــ لكنك مع هذا متجهم الوجه مقطب الملامح ..

ــ كلا لست بالمتجهم ، لكنني افكر فقط

ــ بماذا وبمن تفكر ؟ أبِبابشنكو ؟

ــ ان بابشنكو هو موضوع من بين المواضيع الاخرى آلتي افكر بها .

فاجاب فانين :

ــ نعم ، لقد حصل عليها ، وانني لاتساءل عمن سيحل محله ، قد تكون انت ؟!

فأجابه سباروف :

ــ لا ! قد يعينون ڤلاسوف آمر الكتيبة الاولى محله ، فهو نقيب اول .

فعاد فانين ليكرر قائلا :

ــ نعم لقد حصل عليها بابشنكو ، ولقد تشاجرت انت معه هذا اليوم اليس كذلك ؟

ــ نعم !

ــ لقد سمعت باختصامكما

ــ من اعلمك به

ــ مسلنكوف

ــ نعم ، لقد امر بابشنكو بشن هجوم نهاري ، وانا لم أرغب في مثل هذا الهجوم ، فلم يكن هجوماضروريا ، ولقد فقدنا احد عشر رجلا من جرائه .

ــ الم تستطع اقناعه ؟

ـ كلا لم استطعه ، ولو استطعته ، لماقمت بمحاولة الهجوم .

وفجأة رن الهاتف ، فاذا بالمتحدث هو بروتسنكو ، الذي اشاع صوته في نفس سباروف شيئا من الراحة وبادر بروتسنكو سباروف سائلا :

ـ كيف تجري الامور عندك ؟

ـ انها طيبة

ـ لماذا لم تعتن برئيسك ؟

فأجابه سباروف :

ـ لم استطع ، لقد حاولت فلم استطع ..

ـ هل استرجعت المخزن بسهولة ؟

ـ نعم بسهولة بالغةوبخسائر جد طفيفة .

فرد عليه بروتسنكو قائلا :

ـ هذا ماكان عليك عمله منذ البداية ، لقد كان من المتوجب عليك ان تمنع الالمان من نقل امداداتهم خلال النهار ومن ثم ان تهاجم ليلا لتستعيد مافقدته من مراكز ، وعليك ان تلجأ الى مثل هذه الخطة في المستقبل لتدبر مثل هذه الامور.

بدا ماقاله بروتسنكو لسباروف كأنه الهزء والسخرية ، وان كان هزءا ملطفا وسخرية خفيفة ناعمة ، واراد سباروف ان يقول لبروتسنكو ، ان بابشنكو هو من يلام على الهجمة النهارية ، لكنه سرعان ماتذكر ان بابشنكو قد خر صريعا، وانه قد خر دفاعا عن ستالينغراد اردنا كان ام طيبا ، لذلك لم يفه سباروف باية كلمة .

حافظت « آنيا » على وعدها ودخلت عليه في ساعة متأخرة من الليل ، والفاها في عجلة من امرها اذ انها اقتحمت عليه الغرفة للحظة ، ولكن بالرغم من قصر اجتماعهما ، فان سباروف قد تحقق وتأكد منذ ذاك اليوم ، من انهما سيريان بعضهما في كل فرصة ييسرها لهما الامكان ، وان اجتماعهما معا ولو استغرق دقيقة واحدة ، فانه لاشك سيبقى اجتماعا ممتعا ولذيذا . لذلك ماكادت تخرج من لدنه حتى آحس بالقلق عليها ، ولقد وعى لاول مرة منذ ان وطئت

قدماه ستالينغراد ، ان الاخطار التي تحيق بكل واحد منهما هي اخطار يختلف بعضها عن بعض اختلافا كليا . فبعض تلك الاخطار كانت طبعا اخطاره الخاصة، اما تلك الاخطار الاخرى المرعبة وغير المتوقعة فانما هي اخطارها ، وهكذا تحقق من انه سيكون منذ الان فصاعدا دائم القلق على آنيا .

انتهت كل مهام النهار والليل ، ولم يبق امام سباروف سوى الانتظار حتى الساعة الحادية عشرة كي ينطلق وفاسيلييف في جولة استطلاعية . فمشروع الاستكشاف لهذه الليلة والليلة التي تليها ، واسر سرية المانية بكامل افرادها ، مشروع يسيل له لعاب سباروف شهوة واشتهاء ، لذلك كان يترقب البدء في تنفيذه واثقا وتواقا ملهوفا ، فتمدد على سرير الميدان ، وهو يريد ان ينتهي من عمله الاخير لهذه الليلة في اسرع وقت ممكن ، وذلك كي ينفرد بنفسه ولو لمدة نصف ساعة من الزمن ، فاستدعى بطيرس وسأله :

ــ هل جاء فاسيلييف ؟

ــ لم يأت بعد

ــ استدعه واطلب اليه ان يأتيني على عجل !

وعقب مضي دقائق خمس ، اطل فاسيلييف عليه ، وكان قد اعد كل شيء للجولة الاستطلاعية ، فمن عنقه يتدلى رشيشه ، وقنبلتان يدويتان قد ربطتا الى حقيبة من كتان شدت الى حزامه ، والحربة المدببة ذاتها قد علقت الى جانب القنبلتين . ولم يكن يرتدي معطفا، بل اكتفى بسترة مشدودة التزرير ، وكانت هذه طريقته حينما يكلف بالقيام بجولة استطلاعية ، ونهض سباروف من على سريره وصاح بفاسيلييف :

ــ فلننطلق !

ثم التفت الى بطيرس وقال :

ــ قل لبتروف ان يرافقني !

كان بتروف هذا احد جنود سرية الرشيشات ، وقد كان سباروف يصطحبه في مثل هذه المناسبات وذلك حينما كان يضطر بطيرس للبقاء في مركز قيادة الكتيبة . وتناول سباروف رشيشه من على الحائط ، وارتدي سترة

مبطنة كسترة فاسيلييف ، وشد حزامه الجلدي حول خصريه ووضع في جيبه قنبلتين يدويتين برتقاليتي الحجم ، وكان سباروف يفضل هذا النوع من القنابل نظرا لصغر حجمها وشدة مفعولها ، ثم انحنى فوق سريره مفتشا عن عمرتـه التي وقعت وراءه . وتطلع فاسيلييف الى ظهر النقيب ، ورأى بعين الخيال كل ما سيحدث وشيكا ، وتخيل كيف انهما سيصلان الى المكان المعين مسبقا ، وكيف سيتدبر امر بتروف بحربته ، وكيف سيرتمي الالمان فوق سباروف . ورأى ان ظهر سباروف ظهر عريض ، ولم يسبق له ان لاحظ ان لسباروف هذين المنكبين العريضين ، وهذا الطول البالغ لذراعيه ، زد على ذلك انه احس بان سباروف مستعجل فيآنجاز المهمة ، وهذا مما اثار القلق في فؤاده ، لانه خشي ان يتعارض استعجال سباروف والتوقيت المتفق عليه والالمان . نعم انه يمكن وبكل تأكيـد الاعتماد على الالمان ، وهم لا شك سيجلسون بالقرب من الشرك قبيل الوقـت المعين ، ولكن ماذا يحدث اذا لم يصلوا الى المكان المتفق عليه قبيل الوقتالمتفق عليه ؟! هل ستتكرر العملية في كل تفاصيلها غدا ايضا ؟ لذلك اخذ يتأرجح بـين رغبته في اعاقة سباروف وبين خوفه من استثارة شكوكه ، وعندما انتصـب اخيرا سباروف على قدميه عقب أن عثر على عمرته بادره فاسيلييف قائلا :

ــ هل تسمح لي بالكلام ؟

ــ تفضل !

فكرر فاسيلييف سؤاله ثم استطرد يقول :

ــ أن الالمان يبدلون هذه اللحظة الحرس ، وانا ارى ان علينا ان نتريـث قليلا .

فأجابه سباروف :

ــ لكنك قد قلت فيما مضى بانه لايوجد حرس هناك .

ــ نعم لايوجـد

ــ اذن فلن يشعروا بنا ، فهيا !

قال هذا سباروف ، وعلق رشيشه حول عنقه ، وخرجا من الخندق، وكان فاسيلييف يسير في الطليعة وسباروف يتبعه وبتروف ينطلق اثرهما . وكانت

الليلة شديدة الاظلام كثيفة الظلام باردة رطبة ، فهي ليلة من ليالي اكتوبر، وكانت السماء تمطر رذاذا ، وكان الظلام في البدء كثيفا الى درجة خيل اليهم معهـا انهم لايسيرون في الهواء الطلق ، بل انما يمشون في نوع من دهليز يقع بين بابين مغلقين ، ورأوا محيطات شكل الجدران تشرئب بذراها نحو السماء ، فتبدو كأنها بنايات سامقة طليت بلون باهت تتطاول باعناقها من فوق الجدران المهشمة والمحيطة بهم . وبينما كانوا يخرجون من الخندق ، قال سباروف في سريرته، انه والحق لن يقترف خطيئة مميتة لو انه اجل جولة الاستطلاع هذه الى ليلة قادمة ، فنهاره كان مترعا بالقتال والاعمال ، ولقد حمل النهار اليه تلك الوفرة من الحوادث والاحداث ، وليس هناك من يوم هو اليوم الاخير ، لكن جو الليلة المنعش ورذاذ المطر الهادىء ، والسماء المعتمة المنخفضة التي بدت اكرم في دفئها ، خلال المطر ، من الارض نفسها ، كل هذه الاشياء جعلته يستنهض همته ويحس بمزيد من الارتياح والراحة وهكذا وجدته يخاطب رفيق الطريق ويقول :

ـ انها لليلة جميلة ... اليس كذلك ؟

فأجابه فاسيلييف قائلا :

ـ نعم ايها الرفيق النقيب .

وتذكر سباروف ان القرية الصغيرة الواقعة بالقرب من ميللروفو حيث كانت تقطن امه وشقيقاته ، تقع على خط العرض ذاته التي تقع عليه مدينـة ستالينغراد ، ولا شك ان ليل تلك القرية لايختلف عن هذه الليلة ، فهو ليل طويل مظلم وممطر ، وفجأة سأل فاسيلييف :

ـ أين تقيم عائلتك يافاسيلييف ؟ اتقيم بعيدا من هنا ؟

فأجابه فاسيلييف :

ـ نعم ، انها لبعيدة من هنا .

قال فاسيلييف هذا ، وتحسس غريزيا اوراقه الثبوتية الموضوعة في جيبه الايسر ، والتي خط فيها ان اسمه ب.د. فاسيلييف ، من اهالي وسكان ماجنتو جورسك ومتزوج ، وعمره ٣٢ سنة ، ثم استطرد :

ـ انها تقيم في ماجنتو جورسك .

فسأله سباروف :

ـ اتقول ماجنتو جورسك ؟ اين يقطنون ، وفي اي حي ؟ من الجائز انهم يسكنون في البلدة القديمة ؟

فأجاب فاسيلييف بسرعة :

ـ نعم أنهم يقطنون في البلدة القديمة

لكن فاسيلييف سرعان ما ادرك انه لم يسبق له ابدا ان زار ماجنتو جورسك لذلك احس بان عليه ان يضيف شيئا ما الى كلامه فاستطرد :

ـ انهم يقيمون في الحي الواقع على شارع لينين . قال هذا وهو يعتقد بانه لاشك يوجد في تلك المدينة شارع يحمل هذا الاسم .

ـ هل انت متزوج ؟

فأجاب فاسيلييف ايجابا ، وبدا لهانه لمن المضحك حقا ان يسأله شخص عن حياته الخاصة ، شخص سيستجوبه الالمان عما قريب ، لكنه اضاف :

ـ ولي طفلان ايضا .

ـ لكن ماجنتوجورسك تقع بعيدا من هنا .

بهذا علق سباروف على قول فاسيلييف ، وهو يفكر متأملا ، في المسافة البعيدة آلتي تفصله عن ماجنتوجورسك ، وخيل اليه ان تلك المدينة معفاة من نظام الاظلام ، وان شوارعها تشع الان بالانوار وتتألق ضياء ، وفجأة ، ولمدة لحيظة اخذ يستحث خياله ليرسم صورة لستالينغراد وهي تشع بالاضواء التي تشع بها الان ماجنتوجورسك ، صورة لاتغفل حتى المكان الذي يسيرون فيه الان ، فتظهر في كل زاوية من زوايا الشارع ضوءآ يتألق ويغمر بنوره كل شيء، وتبدي جميع النوافذ تسيل نورا وتتدفق ضياء ، وتطلع سباروف الى ساعته المشعة ، فالفى عقربيها يشيران الى العاشرة والنصف ، انها لاشك الساعة التي كانت تطفو فيها ستالينغراد فوق خضم من نور ، لكنه سرعان ما ابتسم من خوآطره ، وكتم ضحكة من احلامه .

وعقب خمس دقائق وصلوا الى مواقع السرية الثانية وقد استقبلهم مسلنكوف بين الخرائب . وكان مسلنكوف يعلم بالجولة التي انتوى سباروف

القيام بها ، ولم يكن ليوافق عليها ، اذ انه كان يرى ، ان عليه هو ، لا على سباروف ان يقوم بها ولكن لما كان سباروف قد بت فيها ، ولما كان من العسير تبديل مااستقر عليه رايه ، لذلك وجد مسلنكوف نوعا من عذر كي يسبق سباروف الى السرية الثانية التي يقودها بطابوف حبا منه في ان يكون في النقطة التي سينطلق منها سباروف الى هدفه . والحق ان سباروف فوجيء باستقبال مسلنكوف له ، لكنه لم يبد عجبه بل انما اكتفى بالابتسام في الظلام وقال :

ـ هل انت هنا ياميشا ؟

ـ نعم ايها الرفيق النقيب.

ثم حاول ان يشرح لسباروف الاسباب التي دعته الى الحضور الى السرية الثانية لكن سباروف قاطعه باشارة من يده وقال وهو يبتسم ابتسامة ضمن بمرآها الظلام .

ـ انني اعرف .. انني اعرف كل شيء .

والحق ان سباروف أحس بغبطة وسرور وهو يرى ان مسلنكوف قلق عليه ، وان قلقه قد دفعه ليسبقه الى هذا المكان .

وعندما استعد سباروف للانطلاق تقدم منه مسلنكوف تانية وامسك بيده وقال بصوت هاديء :

ـ الكسي ايفانوفيتش !

فاجابه سباروف :

ـ نعـم !

فعاد مسلنكوف ليكرر :

ـ الكسي ايفانوفيتش !

ـ نعم ماذا تريد ؟

وفجأة ادرك سباروف انمسلنكوف قد جاء هنا كي يعانقه ،فبادر سباروف الى عناقه ثم استدار بسرعة وغادره وعيون مسلنكوف معلقة به .

لم يدفع التطير مما سيحدث ، مسلنكوف الى عناق رئيسه ، بل انما كان

دافعه الاول والاخير ، نوع من ذاك الحزن الذي لايمكن تعليله ، والذي كثيرا ما يغمر الجبهة ، والذي احس مسلنكوف بوطأته منذ الصباح الباكر ، منذ ان علم بأمر الجولة الاستطلاعية .

ساروا اولا في العراء ، فالظلام اباح لهم ذلك ، وفجأة اصطدمت ماسورة بندقية بتروف بالجدار ، فأحدثت ضجة وجفت لها قلوبهم ،وحبست انفاسهم وسمرت اقدامهم وجعلتهم يترقبون انطلاق الرشاشات بعويلها وعوائها في اتجاه الضجة ، لكن أحدا لم يطلق النار ، فتابعوا سيرهم ، بينما كان المطر يتسرب من قبضة السماء قطرات قطرات ، لكن الليل لم يعد يبدو على ماكان عليه من رقة وهدوء ، فعلى مسافة بعيدة منهم ، وما وراء البنايات كانت المدافع ترسل بوميضها الابيض ، وبعدما قطعوا مئة وخمسين ياردة ، كان عليهم ان يبدأوا الزحف بين الانقاض وعلى محاذاة شارع صغير بدأ كأن راجفة رجفت به فدمرته تدميرا ، فكل بقعة منه مغمورة بالاجر ، وكل زاوية منه مترعة بالانقاض من كل نوع ، انقاض كانت في بعض الاحيان غريبة عن اللمس . ففيه قطع من أثاث ، وشظايا صحون وطباق ، ومواسير حمامات مكسورة ، وسامورات مهشمة ، وقد جرحت حافة احد السامورات راحة سباروف ، لكنهم تابعوا زحفهم على هذه الشاكلة لمدة تزيد على الدقائق الخمس ، ولم تكن المسافة الفاصلة بين الالمان والروس بالمسافة الكبيرة ، فاحيانا كانت تمتد لتبلغ المئتين من الياردات ،واخرى تضيق لتقف عند الخمسين منها ، ولكن كان عليهم ، كي يبلغوا هدفهم ، ان يسلكوا دربا ملتوية تمر بين حفر القنابل ، وفي كل لحظة ، كان يبدو لهم من الصعب عليهم ان يعرفوا الى أي من الجانبين هم اقرب ، أ الى الالمان ام الى الروس . اما فاسيلييف فأمسى احسن حالا ، فلم تعد تفصله عن بغيته سوى مسافة قصيرة ، ودقائق قليلة ، وكان سباروف يزحف بحكم العادة تقريبا أي دون ماتفكير ، فهو يمتلك ذهول الرجل الذي يعرف كل شيء مسبقا ، والذي عليه ان يؤدي الضروري اداء آليا ، وهذا مامعناه ان عليه ان يزحف الى هدفه وان يتطلع حوله ، كي يتمكن من اتخاذ قراراته لليوم التالي ، وان يزحف عائدا الى مركزه بهدوء . وهكذا تابعوا زحفهم ، واستمروا فيه ، حتى وقعت حادثة من تلك الحادثات التي لايمكن للالمان او الروس او فاسيلييف او سباروف ان يعرف بها مسبقا ، لكنها حادثات تقع وتقع . فعندما خمن فاسيلييف المسافة التي تفصلهم عن هدفهم بخمسين ياردة ، سمعوا فجأة هدير طائرة مقاتلة من طراز يو — ٢ ، وكان هديرها شبيها بهدير دراجة نارية ، وهطلت اثر ذلك السماء بقنابل صغيرة بدت

كأنها حبيبات من الفصولياء وانفجرت حولهم . ولم يكن هذا بالامر المستغرب او المفاجيء ، فهم الان داخل المنطقة المحرمة ، ولا شك ان الطيار قد اخطأ فضرب ماخاله خلاء ، وعندما انفجرت القنابل حولهم كان فاسيلييف يزحف في المقدمة والى جانب بتروف ، وكان سباروف يعد نفسه ليزحف كما اعتاد آن يفعل من قبل ويقف بالقرب من جدار نصف حطيم وقد انفجرت اقرب القنابل بالقرب من الحائط تماما وفي احدى الزوايا ، فتهاوى الجدار انقاضا على الارض وغطى سباروف بالاجر ، فبدا كأن هرما طفليا من الاجر يرتفع فوق جسده ، وعندما تهاوى سباروف والاجر اغمض عينيه ، وقد خيل اليه من الضربة التي نزلت به، ومن شدة الانفجار ومن الهواء المتدافع مارا به ، انه قد قتل ، لكنه عندما توقف عن الوقوع وفتح عينيه ، لم يحس باي من الموت او حتى الوهن ، بل انما احس فقط بوطأة ثقل الاجر المكوم فوقه ، وبغبار الاجر يملأ فمه وأنفه فهمس مناديا فاسيلييف ، لكن هذا لم يجبه ، فنادى بتروف ، لكن ايا منهما ، لم يلب نداءه فظن ان كلا رفيقيه قد قتلا ، وخيل اليه ان هناك انسانا ما يتحرك امامه ،لكنه لم يستطع حراكا ، فلقد كان مدفونا بالاجر ، بالمعنى الحرفي لكلمة الدفن . فاخذ يصيخ السمع ، لكنه لم يسمع شيئا ، وقد اجتاح كامل جسده أحساس مرعب وغريب بانه مقيد ومربوط ، وبان حبلا قد قيد كل خلية من جسده .ولم يترك له سوى ذراعه اليسرى ورأسه طليقين . ولقد وقعت قطعة من الاجر على وجهه فجرحته ، واخذ الدم ينزف منه ليصب في عينه ، فمد براحته اليسرى ومسح عينه ليلطخ كامل وجهه بالدم وعاد ليهمس ثانية مناديا فاسيلييف فرد عليه فاسيلييف من مكان ما خلفه وقال بصوت هامس :

ــ انني ها هنا

ــ أهنا ؟! اين ؟

فكرر فاسيلييف قوله « هنا » ، واستطاع سباروف ان يسمع حفيف زحفه في مكان ما وراءه لكنه لم يستطع ان يستدير برأسه ليراه . وكان فاسيلييف قد راى على ضوء النور المشع من انفجار القنبلة انهم قد اصبحوا على مقربة من النقطة المتفق على اللقاء عندها والالمان ، لكن اللحظة الثانية طرحته ارضا وشعر بالالم ينهش جانبه ووركه ، فلقد فتحت شظية ضخمة ثغرة في وركه ، ومع آن حاسة سادسة قد اعلمته بان جرحه ليس بالخطير ، الا انه عندما تحسس لحمه الدامي براحته ، فانه لم يستطع الا بصعوبة بالغة ان يخنق

صيحة وحشية اجتمعت موجاتها في حلقه ، فأخذ يتحسس جسده ثم مد يده فاصطدمت اصابعه الخمسة برأس بتروف الدامي ، فحبس صرخة بين اسنانه ثم اندفع آليا ليزحف بعيدا عن الرجل الميت . وعندما سمع فاسيلييف صوت سباروف أدرك انه ليس وحيدا ، ومع كراهيته الشديدة لسباروف ، الا ان الشعور بالرعب كان لا يزال اقوى من بغضائه ، لذلك اخذ يزحف نحو سباروف ، مدفوعا برغبة واحدة هي رغبته في ان يكون بالقرب من كائن بشري آخر ، لذلك همس بنعم ، فنعم ، وتابع زحفه انشا فأنشا حتى امسى يضطجع الى جانب سباروف الذي سأله :

ـ هل انت جريح ؟

فأجابه فاسيلييف :

ـ نعم ، وانت ؟!

فرد سباروف بصوت هامس :

ـ لاادري

وتمكن فاسيلييف أن يستنتج من خلال الظلام ، ان رأس النقيب وكتفه فقط ، هما الطليقتان من قيد الآجر ، وبدا له من الغريب ان يوجه لسباروف هذا السؤال بالرغم منه :

ـ ألم تتهشم ؟!

فاجاب سباروف :

ـ لاادري ، لكن هل لديك ضماد الاسعاف الاولي

ـ نعم ، ما الذي تريده ؟ اتريد رباطا ؟

فاجاب سباروف :

ـ كلا لااريده لي ، انني اريده لك ، فانا لدي ضماد ، لكنه تحت الاجر الان، ومن المستحسن ان تضمد نفسك والا فان دماءك ستنزف حتى الموت .

تذكر فاسيلييف الان ان النزيف قد يفضي به الى الموت ، فارتعب لهذا الخاطر ، وبلغ به الرعب حدا لم يستطع معه ولمدة طويلة ان يسيطر على اصابعه

الزاعشة فيخرج الضماد من جيب قميصه ، واخيرا اخرج رباطا ووضعه الى جانبه وحل حزام سترته واستل حربته وتحسس كم سرواله ، فوجده مشبعا بالدم وملتصقا باللحم ، فحل الرباط وامسك به باحدى يديه وحاول ان يضمد ساقه ووركه لكن سباروف طلب منه ان ينتظر ويقترب منه ، فاطاع فاسيلييف وامسك سباروف بيده الطليقة بطرف الرباط ، وشده على جرح فاسيلييف كي لاينزلق عنه ثم طلب منه ان يلفه بيديه حول الجرح . فلف فاسيلييف الرباط وفكره يركز كل خواطره على اتقان تضميد جرحه لا على سباروف أو الالمان .
وذلك كي يمنع النزيف من ان يسلمه الى الموت . وعندما انتهى من تضميد جرحه وربط طرف الرباط تحت حافة سترته بدأ يفكر بما يتوجب عليه عمله . لقد كان كل شيء هادئا حوله ، وهو لايعرف ما اذا كان الالمان قد وصلوا الى المكان المتفق عليه ، ولا يعرف ما اذا كانت القنابل قد قضت عليهم في حالة وجودهم فيه ، لكن خاطرا قال له ،انهم لن يحضروا ، فهم لاشك سيرون في هذه القنابل خيانة منه لهم ، ولكن فليفترض انهم حضروا ؟ وفجأة احس فاسيلييف برغبة ضارية في ان يمسك بكتف سباروف ويهزه هزا عنيفا ويسأله :

ـ هل تعتقد بانهم سيحضرون ام انهم لن يحضروا ؟

ماذا يجب ان يفعله الان ؟ وما الذي يستطيع فعله ؟ فهو ليس في حال تمكنه من الزحف الى اي من الفريقين ، وهو محاط بأكوام من الحديد الخردة والحجارة والتنك ، لذلك فلن يستطيع ان يتدبر امر زحفه ، فلو ان المكان كان حقلا مكشوفا لا ستطاعه ، لكنه هنا اذا مازحف فسيحل الرباط وستنزف دماؤه حتى الموت ، فهل يصرخ ؟ ولكن أي الجانبين سيسمع صوته اولا ؟ الالمان ؟ انه بهم وثيق المعرفة ، فهم لن يجيبوا صارخا ، وسيقررون ان الصراخ هو جزء من احبولة وشرك . ام جانبنا ؟ « انه لايزال يسميه جانبنا بحكم العادة » ولكن حتى لو حضر الروس ، فان هذا معناه ان كل شيء سيبدأ ثانية من جديد ، وقد يسمعهم الالمان فيبدأون باطلاق النار . اذن فعليه الا يصرخ مستنجدا ، فصراخه سيذهب صرخة في واد . ولكن ماذا عليه ان يفعل ؟ اينتظر ؟ من يدري فالالمان قد يحضرون الى الشرك الذي نصبوه للفريسة ، وهم لن يرهبوا ، وعندئذ ستنتهي الامور الى مايريد ، ليت هذا الامر يتحقق ! فعندئذ سيسمع بخطواتهم عندما يقتربون منه ، وسيعلمهم بمكانه ، وهم سيحضرون قريبا ، ربما خلال ربع ساعة او عشر دقائق ، ولكن اذالم يحضروا ؟ عندئذ عليه ان يزحف اليهم ،

وهذه هي وسيلته الوحيدة الى الحياة ، والى النجاة من الموت نزيفا . وهو سيزحف ببطء ويبالغ الحذر كي لاتنزف دماؤه . ثم تذكر سباروف ، فقال في سريرته ، انه سيزحف وسيغادره دون ان يقول له كلمة واحدة ، وسيعلم الالمان بمكانه ، لكنه أحس فجأة ان هذه الخطة لن تلاقي نجاحا ، فسباروف سيصرخ حالما يراه يبتعد عنه ، وعندئذ سيسمع صراخه الالمان وسيطلقون النار عليهما معا . او قد يكون الامر اسوأ من ذلك ، فقد يموت هو نزيفا ، وقد يزحف الروس الى سباروف ويعودون به سليما ، وبهذا يلاقي هو حتفه ، وينجو سباروف وهذا لن يكون ، فعليه اذن ان ينتظر بصبر اطول مدة ممكنة ، وعندئذ سيقتل سباروف كي لايستغيث فيصرخ ، وسيزحف بعدها الى الالمان ، نعم هذا هو العمل ، وهذه هي الخطة المثلى . وفجأة قطع سباروف عليه هذه السلسلة من الافكار اذ سأله :

ـ كيف حالك الان ؟ اافضل ؟

ـ احسن قليلا

فرد سباروف :

ـ اضطجع على ظهرك وخذ لك قسطا من الراحة !

شاهد فاسيلييف سباروف يرفع بذراعه الطليقة وينتزع اجرة بعد اخرى من الكوم ليضعها الى جانبه ، لقد انتزع الاولى ، وهذه هي الثانية .. وتلك هي الخامسة عشرة ، واخيرا تهاوت يده الى الوراء مشلولة وزفر زفرة عميقة ثقيلة وقال :

ـ انني متعب ، ولن استطيع متابعة هذا العمل ، والافضل ان ترتاح وبعدئذ تساعدني على الخروج من تحت الاجر كي نزحف عائدين الى خطوطنا .

لكن فاسيلييف بقي صامتا ، فقد كان يقول في سريرته ، ان سباروف لن يصرخ مستغيثا ، لانه يعرف هو أيضا بان الالمان سيطلقون النار باتجاه الصوت ، نعم انه لن يصرخ ، بل انما سيبقى مضطجعا حيث هو وسينتزع اجرة بعد اخرى ، وهذا العمل سيستغرقه طويل وقت ، وسيستغرقه من الوقت مالا يسمح ابدا له انجازه ، وعاد سباروف ليقول له هامسا :

ـ فلتضطجع ! هون عليك !

ثم عاد سباروف الى انتزاع الاجر ، ولقد احدثت آحداها بعض ضجــــة فهمس فاسيلييف :

ـ اهدا ! اهدا !

فأجابه سباروف :

ـ سأقوم بعملي على صورة اهدا

وكان سباروف عندما وقع قد ركبت احدى ساقيه فوق الاخرى ، لذلك احس بثقل مرعب يضغط على عظم الساق ، ومع ذلك عاد ليسأل :

ـ هل قتل باتروف ؟

فأجابه فاسيلييف :

ـ قتــل

انتزع سباروف عددا من الاجر ثم اخلد ثانية الى الراحة ، واحس بان صدره قد شد بين فكي مشد لولبي ، فان هذا الاجر لن ينام فوق صــــدره بل انما سينام فوق شيء داخل صدره ، وسيحطمه تحطيما فهمس :

ـ ياللغباء ! يالها من حالة غبية !

ثم سأل فاسيلييف :

ـ ماقولك ؟ هل تستطيع ان تساعدني ولو بيد واحدة من يديك ؟

لكن فاسيلييف لم يرد عليه فخيل لسباروف ان رفيقه في حالة تعيسة ايضا ، وان عليه آن ينتزع الاجر بنفسه ، لذلك قال في سريرته ، ليتني انتهـــي من عملي هذا قبل الفجر ، وتتوفر لي القــوة لازحف عائدآ ، ثم سأل فاسيلييف:

ـ الا يزال سلاحك معــك ؟

ـ نعــم

قالها فاسيلييف وهو يجر رشيشه بحزامه برفق .

عندئذ اجاب سباروف :

ـ اذا ماعثر علينا الالمان ، فعليك عليك !

ثم سحب نفسا عميقا واسترسل

عليك انتقتلني اولا ! هل فهمت ؟

فاجاب فاسيلييف :

ــ كــلا

خيل الى سباروف ان فاسيلييف يرفض قتله لانه هو نفسه يرهب الموت ويخشاه ، يرهب موته او موت غيره من الناس ، وانه لايستطيع ان يتصور نفسه وهو يطلق النار على رئيسه لذلك بادره سباروف :

ــ هون عليك ! فقط في حالة عثور الالمان علينا ، ونحن لاشك سنخرج من هنا سالمين ، فهيا ساعدني لاتخلص من هذه الاجرات !

فرد عليه فاسيلييف بصوت غريب اذهلت لهجته سباروف وقال :

ــ لا !

كان فاسيلييف يجلس اثناء ذلك هامدا ويضغط بوركه على الارض ، وقد خيل اليه ان ضغطه لجرحه سيخفف من نزيف دمه ، اذ انه كان يحاول ان يستجمع قواه حتى يتمكن ان لم يحضر الالمان من الزحف اليهم ، وقد اشاعت خسارته لبعض دمه احاسيس النعاس في جسده ، فوجد من الصعب عليه ان يرفع براسه الى العلاء ، واحس بان حاله ستتحسن اذا بقي مضطجعا لمدة اخرى من الزمن تبلغ ربع الساعة او عشر دقائق ، فالدوي قد يتوقف في راسه ، وقد تدب بعض القوى في ذراعيه، وهكذا رأيته يضطجع منتظرا ، ويعد كالطفل مــن الواحد الى المئة ، ومن ثم يكرر عده ، فهو لم يكن يملك ساعة ، ولذلك فهو يخمن الدقائق الباقية لتبلغ الساعة الحادية عشرة ، حيث يفترض انيحضر الالمان في هذه الساعة ، او يتضح له ان الالمان لن يحضروا وعندئذ سيبدأ بالزحف اليهم . والحق انه لمن الصعب على الانسان انيعرف ما اذا كان قول سباروف ، سباروف هذا الذي سيقتله خلال عشرة دقائق ، بانه سيستطيع العودة زاحفا ، هو الــــذي ضاعف في كراهية فاسيلييف لرئيسه ، ام لان حديث سباروف قد قطع عليه سلسلة عده فاضطر ان يعود ليعد ابتداء من الخمسين فما فوق ، وهكذا وجدت فاسيلييف يجيب سباروف :

ــ كلا ! لن تزحف خارج هذه الكومة من الاجر .

قال هذا ،وابتعد عن سباروف كي يكون بمنأى عن يده وعاد ليكرر مقالته السابقة ، فهو يحس الان بحقد مرير نحو سباروف ، وقد تعاون اليأس والالم والحزن لما حدث ، وخاصة شكه في قدرته على الزحف الى الالمان ، اقول تعاونت كل هذه العوامل لاستثارة حقده وتفجير نقمته على سباروف . وقد شعر برغبة ضارية في أن يقول لسباروف ، بان النقيب لن يتمكن من الزحف الى اي مكان ، وان اماله عقيمة ،وانه لغبي اذ سمح لنفسه بالوقوع في الشرك الذي نصبه له ، وان الالمان سيحضرون فورا وسيأسرونه ، وهذا الاسر هو أشد مايخشاه سباروف ويرهبه .

لم يكن فاسيلييف واثقا من ان الالمان سيحضرون ، لكنه احس برغبة شيطانية في قول هذا الامر ، وتأكيده وذلك كي يجعله يجلس منتظرا مرعوبا ، لكنه قال :

ـ لن تزحف الى اي مكان .

ـ لماذا ؟

ـ لانني سأقتلك اولا .. سأقتلك

وتابع يقول بصوت هاديء هامس :

ـ سأقتلك هذا كل مافي الامر

وعقب ان استنزف فاسيلييف رعبه احس بارتياح ، اذ وجد ان هذا الرجل الممدد الى جانبه هو دونه حولا وطولا ، فهو لايستطيع ان يحرك حتى رأسه او راحته أو قدمه ، بينما انه هو ، فاسيلييف ، بالرغم من انه جريح وقد يكون على شفا الموت ايضا ،لايزال يستطيع قتله ، وهكذا وجدته يجيب على سؤال سباروف المتسائل لماذا بقوله وبصوت هامس ايضا :

ـ لانك غبي مجنون ، فلقد كنت اقودك الى شرك نصبه لك الالمان . وهم سيحضرون قريبا الى هنا ، وسيحضرون في الساعة الحادية عشرة تماما ، هيا انظر الى ساعتك ! انك لاتستطيع ! حسنا ! لكنهم قادمون الان على كل حال ، وعندئذ سينتهي كل امر ايها الرفيق النقيب .

وعندما لم يجب سباروف على ماقاله استطرد فاسيلييف :

ـ حسنا لماذا لاتقول اية كلمة ؟ انك تعتقد بانهم لن يحضروا ؟ انهـم سيحضرون سيحضرون .

لكن سباروف بقي صامتا ، وهذا مما ضاعف في غضب فاسيلييف ، وهو لذلك يريد ان يضربه قبل ان يقتله ، ان يصفع وجهه وعينيه ، وان يحول راحته الى قبضة يحطم بها اسنانه، وذلك كي يجعله يدفع ثمن الحياة التي عاشهـا فاسيلييف ، ثمن هذه الحياة التعيسة منذ بدئها حتى هذه الليلة القذرة التـي يضطجع فيها جريحا وممددا على الارض ، على الطين وتحت المطر وقد شق وركه شقا واسعا عميقا . وهذا كفيل بان يسدد ثمن كل الالام التي انزلها به سباروف وامثاله . واخيرا بادره خاطر يقول : ان افضل من كل ما ارتأيت يافاسيلييف هو ان ترفس وجهه بحذائك ، لكن فاسيلييف يخشى الاقتراب من سباروف ويرهب ساعده الطليقة ، ويرهب صمته ، لذلك حرك برشيشه ثم سدده الـى وجه سباروف تسديدا مباشرا وقال :

ـ سأقتلك ، هذا كل ما في الامر .

لكن سباروف بقي صامتا ، فليس عنده من شيء يرغب في قوله ، فهـو قد ادرك ، منذ ان تفوه فاسيلييف بكلماته الاولى ، اسباب كل ماحدث اليوم وما حدث قبله ، وتذكر كيف دكت المدفعية الالمانية مراكز قيادته مركزا بعد مركز، وذكر باناسيوك القتيل ، وتذكر ملامح فاسيلييف وهو يستل حربته من جزمته امامه ، وتذكر كل عودات فاسيلييف وهو محمل دائما باوراق ثبوتية واسلحة المانية . وذكر كل شيء قام به هذا الشخص كي يجعل كل جندي في كتيبته يمتدحه ويصفه بانه الجندي الوحيد الذي باستطاعته ان يتنزه ماوراء الخطوط الالمانية كأنه يتجول متنزها امام بيته ، وانها لاعجوبة صغيرة تبعث على الدهشة ان يشعر المرء بان فاسيلييف يحس بان وطنه هناك ! ومن ثم تذكرحديثه وافيديف بعد ان اجرى هذا الاخير محادثة صحفية وفاسيلييف عن جولتـه الاستطلاعية وتذكر نظرة الاحتقار التي ارتسمت على وجه افيديف وهو يقول :

ـ لا اعرف ! لا اعتقد بانني سأكتب عنه .

وتذكر كيف قتل عاملان من عمال الهاتف من جراء قنبلة انفجرت داخل اخر مركز لقيادة كتيبته ، وتذكر منظريهما وهما ممددان على الارض . لقد قتلهما فاسيلييف ايضا ، وها هوذا يضطجع الان الى جانبه ، وهو لايزال يشعر بانـه

اقوى منه بالرغم من ركام الاجر ، لكنه عاجز عن القيام باي عمل . وهكذا بقي سباروف صامتا فهو لايرغب في الكلام ، واذا ماكان صدره يعتلج بشعور مـن بغضاء للالمان فان مثل هذا الشعور لايقارن ابدا بالشعور الذي يعتلج به جنـان سباروف نحو فاسيلييف ، فهو يرى كل مايكره في الحياة ممددا على بعد ذراع واحد منه ، ومع هذا فهو لايستطيع ان يفعل شيئا .

حرك سباروف اصابعه ، ثم ضم راحته فأمست قبضة ، وبهدوء بالغ ، لا بل ابلغ هدوء يمكن ان يصدر عن الحركة ، شد بيده الى جسده وحاول ان يكف عن التفكير باي امر. لقد كان نضب وعيه من كل أمر ماعدا امر واحد هو ان فاسيلييف لايزال على قيد ذراع واحد منه تقريبا ، فاذا ما استطاع ان يبدل هذه « الـ تقريبا » وحتى لمدة ثانية واحدة عندئذ . . فحاول ان يتلوى تحـت الاجر ، لكن سرعان ماادرك ان تلويه لن يجديه نفعا ، فهو لن يكتسب سنتيمترا واحدا ، وهو بحاجة الى خمس سنتيمترات وربما عشر ، وكل مايريده هـو ان يتحرك فاسيلييف نحوه فيقترب منه قليلا لكن فاسيلييف عاد ليسأله :

ـ لماذا لاتتحدث ؟ هل انت خائف ؟

والحق ان فاسيلييف نفسه هو المرعوب من صمت رئيسه والخائف ، لكنه يريد من سباروف ان يخاف ايضا ويرعب وفجأة بادره سباروف شاتما :

ـ يا ابن الخنزيرة !

فاجابه فاسيلييف وهو يحس بغبطة عميقة لارغامه سباروف على التحدث اليـه :

ـ تحدث ! استرسل في حديثك ! فانك تتحدث لاخر مرة على كل حال ، هيا تحدث قبل ان تموت ! هل تسمعني وذلك لانك ستموت هنا اتفهم ما أقول ؟

حاول سباروف ان يتلوى ثانية تحت الاجر ، واستطاع ان يحرك كتفيه لمسافة سنتمتر واحد فقط ، وهو يريد من فاسيلييف ان يتحرك نحوه ، وهكذا وجدته يهمس بكلمة واحدة ويكررها ويقول هيا اقترب ! هيا اقترب ! هيـا اقترب ! وقد اجتمعت كل رغائبه في هذه الكلمة ، ثم بدأ يشتم ، ويشتم بلغـة قذرة ولم يسبق للسانه آن عرف مثل هذه الشتائم ، وكان حينما يشتم يرتفع اولا بهمسة ثم ينخفض به ، وقد نعت فاسيلييف بكل اسم قذر اختزنته ذاكرته، ليته فاسيلييف يتحرك ، ويقترب ولو قليلا ، واخذت عيناه تحملق في الظـلام

لترسم لهما صورة لوجه فاسيلييف .

بدات موجات الغضب تعصف بفاسيلييف ، فسباروف لم يتح له فرصة واحدة ليتحدث ، فهو يجرفه بسيل عرم دفاق بالشتائم ، ولن يوقف شتائمه الا الموت ، وبهذا لن تتوفر الفرصة لفاسيلييف ليقول مايريد قوله . لقد سر من قبل لانه ارغم سباروف على النطق ، والان يريده انيصمت ويريد ان يرفس وجهه بكعب حذائه ، او ان يحطم اسنانه بقبضته كي يرغمه على السكوت ، لكن سباروف استرسل ليقول :

ــانك تتكلم .. وانا اريد ان اقول لك شيئا .

استغرق سباروف في التفكير ، تفكيره المركز على رغبته في اقتراب فاسيلييف منه وبدهاء غير واع وغير طبيعي ، بدأ سباروف يخفض من صوته الهامس قليلا قليلا ، مؤملا في ذلك ان يجذب فاسيلييف فيقترب منه ليسمع مايهمس به ويعيه ، وهو لايريد منه ان يقترب اكثر من سنتيمتر واحد او اثنين ولم يعتد فاسيلييف على همس سباروف المتذبذب بين الارتفاع ،والانخفاض ، لذلك اخذ يزحف مقتربا منه ليسمعه ثم يزحف مبتعدا عنه ، لكن فاسيلييف احس بان المسافة آلتي تفصل بينهما تقصربعد كل زحفة ، واخيرا التفت سباروف وحدق في فاسيلييف وبصق في وجهه بصقة غزيرة مترعة ، ثم اتبعها ببصقة اخرى ، فاقترب منه فاسيلييف ورفع بذراعه وصفع سباروف بكل قواه على فمه . كان باستطاعة فاسيلييف ان يستخدم رشيشه ، لكنه اراد ان يستعمل قبضته رغبة منه في سماع انحطام اسنان عدوه ، وهذا هو الخطأ الذي ارتكبه فاسيلييف ، آذ مد سباروف بذراعه الى الامام وامسك بقميص فاسيلييف ،وجره نحوه ثم اخلى سبيله لثانية واحدة ، وعاد بعدها ليطبق بذراعه على عنقه ، وقد شعر سباروف بان كل قوى جسده تجتمع وتحتشد في ذراعه اليسرى خلال هذه الحركة التي اتاها ، فاخذ يضغط بقسوة بالغة على عنق فاسيلييف ، ويشد باصابعه على رقبته الى درجة اعتقد معها بانه سيحطم اصابعه ، لكن اصابعه لم تتحطم ، فيده تضغط على عنقه اشد فاشد ، وقد استطاع فاسيلييف في البداية آن يمزق الراحة ، ثم بدأ يغرز اظافره فيها ، واخيرا سمع سباروف حشرجة فاسيلييف ، فتابع يضغط بعنف على الرقبة ، وعندما توقف الحلق على الحشرجة وبدات العنق يختلج بين اصابعه ،لم يتوقف سباروف عن الضغط بل انما استرسل يضغط ،ويضغط حتى كادت الام جسده تفقده وعيه . لكنه

اكمل الضغط لمدة دقيقة ، ولربما لمدة خمس دقائق حتى تحقق اخيرا من ان فاسيلييف قد لفظ انفاسه وان مايمسكه بين اصابعه لن يستطيع الحراك ثانية. فأرخى اصابعه وفتح عينيه اللتين كان قد اغمضهما طيلة صدامه وفاسيلييف ، ورأى السماء فوقه سوداء معتمة فبدا له كأنه قد فقد بصره ، ولاحظ ، ولم يلحظ الا الان ، ان السماء ، لاتزال تجود بالمطر ، واحس بالاخدرار يثقل ذراعه فجذبها الى جسده وحاول ان يضغط براحته الى احدى الاجرات التي تضغط عليه ، فاغمض عينيه ، وكان احيانا يفقد وعيه واخرى يستعيده ، وبقي على هذه الحال لمدة دقائق . واخيرا عض على شفتيه وحرك ذراعه ثم رفعها الى ذروة كومة الاجر ، ودفع بهدوء بالاجرة التي تتربع على قمتها ، وعاد ليعض على شفتيه ثانية بالم ، ومرة اخرى مد ذراعه الى جسده وانتزع اجرة اخرى ودفع بها ثانية الى جانبه . وكانت قطرات المطر اثناء صراعه تنهمر على وجهه ، واراد ان يمسحها لكنه لم يكن يرغب في تبديد طاقة على مثل هذه الحركة ، فهو يحتاج الى كل طاقات ذراعه ليستخدمها في عمل واحد ، الا وهوانتشال جسده من بين هذا الركام ،لذلك عليه ان ينتزع اجرة بعد اجرةوان يدفع بها بهدوء جانبا،وهكذا دواليك حتى النهاية ، اجاءت هذه النهاية متمثلة في موته او في فقدانه لوعيه حتى ، لايعرف حتى ماذا . فهو يعلم بانه طالما يحس باختلاج الحياة في جسده، عليه أن يتابع صراعه ، ان يمد بذراعه الى جسده وان ينتزع اجره ثم يدفع بها جانبا .

حدثت كل هذه الامور في ليلة اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الاول، وكانت هذه الليلة ليلة مظلمة ممطرة ، وهي الليلة الثلاثون من الليالي التي مرت على عبوره وكتيبته الفولغا الى ستالينغراد .

- ١٤ -

كان كل مايحيط بسباروف هو السكينة ، وهذا اول ما لاحظه وشعر به . فلم يكن حديث الجرحى الهامس والممددين على الاسرة الى جانبيه ، او الانفاس المتقطعة للمتحضرين ، أو نقرات احذية الممرضات او خشخشة الاواني والاطباق الزجاجية ، اقول لم يكن كل هذا ليعكر عليه وعيه بالسكينة التي تخيم عليه . وربما نشأ هذا الواقع ، عن كون المكان المضطجع فيه مستشفى، والمستشفى يعج بالمناديل والملاءات والبزات البيضاء ، لذلك بدت السكينة نفسها لناظري سباروف واذنيه بيضاء ايضا . لقد حضنته السكينة حتى الان طيلة ايام ثمانية، وهذا ماجعل سباروف يعتقد بانه لن تكون لها نهاية ولن يعكر أي حادث او امر صفوها ، وقد تهاطل وراء نافذته ثلج ثقيل كثيف ، انه ثلج الخريف ، وهو ابيض اللون ايضا . اما جسده فكان لايزال يؤلمه ، لكنه ألم هاديء رقيق وليست آلامه بالالام النهاشة العضوض ، آلام الجرح الفاغر ، فآلامه ناجمة عن شيء ما يضغط عليه رقيقا هادئا . وهم يحضرون الجرحى ويخرجون بهم من هنا ، وكان احيانا يضج بالالم ، ولكن اذا اجتمع كل مافي المستشفى من ضوضاء وقورن بينهما وبين هدير ستالينغراد ودويها ، فان المستشفى سيبدو ساكنا صامتا صمت الموت وسكينته .

لقد قاموا هنا بتمريضه واطعامه وغسل جسده ، لكن سباروف هو على كل حال مجرد فرد من مجموعة الجرحى الذين يضمهم المستشفى ولم يخصه احد بمعاملة خاصة تميزه عن غيره من الضباط والجنود . لقد جيء به من الضفة الثانية عبر نهر الفولغا ، وكان جسده مهروسا مرضوضا ، نعم مهروسا بالمعنى الحرفي لكلمة مهروس ، وهو الان في حال افضل وصحته في تحسن مطرد مستمر ، وهذا ماتشهد به اللائحة البيانية المرضية المعلقة فوق سريره . ولكن لايعرف احد كيف انقذ وكيف جرت له تلك الاحداث وكيف استعاد وعيه وكيف بقي حيا ، فلقد سلمه بعض حمالي النقالات الى المستشفى وعندما سأل كيف جاء الى هنا لم يجبه الطبيب بغير هزة من يده وزمة من شفتيه ليردفهما قائلا:

ـ عد الى وحدتك وعندئذ ستعلم ، وكيف باستطاعتي ان اعلمك ؟

حاول سباروف عبثا ان يتذكر كيف وقعت له تلك الاحداث ،وهو لايستطيع ان يتذكر سوى خنقه لفاسيلييف ، وكيف اخذ بعدها ينتزع الاجر الذي يغطيه، وهو لايذكر شيئا غير هذين الامرين ، ولم تعد احاسيس الرعب والياس والالم الجسدي لتعذبه وتنهشه بانيابها طالما ان صحته في تحسن مطرد . ولكن مجرد تفكيره بان باستطاعة مثل هذه الحادثة ان تحدث كان امرا دائم التعذيب له . انه لاشك يعرف نظريا ان لكل حرب جواسيسها ، ومع معرفته بالجاسوسية والتجسس الا انه لم يكن قادرا على الاعتقاد الواعي بان مثل هذا العمل سيحدث على مقربة جد وثيقة منه وتحت سمعه وبصره . واين ؟! هنا في ستالينغراد حيث المخاطر لاتستثني احدا ولا يشذ عن اخطارها فرد ، بل يتساوى الجميع امام احتمالاتها ، وضرباتها ، نعم هنا بدا لسباروف ان الخيانة فكرة ووجودا هي امر لايقبل به واقع او عقل . وسباروف يستعيد الان الى ذاكرته احداث ذاك الشهر التي خاض غمراتها وهو يقاتل في ستالينغراد على راس كتيبته ، وهو يذكر جنوده ، ويذكر ان بعضهم كان مقداما شجاعا ، واخر كان اقل شجاعة واقداما ، وغيره كان هلعا ،واخرين كانوا خائفين ، لكن جميعهم كانوا يصدرون عن احساس نبيل واحد تعتلج به افئدتهم ، احساس جعلهم جميعا مستعدين استعدادا كاملا لافتداء ستالينغراد بارواحهم نعم افتداء هذه المدينة التي لم يسبق لمعظمهم ان عرفها او شاهدها من قبل ، لكن معرفته بان فاسيلييف كان ايضا معهم طيلة هذا الشهر ، تجعل الدم يتخثر في اوردته وشرايينه . ومع ان سباروف قد قتل فاسيلييف بيديه العاريتين وخنقه خنقا ، لكن هذا الواقع لم يستطع ان يحله من قيود ذهوله الدائم من ان شابا لم يتجاوز الثلاثين من عمره روسي المنبت والاصل ، شابا يماثله في كل مظاهره ، يستطيع انيقنع نفسه بالاقدام على مثل هذه الخيانة . انه يستطيع انيفهم الخيانة بعقله ، لكنهلايستطيع ابدا ان يفهمها بقلبه ، لذلك وجدته لايزال يفكر بفاسيلييف حائرا في امره ، وحتى عقب ان كتب تقريرا مطولا عنالحادثة ورفعه الى السلطات المختصة مؤملا في انيكون ذاك التقرير الخاتمة لتلك الواقعة التعيسة .

ولربما كانت السكينة المخيمة على المستشفى هي افضل علاج بالنسبة الى سباروف . ومع انه كان يحس بتحسن مطرد الا انه لم يكن يرغب في اي امر ان يعكر عليه تلك السكينة وصفو هدوئها ، فكل شيء يبدو له الان هادئا

وجميلا . فلقد توزعت ايامه في ستالينغراد الصرخات واصدار الاوامر والعدو والمشاجرات ولذلك فهو جد مسرور وسعيد الان لانه ليس مرغما على التفوه باية كلمة ، وهكذا نجح سباروف في ان يكون الجريح النموذجي في هدوئه ، لذلك تراه مضطجعا على سريره صامتا هادئا فهو لايرغب ابدا في ان ينبس ببنت شفة . وحتى في يومه الثامن لوجوده في المستشفى ، وحينما هرولت اليه آنيا بخطى خفيفة هادئة وهي تتسلل من بين الاسرة لتجلس بالقرب من قدميه، فانه لم يحس برغبة في التحدث ، بل انما اخذ يتطلع الى وجهها الجميل المتعب والى يديها الموسدتين على ركبتيها ، وعينيها اللتين جعلتاها تبدو كأنها قد عدت آلافا وآلافا من الفراسخ والاميال كي تصل اليه وتبلغه ومع هذا لم يكن يحس برغبة في الكلام وآنيا نفسها لم تتحدث في الدقيقة الاولى ، لكنها انفجرت عقبها بالحديث ، وكانت تتحدث عن كل امر وفي آن واحد . فاعلمته اولا عن قلق مسلنكوف لغيابه الطويل ، وكيف وجده ممددا على الارض فاقد الوعي تماما ومنطرحا في منتصف المسافة الفاصلة بين الخطوط الروسية وجثتي بتروف وفاسيلييف . ان سباروف لايذكر حتى الان كيف زحف حتى تلك البقعة ، وحتى عقب ان اعلمته آنيا بهذا الامر . ولا شك انه استطاع بصورة ما ان ينتزع جسده من اكوام الاجر وزحف باتجاه خطوطه . وقد بدا له شاذا وغريبا انه لايستطيع حتى آن يذكر هذه الواقعة . ثم اعلمته آنيا كيف جاءوا به الى الكتيبة وكيف رأته ممددا على النقالة فهرولت اليه . وعندما حدثته بهذا اخذت تتطلع اليه بنظرات واضحة هادئة ، شأنها في ذلك شأن اولئك الناس الذين يشعرون بانه ليس لديهم مايخفونه عن جلسائهم ، او مايخافون منه ، وهكذا وجدتها تقول :

ــ لقد رأيتك ممددا ، فرعبت اذ خشيت موتك ، فأقبلت عليك وبدأت اقبلك ، وعندئذ فتحت عينيك ، ثم اغمضتهما ثانية ، فاسترسلت في تقبيلك لكنك لم تفتح عينيك مرة اخرى .

ثم اخذت آنيا تصف له كيف حملته هي والحمال الى الضفة ، وكيف عبرت به نهر الفولغا في صندل ، وكيف اخذ الالمان باطلاق نيرانهم عليهم وذلك لان تباشير النهار كانت آنذاك قد غمرت الكون بالضياء .

ثم اردفت تقول :

ــ لقد اطلقوا نيرانهم وفق الطريقة ذاتها التي اطلقوها علينا في اول لقاء

لنا .. هل تذكر ؟

فاجاب سباروف :

ـ نعـم اذكـر

فردت آنيا :

ـ والحق انني ارتعبت شديد رعب ، وهذه هي أول مرة منذ طويل زمن احس فيها برعب وهلع ، وعندما كنا نعبر النهر قلت للحمال انينقلك ، وفي كل الظروف ، الى هذا المستشفى وذلك لانني استطيع الحضور آليه فيما بعد ، وطلبت ايضا ان يشملوك بكريم رعاية وبعناية خاصة ، ولكن على مايبدو انهـم نسوا تنفيذ رغبتي هذه ، بسبب اضطرارهم لان يكلأوا الجميع برعايتهم .

فسألها سباروف :

ـ لماذا لم تعوديني حتى اليوم ؟

فأجابت آنيا بصوت مذنب :

ـ أنت تعرف بانني لم استطع اناحضر قبل الان ، فلقد عبرت تلك الليلة النهر مرة اخرى ، وخيل الي انني سأعود تلك الليلة ذاتها ، لكنهم دمروا المعدية، ثم تدفق الجرحى علينا افواجا افواجا ، فكان علي ان ابقى هناك حتى ننقل اخر جريح منهم ، وقد استغرقني هذا العمل ستة ايام كاملة .. لكنك تشعر الان بتحسن .. أليس كذلك ؟

فأجابها سباروف :

ـ انني احسن حالا ، ولقد استقعدت هذا اليوم وحاولت حتى المشي .

خيم عليهما صمت قصير قطعته انيا لتقول :

ـ هل تعرف بان امي موجوده هي الاخرى هنا ؟

فاجابها سباروف قائلا بصوت من يستذكر حادثا غارقا في القدم وقال :

ـ لقد قلت لي هذا مرة ، أهي هنا في القرية ؟

ـ نعم انها هنا ولقد اعلمتها بأمرك ، وارادت ان تعودك اليوم لكنني جئـت وحيـدة .

ــ ماذا قلت لها عني ؟

ــ كل شيء .

فاهت آنيا « بكل شيء » هذه بنبرة استدل منها سباروف على انها لاشك قد تحدثت عنه مطولا وطويلا ، اما آنيا فاستطردت تقول :

ــ هل تعرف ؟!.. لقد حصلت على وسام ايضا .

فأجابها سباروف :

ــ لا ! اين هو ؟ هل تسلمته ؟ فلأره !

فكشفت مئزرها فراى سباروف وسام العلم الاحمر يتدلى من صدرها ، وكان وساما براقا لامعا جديدا لم تلطخه الاوحال بعد التي تلطخ وسامه ، فاخذت آنيا تخفض بناظريها لتتطلع اليه ، وراى سباروف وجهها يتألق سرورا ويشع فخرا فاتكأ على الوسادة رافعا جسده بمرفقيه فبادرته آنيا تقول وهي تضع كلتا راحتيها على كتفيه وتسنده في الوقت ذاته :

يا عزيزي !

وكررتها مثنى فامسك سباروف باحدى يديها وانزلها عن كتفه .وقبلها قبلة طويلة كادت تستغرق الزمان ، فتضرج خداها حياء لكنها لم تحاول استعادة يدها من شفتيه بل انما استرسلت في التحديق فيه منتشية العاطفة مسرورة الجنان وعاد سباروف ليردد ،« آنيا »على زفرات شعور متراكم الانفاس ، كثيف اللهفات، حار اللهثات ، شعور جعله مؤمنا واثقا من انه اذا لم يخبرها الان بحبه ، فانه لن يستطيع بعد ذهابه بدقائق معدودة ان يسيطر على نفسه ، بل انما سيتوجه الى اول ممرضة او طبيب او انسان يصادفه ليحدثه بحبه وغرامه ، لقد اراد ان يقول لها : آنيا « لولا الحرب فانني سآخذك فورا وبعيدا من هنا ولن اتركك تغيبين عن بصري لحظة واحدة ، ولكن فجأة اذ بانيا تبادره وتقول :

ــ لولا الحرب لما التقينا أليس كذلك ؟ طبعا

رددت آنيا كلمة طبعا بلهجة مشدودة النبرات اذ انها كانت تخشى الا يوافقها سباروف على ماتقول لكن سباروف اجاب :

ــ نعم ! لقد كنت انا نفسي اريد قول ماقلته الان . . . انك تحسنين تخمين

افكاري ، استخدم سباروف لاول مرة في خطابها هذه المرة ضمير المخاطب الذي يستعمله المحبون والاصدقاء حين مخاطبتهم بعضهم بعضا ، وقالت آنيا تجيبه وهي لاتزال تحدق في عينيه :

ـ انني اعرف ماذا سأفعل لقد اعطوني هذا اليوم اجازة ، نعم اجـــازة تستغرق كامل يومنا هذا .. انني سآخذك ...

ما كادت آنيا تبلغ هذا الحد من خطابها ، حتى تلعثمت وتهدج صوتها ، اذ انها لاحظت فجأة كيف توجه يشير اليها بضمير المخاطب المألوف بين المحبين والاصدقاء ، وادركت الحقيقة التي جعلته يخاطبها مستخدما هذا « الضمير » وأحست بدورها برغبــة في مخاطبته بالاسلوب ذاته ، لكن وجهــه اللاحليق والغضون التي شقتها ايام المرض في وجنتيه جعلته يبدو انسانا يكاد يلامس الشيخوخة ، لذلك لم تجرؤ على تنفيذ ما اعتزمته بل انما عادت لتكرر :

ـ سآخذك من هنــا

فأجابها :

ـ تأخذينني من هنا ؟! الى اين ؟

فردت :

ـ الى امي ! فعندنا ، وبيننا ستشفى سريعا ، ولا اظن انك تمــانع فــي انتقالك الآن فورا الينا ، ان امي سترعاك ، وسأعتني بك عندما اكون في البيت وسأغادركما كل مساء ، اذ انني سأنقل الجرحى ليلا ، لكنني سأعتني بك نهارا فقاطعها سباروف مبتسما :

ـ ولكن متى ستنامين ؟

فأجابته :

ـ فيما بعد ... أي عندما تشفى تماما .

لقد ارادت ان تسأله عما اذا كان يجهل بانها لا تستطيع الى النوم ســبيلا وهو على مقربة منها ، وارادت ان تستفسر منه بصورة عامة عــما اذا كان لا يستطيع ان يدرك اي سرور يوفره قربه اليها ، وكونـه مغرمــا بهــا ، لكنها لم تقل كل هذا بل انمــا انتزعت نفسها من سريره وتراجعت خطوة واحدة نحو

الباب ، ثم عادت لتعتصر شفتيه بقبلة ، قبلة طفل شاذة غريبة ، ولتفر بعدها خارجا .

ترقب سباروف ، اثر هذا المشهد ان يسمع نوعا من تعليق او يرى شكلا لابتسامة على شفاه الجرحى الممددين حوله على الاسرة المحيطة بسريره ، لذلك بدأ يجول بناظريه في انحاء عنبر المستشفى جولات مصارع ، لكن لم ير ايا من الجرحى يبتسم او يضحك ، بل شاهد ملازما اولا مبتور الساق ويضطجع الى جانبه ، يتجه نحو بناظريه ليقابل حملقته بابتسامة جميلة مشعة جعلت سباروف يردها له على صورة افضل واجمل ، فما كان من الملازم الاول الا ان قال :

ــ هل تعلم بانه لمن الصعب جدا ان تفقد كل شيء في العالم ، ان تفقد اكثر من اي انسان اخر، نعم ان تفقد اكثر من اي انسان اخر ، فهو امر في واقعه شاق وعضوض .

ــ نعم !

بهذا اجاب سباروف وهو يفكر بان جاره سيحدثه الان عن كيفية بتر ساقه ، ورأى ان من الواجب عليه ان يختار بعض كلمات تلطف من آلامه وتشيع بعض عزاء في قلبه ، لكن ما الذي يستطيع قوله ؟ غير ان الملازم انقذه من ورطته هذه إذ قال وهو يشير الى ساقه المبتورة .

ــ انني لا افكر بهذه، فانا مترجم ، وبتر ساقي لن يؤثر على عملي ، ومن يدري فقد استطيع ان اتابع نوعا من قتال ، فأقوم بوظيفة ما في رئاسة الاركان لكنني اعني شيئا اخر . قتلت في مدينة منسك زوجتي وصرعت ابنتي ايضا ، وبهذا أتت الحرب على كل من لي ، ولكن هذا الشيء حل ايضا بالكثيرين غيري، نعم بالكثيرين غيري ، وانني لا اعني هذا الامر ايضا ، فلقد سلبوني شيئا اخر بنيت عليه كل آمالي طيلة الخمس عشرة سنة الماضية ، ما الذي كان هذا الشيء ؟

قال هذا واردفه بضحكة مبتسرة غير ان سباروف لم يجب على سؤاله بل انما انتظر صامتا جاره ليسترسل في حديثه ، فاستطرد الملازم يقول :

ــ لقد امضيت كل سني المراهقة وجزءا من سني شبابي لاكتب نوعا جديدا من تاريخ المانيا . . . كلا لا اريد الان حتى ان اتحدث عنه ، لا اريد

ان اتحدث عما كتبت وعمـاعملتفي هذا المضمـار ، ولا اريد ان احدد الاجـزاء الخاطئة منه والاجزاء المعيبة ، فالله وحده هو العليم ، لكنني اعرف امرا واحدا وهو انني لناستطيع ثانية ان اعود اليمحاولة انجاز ما انتويت انجازه فيما مضى فلن استطيع ان اواظب على كتابة تاريخهم ،ودراسته ، نعم لن اتمكن من هـذا الامر بعد كل ما رايت منهم ومن فقدت .. لن استطيعه لا اريده ، وانا افضل ان الجا عقب الحرب الى ملجأ لمشوهيها ، او ان ابيع الجعة وراء البار على ان اتذكر انني كنت فيما مضى أحاول ان اكتب تاريخا لهم ، فليذهب تاريخـهم الى الجحيم ، وربما قام بكتابته اخرون غيري ، لكنني لا اريد ان اكون الشخص الذي يكتبه .. هل تعي ما اقول؟

فأجابه سباروف :

ــ نعم انني افهم ما تقوله .

وسرعان ما اجابه اللازم عقب ان تنهد وأعاد رأسه بهدوء الى وسادته وقال:

ــ انك ستعود الى سابق حالك ،وستجري الامور وفق ما تشتهي وتريد، وهي سترجع اليك فورا ، ولا تغضب مني اذا لمست في شيئا من وقاحة وذلك حينما كنت ارقبكما عـن كثب عندما كانت تجلس هنا ، فهـذا امر مشـروع بالنسبة الي الان . وفجأة ضرب اللازم غطاء السرير بيده على الموضع المفترض ان تكون ممددة فيه ساقه لو لم تبتر وانطلق لسانه بشتائم فظة غير مرتقبة ، ثم اغمض عينيه واستدار بوجهه عنه وعاد الى ضجعته الهادئة وهو يطبق اجفانه على حدقيتها بشدة وقسوة . وقد اطبق سباروف عينيه ايضا ، اذ بدا انـه اسهل عليه ان ينتظر عودة « آنيا » وهو مغمض العينين .

اخذ سباروف يفكر بعودة «آنيا» تفكيرا لجوجا ملحاحا وحتى عنيدا، تفكيرا لا يعرف له حدودا او نهاية . وكـان في الوقت ذاته يفكر بهذا الانسان الذي يضطجع الى جانبه ، فأحس ولاول مرة في هذه الحرب ، بحدة الشفقة التـي تجتاح انسانا ما حينما يشاهد آخر تعيسا ، وبالرغم من ان الحزن المألوف لدى الناس الاخرين كان لا يزال بعيدا عن نفسه بعده السابق ، الا ان سبـاروف شعر بأسى مقبض وحزن عضوض يجتاحان فجأة مشاعره ،وأحاسيسه ، ولكن ما الذي يستطيع قوله ؟ لا شيء، فهو اذا ما فاه ببعض الكلمات الحانية فان هذا الرجل الممدد الى جانبه لن يصدقه ، فسباروف يحس بأن وجهه يتألق غبطة ويشع سرورا .

وفي الدقيقة ذاتها التي كان فيهـــا سباروف يضطجع مغمض العينين ومفكرا « بآنيا » كانت « آنيا » تقف امام الطبيب في غرفة صغيرة تقع فـي الطابق الارضي من بنـــاء المدرسة التي حولت الى مستشفى . وكان رئيس الاطباء لا يشذ عن غيره من الجراحين في طبيعته الساخرة . وهذا الطبيب كان رجلا ضئيل الحجم ، شديد البنية مترهل الجسد تقريبا ، وضاء المحيا احمر الوجه ، ذا حاجبين وشاربين شديدة السواد الى درجة يخال معهـــا انها قد رسمت على جبينه وفوق شفته بقلم من فحم . والحق انه كان جراحا ماهرا ، ولقد انقذ حياة الكثيرين من الجرحى ، ولكنه مع هذا كان يؤمن بـان واجبه يحتم عليه ان يعلن في كل مناسبة عن انه يشك شكا عميقا في كـل علوم الطب . وكان يقوم بعملياته ببرودة الدارس البحاثة ، ويتحدث عن السيقان والاذرع المبتورة مازحا ضاحكا ، ويعشق النكات ذات الحافتين ، وحتى في محضر من النساء . لكنه كان في الواقع رجلا مرهف الحس وذا طبيعة يلجمها الحيـاء باصبـع مـن أصابعـه . لكـن آنيـا لم تكـن تعـلم بحيـائه هذا ، لذلـك بدأ لهـا رئيس الاطباء الذي عرفتـه وعملت معـه منـذ طويل زمن ، واستمعت في كثير من الاحيـان الى نكـاته ، انه هو اخر من يسـتطيع ان يصغي اليها ويفهم ما ترغبه في قوله ، لذلك حالما اقتحمت عليه غرفتـه مقدامة غير هيابة ، احالت راحتيها الى قبضتين عازمة وطيد العزم على الانفجار بما تريد قوله ، وكانت قد حزمت امرها على الا تسمح له باهانتها او اهـانة سباروف وقبل كل شيء ، اهانة هذه السعادة الجديدة التي دخلت حياتها وغمرتها بأجمل الاحاسيس ، لهذا فانها ما كادت تبلغ عتبة الغرفة حتى انطلقت تقول :

ــ نقولاي بتروفيتش : أريد ان اسألك صنيعا . فأجابهـا الجراح وهـو يبتسم ابتسامته المألوفة :

ــ آمل الا يكون ما تطلبينه مني بتر عضو ما ، فلأسفي الشديد ، ان مثل هذا الصنيع ، هو ما يطلب مني في هذه الايام ، هل تريدين صنيعا من هـذا النـــوع ؟

فأجـــابته :

ــ كلا ! هنا ... نقيب معين ... النقيب سباروف .

ــ سباروف ؟ نعم أنني اذكره ، واذكر رضوضه جيدا .

فردت آنيـــا :

ــ ان حالته في تحسن مطرد .

ــ هذا ما تقولينه امر جد محتمل ، وانا سعيد لسماعه ، حسنا : ماذا تريدين .

ــ ان والدتي تعيش هنافي هذه القرية .

ــ وانني سعيد لسماع هذا النبأ ايضا ، ولكن ما علاقة اقامة امك هنـــا بسباروف ؟

فتطلعت آنيـــا وقالت :

ــ انني أرجوك ... انني ارغب في ان انقل سباروف الى بيتنا طالـما هو يجتاز فترة النقـــاهة .

تطلع الطبيب اليها فالفى عينيها تشعان بضياء غريب ، وتتوسلان اليـــه ، لا بل تطالبانه بالاستجابة الى رجائها برقة بالغة اضطرت الطبيب الرئيس الذي كانت احدى نكاته المألوفة تتأرجح على حافة لسانه ان يضبط نفسه ويسألهـــا بصوت جاد النبرة ويقول :

ــ لمـــاذا ؟

فأجابته :

ــ اريد ان انقله الى منزلنا ... ارجوك فهناك افضل له من هنا .

لمـــاذا ؟

فردت عليه آنيا بصوت عنيد اللهجة :

ــ هناك افضل له ...

ــ لكــن هل هو قريب لـــك ؟

فأجابت بلهجة يائسة عبرت فيها عن استعدادها لاستخدام اية كلمة قد يرغمها الطبيب على استخدامها ، وللاعتراف بأي امر يضطرها اليه فقـالت :

ــ كلا لكنه ... انه هام جدا بالنسبة الي ، وانا لا استطيع العيش دونه،

واريد ان اكون معه . فكر رئيس الاطباء مليا ، لكنه يرى ان طبيعة الاشياء تستوجب وقوع بعض الحادثات العاطفية بين ممرضاته ومضمديه ، وبينهن وبين الجرحى الذين هم في دور النقاهة ، وقد شاهد مثل هذه الحادثات من قبل ، ولم يحاول ابدا ان يمنعها او يحرمها على من يعملون تحت آمرته ، اللهم الا الاحتفاظ لنفسه بحق التندر بهذه الاسرار الصغيرة ، ومع ان تندره لم يكن تندرا مسموم الاسلوب قذره ، الا انه كان يطفح احيانا بالفظاظة آن لم نقل بالسماجة . لكن طلب « آنيا » هذا ، كان جديدا عليه كل جدة ، فهذه هي اول مرة يتقدم منه انسان ما بمثل هذا الطلب الصريح المباشر ، وفجأة تذكر شيئا ما بعيدا عنه زمانا ومكانا ، شيئا ما خلفه وراءه في مدينة « اركوتسك » . ففي هذه المدينة كان يقوم منزله واطفاله وزوجته التي احبها بدقة بالغة منذ ان كان طالبا . وفيها مواضيع يفضل الا يتحدث مع اي انسان عنها ، لكن لهجة آنيا ، ومفاجأته بهذا الموضوع ، واكثر من هذا كله ، نظرات المرضة ، المتوسلة اليه، وما تشع به عيناها من رجاء وحشي ، كل هذه الامور قد ازعجته الى حد جعله يشعر كأنه يقف الان وراء طاولة العمليات ويقوم باجراء عملية صعبة خطيرة .

لقد كان يحس بان عليه ان يبت في مصير كائنين انسانيين ، وهذا امر جلي وواضح ، لذلك وجد من المستحيل عليه ان يقول مثلا : « لننتظر كي نرى كيف تتطور احواله » او«ان ما تطلبينه هو امر مخالف للقانون والتعليمات كما تعلمين » او « ان علي ان افكر في الامر » ، والحق ان جملة واحدة من هذه لم تراود خاطره ، اذ كان يعرف بانه سيجيب بلا او بنعم ، وهكذا وجدته يجيب :

ــ لا بأس : فيمكنك ان تنقليه الى منزلك .

جاء الحديث الذي دار بينهما قصيرا على غير ما كان متوقعا له ، وفي الواقع لم يكن لدى الطبيب او « آنيا » من شيء آخر يقولانه ، وخاصة آنيا التي كانت تعد نفسها اعدادا قويا لتلقي صدمة رفض الطبيب ، ولذلك جعلتها موافقة الطبيب على طلبها تقف لمدة نصف دقيقة مرتبكة حائرة صامتة ، ثم تغادر الغرفة اثرها حتى دون ان توجه اليه كلمة من شكر . وعقب ساعة من الزمن نقل سباروف الى الطرف الثاني من القرية ، وقد نقلته سيارة رئيس الاطباء الصغيرة الى مستعمرة تتألف من بيوت صغيرة وتقع على حافة الماء ،

وكان يمر بالقرب من احد البيوت جدول من الجداول المتفرعة عن الفولغا، وامتد من الجدول الى المنزل صفان من اشجار الصفصاف ، وقد بدت المياه والكوخ الريفي الصغير النامي من الارض لسباروف هادئا هدوء المستشفى وصامتا صمته . وكان الكوخ المقسم الى قسمين هادئا ايضا ، وكان الذباب يودع اواخر ايام صيفه بطنين رتيب ، وقد تنحى الطفل الصغير الذي قابلهما عند مدخل الكوخ عن طريقهما بهدوء ايضا ، .وشاهد سباروف الامرأتين اللتين تجلسان الى المائدة واللتين تجاوزتا سن الشباب صامتتين ايضا ، وكانت كل .واحدة منهما تستر رأسها بمنديل اسود ، وكانت احداهما صاحبة الكوخ ، اما الاخرى فانها والدة آنيا . وهكذا استمر هذا الاحساس بالصمت والهدوء الذي غمر سباروف بسكينته منذ أن حل في المستشفى يهدهده بوداعته دون انقطاع وذلك طيلة الايام العشرة التي كان سيقضيها هنا . وعندما دخل الغرفة وراء آنيا ، انحنت المرأة صاحبة الكوخ له باحترام وقالت :

ـ اهلا بك .

اما والدة « آنيا » فانها رفعت اولا يديها الى العلاء ثم قالت :

ـ يا الهي !

واردفت :

ـ كم غيرت الايام منك !؟

وعقب أن قالت كل هذا فطنت لتسأله :

ـ كيف حالك ؟

وضع حمالا النقالة سباروف على مقعد مستطيل وضع وراء المائدة ووقفا ينظران اليه منتظرين أوامره لكنه بادرهما قائلا :

ـ لا بأس عليكما ! انني استطيع ان أصل سريري بنفسي ، فباستطاعتكما ان تذهبا .

فغادر الحمالان الكوخ وانسحبت المرأة الى الجزء المخصص لها منه، واحس سباروف لاول مرة منذ عديد سنين بأن الاقدار قد القت به اخيرا بين عائلة قد عرفها منذ طويل زمن ، عائلة تغمره بدفء حنانها وحنوها . فجلس على

المقعد المستطيل الى جانب النافذة المفتوحة التي حملت اليه نفسات الجدول المنعشة ورائحة اوراق الخريف الزهية وسألته « آنيا » قائلة :

ـ الا تخشى ان تصاب ببرد ؟ هل استطيع اغلاق النافذة ؟

فأجابها سباروف وهو يتعمد مخاطبتها بضمير المخاطب الذي يستعمله الاصدقاء والاحباب وقال :

ـ كلا لن اصاب ببرد ، ماذا تعنين ؟

فخطت «آنيا» الى سرير ضخم عريض وضع بجانب مدفأة روسية ضخمة قسمت الكوخ الصغير الى نصفين ، واخذت تفرش الفراش بالملاءات والحرامات وتزغب الوسائد . لقد كانت تقوم بالعمل ذاته الذي كان المرضات يقمن به كل يوم في المستشفى ، لكن « آنيا » تبدو الان لناظري سباروف انها تقوم بعملها ببراعة خاصة ومهارة غير مألوفة ، لذلك بقي مركزا نظراته عليها واحس بنوع من اسف حينما بادرته تقول :

ـ لقد انتهينا الان من كل عمل ...

فأجابها سباروف :

ـ سأنتقل الى السرير خلال دقيقة ... فلتنتظري !

كانت والدة « آنيا » تجلس الى المائدة قبالته تقريبا ، وقد استنتج سباروف من نظراتها وطريقة تطلعها اليه ان حديثا قد دار عنه بين الأم وابنتها، فوالدة « آنيا » ترمقه الان بنظرات تختلف تماما عن النظرات التي الفها منها في قرية « التونسكايا » . وهي تجلس هذه اللحظة صامتة ، وقد دلت ملامحها على ان حزنا شديدا يثقل عليها ، لكن عينيها كانتا صافيتين هادئتين. فلقد سبق لها ان رات كل شيء ، وان كل شيء ليستقر الان في اعمق اعماق فؤادها ، بعد ان عمل فيه وعيها سبرا وغورا ، وهي لذلك تترقب الخاتمة له. وبادرها سباروف يقول عقب فترة قصيرة من صمت :

ـ حسنا ! ان حالنا هنا لافضل من حالنا في قرية « التنسكايا » .

فأجابته موافقة وقائلة :

ـ أفضل ، لقد ذهبت بألبابنا الاحداث آنذاك ، ولقد استطعت احتمالها

جميعا ، ما عدا فراقي لابنتي ، وهذا كان السبب الذي حملني طيلة الطريق الى « التنسكايا » . وهل تعرف ان زوجة اخي كانت تقيم هنا كل هذه المدة . طبعا ان هذا المكان لا فضل من تلك القرية ، ولا يوجد أي وجه للمقارنة بينهما . ليت شمل عائلتنا يجتمع تحت هذا السقف ! ثم اردفت تقول وهي تتأمل في وجه سباروف :

ـ لكنك قد نحلت .

وأحس سباروف بأنها كانت ترغب في ان تستعيض عن جملتها الآنفة الذكر بقولها ان الايام قد خطت بسنك بعيدا ، وعادت تكرر :

ـ نعم قد نحلت .

ثم ارتفعت بناظريها الى « آنيا » التي كانت تجلس صامتة الى المائدة قبالتها ورمقتها بنظرة سريعة فهم منها سباروف بان الام تتساءل في قرارة نفسها كيف يمكن لسباروف وآنيا ان يتعايشا في وفاق وود وهو الرجل المتقدم في السن ، وهي الفتاة الغضة الاهاب الطرية الشباب ، وشعر سباروف برغبة عرمة في ان يقول لها بان ليس له من العمر ما تظنه ، لكنه بقي مطبق الشفتين صامتا . واسترسلت الام في حديثها وهي تشير الى آنيا وتقول :

ـ انها في حركة دائمة ، انها دائمة الحركة ، وهي تعبر النهر خمس مرات او ستا كل يوم ، متى ستنتهي من كل هذا ؟

قالت الام هذا ثم انتصبت واقفة على قدميها وربطت طرفي منديلها حول ذقنها واتجهت الى الباب فسارعت « آنيا » تصيح بها :

ـ اماه ! اماه ! فلتنتظري دقيقة واحدة ! ولتساعديني على نقل الكسي ايفانوفيتش الى سريره .

فاحتج سباروف :

ـ انني استطيع أن اقصد سريري بنفسي .

قال هذا وجاهد لاعتصار قواه وحاول ان ينتصب على قدميه لكن سرعان ما ادركته آنيا وامها فاتكأ على كتفيهما وعرج الى سريره ، وأحس بأن ساقيه لا تزالان تؤلمانه شديد الالم ، وكان باستطاعته ان يرتكز على احدى

ساقيه ، اما الاخرى فكانت تتهاوى تحت ثقل جسده وهي تضج بالم بالغ. وعندما بلغ السرير تمدد عليـــه ثم شعر بان عليه آن يمسح العرقعن جبهته وخرجت الام من الغرفة ، وتناولت « آنيا » مقعدا وجلست عليه بالقرب منــه وبادرها سباروف سائلا :

ـ حسنـــا ؟

فأجابته آنيا على سؤاله بسؤال آخر وقالت :

ـ هل انت على ما يرام ؟

فمد سباروف بيديه اليها ، فأمسكت بهما وجلست تحدق فيه مــدة طويلة كانت تميل اثناءها بجسدها آنا نحوه وحينا عنه ، وفجأة توقفت عــن الترنح من على مقعدها لتسأله مذعورة :

ـ الا تؤلمك ذراعك ؟

ـ كلا ! ابدا

فبدأت تترنح ثانية برفق وترمقه بنظرات بحاثة وتتفحص كل ملمح مــن ملامح وجهه . فهذا هو رجلها ، وملكها الذي لا يشاركها فيه احد ، وها هــو موجود الان في بيتها ، وان لم يكن البيت في الواقع بيتها ، وحتى لو عادت غدا الى ستالينغراد ، وعاد هو الى المدينة ذاتها عقب بضعة ايام ايضا ، فانهـــا تمسك الان به بيديها وتحدق في عينيه ، وهذا آمر لم يكن واردا على بـــال او خاطر ، ومع ذلك فانه امر قد ترقبته بحار شوق ونفاذ صبر منذ زمن غارق في قدمه ، وهو والحق لامر رائع بديع ، اغرورقت لتحققه عيناهـــا بالدمع ، فسألها سباروف :

ـ ما بك ؟ ماذا دهاك ؟

فأجابته دون ان تطلق يديه وقالت وهي تجفف دموعها على كتفه :

ـ لا شيء ! انني فقط سعيدة حتى الرعب .

ثم نهضت عن مقعدها وجلست على السرير الى جانبه ودفعت وجههـــا في صدره واعولت بالبكاء .

بكت « آنيا » لفترة طويلة ، واخيرا رفعت راسهـــا وابتسمت ، وعادت

لتضغط بوجهها على صدره .

كانت « آنيا » تبكي ، لانها تذكرت كيف عبرا معا نهر الفولغا لاول مرة ، وكيف جرحت ، والالام التي سببها جرحها ، وكيف قبلهـــا آنذاك ، وكيف استثارت تلك القبلة كل أحاسيسها ، وتذكرت المدة الطويلة التي لم تره فيها ، وذكرت حالته الراعبة عندما عثر عليه جنوده ، وتذكرت آخيرا كيف انهـــا لم تستطع ان تراه طيلة الايام الثمانية التي اعقبت نقله الى المستشفى . اما سباروف فكان في هذه الاثناء يتأمل شعرها ويسبح بأصابعه في خصلة ويمر براحته عليه ثم ضغط عليها بكلتا ساعـديه دون ان ينبس ببنت شفة ، لكـن سرعان ما سمع خطى تقترب نحوه فاستدار بوجهه ليرى امها تدخل الغرفـة عليهما ، فأتى بحركة آلية حاول فيها ان يحرر « آنيا » من ذراعيه ، لكـــن « آنيا » لم تتجاوب وحركته ، بل انما استرسلت في الانضغاط عليه والاندماج فيه ، واخيرا رفعت راسها فشاهدت امها فابتسمت وعادت لتزيد في انضغاطها انضغاطا وفي اندماجها اندماجا ، وفي هذه اللحظة بالذات احس سباروف بشعور يقول له بان ما بينه وبين « آنيا » سيبقى قائما ثابتا لن تبدل فيه نزوة ، ولن تذهب به حادثة او مصادفة .

مر اليوم كأنه الحلم ، وكانت والدة « آنيا » تدخل وتخرج وهي تعـــد العشاء ، وكانت تفتعل المشاغل لتنهمك فيها كيلا تزعج « الاطفال » وتحـــاول في كل نظرة من نظراتها ان تشعر العاشقين ، بانها لا تريد لاي شيء ان يعكر صفوهما ، وخيل الى سباروف انه يستطيع ان يرى كلمة « الاطفال » مرتسمة على شفتيها ، وبدا له شاذا غريبا ان تكون هناك اية امرأة غير امه يستطيع ان يتقبل منها وبسرور نعته بالطفل . وبالرغم من المجهودات التي بذلها لابقاء « انيـــا » الى جانبه ، الا انهـــا هرولت الى المستشفى لتعود ببعض الفودكـــا . فلقد وطدت العزم على انه يجب ان يتناول جرعة من الفودكا قبل العشاء ، وحتى لو كانت تلك الجرعة جرعة جد ضنينة ، فهي تريد لكل شيء ان يكون كما يجب له ان يكون . لكنها عادت بزجاجة مملوءة بالكحول الطبية ، ففتحتها وخففت الكحول بالماء وهي تنقل ناظريها بين الزجاجة وبينه . وقد ملأت كل تفاصيل ذهابها وهرولتها الى المستشفى ومزجها الكحول بالماء ، وتنقيل ناظريها ، فؤاد سباروف برقة خاصة عليها. وعندما ازاحت المائدة لتلاصق سريره ، خرجت آنيا لتستدعي جارتهما في الكوخ وجرتهـــا الى داخل الغرفة جرا ، وقبل ان

تجلس المراة العجوز الى المائدة صافحت بكأسها كأس سباروف وابتلعت مـــا فيها دون ان تقطب وجها أو ترتعش لها خلجة ، شأنها في ذلك شأن جميع النساء الريفيات اللواتي يشربن ويعشن طويلا ، وعقب ان افرغت العجوز كأسها خرجت فانطلقت « آنيا » تحدث سباروف بسرعة مذهلة ، سرعة تعرض العنق للكسر ، عن كل شاردة وواردة في حياتها ، فحدثته عن نفسها ، وعن ابيهـــا واخوتها واولادهم ، وعن طراز حياتهم فيما مضى ، وزبدة القول حدثته فجأة ودفعة واحدة عن كل امر يحدث العاشق عشيقه عنه . اما سباروف فانه اتكأ طيلة حديثها على ذراعه السليمة وترك لها الحرية في ان تتحدث وتغمره بسيول ثرثرتها ، اذ انه كان يفكر في ذاك المستقبل الذي سيضع حدا لهذا الحذاء الذي تنتعله ، ولحملها للنقالات ، ومرافقتها للجرحى عبر نهر الفولغا .
عندئذ سيذهبان معا ، ولكن آلى اين ؟ كيف له ان يعرف ؟ ان كل ما يعرفـــه بانه سيلقى الراحة والسرور معها ، اما ما سيحدث عقب بضعة ايام ، وعندما يعود الى ستالينغراد ، فان هذا لم يكن له في ذهن سباروف سوى خاطر عابر طارىء . فهو كما يرى ان كل شيء سيتدبر امر نفسه على خير وجه ، وانه ربما كان باستطاعته ان يتدبر حتى امر الحاق « آنيا » بكتيبته ، وما عليـــه الا ان يحدث بروتسنكو عنه ، وهو لا يزال يذكر وجـه بروتسنكو الذكي ذي الطبع الخير وأن بروتسنكو كان لا شك سيحضر حفل زفافه لو ان الايام كانت غير هذه الايام ، وعندما اقتحم الزفاف على سباروف خاطره ابتسم ، فلحظت آنيا ابتسامته فسارعت تسأله وهي لا تجد صعوبة تذكر في استعمال ضمير المخاطب للصديق او المحب وتقول :

ـ مم تبتسم ؟ ولماذا ؟

فاجابها سباروف :

ـ لقـد خطر لي خاطر ...

ـ أي نوع من الخواطر ؟

ـ سأخبرك به فيما بعد ... لا تغضبي ... أموافقة ؟!

ـ حسنـا ! لا بأس .

عاد سباروف ليفكر بالزفاف ، وتذكر خندقه ، وخيل اليه اللحظة كأنـه يعود اليه ويجلس فيه و « آنيا » وراء مكتبه ، ورأى بعين الخيال اولئك الذين

سيجلسون بالقرب منهما ، وهم ، مسلنكوف وفانين وربمـــا بطابوف ايضا ، وتخيل وجوه هؤلاء وهم يشهدون « آنيا » تجلس الى جانبه ، وفجأة اخــذ يتساءل عما اذا كان الخندق لا يزال على حاله التي تركه عليها ، وكيف يقــوم رفاقه بواجباتهم دونه .

انتهوا من تناول الطعام وأخذت الام تنظف المائدة ، وجلست « انيــا » على السرير بالقرب من سباروف ، وجاءت الجارة بتفاحة كبيرة ، والتهموا هذه التفاحة ، بالطريقة ذاتها التي التهمها وفقها عشرات الالاف من الاخرين قبلهم، اذ انهم اخذوا يأكلونها معا ، فيتناوبون نهشها ، وكان كل واحد منهم يحاول ان تكون نهشته آصغر مغنما من نهشة غيره ، كي يترك لرفيقه السهم الاكبــر منها ، وفجأة قفزت « آنيا » من على السرير وبادرت امها :

ــ أماه ! فلتقراي لنا طوالعنا !

فرفضت الام اولا ، لكنها استجابت اخيرا لالحاح « آنيا » فازاحوا المائدة ثانية الى مقربة من السرية ، واستهلت ام « آنيا » نبوآتها ، كما يستهلها غيرها، اذ قالت بانها لم تقرأ طالع احد من الناس منذ زمن طويل ، وما فائدة قراءةالطالع على كل حال ، طالما انهم اناس لا يؤمنون بمثل هذه الامور ، لكنها بدأت اخــيرا تستقرىء ورق اللعب . ولم يستطع سباروف ان يفهم لماذ تعني الستة السوداء سفرة طويلة ، او « الاس » السباتي وظيفة حكومية ، او لماذا اذ وقعت البنت البستوني علي العشرة السوداء ، يكون هذا فألا غير مرغوب فيه ، او اذا تتابع الشباب آلاربعة فان هذا يعني السعادة . ومع ذلك فان سباروف كان يعجب بالثقة والجدية اللتين تطبعان قراء الطالع حينمـــا يدرسون الورق . وكانت « آنيا » تراقب بدورها يدي امها وهي تعمل في الورق توزيعا وخلطا ، ولمـــا كان قد بدا المستقبل هذا اليوم « لآنيا » واضحـــا نقيـــا كالبلور ، لذلك فانها استطاعت وسباروف آن تعلل ما قالته امهـــا ، فالسفرة الطويلة تعني عبور الفولغا ، اما الوظيفة الحكومية فهي خندق سباروف ، وعندما انطبقت بنت السباتي على « الشايب » الديناري فهم الجميع ان لسباروف هوى في سيدة تعمل في الصليب الاحمر ، وهذه السيدة هي آنيا بكل تأكيد ، بالرغم من كونها بيضاء اللون لا حنطيته ، ولما كانت « آنيا » طالبة طب ، فهي آذن السيدة التي تعمل في الصليب الاحمر . وقد اضحكهم هذا التعليل ، وجعلهم يسترسلون في الضحك حتى احست الام بأنه قد اسيء اليها ، او ربما احست بالملل من

قراءة الطالع فتوقفت عن استقراء ورقها ، وقامت وعلقت اكياسا على النوافذ كما جرت العادة في ايام الحرب في الريف .

اضطجع سباروف الذي انهكه الحديث والجلوس الطويلان على وسادته وتناولت « آنيا » فروة ووسادة وبدأت تعد لها فراشا على المقعد المستطيل ، ودخلت الام الغرفة عليهما مرتين او ثلاثا لتفتش لها عن بعض حوائج ، ثم خرجت اخيرا لتنام ، واقتربت « آنيا » من سباروف وركعت امام سريره وعانقته عناقا حارا واخذت تصغي الى خفقان قلبه وقالت هامسة ، «انه يخفق» كأن في هذا الامر عجبا او جمالا ، لكن الجمال ، كان ذاك الصمت الذي يلفهما بين طيات سكونه ، فالام قد ذهبت ، وهما وحيدان في الغرفة ، واهم من هذا كله هو انهما سيكونان الان معا مدة طويلة ، سيبقيان سوية ، اليوم وغدا والى الابـــد .

بقيت « آنيا » راكعة ، وهي تغمره بقبلاتها ، واقتربت منه دون حياء او خجل اوثق فاوثق ، واحس سباروف بانها تتردى في شباك الهوى لاول مـرة وبان عشقها البكر هذا مكرس كله له ، وبان غرامها غرام جبـار اكتسح كـل خوف وحياء وارتباك .

دنت منه اقرب فاقرب ، وجلست الى جانبه ، وعادت تعانقه ، وتندمج فيه ، فضغط عليها الى صدره بشدة جعلته يحس بالالم ، لكن هذا الالم ما كان الا ليزيد في سروره نشوة وفي غبطته انتشاء ، فالالم نفسه جعله يشعر بـانه اقرب اليها من اي وقت مضى ، وبادرته « آنيا » :

ـــ هل تعلم ؟! ان قلبي يخفق بالشدة ذاتها التي يخفق بها قلبك ، هيا أصغ اليـــه !

قال هذا وانبطحت نحوه كي تسمعه خفقان قلبها . ان الفتاة الصريحة الجرأة ، الجريئة الصراحة ، والبسيطة في براءتها والتي لا تفكر بأي شيء اخر ، هي وحدها التي تستطيع ان تقول ، « هيا اصغ الى خفقان قلبي » ، وهذه المقدمات انتهت الى تلك النتيجة ، وقد همست « آنيا » في اذن سبـاروف بكلمات بسيطة صادقة ، فعرف ثانية مدى حبه لها ، وعرف بانه يفضل قطـــع يده على الحاق الاذى بها ، لكنه لا يؤذيها الآن او يسيء اليها ، وقبلاته او عناقه الضاغط ، هو خير دليل وبرهان على هذا .

- ١٥ -

وفي صباح اليوم التالي ايقظ ازيز « السماور » سباروف ، وبدا لـــه غريبا ان يجول بناظريه في الغرفة ويرى الام منهمكة في اعداد المائدة كان شيئا لم يحدث ابدا ، وشاهد آنيا تهرول آلى الغرفة من ممر المدخل حيث ترامى اليه صوت رشيش الماء وتبادره سائلة :

ـ هل استيقظته ؟ سأحضر اليك فورا .

ثم اخذت تقصر شعرهـــا الطويل المبلل وتجدله كمـا فعلت يوم كانت وسباروف تعبر الفولغا على المعدية للمرة الاولى ، ثم خرجت ثانية ، فاغمض سباروف عينيــه واخذ يستدر ضروع ذاكرته ، فتذكر كل شيء بانتظــام ، وتسلسل الامور امرا فأمرا ودقيقة فدقيقة ، ابتداء من صباح الامس ، فذكر الصباح والنهار والليل . فألفى ان هناك بالاضافة آلى كلمات الحب التي رددها لسانهـا ، وبالاضافة الى مـا حدث كدليل على حبها وبرهانا عليه ، امرا اخر جعله يؤمن ايمانا جازفا غير متحفظ بحبها له ، وقد تمثل هذا الامر في طريقتها للمسها جسده آلمهروس . فلم يعلمها هذه الطريقة احد ، وحتى الطبيب لا يعرف بمثلها ، لكن غريزة ما كانت ترشدها الى المواضع التي تؤلمه من جسده، والى الاخرى التي لا تستثير فيه الما . فكانت تعرف كيف تعانقه وتضمه ، وتعرف كيف واين يتوجب عليها الا تلمسه. وكانت يداه المعانقتان تفيضان بحب ورقة دفاقين جعلاه حينما يتذكر تينك اليدين يحس بدفء الغبطة ونشوتها .

وفي الساعة الرابعة صباحا ، وهي الساعة التي يتوجب على « آنيا » ان تلتحق فيها بعملها ، انتعلت جزمتها وارتدت معطفها الذي رتي في مواضع ثلاثة كانت قد اخترقتها شظايا القنابل ، ثم اعتمرت عمرة ، وخطت خطوات سريعة حاسمة نحو سريره وزمت شفتيها زما شديدا وقبلت سبـــاروف وخرجت من الكوخ .

ان سباروف لن يعرف عنها شيئا منذ هذه اللحظة حتى آلغد ، ومع انه كان قد اعتاد هذا الواقع خلال الحرب وتعود على ان يرى اناسا متعافين

يتحدثون اليه مرحين مازحين في لحظة ويقتلون في اللحظة التي تليها ، ومع ان هذه الحقيقة بدت له راعبة مروعة ، الا انه لم يألف هذا النوع من الشعور الذي ينفضه هذه اللحظة نفضا . لقد اختبر سباروف في ذاك النهـــار وتلك الليلة ، ولاول مرة ، ما يلحقه الانتظار والترقب بالانسان من آلام جسدية ، وعرف الآن رعب التطير، وعرفه في لحظة تبدو فيها ان الامور تجري كلها وفق ما يرام لهـا ويشتهى . لذلك تذكر آلاف الاخطار آلتي لم يعتد ابدا عـلى ان يلحظها ، فتذكر عبور النهر .وضفته التي تنفجر عليها القنـــابل ، والخندق الضحل الذي يتوجب عليك ان تنحني وتخفض من قامتك كي تمنع العدو مـن رؤية رأسك ، و « آنيا » التي قد لا تحني رأسها او تخفض قامتها . واخـذ يستطلع ساعته عن اماكنها ، فهي الان على الشاطيء ، وها هي آلان تبحر على ظهر الصندل ، فأخذ يتساءل عن المدة التي يستغرقها عبورها النهر ، وعن المدة التي يحتاج اليها تفريغ الصندل ، وعن عدد الدقائق التي يتطلبها وضع الجرحى على النقالات ، وعن المدة آلتي تستغرقها عودتها . لكن حساباته العقيمة هذه، عقيمة لان سباروف اول من يعرف درجـة الاستحـالة على المرء حين يخمن في الحرب ما يتطلبه انجاز المهمة من وقت ، اقول ان هذه الحسابات لم تكبح جماح هواجسه .ولم تطمئنه . فستالينغراد لا تبعد اكثر من ثمانية عشر كيلومترا عـن هذا الكوخ ، وسباروف يرهف آذانه للاصغاء لنيران المدفعية ، .ويستطلع هـذه الليلة دويها بكل احاسيسه ، فرعيدها يقترب آنا ، لينأى حينا ، وهو اشبه بصوت الساعة الرتيب الذي لا يتبدل ، ومع انه كان يعلم بان هزيم المدفعيـة يبدو في البدء اشد دويا ، ومن ثم يخف ارعاده ، وذلك بسبب الريح والهواء، لكن معرفته هذه لم تساعده على التحرر من سلاسل المخاوف ، فعندما كـان يشتد دويها ، كان يشتد قلقه .ويتزآيد اضطرابه ، كأن هدير المدفعية كـان هو مقياس الاخطار التي تحيق « بآنيا » بالنسبة الى سباروف .

امضت ام « آنيا » فترة طويلة من الليل تخيط على آلة خياطة في القسم الثاني من الكوخ ، ثم دخلت عليه لتحمل اليه قطعة من شمعة ، وبعد ان وضعتها على المائدة تطلعت اليه وقالت :

ـ ألم تنم بعـد ؟

فأجابهـا :

ـ كلا لـم انـم .

فردت :

ــ لقد كنت ايضا لا استطيع النوم حينما تغادرني ، لكـن النوم لا يجفوني الآن . وعلى كل حال فلي ثلاثة منهم في الجبهة ، فاذا لم أنم من اجلهم جميعـا فلا شك انني سألاقي حتفي خلال اسبوع ... هل لك اقارب ؟

ــ نعم يا اماه .

ــ اين هم ؟

ــ هناك .

وأشار بيده الاشارة المعروفة التي يرفقها المرء حينما يقول هناك ، والتي يفهمها السامع اذ أنها تعني ما وراء الخطوط آلالمانية .

ــ ولكن من هم اقاربك هنا ، وراء خطوطنا ؟

ــ لا قريب لي هنا غيرها ... ماذا هل كنت تخيطين ؟

فأجابته أم آنيا :

ــ نعم هذا ، لقد أعطتني زوجة اخي قطعة من القماش وأنا أخيطهـا ثوبا « لآنيا » . فهي على كل حال فتاة شابة ، ومع انني اعرف بانها لا تلبس ثوبا غير بزتها الرسمية، اكثر من مرة في الشهر ، الا انني أريد أن أخيط لها ثوبا ، لكن عليها اذا ارادت ان ترتديه ان تسير حافية القدمين اذ انها لا تملك من أحذية غير الجزمة التي تنتعلها ، لكن، قد أعطيها هذا الحذاء .

قالت هذا وجلست على مقعد ووضعت ساقا فوق ساق ، وبدأت تتطلع بامعان الى حذائها المنخفض الكعبين ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى سباروف وتذكرت فجأة لقاءهما الاول وقالت :

ــ ليس هذا الحذاء بحذائي ايضا . لقد أعطاني اياه احد آلناس الطيبين. لقد كانت قدمي من قبل أصغر من قدم « آنيا » ، ولكن ورم قدمي الناجم عن الحروق قد يجعل مقاس قدمي معادلا لمقاس قدمها ، ماذا تعتقد ؟

سألت الأم سباروف هذا السؤال كأنه يعرف عن « آنيا » اكثر مما تعرفه امها ، وفي هذا السؤال التافه ، لا بل الشاذ تقريبا ، يكمن الاعتراف بكل مـا

يفكر به سباروف الآن ، لذلك بادرها سباروف دون أن يجيب على سؤالها وقال لها :

ـ سأتعافى قريبا ، وسنتزوج .

ثم ابتسم واردف :

ـ ولا شك انك لن تغضبي ... اذا ما تزوجنا هناك .

فسألته ببساطة :

ـ أعلى الضفة الاخرى ؟

ـ نعم .

فأجابت أم آنيا موافقة :

ـ حيث يقيم المرء يحتفل بزفافه .

والحق أن هذه الفكرة لم تكن بالفكرة الغريبة عليها او المباغتة لها ، فالضفة الاخرى هي ستالينغراد بالنسبة اليها ، انها المدينة التي عاشت فيها كل حياتها الماضية ، وهي لا يهمها ما تتداوله الاشاعات عن المدينة ، فأم آنيا لا تستطيع حتى الآن ان تترك لذكرياتها آن تتهاوى امام ما يحدث هناك ، لذلك اكتفت بأن تقول :

ـ المهم ألا تعبر آنيا النهر ثلاث مرات كل يوم ، ومن يدري فقد يكون افضل لها ان تقيم هناك الى قربك .

جلس سباروف لمدة طويلة يصغي الى أم « آنيا » وهي تحدثه عن الامور التي تحب النساء عادة التحدث بها الى ازواج بناتهن ، فأخذت تصف له نشأة « آنيا » ، وكيف أصيبت بالحصبة والحمى القرمزية ، وكيف قصت جدائلها ثم تركت لها أن تسترسل من جديد ، وكيف شملتها بعناية خاصة لانها البنت الوحيدة بين ثلاثة ابناء لها ، وأضافت الى هذه الامور امورا صغيرة وكثيرة أخرى ، كانت تسر اذ تتحدث عنها . اما سباروف فانما وجد فيما حدثته به سرورا واسى ، سرورا ، لعلمه بهذه التفاصيل الصغيرة ، واسى لانه لم ير هذه التفاصيل وقائع بأم عينه، فهو، في هذه الحال، كغيره من العشاق ، يرغب رغبة شجية في أن يكون قد شارك «آنيا» في كل عمل اتته ، وفي كل امر مر بها

في حياتها قبل ان تعرفه .

استرسلت المراة في حديثها عن « آنيا »، وفجأة اكتشف سباروف انه دون أم آنيا صبرا وجلدا على الانتظار ، فهي افضل منه معرفة بالانتظار والترقب واكثر منه هدوءا واطمئنانا ، ولربما خيل الى سباروف انها تتوخى من وراء حديثها هذا ان تخفف من قلقه ومخاوفه . واخيرا خرجت ام آنيا من الغرفة ، لكن سباروف لم يعرف طيلة الليل طعما للكرى ، وفقط في الساعة الحادية عشرة صباحا ، عندما ارسلت الشمس بحزمة من اشعتها الصفراء من خلال النافذة تمكن من ان يغفو غفوة قصيرة دون ان يعلم بها ، غير انه سرعان ما استيقظ ثانية ، اذ أحس كما أحس في الخندق ، بان هناك من يحملق فيه، ففتح عينيه ليجد آنيا تجلس على سريره وتحدق في وجهه ، فاستقعد في فراشه ومد يديه اليها ، فاحتضنته ثم دفعت به بقوة الى الوراء وقالت :

ـ فلتضطجع يا عزيزي ! فلتضطجع ! قل لي كيف كان نومك ؟

فأحس سباروف بخجل لانه غفا لمدة خمس عشرة دقيقة ، ولم ينتظر عودتها ، لكنه لم يقل لها بانه لم ينم طيلة ليله ، فهو يعرف بان هذا القول يحزنها ولا يسرها ، لذلك أجابها :

ـ لقد نمت نوما هادئا ... لكن اخبريني كيف هي الحال هناك ؟

فردت :

ـ انها جيدة ، لا بل جيدة جدا .

كانت آنيا تتحدث اليه بنبرة حية ولهجة منتعشة ، لكن سباروف لاحظ علائم التعب ووعثاء العمل ترتسم على محياها ، فأجفانها كانت نصف مغمضة، كأجفان اولئك الناس الذين لم يعرفوا النوم منذ زمن طويل ، لكنهم مع هذا لا يفكرون به ابدا ، فهم يستطيعون ان يناموا في كل لحظة تعرض لهم . وتطلع سباروف الى ساعته فألفى عقربيها يشيران الى الحادية عشرة تقريبا ، وعلى آنيا ان تستيقظ في الرابعة بعد الظهر لذلك بادرها :

ـ فلتنامي ! ولتنامي فورا !

فأجابته آنيا وهي تبتسم :

ـ ولكن ما قولك في أن نتحدث قليلا ؟ فأنا أرغب في الحديث اليك رغبة شديدة ، وبينما كنت أعبر الفولغا على الصندل اخذت استذكر اشياء واشياء لم أطلعك عليها بعد .

تجرعت آنيا قدحا من الشاي بسرعـة ثم اضطجعت الى جانبه ، وعقب دقيقة واحدة كانت تغط في نوم عميق ، وهي لما تكمل كلمتها بعد ، فوسدهـا ذراعه واستسلم الى الفكر ، وكان يتطلع اليها بين فينة واخرى ، وقد بدا له ان المستحيل قد تحقق وحدث وان الزمان نفسه قد توقف وهمد ، وقد غمره احساسه المثـير بتـوقف الزمـان طيلة الايام العشرة التي سبقت عودتـه الى ستالينغراد ، والحق ان سباروف لم يحاول ابـدا ان يدعي انه اشد مرضا او ضعفا مما هو في الواقع ، وذلك بغية ان يمد في سويعات سعادته ، لكنه في الوقت نفسه لم يجرب ابدا ان يحمل نفسه فوق طاقتها ، فيغادر فراشه الى الميدان قبل انتهاء فترة نقاهته . ولقد كان سباروف كغيره من الرجال الكثيرين الذين يستطيعون ان يسيطروا على نوع من العنف الطبيعي ، لذلك ارغم ذاته على ألا يفكر فيما يحدث الآن في كتيبته ، ويذكرها كل دقيقة ولحظة ، لكنه لا يريد أن يقلق عليها ، فهو على كل حال لا يستطيع الآن ان يكون بين افرادها، اذن فما هي الفائدة من القلق عليها في كل دقيقة ؟ وهناك شيء واحد فقط يفكر به، لكنه لا يستطيع ان يمد له يداً ، وان هذا الشيء ينبع من شعـوره المتنامي تحت سطح وعيه ، شعوره بامتـداد القتـال امتدادا جبـارا وتزايده ضراوة وعنفا ، وكان كلما امتد بقاؤه بعيدا عن الجبهة يتزايد قلقه وتتضاعف لهفته ، وهو الآن قـد بدأ يفهم الاثارة التي تلهب بهـا كلمة ستالينغراد قلوب الرجال . وكانت الاخبار تتوارد عليه بواسطة آنيا ، وبواسطة العجوز صاحبة الكوخ ، والجرحى الذين كان يسمح لهم احيانا بمغادرة اسرتهم في المستشفى والقيام بنزهات قصيرة ، وكانت جميع هذه الاخبار لا تسر خاطراً ولا تبهـج فؤادا . فلقد كان كل يوم تقريبا يحمل اليه نبأ احتلال الالمان لشارع جديد ، وكانت المسافة التي تفصل الالمان عن الفولغا تتقلص كل يوم بضعة مئات مـن الامتار . وكان في كل مرة يسيطر على نفسه فلا يستجوب آنيا عن اية تفاصيل . فهو لا يريد ان يعرف أية تفاصيل وهو بعيد عن جبهة القتال، وسباروف يريد ان يكبح جماح فضوله حتى عودته الى خطوط النار ثانية ، لكنه كان كلما رأى « آنيا » تعود اليه ، كان يستنتج من عينيها ومن مشيتها ومن تعبها، استنتاجاته الخاصة ، وكان يعرف بان هذه الاستنتاجات هي استنتاجات صحيحة عما دار

في ذاك اليوم من حوادث واحداث .

وحدث مرة ، وذلك في اليوم السادس او السابع ، لوجوده في الكوخ ، وعقب ان غادرته آنيا بثلاث ساعات ان سمع صوتا مألوفا لديه يناديه باسمه، ثم سمع وقع خطى سريعة خارج الغرفة وفجأة دخل عليه مسلنكوف وهو يصيح :

ــ الكسي افانوفيتش ! يا صديقي !

ثم هرول لا بل عدا نحوه ، وتوقف امامه قليلا ، ثم اقبل عليه يحتضنه ويضغط عليه معانقا ، وبعدها خلع معطفه وسحب مقعدا صغيرا وجلس قبالته، غير انه سرعان ما هب منتصبا على قدميه وانتزع بهياج سيجارة من علبته قدمها الى سباروف ، ثم تناول هو لفافة اخرى ، واشعل عود ثقاب ، اشعل به لفافتيهما ، ولقد قام بكل هذه الاعمال بسرعة مذهلة ، لم تتجاوز نصف الدقيقة ، واخيرا جلس الى المقعد واخذ يحدق بعينيه السوداوين في سباروف برقة وفضول وبادر سباروف يسأله وهو يبتسم :

ــ اذن لقد تخليت عن الكتيبة في ساعة الشدة .

فأجابه مسلنكوف :

ــ لقد امرني بذلك بروتسنكو ، فلقد زار الفوج ثم الكتيبة ، وامرني بأن آتي اليك وازورك ... فكيف حالك يا الكسي افانوفيتش ؟

فأجابه سباروف :

ــ بخير .

غير انه لاحظ ان مسلنكوف يحدق فيه ويتفحصه بنظراته تفحصا دقيقا، وهذا مما دعاه ليردف ويقول :

ــ ما بك ؟! هل نحلت ، وبلغ بي الهزال مبلغه ؟!

فرد مسلنكوف :

ــ انك لناحل حقا !

قال هذا مسلنكوف ثم قفز على قدميه من جديد واستخرج من احدى

جيوب معطفه علبة بسكويت ، واخرى مليئة بالسكر ، وثلاث علب من اللحم الاميركي ، وكوم هذه كلها فوق المائدة وجلس مرة ثانية فسأله سباروف :

ــ هل تريد ان تسمن آمرك ؟

فأجابه مسلنكوف :

ــ لدينا الآن الكثير من كل شيء ، وحالة التموين ممتازة .

فسأله سباروف :

ــ هل يفرقون الكثير من المؤن ؟

ــ انهم يفرقون كمية منها لا يستهان بها ، والحال هي تماما كما خلفتها يا الكسي افانوفيتش . .

ــ حسنا ! ما هي البطولات التي حققتموها بدوني ؟

فرد عليه مسلنكوف :

ــ ان ما قمنا به في غيابك ، هو تماما ما كنا نقوم به اثناء وجودك بيننا .
اراد مسلنكوف ان يقول له كيف انه هو وجميع افراد الكتيبة يفتقدونه ويترقبون عودته ، لكن وجه سباروف المتعب الناحل الجم لسانه فما كان من سباروف الا ان بادره سائلا :

ــ الا تنتظرون عودتي اليكم ؟

ــ اننا نترقبها بشوق ولهفة .

ــ سأعود اليكم بعد ثلاثة ايام .

فرد مسلنكوف سائلا :

ــ ولكن الا تعتقد بانك تحتاج الى وقت اطول ؟

فأجابه سباروف بهدوء :

ــ كلا ! سأستعيد صحتي تماما بعدها ... آين مواقعكم الآن ؟ الا تزالون في المواقع ذاتها ؟

ــ انها تقريبا ذاتها ، ما عدا انهم قد اخترقوا الخطوط يسرة منا ، وبلغوا

ضفة الفولغا ، وبهذا أمست خطوط مواصلاتنا بالفوج جد ضيقـة ، ولذلك لا يمكننا ان نتصل بالفوج الا ليلا .

فرد سباروف معلقا :

ـ هذا يعني انني لا استطيع العودة اليكم الا ليلا ، وانني سآتي في احدى الليالي واتفقد كل شيء ... حسنا ! كيف حال فينين ؟

ـ انه في أحسن حال !

ـ من هو حي منكم ، ومن استشهد ؟

ـ اننا جميعا لا نزال احياء تقريبا ، لكن عددا جرحانا غفير ، وجوردينكو جريح ايضا .

ـ هل جئتم به الى هنا ؟

ـ كلا لقد بقي هناك ، فجراحه ليست بليغة ، مع انهم قد ثقبوه في اربع مواضع من جسده دفعة واحدة ... اما انا فلقد نجوت ولم أصب بأية آصابة.

قال مسلنكوف هذا ، وبعد قليل من صمت استطرد :

ـ هل تعرف ؟!... كثيرا ما يخيل الي انهم لن يستطيعوا جرحي ، وانهم اذا ما أصابوني فانها ستكون القاضية .

فأجابه سباروف :

ـ لا تفكر بهذا الامر ! بل آنما فكر به كاحتمال مرة واحدة فقط ، ولكن عليك الا تفكر به كل يوم .

ـ وهذا ما أحاوله الآن .

استغرق حديثهما عن الكتيبة طيلة النهار ، وكان سباروف يسأله عـن حامية كل موقع من مواقعها ، وعن التبدلات التي طرات ، وعما بقي على حاله، وسأله عن الخندق ، وعما اذا كان لا يزال في مكانه المعهود ، فأجابه مسلنكوف ايجابا ، فانشرح صدر سباروف لمعرفته بان خندقه لا يزال سليما ، اذ شعر بنوع من الاستقرار ، زد على ذلك أن سباروف لا يزال يعد الخطة لاجراء حفلة زفافه على « آنيا » في الخندق ، وفجأة التفت سباروف الى مسلنكوف وبادره

سائلا :

ـ اسمع يا ميشا ! الست عاجبا من انني لست في المستشفى بل انما هنا؟

ـ كلا ! لقد اخبروني .

ـ بم اخبروك ؟

ـ بكل شيء .

فأجاب سباروف بعد لحظة من صمت وقال :

ـ نعم ... انني سعيد جدا جدا ... هل تذكر كيف جلست معنا في الصندل ، وكيف كانت تعصر شعرها وتجدله ، وكيف طلبت اليك ان تعطيها معطفك ؟ هل تتذكر ؟

ـ نعم انني اذكر .

ـ وعندما رسا بنا الصندل اختفت عن ابصارنا ؟!

ـ هذا لا آذكره .

ـ حسنا ! لكنني انا اذكره . انني اذكر كل شيء ...

وعقب برهة من صمت استطرد سباروف :

ـ لقد كنت افكر في ان اطلبها ممرضة خاصة لكتيبتنا ، لكنني سرعان ما عدل قلبي عن هذه الفكرة .

ـ لماذا ؟

ـ لا اعرف ... اعتقد بان علي الا اجرب القدر وامتحنه ، فها هي تعبر الفولغا كل يوم مرتين وثلاثا ، ولا تزال سليمة ، ولكن هناك .. لا اعرف .. انني احس برعب من ادخال اي تبديل على حياتها اليومية هذه .

كان سباروف يحب ان يسترسل في الحديث عن آنيا الى الابد ، لكنه كبح رغبته ، وحول حديثه ومسلنكوف الى موضوع آخر اذ سأله :

ـ كيف يبدو بروتسنكو ؟

فرد مسلنكوف :

ـ انه على احسن حال ، وهو يضحك كثيرا ، كما هو مالوف عنه ، وقد تزايد ضحكه الآن.

ـ قولك هذا لا يبشر بخير ، فهو دليل على توتر اعصابه .

ـ لماذا ؟

فأجابه سباروف :

ـ عندما يشتد قلقه ، يزداد ضحكه عن المالوف ... لكن ، لقد كدت انسى ان اوجه اليك اهم اسئلتي ... من هو الآن آمر الفوج ؟

ـ اي نوع من الرجال هو ؟

ـ اي رجل من الرجال هو ؟

فأجابه مسلنكوف :

ـ انه طيب، لا بل اعتقد انه ممتاز، وانه لأفضل من بابشنكو على كل حال.

ـ هل هو شجاع ايضا ؟

ـ هو شجاع ايضا ، لكنه هادىء بارد لا يستثار ، وانسان مرح ، وشبيه بعض الشيء بالجنرال . لقد قاتلا معا ، وعلى ما يبدو في مكان آخر غير ذلك .

فرد سباروف :

ـ هذا محتمل جداً ، فالجنرال لا ينسى ابدا ضباطه ، وهذا امر جد طيب ، وكثيرا ما نهمل هذا ...

ـ ماذا نهمل ؟

ـ ان تذكر الرجال الذين قاتلت معهم جنبا الى جنب .

استرسلا في الحديث على هذا المنوال لمدة عشر دقائق اخرى وفجأة امسى مسلنكوف على عجلة من امره ، وشاهد سباروف ملامح المسؤولية النامية تطبع محيا رفيقه ، فمسلنكوف لا يحس براحة اذا ما تغيب طويلا عن الكتيبة، وهو الآن مستعجل الى درجة يبدو معها انه لم يعد موجودا في الكوخ ، بل انما قد عاد الى الجانب الآخر من النهر ، فاستمهله سباروف ليقول وهو يشير بيده

الى « السماور » :

ــ في المساء وعقب ثلاثة ايام ، فلتعــدوا لي الشاي ، لقــد حاولت ان استولي على هذا « السماور » لاقدمه هدية لمن في الخندق ، لكنهم رفضوا ان يتخلوا عنه ... حسنا ! فلتذهب ! بلغ تحياتي للجميع ... لقد ذهبت هــذا اليوم الى مركز قيادة الفرقة ، ومن يدري فقد تجدها في مركز قيادة الكتيبة حين عودتك .

فسأله مسلنكوف :

ــ هل تريد مني ان احمل اليها اية رسالة ؟

ــ رسالة ؟! اسكب لها قدحا من الشاي ، وهي ستستنتج بنفسها مــا اريد ، هيا ! فلتذهب ! لن اقول وداعا .

وفي اليوم التالي لزيارة مسلنكوف ، نهض سباروف من فراشه، وحاول لاول مرة ان يسير على قدميه ، فأحس بشديد الالم وبدوار عنيف ، لكنه غادر غرفته الى الشارع ووقف لبرهة وجيزة بالقرب من البوابة ليصغي الى قصف المدفعية وهزيمها . وكانت آنيا تعود كل يوم في ساعة متأخرة عن ساعة عودتها في اليوم السابق ، وتغادره كل يوم في ساعة أبكر من ساعة مغادرتها له في اليوم الماضي ، وكان وجهها المتعب ينبىء سباروف بالمشاق التي تعانيها، لكنهما لم يتحدثا ابدا عنها ، فما الجدوى من مثل هذا الحديث ؟

سارع الطبيب من المستشفى الى سباروف بناء على طلب آنيا ، لكنه لم يفحصه ، بل انما لوى ساقيه وركبتيه وكاحليه لواء محترف وكان يسأله عقب كل لوية عما اذا كان يحس بالم ، ومع ان آلامه كانت شديدة ، الا ان سباروف احتملها وقال بانه لا يحس بشيء ، ثم سأل الطبيب عن موعد انطلاق الشاحنات الى ضفة النهر في اليوم التالي ، فأجابه الطبيب انه في الخامسة مساء كالمعتاد، واضاف الطبيب سائلا :

ــ يبدو لي انك هيأت نفسك للرحيل ؟

فأجابه سباروف ايجابا ، فلم يعجبه الطبيب ولم يسع ليثنيه عن عزمه ، فهو معتاد على هذه الحال هنا ، بالقرب من ستالينغراد ، وهي تتفق ومجريات الامور وتنسجم معها ، لكنه مع هذا لم يستطع الا ان يحذره ويقول :

ـ تذكر انك لم تشف تماما ، والسيارات تنطلق في الخامسة مساء .

ـ سأتذكر ما قلت .

ـ حسنا ! اذن وداعا .

قال هذا الطبيب وهو ينتصب واقفا على قدميه ويضغط مصافحا راحة سباروف ، فأحس سباروف فجأة بحافز خبيث جعله يعصر راحة الطبيب عصرا ، فما كان من الطبيب الا ان خاطبه :

ـ باستطاعتك ان تذهب الى الشيطان ، لقد سبق لي ان قلت لك ان بمقدورك ان تعود ، فبماذا تحاول ان تقنعني ؟

وبعد ان فرك الطبيب أصابعه غادر الغرفة ، وعندما عادت « آنيا » أعلمها سباروف بانه سيعود في اليوم التالي الى ستالينغراد ، فلم تقلق على قراره هذا ، ولم تحاول حتى ان تجادله فيه ولم تطلب اليه البقاء يوما واحدا فقط ، فهذا النوع من الحديث غير مألوف لهما ، بل كان كل ما طلبته هو ان يعودا ويعبرا النهر معا فأجابها سباروف :

ـ هذا هو ما كنت افكر فيه ايضا .

امضت « آنيا » طيلة نهارها صامتة هادئة ، ومع انها كانت متعبة لا بل منهوكة القوى ، الا انها لم تشعر هذه المرة برغبة في النوم ، ولم يراود حتى النعاس أجفانها ، بل انما جلست بالقرب منه ، واخذت تمسح شعره براحتها وتحدق في وجهه كأنها تحاول ان تستذكره استذكارا افضل .

لم تعرف « آنيا » من النوم ذلك النهار سوى نصف ساعة من نعاس كاب، استيقظت عقبها لتوقظه اذ حان موعد عودتها الى العمل ،فمرت مرة اخرى براحتها على شعره مرورا رزينا وقالت :

ـلقد حان موعد عودتي .

فهب سباروف من فراشه ورافقها حتى البوابة ، ثم راقبها لمدة طويلة وهي تقطع دربها بخطى سريعة عائدة الى عملها .

وفي الصباح جمع سباروف متاعه القليل ووضعه في جرابه، وجلس ينتظر عودة آنيا ، لكن آنيا تأخرت عن موعد عودتها طويلا ، فهب يذرع الشارع

مرة بعد اخرى مترقبا عودتها ، غير ان الساعة تجاوزت الثانية الى الثالثة ، والثالثة الى الرابعة ، فالرابعة والنصف ، و « انيا » لم تعد بعد ، وموعد رجوعه قد حان ، وعليه ان يقصد المستشفى الان اذا كان حقا لا يريد أن تفوته الشاحنة ، فخرج مرة اخرى الى الشارع ووقف لبرهة طويلة ، عاد اثرها الى الكوخ ، وجلس الى المائدة وسطر بضعة سطور ، قال فيها انه سيعبر النهر وحيدا ، واراد باديء ذي بدء ان يذيل تلك السطور موقعا سباروف ، لكن هذا الامر بدا له امرا ذا طابع رسمي ، ثم اراد ان يذيله بلقب « اليوشا » لكن هذا اللقب بدا ايضا شاذا وغير مألوف ، فاضطر اخيرا ان يكتفي بحرف « أ » مردفا بنقطة ، ثم هب وودع أم « انيا » ، فلم تعتصر هذه راحتيها ، ولم تحزن ، بل تقبلت رحيله بهدوء جعل سباروف يعتقد بانه ربما كان الهدوء احدى مزايا هذه العائلة ، وكان كل ما قالته ، ان سألته عما اذا كان لن ينتظر عودة « انيا »؟ وعندما اجابها بان عليه ان يذهب ، قالت : فلتذهب اذن ، ثم اقتربت منه ووقفت امامه للحظة ، اقبلت اثرها عليه وطبعت قبلة على وجنته ، وقد كانت هذه القبلة العلامة الوحيدة التي عبرت بها عن قلقها عليه وعلى ابنتها . وفي الساعة الخامسة الا عشر دقائق ، غادر سباروف الكوخ قاصدا المستشفى ، وكان طيلة طريقه اليه يحملق في كل شخص يمر به او يصادفه . وكان الاولاد قد قطعوا له في الليلة السابقة عصا من شجرة كرز ، وهو الان يعرج متكئا عليه ، ومحملا اياها كل ثقل جسده .

بدات الشاحنات تنطلق عقب الخامسة ، وحاولوا ان يجلسوه على المقعد بالقرب من السائق ، لكنه اصر على الجلوس في مؤخرة السيارة مؤملا في ذلك ان يرى « انيا » فيما اذاقدر لها ان تمر من طريقه . فجلس في قعر الشاحنة واخذ يحملق في ميسرة كل سيارة تمر به ، فلم ير لآنيا أثرا .

اخذ المساء يزداد بردا ، فشد بعمرته على رأسه وزرر قبة سترته ، وعقب مسيرة ثلاثة كيلومترات انعطفت به الشاحنة لتدرج على الدرب الرئيسي الممتد من قرية « التونسكايا » الى معبر النهر . ولقد سبق لهذا الدرب ان دمر مرارا ، واصلح مرات ، لذلك كان مليئا بالحفر وكانت الشاحنة تقفز فوق الحفر وتهز من تحمله هزا جعل ساقي سباروف يضجان بالالم خبطة اثر خبطة . وشاهد سباروف الطائرات تختلس من المساء بعض دقائقه لتقوم باخر جولات قتالها ، فالحال في الجو ، كما هو واضح ومفهوم ، لا تختلف عن الحال في

البر في ضراوة القتال وشراسته ، والالمان قـد قصفوا بطائراتهـم قوافـل السيارات مرتين هذين اليوم ، وكانت هذه السيارة معبأة بصناديق الذخـيرة واللحم المعلب واكياس مليئة بمادة بيضاء قد تكون سكرا . وشاهد سباروف على حافة الحي حيث يقوم المعبر بقايا طائرة من طراز مسرشميدت يتصاعـد منها الدخان واستدارت الشاحنة حولها حتى بلغت المعبر . وكـان الالمـان قد جعلوا هذا المعبر هدفا لنيرانهم ، لكـن نيرانهم كانت نيرانا غير منتظمة تقريبا تطلقها مدافع المورتر الثقيلة ، لذلك بدا المعبر لسباروف كأنه لا يزال على سابق ما له من حال ، الا اذا استثنينا الطقس الذي ازداد برده عضا . وكانت الفولغا لا تزال تسيل بمائها دفاقا كسابق عهده ، لكن الماء يبدو الان كأنه بطيء الخطى ثقيلها ، فادرك سباروف بان هذا اليوم او غداً ، او في وقت بعد قريب، سيخلع البرد على الفولغا رداء من جليد . وعندما ترجل سباروف من الشاحنة واتجه ومن معه سيرا على الاقدام نحو معدية تجر صندلا ايقن سباروف من انه لن يلتقي « بآنيـا » على الضفة آلاخرى من النهر ، فجلس على الرمال وتخلى عن آماله بالعثور على آنيا ، ثم تناول لفافة واشعلها واخذ يسحب منها انفاسا عميقة استساغ مذاقها ، واحس بمزيد من دفء ، وهذه هي حاله دائما عنـدما يدخـن .

بلغت المعدية الصغيرة مرفأ المعبر ، وانفجرت على بعد مئة متر وراءه عدة قنابل ، ورأى سباروف عددا من آلجرحى يجري انزالهم من المعدية وصندلها ، فجلس ينتظر ويترقب ، وشاهد الرجال يسرعون في الافراغ والتحميل ، لكنه يحس بان ما يحيط به هو الان اقل جلبة وضجيجا مما كان عليه حينمـا عبر الفولغا لاول مرة ، فالان يجري كل عمل بمزيد من السرعة والمهارة ، وبـدت له المدينة في الجانب الاخر من النهر مألوفة معروفة ، وذهل لغيابه الطويـل عنها ، فلقد تغيب عنها ثمانية عشر يوما كاملا .

وبينما كان سباروف يعرض اوراقه على الضباط المكلف بالتحميـل وهو يعبر الممر المؤدي الى الصندل باغتته « انيا » قائلة :

ـ لقد كنت اعرف بانني سأراك هنا ، وكنت أعلم بانك لن تنتظر عودتي ، ستنطلق في الخامسة على أية حال ، لقد كنت مصيبة فيما ذهبت اليـه ، اليس كذلـك ؟

ـ نعم لقد اصبت

فردت آنيا :

ــ لقد جئت على ظهر معدية وصلت قبل هذه، وتخلصت من جرحاي ، ثم انتظرتك ، وها اننا سنعود معا فأمسك سباروف بكوعها واشار الى الضفة الاخرى وقال :

ــ حسنا ! فلتنظري ! لقد قل الدخان كثافة هناك ، اليس كذلك ؟

ــ انه كما تقول !

ــ ولكن الجلبة قد تزايدت

فاجابت أنيــا :

نعم ، انها كذلك ، لكنك لم تعد معتادا عليها الان .

ــ لا بأس ، سأعتاد عليها ثانية .

سارا معا على الممر المرتعد حتى بلغــا الصندل فتسلقا سطحه وقفــزت انيا اولا الى سطحه ثم مدت بيدها الى سباروف لتساعده على القفز ، فأمسك بيدها وقفز برشاقة لم يتوقعها ، فلقد أصاب حينما حزم على العودة وعاد ، فهو متعاف وسليم الجسد تقريبا ، وتحرك الصندل الصغير وجلسا معا عــلى السطح واخذا يهزان بسيقانهما وهما ممسكان باحدى عوارض الحاجز ، وكان الفولغا تحتهما يصخب معربدا غاضبا كما هي حاله كل خريف ، وتألقت بعض اماكن منه ببلورات من جليد ، وبادرت انيا تقول :

ــ انني احس بتزايد البرد

فاجابها سباروف :

ــ نعم

لم يكن اي منهما يرغب في الحديث ، بل انما جلس كل واحد منهمــا صامتا وملتصقا بالاخر ، واقتربت المعدية الى الشاطيء ، وبدا لسباروف ان كل شيء في ظاهره لم يتبدل او يتغير ، حتى المدينة نفسها كانت لا تزال تبدو تقريبا كما عرفها من قبل ، فالمناظر الطبيعة لم تتبدل ، وبصورة عامة لم يتغير اي شيء وذلك اذا ما استثنينا ما طرأ على سباروف وآنيا ، وهما يعــلمان بهذا ، ويعيانه ، ولا يريدان ان يخرجا على صمتهما ، وفجأة قال سباروف

بصوت خافت :

ـ انه لجميل !

فردت عليه آنيا بصوت هامس ايضا :

ـ نعم انه لجميل !

اقتربت المعدية من الشاطيء وتعالى الصوت المبحوح ذاته الذي سمعاه ينطلق قبل شهر ونصف الشهر ليقول :

ـ اعدوا المراسي !

ربطت المعدية الصغيرة الى المرفأ ، الذي كانت قد تزايدت فيه آثار الدمار، وكان سباروف و انيا بين الزمرة الاخيرة التي غادرت المعدية الى البر ، ومع انهما كانا سيقطعان معا دربا طويلة ، اذ انهما سيسيران سوية حتى مركز قيادة الفوج، الا انه بدا لسباروف ، انه قد لا يستطيع ولمدة طويلة ، ان يفعل ما يريد فعله الان ، لذلك احاط انيا بساعديه وضمها الى صدره ، ثم مر بيده على شعرها ، واخيرا طبع على شفتيها قبلة لاهبة ، وعاد بعدها ليسير واياها جنبا الى جنب .

وكان عليهما أن يتسلقا مرتفعا ،عتما يقع على الضفة ، مرتفعا ملأته القنابل بالاخاديد والحفر ، لذلك كانت تعثر « آنيا » حينا بعد حين ، اما هو فكأن يغذ الخطى ويحرص على الا يترك جانبها ابدا ، واخيرا احستـه اقدامهما بتراب ستالينغراد ثانية ، واحسا بارضها الباردة الصلبة ذاتها والتي لم تتبدل خلال الشهر الاخير ، والتي لم تستسلم للالمان بعد .

- ١٦ -

هذه هي الايام الاولى من شهر نوفمبر ، السماء لم تجد بغير قليل من ثلوجها ، والرياح العارية من الثلج تزمجر وتزأر من خلال الخرائب وتنهش بزمهريرها نهشا برده عضوض كالجليد . والارض تبدو للطيار بقعا سوداء تتناثر الى جانب بقع بيضاء ، والجليد الرهيف يطفو فوق سطح الفولغا ، وعبور النهر امسى مستحيلا تقريبا ، ان كل انسان يترقب بفارغ صبر ان يتجمد سطح الفولغا ويمسي صلبا كالفولاذ . ومع ان الجيش قد خزن بعض الاحتياطي من الميرة والقنابل والعيارات النارية ، لكن الالمان تابعوا هجماتهم الضارية دون انقطاع ، ولذلك كان الاحتياطي يذوب ويتبخر ساعة بعد ساعة . وهناك فرقة اخرى غير فرقة بروتسنكو قد قطعت خطوط مواصلاتها بالقيادة العامة للجيش المدافع عن ستالينغراد . فالالمان قد اخترقوا الخطوط وبلغوا ضفة الفولغا ، وليس ذلك شمالي ستالينغراد فقط بل انما بلغوها ايضا من ثلاث نقاط اخرى داخل المدينة نفسها ، لهذا فاننا اذا قلنا بان القتال يدور داخل ستالينغراد ، فان قولنا هذا فيه تجن على الواقع ، فالقتال يدور في كل مكان تقريبا ، انه يدور على ضفة النهر ذاتها ، وهناك مواقع للالمان لا تبعد اكثر من كيلومتر ونصف الكيلومتر عن النهر ، كما ان هناك مواقع اخرى لا تتجاوز المسافة التي تفصلها عن الضفة المئات من الامتار ، لقد اختفت الفكرة القائلة بان هناك اماكن امينة نسبيا ، فالمنطقة بكاملها ودون استثناء هي الان هدف لقصف مركز شديد ، فباستطاعتك الان ان ترى في اماكن كثيرة آثار ما كان يسمى مجموعات من الابنية والعمارات، لقد ساوى القصف الجوي وقصف المدفعية المنهاجي من كلا الطرفين جباه احياء كاملة بالتراب ، ولم يكن باستطاعة أي انسان ان يجزم بان الحجارة التي تغطي وجه الارض هي اوفر كمية من المعدن واغزر . ان الانسان الذي يعرف ما تحتاج اليه بناية ضخمة من قنابل كي تدمر تدميرا كاملا ، يعرف اية كمية هائلة من القنابل قد صبت على المدنية صبا . والبعد لم يعد يقاس الان بالكيلومترات على خرائط اركان الحرب ، كما وانها لم تعد تحسب بالشوارع ، بل انما اصبحت تقاس بالعمارات والابنية ،

فالقتال يدور الان من بيت الى بيت ومن غرفة الى غرفة ، وهذه البيوت لم تكن تأتي على ذكرها فقط تقارير قيادات الافواج والفرق ، بل آنما امست ايضا مواضيع لتقارير قيادات جميع الجيوش المقاتلة في ستالينغراد . وكانت الخطوط التي تربط القيادة العامة بالفرق المقطوعة عنها تمتد من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، ومن الضفة الشرقية الى الغربية ثانية ، وكانت عدة فرق تقوم الان بتموين نفسها معتمدة على وسائلها الخاصة فقط . وقد اضطر ضباط القيادة العامة مرتين او ثلاثا للدفاع عن انفسهم بانفسهم ، ومثل هذا الامر امسى مألوفا يوميا في قيادات الفرق ، واصبح جزءا من الحياة العادية . وفي المساء عندما عاد سياروف من المستشفى آستدعي بروتسنكو الى القيادة العامة ، وبالرغم من ان بروتسنكو كان يعرف حقيقة الحال ، الا انه كان لا يزال يعجب من بقاء مركز القيادة العامة على مقربة جد وثيقة من الالمان ،فالمسافة التي تفصلها عنهم لا تتجاوز الاربعمائة متر . وعندما قال بروتسنكو جوابا على سؤال القائد العام آن فرقته لا يتعدى عددها الف وخمسماية رجل ، واغتنم هذه الفرصة ليطلبمزيدا من الرجال ، لم يترك له القائد العام مجالا حتى لاستكمال عرض طلبه ، اذ قال بانه هو بروتسنكو اغنى قادة الفرق في ستالينغراد رجالا، وانه اذا ما استطاع بروتسنكو آن ينقب فيعثر على المزيد منهم ، فان القيادة العامة ستصادرهم منه . والحق أن بروتسنكو قد غش القيادة العامة قليلا ، فلم يعلمها بانه قد جند في الايام الاخيرة مئة جندي مقاتل من جنود امداداته المعسكرين على آلضفة الاخرى من النهر ، ولهذا اغلق فمه ولم يعد الى عرض طلبه مرة ثانية . وعقب ان انتهت الجلسة الرسمية فتح ماتغييف المذياع واستمعوا جميعا الى اذاعة باللغة الالمانية ، وقد دهش بروتسنكو اذ اكتشف ان ماتغييف يحسن الالمانية مع آنه لم يذكر هذا الامر ابدا ، وبلغ اتقانه للغة الالمانية حدا كان باستطاعته معه ان يترجم كل كلمة وردت في تلك الاذاعة ، وبادر ماتغييف يقول :

ـ يا الكسندر ايفانو فيتش ، ليتك تعلم ، الى اي حد قد اصبحوا متحفظين في كلماتهم ! فهم كانوا عندما يقاتلون في مداخل احدى آلمدن ، واذكر هنا حالهم في دنيبروبتروفسك ، كانوا عادة يعلنون صارخين في آذان العالم ويقولون ها اننا قد احتللنا المدينة . واحيانا كانوا يتجاوزون هذه المبالغة الى اسوأ منها ، فعندما كانوا يقربون من موسكو ، وكانوا لا يزالون على بعد ثلاثين كيلومتر منها اخذوا يعلنون قائلين بانهم سيجرون غدا عرضا عسكريا فيها ، اما الان وبعد

ان اصبحوا واقعيا داخل المدينة ، واحتلوا اكثر من نصفها ، وهذه حقيقة ، فانهم لم يعلنوا بعد عن احتلالهم لستالينغراد ، كما انهم لم يحددوا موعدا لاحتلالها . ماذا تعتقد ؟ الى أي الاسباب ترد هذا التبدل في دعاية الالمان .؟

فأجابه بروتسنكو :

ـ اننا نحن الاسباب

فرد ماتغييف :

ـ بالحق نطقت ! انها نحن ، انها انت وفرقتك بصورة خاصة ، بالرغم من ان فرقتك لا تضم هذه اللحظة اكثر من الف وستمائة جندي .

ذهل بروتسنكو ذهولا غير سار وهو يسمع ماتغييف يحدد الرقم الصحيح لعدد جنود فرقته ، وابدى بعض دهشة وآستغراب لكن ماتغييف عاد ليكرر :

ـ نعم الف وستماية ، وانا لم ارد ان اكشفك بحضور القائد العام فاشعره بانك قد اخفيت عنه مئة جندي ، وكان القائد العام سيغضب لا شك من عملك هذا ، لكن فرقتك تضم في الواقع آلف وستماية جندي، فلا تجادلني في هذا الامـر .

قال ما تغييف هذا ثم قهقه ضاحكا اذ سر بانه استطاع اخيرا ان يقتنص بروتسنكو الداهية الاريب ، وضحك بروتسنكو ايضا .واستطرد ماتغييف يقول:

ـ هذه هي اذن الحال ، فهم يخشون ان يحددوا موعدا لاحتلال ستالينغراد وهذا بشير خير ..

استدعى ماتغييف مرافقه « سينيا » وطلب اليه ان يحضر بعض الكونياك وعاد ليخاطب بروتسنكو :

ـ متى سيعود بروتسنكو لزيارتي ثانية ؟ ابعد ان يكتسي الفولغا بجليده الاول ويتعرى منه ؟ كلا . فأجاب بروتسنكو :

ـ نعم لقد بدات الفولغا بالتجمد قليلا قليلا ، وبدات بعض قطع الجليد تخدش المجاذيف وربما اصبح عبور المعدية في الغد امرا غير ممكن .

فرد ماتغييف :

لقد أعددنا لهذا الامر عدته ، لكنني انمنى ان يسرع الفولغا بتجمده ، وهناك صلاة واحدة تتوجه بها روسيا كلها آلي الفولغا وتتضرع اليها ان تتجمد ويتصلب سطحها بسرعة .

فاجابه بروتسنكو :

ـ لكنها قد لا تصغي الان الى صلاتنا !

ـ ربما انها لا تصغي ، عندئذ ستسوء الحال ولكن ...

تم رفع ماتغييف كأسه واستطرد :

ـ لنشرب نخب تلك « الـ » لكن !

تجرع ماتغييف كأسه دفعة واحدة وحذا بروتسنكو حذوه ، واسترسل الاول في حديثه :

ـ ان تلك « الـ » لكن ، تعني انني واياك قد قررنا مناهضتها معا استجابت الفولغا الى دعائنا ام لم تستجب ، فعلينا ان نصمد ونثبت في مراكزنا .

عاد بروتسنكو الى فرقته بمعنويات عالية ، ولقد اشاع رفض طلبه بمده بالمزيد من الجنود نوعا غريبا من الاطمئنان والهدوء فلقد كان حتى لحظة رفضه يحصي خسائره بقلق بالغ وينتظر بفارغ صبر وصول الامدادات اليه ، اما الان فلم يعد هناك من شيء ينتظره او يترقب وصوله ، وعليه ان يقاتل ، ويبني آماله على ما هو متوفر لديه . وعلى كل حال فكل أمر امسى الان جليا واضحا . فهؤلاء الرجال الذين قد عبروا الفولغا واقاموا مراكزهم الى جانبه قد يخرون قتلى ، ولكنهم لن يسلموا ابدا العمارات الخمس التي يدافعون عنها . وبروتسنكو يعرف تماما بانه قد يقتل هو ومعظم من يعرف من جنود فرقته وضباطه على شاطيء ستالينغراد هذا ، لكن معرفته هذه لا تهزها الان رجفة او رعشة من كآبة ، اذن فليكن ما يكون ! ولماذا لا يقتل هو والاخرون ؟ ان الالمان لن يحرزوا نصرا ، انهم لن يحققوا ظفرا ، هذا ما كان بروتسنكو يكرره ويردده مرة بعد اخرى وبصوت عال جعل مرافقه الذي كان يسير خلفه يبادر الى سؤاله :

ـ ما الذي امرت به اليها الرفيق الجنرال ؟

فأجابه بروتسنكو :

ـ انهم لن ينتصروا ، انهم لن يتمكنوا من النصر ، هل فهمت ما اقول ؟

ـ نعم تماما

جلس بروتسنكو ومرافقه في القارب ، وعندما غمس المجذفون مجاذيفهم بالماء وتحرك القارب آخذ الجليد يتحطم بين فينة واخرى قطعة فقطعة ، وقال بروتسنكو :

ـ انها تتجمد !

فاجابه احد الجنود الجالس الى المجذاف وقال :

ـ نعم كما تقول :

فعاد بروتسنكو ليسأله :

ـ هل تعتقد بانها ستحتاج الى طويل وقت لتتجمد تماما ؟

ـ من يدري ؟

بهذا اجاب الجندي ببرود ، واحس بروتسنكو بان لا مبالاة هذا الجنـدي هي مخلصة صادقة ، فهو لا يهتم اتجمدت الفولغا سريعا ، ام لم تتجمد ، بل انما يعرف بان عليه ان يصمد ويثبت حتى اخر نقطة من دمه . وعندما عاد بروتسنكو الى مركز قيادته وجد بين التقارير الموجودة على مكتبه والتي رفعت اليـه اثناء غيابه ، تقريرا يقول بان متسللا قد اخترق الخطوط فبادر يسأل :

اجندي هو ؟

فاجابه فوستريكوف :

ـ كلا انه واحد منا ، انه روسي ، ومواطن من ستالينغراد فرفع بروتسنكو حاجبيه دهشة ، فمجرد التفكير بان هناك مواطنا ومن ستالينغراد قد فـر منذ زمن طويل ، امر يبعث على العجب والدهشة لذلك قال مذهولا :

ـ امواطن هو ؟ احضروه الي !

فأجابه احدهم :

ـ لكنه جريح

ـ اين هو ؟

ـ أنه يضطجع في خندق المرافق .

فرد سباروف :

ـ حسنا ! اذن فلنذهب اليه نحن .

عندما احنى بروتسنكو رأسه كي يعبر الباب المنخفض المفضي الى مقر المرافق ، شاهد رجلا متقدما في السن مغمض العينين يضطجع ، او بالاحرى يجلس نصف جلسة ، على السرير وكان جراح الفرقة يجلس على مقعد بالقرب منه وبادر سباروف الشيخ قائلا وهو يدخل خندق المرافق :

ـ هللو يا جدي !

غير ان الشيخ لم يجب ببنت شفة ، بل بقي مضطجعا على السرير وسارع الطبيب لجيب على الجنرال :

ان جرحه خطير وهو فاقد لوعيه الان :

فسأل بروتسنكو فوستريكوف عما اذا كانوا قد استجوبوه ، فاجابه هذا ايجابا فطلب الجنرال احضار محضر استنطاقه اليه فورا فهرول فوستريكوف ملبيا امر برتسنكو .

وعندما غادر فوستريكوف ليحضر محضر الاستنطاق جلس بروتسنكو على سرير الميدان الاخر واخذ يتفحص الشيخ بنظراته ، فالفى وجهه متغضنا لا بل عميق الغضون ، وخمن عمره سبعين ، لحيته البيضاء طويلة تكاد تبلغ في طولها صدره ، وكان يرتدي سترة عسكرية رثة باليـة فوق صدار اسود اللون عتيق الطراز ، والفى بروتسنكو قميص الشيخ نظيفا نسبيا فسأل الطبيب :

ـ في اي مكان من جسده اصيب ؟

فاجاب الطبيب :

ـ لقد اصيب بثلاث رصاصات في ظهره .

ـ هل سينجو من اصابته ؟

فاحنى الطبيب رأسه .

ـ هل سيستعيد وعيه ؟

فهز الطبيب كتفيه ودخل فوستريكوف وقدم الى بروتسنكو المحضر ، فتناوله منه والقاه انه من عدة صفحات دونت باليد وانتقل الجنرال نحو الضوء ليقرأه . وقد ورد في المحضر انه في الساعة الثانية والنصف ، وفي قطاع ريمتزوف ، عثر على هذا الشيخ وهو نصف واع ، وذلك عقب خمس عشرة دقيقة من سماع الجند لاصوات زخات من الرشيشات الالمانية . وانه عندما استعاد وعيه قال بان اسمه يدكوف تيموفاي بتروفوتش ، وانه من اهالي ستالينغراد ، ويقيم في ضاحية جورودیشا ، وانه قد عبر الخطوط كي ينقل تقريرا الى الجيش الاحمر . وقد بدا من التقرير ان الشيخ كان في حالة سيئة حين استجوابه ، فلقد ابلغ بان هناك نوعا من هيئة اركان حرب المانية تقيم في منزلين من منازل القرية السوفياتية في ضاحية جورودیشا ، وان كامل المهواة (الوادي الضيق) الواقعة ما وراء القرية مليئة بصناديق القنابل . وقد ابلغ بالاضافة الى هذا ، انه شاهد منذ قرابة شهر شخصا يعرفه يسير برفقة الالمان ويدخل البناية التي يقطن في احدى شققها ، وان هذا الشخص هو نجل كاهن الكنيسة السابق الاب نيقولاي ، ويدعى ايفان نيقولافيتش بندكتوف، وانه كان يرتدي بذة عسكرية روسية ، وقد سأله عن ابيه ، ثم غادره برفقة الالمان ، وهو مقتنع من ان الشخص المذكور عميل للعدو .

لم يستطع بروتسنكو ان يتأكد مما اذا كان السبب الرئيسي الذي دفع بالشيخ الهرم لعبور الخطوط كان ناجما عن رغبته في التبليغ عن بندكتوف هذا ، فلقد انتهى استجوابه مبتسرا في روايته لهذه الحادثة لذلك سأل بروتسنكو بلهجة غاضبة :

ـ لماذا لم يتابعوا استجوابهم لهم عن بندكتوف ؟

فأجاب الطبيب قائلا :

ـ لقد فقد وعيه ، وقد جرى استجوابه في حضوري فرد بروتسنكو سائلا :

ـ من الذي استجوبه ؟

فأجــاب فوستريكوف :

ـ انه يوشنكو .

ـ استدعه الي فورا .

قال بروتسنكو هذا ثم عاد ليحدق في محضر الاستنطاق ومن ثم فـي الشيخ واخيرا قال :

ـ ولتدع الي سباروف بسرعة ، وانني سأجلس هنا منتظرا ، وليدخلا علي حال وصولهما .

كان بروتسنكو يقابل في فكره التقرير الذي رفعه اليه سباروف مـــن المستشفى عن فاسيلييف وبين اقوال هذا الشيخ ، وقد بدا له ان هناك اكثر من تشابه بين مارفعاه اليه . وبروتسنكو لا يختلف عن سباروف في ايمانـــه بانعدام وجود حتى فكرة للجاسوسية هنا ، وخاصة في الظروف الحالية التي تجتازها ستالينغراد ، وهو لا يريد ان يقبل بمثل هذه الفكرة اطلاقا ، لكـن تشابه اقوال سباروف والشيخ يدل على ان الجاسوس قد يكون هو نفسه الذي عناه الاثنان . وكان سباروف في هذه الساعة من الصباح الباكر قـــد خرج لتوه من خندقه الى الهواء الطلق . ولم تمض عليه سوى ساعات عشر منذ ان عاد ثانية الى كتيبته . لكن وصوله لم يتم حسبما توقع واشتهى ، فلقد بلغ الخندق في الساعة السابعة مساء ليجد ان فانين ومسلنكوف قد غادراه الى السرايا ، وعقب نصف ساعة ، عندما اعد نفسه للخروج والبحث عنهمـا بدأت المدفعية باطلاق نيرانها . ثم قام الالمان بهجمتين تحت ستر الظلام ، فغرق في فوضى عمله الروتيني الدفاعي ، كأنه لم يتغيب اطلاقا عن كتيبته ، فأخـذ يصدر اوامره بالهاتف ، وينقل مدافع المورتر من جناح الى اخر ، ويرســل بالامدادات الى السرية الاولى ، وقد استطاع ان يتدبر امره فيوجه كلمتين او ثلاثا الى مسلنكوف اثناء مرور هذا الاخير بخندقه ، لكنه لم ير فانين ، ولـم يتمكن من العودة الى خندقه قبل الساعة الرابعة صباحا .

كان سباروف قد اعتاد هذا النوع من القتال حتى الابتذال ، وكـــان يحس بضعف بالغ وصداع شديد ، ولم يكن يرغب في طعام او نوم ، لذلك وعقب

مضي ربع ساعة على عودته الى الخندق وضع معطفه على كتفيه وخرج ثانية الى الهواء الطلق . فشاهد بطيرس يجلس على مدخل الخندق ، وكانت الايام الاخيرة لم تبق من الرجال الا قلة القليل ، وهذا ما اضطر سباروف ان يقوم باعمال المراسل ، واحيانا حتى باعمال الحارس . وعندما شاهد بطيرس النقيب اتى بحركة مفاجئة ، اذ اراد ان ينتصب على قدميه فبادره سباروف طالبا اليه البقاء جالسا ، ثم اسند ظهره الى احدى العوارض الخشبية التي تعضد مدخل الخندق ، وبقي لمدة دقائق يصغي الى قصف المدفعية ، فالفى قصفها رقيقا غير عنيف ، وكان تمر بعض القنابل وتصفر فوق راسه كي تنقض على مكان ما يقع بعيدا على الشاطيء ، أو لتغوص في احشاء النهر .وبادر سباروف بطيرس سائلا :

ــ هل تغيبت طويلا عنكم يابطيرس ؟

فأجاب بطيرس وهو يرتجف :

ــ نعم جد طويل ايها الرفيق النقيب .

فلاحظ سباروف رجفته وساله :

ــ ما بك ؟ هل تشعر ببرد ؟

ــ قليلا !

ــ فادخل الخندق ، والتمس فيه الدفء وساقوم بالحراسة مكانك .

انفرد سباروف بنفسه ، والتفت اولا يسرة ثم يمينا ، واخذ يتأمل فيما امامه وحوله ، فضوضاء القتال وهرجه ومرجه لم يترك له فرصة للتأمل فيما حوله ، وهكذا .وجدته يحملق ويحدق ويمعن النظر في كل ما يقع عليه بصره ، وقد اذهله منظر ستالينغراد في الليل . فستالينغراد كما خيل الى سباروف قد تغيرت خلال فترة غيابه عنها الى حد يكاد معه لا يعرفها . فلقد كان كل ما امامه يغص بالابنية ، نعم انها كانت ابنية نصف مدمرة ، لكنها كانت لا تزال مع هذا ابنية ، اما الان فقد رجفت بها الراجفة فامست قاعا صفصفا ، وقفرا ضنينا . حتى الابنية الثلاثة التي يدافع عنها سباروف لم يعد لها وجود ، فلقد امست مجرد اسس تقوم عليها انقاض الجدران ، لكن الاقسام السفلية للنوافذ لا تزال موجودة في اماكن قليلة . ان جميع ما يراه الان سباروف يبدو له ،

كدمى الاطفال ، مهشما محطما ، والى يسار الابنية ويمينها يمر خطان غيرمتقطعين من الانقاض والخرائب . وفي اماكن اخرى كانت المداخن لا تزال تطاول باعناقها السماء . اما الان فقد ذاب كل شيء في الظلام ، واصبح يبدو كواد صخري غير ممهد . والبيوت تبدو كأنهـا اختفت في بطون الارض ، وترتفع الخرائب والانقاض فوقها كأنها كوم من تراب ترتفع فوق القبور .

اخذت الدهشة على سباروف لبه وجنانه ، فخاطره يتساءل الان عمـا اذا كان من الممكن حقا ان تؤول حال ستالينغراد خلال الايام الثمانية عشرة التي تغيب عنها الى ما آلت اليه ، ولذا فان سباروف يحس الان لاول مرةبهول المعارك التي اتخذت مما حوله ميادينها .

وخرج بطيرس من الخندق وبادره يقول :

ــ ايها الرفيق النقيب ان الجنرال يستدعيك .

ــ هل يطلب حضوري فورا .

ــ نعم فورا .

وعندما دخل سباروف خندق مرافق الجنرال الفى بروتسنكو لا يزال جالسا على سرير الميدان ، وشاهد يوشنكو الكلف بمكافحة الجاسوسية يجلس بالقرب منه وراى الشيخ لا يزال مضطجعا على فراشه مفتوح العينين ، يئن بين فترة واخرى وسمع بروتسنكو يسترسل في استجواب الجريح ويقول :

ــ اي نوع من الرجال كان ذاك ؟

وسمع الشيخ يجيبه وهو يصر على اسنانه :

ــ اي نوع ؟! ارجوكم ارفعوني على سريري عاليا قليلا فانحنى فوستركوف فوق الشيخ وبدأ ينهضه قليلا لكن بروتسنكو اعترض قائلا :

ــ ان هذا مما يسيء الى حاله .

لكن الشيخ سارع ليقول :

ــ من الافضل ان تنهضوني ، فانا احس بان الدم يكاد يتدفق من حلقي . . ان من تسألني عنه رجل طويل القامة عريض المنكبين ، خفيف الشعر ويرتدي بزة كبزتـك .

انحنى بروتسنكو نحو سباروف ,واطلعه على الموضوع الذي جاء به الشيخ ثم التفت الى الشيخ وقال :

تابع حديثك يا جدي !

فأجابه الشيخ :

ــ هذا كل ما عندي ، وأي شيء اخر يمكن لي قوله ؟ لقد عشت على مقربة من ابيه طيلة اربعين سنة وكان ابوه رجلا صالحا ، اما هو فابن عقيم ، ولم يكن يصلح لاي عمل . وحالما جاء برفقة الجنود الالمـــان ادركت انه ليس اسيرا ، ولم اصدق ما قاله لي للحظة واحدة . والتفت بروتسنكو الى سباروف وقـــال :

ــ سله يا الكسي ايفانو فيتش ، عما اذا كان ذاك المرء عصفورك ام لا .

ارتبك سباروف ارتباكا شديدا ، ,وذلك لانه لم يتوقع اثارة هذا الموضوع ثانية ، ولاطلالة هذا الرجل الغريب المحتضر عليه ، فوجه اليه عدة اسئلة عاجلة عن مظهر الجندي الذي شاهده,وعن اشاراته ،وعما اذا كان يعلق وساما على صدره، فأجاب الشيخ ببطء وبصعوبة وبلهجة لامبالية ، فلقد سبق له ان قال كـــل شيء يعرفه عنه ، وهو يمر بدقائقه الاخيرة ، لذلك فالالم والموت هما اللذان يستأثران الان باهتمامه وتفكيره . وهو لا يعرف اي شيء عن اشارات الرتب العسكرية ، اما فيما يتعلق بالوسام فانه قد شاهد على صدر الجندي وساما، ثم صمت قليلا وعاد يكرر قائلا :

ــ نعم لقد كان يحمل وساما ، نعم لقد كان هناك ,وسام على صدره .

قال هذا واغمض عينيه وخيم على الخندق صمت رهيب ، ثم فتح عينيه ثانية وابدى بقوة خارقة مدهشة السبب الاساسي الذي حمله الى هنا ، والدافع الذي دفع بشيخ هرم مريض تاعس ليتسلل من خطوط النار ويقتحم مخاطرهـــا ليصل الى الخطوط الروسية ، اذ قال بصوت متهدج بالغضب :

ــ لقد سمعته يقول بانه يريد ان يكون قاضيا عقب انتصار الالمان ، ليحاكم قادتنا ، لكن وياللعار فهو قد اتى بقضاة غرباء ، لقد كان يطمح الى ان يبرهـــن على انه كان مصيبا ، اما ماتساقط ويتساقط حوله من قتلى ، فهذا واقع لايهمه من قريب أو بعيد .

وعقب ان قال الشيخ هذا تثاءب وهدأ ثم اغمض عينيه الى الابد ، وارتعش صدره رعشة او رعشتين ، حاول اثرهما ان ينهض رأسه ، لكنه تهاوى اخيـرا على السرير قرابة الحائط ، فرفع الطبيب كم سترة الشيخ ، واخذ يفتش عـن نبضه بين غضون رسغه ، وعندما وجده وجسه قليلا قال :

ــ لقــد انتهى .

فهب بروتسنكو منتصبا على قدميه ورأى سباروف في وجه رئيسه تعبيرا لم يره ابدا من قبل ، تعبيرا عرف فيه الحزن الذي لم يستطع بروتسنكو ان يخفيه ، والتفت الجنرال الى سباروف وقال :

ــ هذه هي خاتمة قصتك .

ثم عاد بروتسنكو وحدق طويلا في الشيخ واسترسل يخاطب سباروف :

ــ كان من الممكن ان تصادفه قبل الحرب ، ولا شك ان مصادقتك لهحينذاك كانت لن توحي اليك بأي شيء عنه ، أطيبا كان أم رديئا . لقد عاش طيلة اربعين عاما الى جانب كاهنه، وكان يغلق ابواب الكنيسة ويتسلق القبة ليقرع الجرس في الآحاد والاعياد ، ولكن هناك شيئا ما في الفرد الروسي ، يا الكسي افانوفيتش شيئا ما يتجلى بأروع مظاهره ، عندما يكون الفرد الروسي اعزل من السلاح ، اعزل من كل ماهو متوفر لي ولك الان ، ففي الفرد الروسي الاعزل ، قوة خاصة لاتقهر ... حسنا اين انت يا فستركوف ؟ فلنحفر له قبرا قبل ان تباغتنـــا الشمس ، وليكن قبره تحت الجرف ،وقريبا من الفولغا ، واصطحب معك عشرة جنود ببنادقهم ، كي يطلقوا النار تحية لذكراه ، واعلمني حينما تعده للدفن لأحضر دفنه .. فلنعد الى خندقي يا الكسي ايفانوفيتش ، لنجلس ولنتحدث .

وعقب ساعة من الزمن دوت بنادق عشر بارعادة هشة واحدة تناقـــل أصداءها هواء الصباح البارد فوق ضفاف الفولغا وسطحه ، وكان سباروف اذ ذاك يقف الى جانب بروتسنكو امام قبر حفر تحت الجرف ، واخذ سباروف يردد كلمات بروتسنكو بينه وبين نفسه :

ــ نعم هذه هي خاتمة تلك القصة .

وفجاة اخذ شعوره الثقيل الوطأة الذي باغته تلك الليلة حينما كان برفقة فاسيلييف يتلاشى قليلا قليلا حتى اختفى تقريبا ، فالشر الذي وقف فاسيلييف الى جانبه ، والذي اقلق سباروف طويلا ، على المدى الطويل ، لايستحق المقارنة ابدا بقوة هذا الرجل الشيخ ، وبطريقة موته واستشهاده .

- ١٧ -

مرت ايام اربعة ، واستيقظ سباروف في ساعة متأخرة من الصباح ، ورأى ، في دهشة ، النور يتسرب من باب خندقه ، فاستنتج من الضوء انه قد نام طيلة ساعات ثمان ، وبدا له ان فانين ومسلنكوف اللذين كانا لا يزالان يعتبرانه مريضا لم يريدا ايقاظه ، وانهما قد خرجا دون ان يصطحباه . فاخذ سباروف يصيخ السمع ، فالفى كل شيء هادئا صامتا . حتى انه لم يكن هناك تقريبا مـن اصوات نار ،وهذا امر بدهي في نظر سباروف ،فالهجمات المتتالية يجب ان يعقبها شيء مـن هدوء .

ارهف سباروف سمعه ثانية ، حقا انهلامر غريب ، فكل شيء هاديء لابل صامت ، وفجأة راى فانين يهرول نحوه ويقفز درجات الخندق قفزا ويبادره سائـلا :

ـ هل استيقظت ؟

ـ لكنني طلبت اليك ان توقظني .

فـرد فانين :

ـ ولماذا اوقظك ؟ وخاصة ان كل شيء هاديء وعلى الاقل لهذه المرة الواحدة

ـ هل كنت تقوم بزيارة السرايا ؟

ـ نعم لقد زرت السرية الثانية .

فعاد سباروف يساله :

ـ كيف هي الحال هناك ؟ هل من شيء جديد او خاص ؟

فاجاب فانين :

ـ لم يطرا اي جديد حتى الان ، والحال هي كما تصفها البلاغات الرسمية،

اي ان القتال مستمر في منطقة ستالينغراد .

كان فانين قد اكتسب فجأة اثناء وجود سباروف في المستشفى القدرة على السخرية المحببة المرحة التي كانت تنقصه من قبل ، وعاد سباروف ليسأله:

ـ ماهو عدد الاصابات هذا اليوم ؟

ـ لم يقتل حتى الان سوى جندي واحد ، وقد اصيب خمسة بجراح .

فعلق سباروف قائلا :

ـ انه لعدد ضخم !؟

ـ لكنه جد قليل اذا ماقيس بتشكيلاتنا السابقة ، وضخم اذا ماقورن بالحالية ، غير اننا لن نرسل الى المؤخرة بغير جريح واحد ، اما الاربعة الاخرون فلقد عقدوا العزم على البقاء بيننا .

ـ لكن أيستطيعون حقا البقاء هنا ؟

فرد فانين :

ـ كيف لي ان اعلم ؟! بصورة عامة يجب الا يبقوا هنا ، لكن الظروف الراهنة تجعلهم قادرين على البقاء بيننا .

ثم اردف فانين سائلا :

ـ كيف حالك ؟ هل تشعر بتحسن ؟

ـ نعم ، ولكن اين مسلنكوف ؟

فضحك فانين وقال :

ـ لقد ذهب يتفقد السرية الاولى ؟! هل تعلم ايها الرفيق النقيب اننا لم نعتد بعد على الحقيقة الراهنة والقائلة بان كتيبتنا لم تعد كتيبة ، وهكذا ترانا لانزال نقول :

سرايا ، فصائل ، حظائر ، فكتيبتنا اصبحت منذ زمن طويل سرية ، لكننا لانقر بهذا الواقع ابدا .

فأجابه سباروف :

ـ علينا الا نقر به ابدا ، فعندما نقر ياصديقي باننا لم نعد كتيبة بل سريـة، فعندئذ علينا ان ننسحب من بنايتين من هذه البنايات الثلاث ، فالسرية لاتستطيع ان تدافع من ثلاث بنايات ، فالدفاع عنها يحتاج الى كتيبة كاملة ، لذلك فـان اعترافنا بصيرورتنا سرية يكلفنا ثمنا غاليا ان لم اقل فادحا ، وهذا مايعني ايضا نفـاذ قوانـا .

فرد فانين :

ـ لكننا احيانا لانجد جنديا واحدا متوفرا لدينا

ـ هل تعلم ؟ انني اعتقد بانك قد اصبحت متشائما .

فأجاب فانين :

ـ قليلا ، فانا انظر الى هذا المكان الذي كان فيما مضى مدينة ، ثم احس بألم عنيف يعصر فؤادي عصرا ، الا يحق لقلبي ان يتألم ؟

ـ كلا لايحق له ذلك .

ـ اذا كان لايحق له ، فاذن يجب الا يحق له .

وعقب فترة من صمت استرسل فانين :

ـ لقد اعلمني مسلنكوف بشيء ما عن اعتزامك الزواج .

فاجاب سباروف :

ـ نعـم .

كان فانين يعرف بتفاصيل هذا الموضوع من قبل ، لكنه لم يسمح للسانـه حتى الان ان يفوه بكلمة عنه ، وهكذا وجدته يسأل ثانية :

ـ وحفلة زفافك متى ؟

ـ سأقيم مثل هذه الحفلة في يوم ما .

ـ متى ؟

ـ بعد انتهاء الحرب .

فأجاب فانين باسما :

ـ كلا لا اوافقك على هذا ، فهو مما لايفي بالمراد .

ـ لـماذا ؟

ـ لانـك لن تدعوني عقب الحرب الى حفلة زفافك .

ـ سأدعوك .

فرد فانين :

ـ كلا ، فهذا هو مانقوله دائما في ايام الحرب ، فنحن نقول ، سنلتقي بعد انتهاء الحرب ثانية .. كلا لن نلتقي ثانية بعدها ، فانت ستكون في مكان وانـا في اخر ، وانا اريد حقا ان ابتهج بزفافك .. هل تعلم ؟ بانني كنت احس اثناء غيابك عني بوحشة وتوحد ، وانني حقا لأعجب من احساسي هذا ، فاننا لـم نتحدث في الواقع معا اكثر من مرات خمس ، ومع ذلك فلقد شعرت بملل وضجر شديدين طيلة وجودك بعيدا عنا ، لهذا ارجوك الا تؤجل حفلة زفافك طويلا .

شاهد سباروف على وجه فانين أثار عاطفة مكبوتة ، فمهمته جعلته يفكـر بالاخرين ، ويرعاهم ويتعاطف معهم ، ولم يخطر له ابدا فيما مضي ، انـه هو نفسه في حاجة الى من يرعاه ويتعاطف معه ويعطف عليه ، وانه قد تنتابـه، وقد انتابته الهموم والخطوب التي تنتاب وانتابته الاخرين من الناس ، ولهذا وجدت سباروف يجيبه :

ـ حسنا ! سمعا وطاعة ايها القومسير ، فاذا ماكان علينا ان نقيم حفلـة الزفاف هنا ، اذن فهنا يجب ان تقام .. لكن أبمقدورنا ان نختار معا اليوم الذي نحـدده لهـا .

ـ كلا اختره انت ، واختيارك نقره معا .

فسأله سباروف :

ـ الا ترى انه من المستحسن ان نستشير الالمان في هذا الموضوع ؟

فهز فانين رأسه وقال :

ـ كلا ! لماذا تستشيرهم ؟ فانت اذا ما استشرتهم فعندئذ لن تعيش لترى حفلة زفافك .

ـ وبهذه المناسبة اين يقيم اهلوك ؟

وجه سباروف هذا السؤال الى فانين وهو يحس بتأنيب باطني ، وتوبيخ ضمير ، لانه بدا يسلك مسلك بابشنكو ، ولانه لم يجد الوقت او الفرصة التي تمكنه من سؤال الرجال الذين يحاربون معه جنبا الى جنب ، من اهليهم وعائلاتهم ومحال اقامتهم ، وقطع فانين عليه هذه التاملات ليسأله :

ـ ماذا تعني بعائلة ؟

ماكاد فانين يوجه هذا السؤال حتى تحول وجهه فجأة الى قطعة من جليد وصلب ، لكن سباروف عاد ليقول :

ـ نعم أهلوك وعائلتك ، اين يقيمون وكيف حالهم ؟

ـ لن نتحدث عن هذا الموضوع .

فسأله سباروف عاجبا :

ـ ولماذا لانتحدث عنه ؟

ـ لا لن نتحدث عنه ، لاننا لانريد ، فانا لااعرف شيئا عنهم ، وليس هناك من شيء يقال .

عقب ان تفوه فانين بهذه الكلمات غرب بوجهه عن النقيب ، وبدأ يشغل نفسه بالاوراق الموجودة على المكتب ، وصمت سباروف ثم اجتلس سرير الميدان على صورة يطلب من ورائها راحة اكثر ، واسند ظهره الى الحائط ولف لنفسه لفافة ثم اشعلها .

دفعت كلمات فانين عن حفلة الزفاف سباروف الى التفكير ثانية « بآنيا » التي لم تبتعد ابدا عن خاطره طيلة الايام القليلة الماضية . ومنذ ان افترقا عند ضفة النهر لم يرها سوى مرة واحدة . وكان سباروف عقب عودته الى مركزه ثانية بثلاث او اربع ساعات قد تحقق من الضراوة الشديدة التي بلغها القتال وايقن من ان كل مارسمه وآنيا سيؤول الى غير ماتوقعاه ، وقنع من ان قرارهما بالبقاء معا ، قداتخذاه دون ان يعتبرا الظروف المحيطة بهما . واتضح له ان مابدا له في المستشفى هينا يسيرا ، « واعني طلبه من بروتسنكو ان يأمر بجعل آنيا ممرضة في الكتيبة » هو في الواقع طلب غير ملائم او مناسب ، وهذا مما ارغمه على الا يفتح فمه عن هذا الموضوع امام الجنرال . ولم ير آنيا سوى عقب ثلاثة ايام من فراقهما ، وكان ذاك اليوم الذي اجتمع اليها هو اليوم السابق للامس ،

وقدالتقى بها قريب المساء ، ومعانهما جلسا آنذاك معا مدة من الزمن تنوف على ربع الساعة ، فان ايا منهما لم ينبس ببنت شفة عن القرار الذي اتخذاه علـــى ضفة النهر ، والحق أن سباروف كان عميق الامتنان منها لانها لم تثر هذا الموضوع فهو كغيره من الرجال ، يكره اشد مايكره في هذا العالم ، ان يذكر بعجزه وضعفه، ولا يهم ماقاله لها على تلك الضفة ، فسباروف الان في وضع لايمكنه من تبديل اي شيء وعليه ان يترك للامور ان تسير في مجراها . وكانت حينذاك آنيا قد دخلت عليه عقب ان عاد من صد احدى الهجمات الالمانية ، وكان اذ ذاك يجلس في الخندق الى مسلنكوف . وقد دخلت عليهما واتجهت بخطى سريعة نحـــو سباروف ، وقبل أن يتمكن حتى من الوقوف ، ضمته بساعديها وامطرته بعدد من القبل ، ثم اتجهت الىمسلنكوف وصافحته مصافحة حارة ، وقد اوحت انذاك جميع حركاتها ونظراتها الى سباروف ان آنيا لن تثير الموضوع القديـــم ثانية ، لكنها لاتزال تعتبر نفسها زوجته ، وهي تريد بقدومها ان تشعره ، لا بل تعلمه ، بانها لم تنس من الامور امرا ، ولم يتبدل من الاشياء شيء . وكـــان مسلنكوف قد خرج آنذاك من الخندق ، ولم يبذل سباروف او آنيا أي جهـــد لابقائه بينهما ، وسباروف كان يعلم بانه لو كان هو مسلنكوف لما قام الا بما قام به رفيقه . وقد جلسا حينذاك لمدة عشر دقائق جنبا الي جنب على سرير الميدان الصغير ، وكان كل منهما يحيط الاخر بذراعه ، مسندين ظهريهما الى الحائط . ولم يكن يومذاك من امر يرغبان في الحديث عنه ، ولربما بدا لهما انه مهما قالا ومهما تحدثا ، فانه يبدو معدوم الاهمية الى جانب كون جلوسهما جنبا الى جنب، حقيقة وواقعا ، وذلك بالرغم مما كان يدور حولهما . لقد كانت تلك الدقائـــق العشرة دقائق تتدفق بالسعادة والغبطة ، كريمة في نقائها ، ولم يعكر صفوهـــا خاطر واحد من خواطر المستقبل ، وسباروف لم يسألها حينذاك اين تقصد ، فهو يعلم بانه جاءت لتنقل الجرحى ، ولم يخبرها يومذاك بعدد الجرحى فـــي كتيبته ، فهي تعرف به على كل حال ، ولم يسألها حتى عما اذا كانت قد تناولت شيئا من الطعام ، فلقد كان يطغي عليه حينذاك احساس بان هذه الدقائـــق العشرة ، هي دقائقهما كي يجلسا هنا هادئين صامتين ، وعندما انتصبت آنيـــا واقفة كي تغادره ، فهو لم يحاول حينذاك ان يمد بفترة بقائها معه . ومنذ ذاك اليوم لم يرها ثانية ، وبالامس فقط جاءت سباروف ممرضة اخرى وسلمتـــه رسالة من آنيا كتبتها على قصاصة ورق ، وكانت تلك الرسالة تتضمن فقـــط الجملة التالية :

« انني موجودة الان في فوج ريمزوف ــ آنيا ــ »

ولم يغضب سباروف او يتألم لان رسالتها اليه كانت مبتسرة مقتضبة ، فهو واثق من ان الكلمات لا تستطيع أن تعبر عن « حجم » ما بينهما ، فآنيا تريد فقط ان تعلمه بانها لا تزال حية ، وتخبره بالمكان الموجودة فيه ، وقد خيل الى سباروف آنذاك وهو يقرأ الرسالة ، أنه ربما كانت آنيا تلك الدقيقة في مقر قيادة ريمزوف، ولا يفصله عنهذا المقر سوى خمسماية خطوة، لكنها خمسماية خطوة مستحيلة .

انفجرت قنبلة في مكان ما يقع مباشرة فوق سطح الخندق ، ثم انفجرت قنبلة ثانية فثالثة هزت الارض هزا ، فتطلع سباروف الى ساعته ثم ابتسم ، اذ بدا له ان الالمان لا يزالون مدمنين كعادتهم على التوقيت الصارم ، فالالمان قلما خرجوا على التوقيت الذي اعتادوه ، وعلى الساعة التي يحددها منهاجهم ، لذلك فهم يمطرونهم الان بالقنابل ، اذ ان الساعة قد حانت ، فخرج سباروف من خندقه دون ان يرتدي معطفه وقصد خندق المواصلات ، وكان كل شيء يرعد من حوله بهزيم المدافع وبادر فانين قائلا وهو يصيح في اتجاه مدخل الخندق :

ــ على ما يبدو ان شيئا ما قد بدأ ، فهيا خابر الفوج .

ــ انني احاول الاتصال به ، لكن الخط مقطوع .

عندئذ صاح سباروف في بطيرس وقال :

ــ ارسل نجابا يا بطيرس .

فتسلق بطيرس خارج الخندق ، وعدا الامتار العشرة التي تفصله عن خندق النجابين ، ثم تغيب لمدة نصف دقيقة ، وعاد يتقدم جنديين من جنود سلاح الاشارة اللذين انطلقا يعدوان بين الخرائب في اتجاه مقر قيادة الفوج ، وكان سباروف يراقبهما وهما يعدوان ، فكانا يعدوان لمدة دقيقة مكشوفين ، ثم يختبئان بين الخرائب او ينبطحان ارضا اثر انفجار شحنة من القنابل على مقربة منهما ، ثم ينتصبان ليعدوا ، ثم ينطرحان وهكذا دواليك ، وقد تابع سباروف شخصيهما الصغيرين ببصره لمدة دقائق قليلة غابا اثرها عن ناظريه وراء ركام الابنية وحطام البيوت . وفجاة صرخ فانين من الخندق :

ــ بدأ التلفون يعمل .

فاتجه سباروف عائدا الى الخندق وهو يجيب على فانين سائلا :

ـ ماذا يقولون ؟

فأجاب فانين :

ـ انهم يقولون بأن المدفعية الالمانية تقصف الآن كامل خطوط الفرقة، وانه من الجائز ان يبدأ الالمان بالاندفاع على طول جبهة الفرقة .

فسأل سباروف :

ـ الا يزال مسلنكوف عند السرية الاولى .

ـ نعم .

ـ اذن فلتبق هنا يا فانين ، فسأقصد انا السرية الثانية .

حاول فانين ان يعترض على قرار رئيسه ، لكن سباروف لم يمهله ، اذ انه ارتدى معطفه وهو ينتفض الما وخرج . اما ما حدث طيلة الساعات الاربعة التي اعقبت قصف المدفعية فانما كان من الصعب جدا على سباروف ان يتذكر اي تفصيل من تفاصيله . ولحسن الحظ كانت مواقع الكتيبة على مقربة جد وثيقة من الالمان ، لذلك عزم هؤلاء على الا يستخدموا الطائرات ، لكنهم قذفوا الكتيبة بكل سلاح آخر يملكونه ، وقذفوها بغزارة لم تألفها الكتيبة من قبل . وكان الالمان قد أقاموا تلالا من الفولاذ والاجر في الشوارع بلغ ارتفاعها حدا ، جعل من المستحيل على دباباتهم ان تتقـدم نحو مراكز سباروف ، ومع ذلـك كانت الدبابات تعصر طاقاتها عصرا ، لتنطلق اماما وقد بلغت تقريبا البنايات التي كان جنود سباروف ينتظرونها فيها ، فاخذت تطلق من وراء الجدران المهشمة مدافعها من عيار ٣٧ مم ، فتتالت الانفجارات ، مرافقة بثرثرة الرشاشات وازيز البنادق المتواصل . وقد غمرت الانفجارات القريبة سباروف بالتراب مرارا . وتطور القتال فتجاوز ذروتـه ، وبدا لسباروف ان احساسه بالخطر ، هـذا الاحساس الذي يشعر به جميع الرجال حتى في اشد ساعات الخطر هولا، قد تلاشى ، فالخطر امسى لا حد له ، وغدا جاثما فوق انفاس كل لحظة ودقيقة، ولا شك ان الجنود المقاتلين تحت امرة سباروف أحسوا بما أحس هو به ايضا . ونحن اذا ما قلنا بأن سباروف كان يقودهم في هذه اللحظات ، فان في قولنـا هذا شيئا اكثر من الحقيقة ، فهو كان يقاتل الى جانبهم ، وكانوا هم يقومـون

بما يتوجب عليهم القيام به دون حاجة الى قيادة او أمر ، فكان كل ما عليهم ان يفعلوه هو ان يبقوا حيث هم ، وان يرفعوا برؤوسهم في اللحظة المناسبة، الى اقل انخفاض ممكن ويطلقون النار ، يطلقون النار التي لا نهاية لها علي الالمان المتقدمين زحفا او العادين او القافزين من وراء كومة من الانقاض الى وراء اخرى . واحس سباروف في بدء القتال ، بان كل النيران مسددة اليه تسديدا مباشرا ، وبان القتال يستهدفه شخصيا ، وان كل من يتحرك او ما يتحرك ، أو ينطرح ارضا او يسير او يعدو ، فانما كان يتجه مباشرة الى المكان الذي يقف فيه . واخذ تدريجيا يشعر بدلا من ان يفهم ، بان الهجمة التي يشنها الالمان تستهدف الميمنة منه ، وبان الالمان قد عقدوا العزم هذا اليوم على فصل فوجه عن جيرانه من الافواج الاخرى ، وعلى بلوغ ضفة الفولغا . ولقد امسى هدف الالمان هذا في نهاية الساعة الرابعة للقتال جليا واضحا ، وهكذا انتقل سباروف من السرية الثانية الى السرية الاولى التي كانت وطأة القتال مركزة عليها، والتي كانت ايضا حلقة الوصل بين الفوج المجاور والفوج الذي تتبعه كتيبته ، وامر بجر بطارية مدافع المورتر التابعة لكتيبته وراءه . فاعترض آمر السرية الثانية بوتابوف .وامتعض من فعلة النقيب وهو يقول :

ـ ايها الرفيق النقيب ...

فقاطعه سباروف سائلا :

ـ نعم ماذا ؟

فأجابه بوتابوف وهو يشير بيديه وصوته يرتجف غضبا :

ـ انك تأخذ مني آخر ما لدي من مدافع مورتر .

ـ ان وطأة القتال على السرية الاولى اشد واعلى من هنا ، وسأعيد اليك مدافعك خلال ساعة . وعليك الا تفكر في نفسك فقط ايها الرفيق بوتابوف .

ولا شك ان سباروف كان سينتهر بوتابوف لو ان الظروف كانت غير هذه، لكن سباروف يشعر بان السبب الاساسي لغضب بوتابوف ، ليس سببا شخصيا بل انما يعود اولا .واخيرا الى رغبته في توفير الحماية لسريته ، وعمل سباروف هذا يجرد سريته من مدافع المورتر . وهكذا وجدت سباروف يستطرد مخاطبا بوتابوف ويقول :

ـ الا ترى يا ايفان اليش كما ارى ؟ ان الالمان يضغطون الآن عـلى فوج ريميزوف ضغطا شديدا ، وقد يخترقون مواقعه ويبلغون الفولفا ، لهذا يتوجب علينا ان نضرب جناحهم ، هيا اصدر اوامرك كي يسرعوا بجر المدافع !

قال سباروف هذا، وهو يحدق فيوجه بوتابوف كي يتأكد من ان بوتابوف قد فهم ووعى ما عناه ، ثم مد اليه يده وهو يقول :

ـ فلتثبت في مراكزك ، وانت تستطيع ان تصمد دون مدافع المورتر ، وانا مؤمن بهذا وقانع .

وعندما وصل سباروف السرية الاولى الفى ان الجحيم نفسها قد تفجرت نيرانا وبركانا ، وشاهد مسلنكوف يقطر عرقـا ، ورأى وجهه مضرجـا بحمرة الاثارة والصراع ، ولم يكن مسلنكوف يرتدي معطفه ، وكانت ياقة سترته محلولة الازرار ، وشاهده سباروف يجلس مسندا ظهره الى بقايا جدار ويغترف بملعقة اللحم من داخل علبة تنكية ، ورأى جنديين منبطحين ارضا بالقرب من مسلنكوف وراء مدفع رشاش وحالما شاهد مسلنكوف سباروف بادر يقول :

ـ احضروا ملعقة للنقيب !

ثم اردف :

ـ هيا اجلس يا الكسي ايفانوفيتش ، ولتتناول شيئا من الطعام !

جلس سباروف الى جانب مسلنكوف واغترف له عدة ملاعق من العلبة وازدرد معها بعض لقيمات من خبز ثم سأل :

ـ ماذا تفعل برشاشك هنا ؟

فأجاب مسلنكوف :

ـ انظر هناك !

قالها وهو يشير بيديه امامه الى قطعة من جدار لا يزال عالقا بها قطيعة من سلم ونافذتان تطلان على الالمان ، وتبعدان قرابة خمسين مترا عن مكـان سباروف ، وعقب ان شاهد الرئيس مـا اشار اليه مسلنكوف ، انطلق هـذا يشرح خطته وقال :

ـ لقد امرت بنقل هذا المدفع الرشاش من مكانه، وسنزحف انا والجنديين

الى هنالك ، وسنطلق النار على الالمان من النـافذة ، فانت تستطيـع من تلك النافذة ان تراهم كما ترى راحة كفك .

فاجابه سباروف :

ــ لكنهم سيصرعونك بقنابلهم .

ــ كلا لن ينالوا منا وطرا .

فرد سباروف :

ــ سيصيبونك من اول طلقة وذلك حالما يشاهدونك .

ــ كلا ! لن يحققوا بغيتهم منا .

كان مسلنكوف يعرف تماما بان ما يقوله رئيسه صحيح وواقع ، لكنـه أصر على رأيه اصرارا عنيدا ، فهو واثق من ان الالمان اذا ما شاهدوه ورفيقيه فانهم سيصطادونهم ، وثقته هذه هي التي جعلته يوطد العزم على الزحف الى بغيته مهما كانت الحال . لكنه مع هذا كان يشعر شعورا غريزيا بالرغم من كل هذه الاحتمالات بان الالمان لن ينالوا منه وطرا واستطرد مسلنكوف يقول :

ــ لقد استولوا على كامل المركز رقم ٧ الواقع الى يميننا ، وهم يضغطون الان ضغطا شديدا على ريميزوف .

فاجاب سباروف سائلا :

ــ الا يزالون يطلقون النار من المركز رقم ٧ ؟

فرد مسلنكوف :

ــ كلا ، فمن الجائز انهم جميعا قد قتلوا ، واذا ما سارت الامور عـلى هذا المنوال ، فان الالمان لا شك سيقطعـون هذا اليوم كل اتصال لنـا بفوج ريميزوف .

ثم اشار مسلنكوف الى المدفع الرشاش واستطرد :

ــ لكننا سنضع هذا في النافذة ، ومن هناك سنسمر آذانهم ونصدهم ، وهذا مما يساعد قليلا على ان نفوت على الالمان مبتغاهم ، اليس كذلك ؟

فاجاب سباروف :

ـ حسنـا !

ـ هل تسمح لي بان انطلق ؟

ـ فلتنطلق !

التفت مسلنكوف الى الجنديين اللذين كانا ينتظران اوامره ، ثم اومأ اليهما فتبعاه ، وانطلقوا ثلاثتهم من وراء متراسهم ، وتقدموا بمحاذاة اسس البناية ، وكانوا آنا يعدون ، وحينا ينبطحون ارضا ويزحفون وبعدها يعودون ليركضوا ثانية . وكان باستطاعـة سباروف ان يرى بوضـوح كيف وصلوا سالمين الى البناية ، وكيف تسلقوا ركامها ، وكيف اخذوا يتسلقون زحفا بقية السلم، ولكن في هذه اللحظة بالذات ، انفجرت عدة قنابل بالقرب من الخندق الذي كان يقف فيه سباروف ، فانبطح ارضا التماسا للنجاة ، وعندما انتصب واقفا من جديد رأى مسلنكوف والجنديين قد بلغوا النافذة وتمركزوا فيها واخذوا باطلاق نيران مدفعهم الرشاش . وعقب بضعة دقائق بدات القنابل الالمانية تنقض حول بقايا الجدار ، لكن مسلنكوف تابع اطلاق النار ، وفجأة غلفت سحابة من دخان وغبار كامل الجدار ، وعندما انقشع الدخان ، استطاع سباروف ان يرى ان الثلاثـة كانوا لا يزالون يطلقون النار ، وان قنبلة المانية قد فتحت ثغرة هائلة في الجدار تحتهم ، واصابت قنبلة اخرى الجدار لكن في موضع اكثر انخفاضا من الموضع الاول ، لكن مسلنكوف لم يكف عن اطلاق النار ، ثم انفجرت قنبلة ثالثة في موضع اعلى من سابقه ، فشاهد سباروف احد جنود مدفع الرشاش يلوح بذراعيـه الى الوراء كأنه يقوم بغطسة خلفية ثم يرتمي من النافذة في الطابق الثالث على الحجارة المتراكمة فوق الارض ، وقال سباروف حينما شاهده ، ان هذا الجندي حتى لو كان جريحا فالامر الآن سيان ، فهو لا شك قد تهشم حتى الموت . ورأى مسلنكوف لا يزال منبطحا على مزغل النافذة ، يحيط فمه براحتيه ويصيـح مناديا مرة ومرتين وثلاثا ، ثم يعود الى مدفعة الرشاش ويسترسل في اطـلاق النار . ومع ان الالمان كانوا قد رأوا مسلنكوف ، وكانوا لا يبعدون عنه سوى مسافة جد قصيرة ، الا انهم لم ينجحوا في تسديد ضربة مباشرة الى النافذة . وانطلقت قنبلة رابعة واصابت موضعا في الجدار يقع تحت موقع مسلنكوف، وما بين الطابق الثاني والثالث . وعقب عشر دقائق ، اذ بالجندي الثاني يقتل ويدور ، ولم يدر سباروف اكان هذا بسبب شظية او رصاصة ، لكنه شاهده يستعيد توازنه اخيرا ، بعد ان كاد يهـوي الى الارض ، ويجلس على حافـة

النافذة . فترك مسلنكوف المدفع الرشاش وزحف الى الجندي الجريح وبطحه ارضا بمحاذاة الحائط وعلى شكل يحفظه من الوقوع ، ومكث مع الجريح بعض برهة امضاها منحنيا نحوه ثم عاد الى رشاشه ، الذي امسى الآن راميه الوحيد.

تمكن الجنود في هذه الاثناء من جر ثلاثة من مدافع المورتر لباتابوف، اما المدفع الرابع فكان قد دمر خلال نقل هذه البطارية . وزحف سباروف مع طاقمها الى خرائب جدار الحديقة القديم حيث اتخذ منها مواقع لمدفعية المورتر . ثم باشر فورا باطلاق قنابل المورتر على البطارية التي كانت تطلق النار على مسلنكوف . لكن ما كادت البطارية الروسية تفتح نيرانها حتى اكتشف الالمان موقعها فامطروها بعشرات القنابل التي انفجرت ما حولها . وقد جرحت شظية الضابط الآمر للبطارية ، فحل سباروف محله وتوقف عن مراقبة مسلنكوف ، ولم يتجه ببصره نحوه الا في الفرص التي تتوفر بين اصدار الاوامر وتنفيذها ، فاضطر الالمان الى تبديل اتجاه تسديدهم فركزوه من مسلنكوف الى مدفعية المورتر الروسية ، وهذا مما هون الامر قليلا على مسلنكوف الذي بقي منبطحا وهو يطلق النار . وعقب برهة تطلع سباروف نحو مسلنكوف فرأى المدفع الرشاش وحده ولم ير لمسلنكوف اثرا فتساءل في نفسه عما اذا كانوا حقا قد اصطادوه هذه المرة ، لكن عقب مضي بضعة دقائق بدا مسلنكوف ثانية فوق الجدار ، فلقد كان قد استنزف ذخيرته فزحف وعاد بذخيرة .

حل المساء وانفجرت قنبلة بالقرب من سباروف وطمرته بالطين ، فخرج من مدفنه بصعوبة بالغة ، وشاهد شرارات ذهبية صغيرة تتألق امام عينيه فجلس واسند رأسه الى يديه وعقب هنيهة تضاءل عدد الشرارات ، وبدأ يرى كأن ما حوله قد غمره الضباب وزحف بطيرس نحو سباروف وسأله امرا فقاطعه سباروف متسائلا :

ـ ماذا ؟

فهمس بطيرس ثانية بكلمات لم يستطع ان يسمعها فأدار لبطيرس اذنه الاخرى فسأله بطيرس بصوت جد مرتفع جعل سباروف يعتقد بان احدى اذنيه قد اصيبت فجأة بالطرش ، وقال :

ـ آمل الا يكونوا قد اصابوك !

فأجاب سباروف :

ـ لم يصيبوني .

ثم رفع راسه فرأى ان معطفه ممزق من عند الصدر فما دونه وشاهد قميصه مقطوعا ، فلقد مرت به شظية قنبلة طائرة كادت تسحج جلده ، اما مدفع المورتر الذي كان سباروف يقف الى جانبه فلقد دمر تدميرا كاملا واطارت القنبلة بفوهته . وتابع الالمان اطلاق النار ، لكن اطلاقهم هذه المرة لم يكن اطلاقا متواصلا . وقد استنتج سباروف من نيرانهم انهم قد استطاعوا اخيرا من فصل فوج ديميزوف ، وذلك لان النار كانت تطلق الآن من ميمنة سباروف ، ومن اماكن اكثر انخفاضا ، اماكن قريبة جدا من الفولغا . فحاول ان يتصل هاتفيا بفانين ، لكن محاولته هذه ذهبت ادراج الرياح ، فلقد قطعت جميع الخطوط الهاتفية وفي عشرات الاماكن ، لكن القتال كما يبدو قد بدأت تخف وطأته ، وبادر سباروف سائلا :

ـ اين هو مسلنكوف ؟

فسمع صوتا يجيبه :

ـ هنا .

فتطلع سباروف نحو مصدر الصوت فرأى مسلنكوف أغزر عرقا وأشد انفعالا وتعبا مما كان عليه منذ ساعتين .

واستطرد مسلنكوف :

ـ اعتقد بانني رددتهم على أعقابهم .

فعاد سباروف ليحملق فيه فرأى كدمة زرقاء ضخمة تمتد على كامل طول وجنته فسأله :

ـ هل اصبت ؟

فاجاب مسلنكوف :

ـ كلا ! لقد قذفوا بي فقط ، هل تعلم انهم قد حطموا المدفع الرشاش لكنهم لم ينالوا مني وطرا .

فقال سباروف في سريرته ، انني لا شك سأوصي بمنحه لقب ووسام بطل الاتحاد السوفياتي ، وليقرروا هم ما يرون ، فهو والحق لبطل .

ثم قال بصوت عال :

ـ وجندياك ؟

فاجاب مسلنكوف :

ـ لقد سقط الاول من اعلى الجدار فتهشم ومات ، اما الثاني فجرح وجررته معي .

ـ حسنا فعلت ! لقد بدأت تزداد هدوءا .

ـ نعم انني لكذلك ، ولكن على ما يبدو لي ان الالمان قد بلغوا الفولغا على كل حال .

فأجاب سباروف :

ـ وهذا ما اراه انا ايضا .

صمت الاثنان لبرهة ، وفجأة تقدمت منهما ممرضة مترهلة الجسد ذلفاء الانف تتخطف انفاسها وتلهث وسألتهما عما اذا كان لديهما جرحى فاجابها سباروف :

ـ نعم فقط امامنا هناك ، فلتنتظري حتى يخيم الظلام وبعدئذ يمكنك ان تأتي بهم .

تخيل سباروف ، وهو يخاطب المرضة ، « آنيا » تزحف نحو احدهم مفتشة عن الجرحى في فوج ريميزوف ، هذا الفوج الذي فصل الالمان بينهم وبينه الآن وقطعت عليه المرضة تخيلاته هذه لتقول :

ـ سآتي بهم فورا .

فأجابها سباروف بخشونة :

ـ لا تزحفي الى هناك ! اياك ان تزحفي الى هناك !

وقد أمل سباروف وهو يمسك الممرضة عما اعتزمته ، في ان يكون الآن هناك ضابط آخر يمنع آنيا من الزحف لاحضار الجرحى . واردف سباروف يقول مخاطبا **المرضة :**

ـ خلال عشر دقائق سيخيم الظلام وعندئذ يمكنك ان تقومي بما تريدين .

فاضطجعت المرضة وحمالا النقالة على الحجارة ، ولو ان سباروف لم يقل « اياكم .والزحف الى هناك » لكانوا قد زحفوا ، ولكن لما كان سباروف قد منعهم من ذلك ، لهذا قد سروا بحصولهم على عشر دقائق من الراحة.

انفجرت وراءهم ، خمس عشرة أو عشرون قنبلة ، وكانت كل قنبلة منها تنفجر الواحدة منها اثر اخرى، لكن الفترة الفاصلة بين الواحدة والاخرى كانت فترة جد وجيزة . وبادر مسلنكوف :

ــ انهم يقومون بهجمتهم الاخيرة قبل الظلام ، الا تعتقـد ذلك يا الكسي ايفانوفيتش ؟

فأجاب سباروف :

ــ نعم .

ــ انهم يقولون الآن بان الجليد الاول يغطي سطح الفولغا .

فرد سباروف :

ــ هكذا يقولون .

اضطجع سباروف على الحجارة ، ورفع راسه علاء فلاحظ لاول مرة ان الثلج لم يكف ابدا عن هطوله ، واشاعت ندفه الكبيرة البليلة البرد في وجهـه المتورد ، لكنه سر به وارتاح اليه وخاطب مسلنكوف :

ــ اضطجع كما انا مضطجع !

ــ كيف ؟

ــ كما تراني ! انه لرائع !

فحذا مسلنكوف حذوه ، واخذ سباروف يراقب ندف الثلج وهي تهبط على وجهه ثم قال :

ــ اليس هذا بديعا ؟

فأجاب مسلنكوف :

ــ أنه رائع جدا ... ولكن هل تعتقد بان الفولغا ستتجمد سريعا ؟

فأجاب سباروف :

ـ لا اعرف ... ولكن هل نستطيع ان نتصل بفانين ؟

ـ ان الخطوط الهاتفية لا تزال مقطوعة .

ـ حسنا ! فلتبق هنا لبرهة ، فانا ذاهب اليه .

فأجاب مسلنكوف :

ـ فلتنتظر قليلا فعما قريب سيخيم الظلام .

فانتهره سباروف مازحا :

ـ اخرس ! انا لست بممرضة ، لكن فلتراقبها ، واياك ان تسمح لها بالزحف الى الجرحى قبل ان تظلم تماما .

تسلق سباروف الخندق الى الخارج ، ثم اخذ يشق طريقه بين الخرائب، ويتقي بجدران احدى البنايات حتى بلغ مركز قيادة الكتيبة ، وما كاد يدخل خندقه حتى بادره فانين قائلا :

ـ لقد أصلحتُ الخطوط الهاتفية التي تربطنا بقيادة الفوج .

ـ حسنا ، ماذا يقولون هناك ؟

ـ لقد فصل بيننا وبين ريميزوف .

ـ هذا ما يبدو لي ايضا ، ولكن بماذا يفكرون ؟

فأجاب فانين :

ـ لم يخبرونا بأي امر ، ربما انهم لا يزالون ينتظرون اوامر بروتسنكو .

صمت الاثنان لبرهة سأل فانين عقبها سباروف عما اذا كان يرغب في قدح من الشاي ، فشعر سباروف الذي عاش كل ما مر وحدث بانه لا يوجد شيء يعادل الشاي على وجه البسيطة لذلك سأل عاجبا :

ـ أحقا لديك شيء منه ؟

فرد فانين :

ـ طبعا ، لكني اخشى ان يكون قد برد الآن .

تناول فانين ابريقا من على الارض وسكب منه في فنجانين ثم سأل :

ـ الا تريد قليلا من الفودكا معه ؟

فاجاب سباروف :

ـ افودكا ؟ نعم اسكب لي قليلا منها في الشاي .

فأعاد فانين ما في الفنجانين الى الابريق ثم سكب نصف فنجان من الفودكا لكل منهما فتجرع سباروف حصته دفعة واحدة لم تمهله حتى ليتذوقها فالفودكا لم يعد لها من طعم او نكهة بالنسبة الى سباروف ، بل انما اصبحت نوعا من الدواء يتعاطاه عندما يكون متعبا .

تناول فانين ابريق الشاي ثانية ، وسكب له ولرئيسه فنجانين منه ، ثم أخذا يحتسيان الشاي الثقيل البارد بتؤدة وبطء . وكان كلاهما لا يرغب في الكلام ، فهما يعرفان بأن ما حدث اليوم سيوصف فيما بعد ، في البلاغات الرسمية عن الجبهة ، « انه في اليوم كذا وتاريخ كذا ، ازدادت الحالة سوءا » .

بقيا صامتين وهما يحتسيان الشاي ، فالوقت مبكر جدا للاعداد للغد ، اما عن اليوم وعما حمله وذهب به ، فان ايا منهما لا يريد ان يتحدث عنه ، واراد فانين ان يفري الصمت فسأل :

ـ هل ترغب في الاستماع الى الراديو ؟

فأجابه سباروف :

ـ انها لفكرة حسنة .

فجلس فانين في احدى الزوايا واخذ يعالج جهازا قديما ، فانبعثت منه اولا موسيقى بدت كأنها تبث من مكان جد بعيد ، لكنها عقب بضعة دقائق توقفت ، فبدأ فانين يدير المؤشر ، لكن الاثير لم يكن لديه غير الصمت ليهديه ، فعاود فانين يعالج جهازه فسمعاه ينقل اليهما نتفا من لغة قريبة للروسية ، لغة قد تكون بلغارية او يوغسلافية ، فلم يستطيعا فهم الكلمات ، ثم خرس الراديو من جديد فعاود فانين عبثا علاجه واخيرا قال :

ـ انه صامت صمت الموتى ، لا شيء يخرج منه .

فأجابه سباروف :

حاول اذاعة موسكو

فحرك فانين المؤشر حتى بلغ به الموضع الذي دونت عليه كلمة « موسكو » وانتظر فانين قليلا ، وعندما بلغ به الانتظار اليأس قال :

وموسكو ايضا تبدو كانها القبر

ـ لا يمكن !

ـ انها لا تبث صوتا واحدا

ولكن فجأة انطلق من خلال مذياع الراديو صوت يتحدث بانفعال واضح وشديد وقال :

ـ انني إعلن هنا افتتاح جلسة نواب موسكو وممثلي الحزب ، وان الرفيق ستالين سيتلو التقرير السنوي .

واعقبت قول المذيع عاصفة من التصفيق استمرت دقيقتين كاملتين وسأل سباروف فانين عاجبا :

ـ هل هذا اليوم هو حقا اليوم السادس من شهر نوفمبر (١) ؟

فرد فانين :

ـ كما ترى وتسمع .

ـ ياللشيطان كيف لي ان اعرف هذا ؟ لقد ارتبك علي كل أمر هذا اليوم ؛ ولقد كنت اعتقد منذ الصباح بان هذا اليوم هو اليوم الخامس من شهر نوفمبر .

فسأله فانين :

ـ ما الذي جعلك تعتقد بانه الخامس ؟ انه اليوم السادس ، وكل شيء لايزال كما كان دائما ، وهم لم يتجاوزوا عن هذا الاحتفال سنة واحدة ، وقد اقاموه حتى في السنة الماضية .

ـ لم أسمع به في السنة الماضية فلقد كنت في الخنادق لكنني سمعته ، ويومذاك كانت ستالينغراد في أمن وسلام ، وكانت قلوبنا واجفة على موسكو ، ولقد وقفنا امام المذياع واصغينا الى الاحتفال .

---

(١) عيد ثورة اكتوبر .

فاجاب سباروف :

ـ آنذاك كنتم قلقين على موسكو ، والان فان موسكو قلقة عليكم .

تذكر سباروف اول خطاب القاه ستالين عقب نشوب الحرب ، ولقد كـان ذاك الخطاب هو الخطاب الذي سمعه في غرفته الصغيرة في موسكو وفي آخر يوم له في تلك المدينة قبل انتقاله الى الجبهة ، لقد سمع ستالين يقول آنذاك ، وفي شهر تموز عام ١٩٤١ « انني اتوجه اليكم يا أصدقائي » وقد استهل خطابه هذا بصوت استثار سباروف بصورة غريبة عجيبة . فلقد كان صوته ينبض بالاضافة الى العزم ، بلهجة ونبرات تجعل السامع يشعر بان قلب المتكلم يضخ دمه ضخا شديدا . وهذه هي الخطبة التي كان سباروف يتذكرها دائما خـلال الحرب ، وخاصة في اللحظات التي تحيق به أشد المخاطر ، ولم يكن يتذكرها بكلماتها او بجملها ، بل انما تذكرها باللهجة التي القيت بها ، وحتى بفقيق المـاء عندما كان يسكب في الكأس ، وذلك في فترات توقف ستالين بين جمل الخطبة . وبالرغم من ان سباروف كان صباح ذاك اليوم يجلس وحيدا الى الراديو ، فلقد بدا له انه في تلك اللحظة تماما ، لحظة اصغائه الى الخطبة ، قد اقسم على ان يقوم بكل عمل في هذه الحرب تمكنه منه قواه . لقد اعتقد بان الوضع آنذاك كان وضعا جد شاق بالنسبة الى ستالين ، وان ستالين قد عزم على الانتصار بأي ثمن ، وهذا هو ايضا ما أحس به سباروف ، فالامور كانت ايضا شاقة بالنسبة اليه ، وهو ايضا قد عزم على الانتصار ، ان سباروف يتذكر الان وبصفاء اذهله ادق تفاصيل ماعاشه تلك اللحظة ، والتي لم يستطع فيما بعد ان ينساه .

استمر التصفيق واقترب سباروف من الراديو حتى كاد يلصق وجهه به، فهو الان ليس فقط بالغ الاهتمام بما سيقوله ستالين ، بل انما هو شديد الاهتمام باللهجة والنبرة اللتين سيلقي بهما مايريد قوله . وتعالت الهتافات وبلغت حـدا جعل سـباروف يعتقد بان من في الخندق يهتفون ايضا ، ومن ثم نقل الراديو صوت انسان ما يعد حنجرته ويشد وتريها ، وانطلق اثره صوت ستالين وئيـدا مضبوطا وقـال :

« ايها الرفاق ! »

ثم اخذ ستالين يتحدث عن تطورات الحرب وعن اسباب الفشل الذي لحق بنا ، وعن عدد الفرق الالمانية التي قذفوا بها ضدنا وعن اشياء كثيرة اخرى

كانت مثيرة وجديرة بالاهتمام في حد ذاتها ، لكن سباروف لم يكن في هــذه اللحظة يفكر بمعاني الكلمات ، بل انما كان يصغي بكل احاسيسه الى صـوت ستالين ولهجته ونبراته . وفجأة احس برغبة شديدة تأخذ عليه مجامع قلبه ، رغبة في معرفة ماينبض به في هذه اللحظة قلب ستالين ، ومعرفة أية حالة نفسية هو فيها وهو يلقي خطابه ، ومعرفة سيمائه وهو يخطب . وقد اخـذ يفتش في صوت ستالين عن اللهجة ذاتها التي وجدها في خطابه الآخر ، فـي الخطاب الذي أصغى اليه سباروف في تموز عام ١٩٤١ . لكنه وجد اخيرا ان لهجة ستالين ونبراته تختلف الآن تماما عن لهجته في ذاك الخطاب ونبراته ، فستالين يتحدث الآن بصوت اكثر اتئادا وانخفاضا وهدوءا من السابق ، وقبل ان ينتهي ستالين من خطابه ، شعر سباروف بان يدا قد طردت الكثير من همومه فلقد أحس ان صوت ستالين ولهجته ، وما قاله ، وان لم يكن قد وعاه وفهمه لاسباب لايعرفها ، يوحي بنوع خاص غير عادي من الاطمئنان . لقد اصغى باهتمام خاص مميز الى احدى الجمل الختامية التي نطق بها ستالين بتؤدة ورصانـة وقــال :

« ان واجبنا هو ، في الواقع ، ان ندمر جيوش هتلر وقادتها »

وقد اعقب هذه الجملة صمت طويل بدا لسباروف انه لن يعرف نهاية ، لكن تصفيقا حادا وهتافا عاليا قطعا حباله . جلس سباروف وفانين صامتـين لمدة طويلة امام المذياع . ان ماسمعه سباروف لتوه يبدو له هاما لا بل ذا أهمية استثنائية . وحاول سباروف ان يتخيل للحظة ان هذا الصوت لايتحدث الآن، عقب ان هدأ كل شيء ، بل انما يتحدث قبل ساعة حينما كان ومسلنكـوف يخوضان غمرات صراع جهنمي ، وعندما فكر بهذا الامر ، بدا له الصوت الهادىء الذي نقله اليه المذياع يبعث على دهشة اشد وذهول اعمق . فالرجل الـذي كان يتحدث يجب لاشك ان يكون عالما بكل مايجري ويدور ، ومع ذلك بقي صوته هادئا مطمئنا . ولو ان سباروف او مسلنكوف أو فانين ، قال فجأة في اشـد لحظات القتال حرجا ، « الى الجحيم بهم ، سنصدهم على اعقابهم خائبين » فانه عندئذ يكون يتحدث باسم كتيبته ، وفي نهاية المطاف ، فان مسؤوليته عن كلماته تشمل فقط خمسماية متر مربع من ارض بلقع ، وحياة مئتين من الناس ، لكن ذاك الرجل كان يتحدث عن النصر ويفكر بملايين الكيلو مترات المربعة وحياة الملايين من الناس ، ومع ذلك كان صوته هادئا ثابتا ، كصوت انسان لم يراوده في اية لحظة أي خاطر من شك في النصر ، وهكذا وجد سباروف نفسه يقول بصوت

عال دون ان يتعمد ذلك :

ـ سنغلبهم على امرهم في النهاية ، هذا صحيح ، وعندما شعر سباروف بان فانين قد سمع مقالته وانه يتطلع اليه كرر قائلا :

ـ نعم هذا ماسيكون ، أليس كذلك يافانين ؟

ـ نعم فليكن هذا .

فاستطرد سباروف قائلا :

ـ عندما غادرت المستشفى ، اخبرني احد الاطباء الذي كان قد عاد لتوه من قرية التنسكايا ، بان هناك في القرية وعلى طول الخط الحديدي بصورة عامة حشودا هائلة من الجند والمدافع والدبابات ومن كل شيء . انني والحق لم اصدقه آنذاك ، لكنني عقب استماعي الى خطاب ستالين اعتقد بان ماقاله الطبيب صحيح .

فرد فانين :

ـ ربما كان هذا صحيحا ، ربما كان حقيقة وواقعا .

فأجاب سباروف :

ـ ومع ذلك فانهم لايمدونا بأي شيء ، فلقد تغيبت عنكم طيلة اسبوعين ونيف ، وعندما عدت وجدت انهم لم يعطوكم اي شيء طيلة فترة غيابي . أليس كذلك ؟

ـ أمدنا بروتسنكو بثلاثين رجلا .

ـ لكن هؤلاء كانوا من رجالنا التابعين لخدمات المؤخرة .

ـ نعم كانوا ممن ذكرت .

ـ اذن لانعتبرهم مددا ، ولكن هل أمدوكم بغيرهم ، او زودوكم بأي شيء آخر ؟

فرد فانين :

ـ ابدا .

ــ هذا ما اعنيه وانا اذكر موسكو ، واذكر كيف كان الناس يأتونا في شهر نوفمبر ويهمسون في آذاننا سرا فيقولون بان الحشود تقف الآن وراء موسكو وحولها على مدى النظر ، لكنهم لم يمدونا بأي من هذه الحشود قبل الوقت المعين ، قبل اليوم الخامس من شهر ديسمبر ، نعم قبل هذا اليوم لم يسعفونا بأي مدد .

اقتربت الساعة من التاسعة ، وضج المذياع بالاصوات ، اصوات اناس من مختلف المدن ، يصيحون بمختلف اللغات ، وعزفت بعض الحان موسيقية ،وكانت الحانا شجية ، فهي لم تكن ترانيم تماما ، ولم تكن اناشيد عسكرية ، بل انما كانت نوعا من لحن لم يستطع أي من سباروف او فانين ان يعرف سلمه ومفتاحه.

وبدا لسباروف أن هذا الجهاز الصغير ، المذياع ، قد اختزل حجم العالم الهائل ليملأ به الخندق ، وأحسا بان الخندق قد غص بسكانه ، ولذلك شعر سباروف بالحزن يملأ عليه فؤاده فبادر يقول :

ــ انهم يعزفون الموسيقى ، ومن الغريب ان يفكر الانسان بانه لاتزال هناك اشياء كثيرة في العالم ، لاتزال هناك مدن عديدة وبلاد مختلفة وموسيقى ومسارح.

فسأله فانين :

ــ ما هو وجه الغرابة في هذا ؟

ــ انه لغريب ، مع انه طبعا ليس بغريب حقا ، لكنه يبدو غريبا ..

دخل مسلنكوف الخندق ، تلطخه الوحول ، مبللا ، ونصف متجمد ، وبدا اسود ناحل الجسد عقب قتال النهار ، وكانت وجنتاه غائرتين ، لكن عينيه بقيتا مشعتين ببريق لاتطفئه حتى الحرب من نظرات الشباب ، وقبل ان يخلع عمرته طلب سيجارة ، فقدمت اليه فاشعلها وسحب منها نفسين عميقين ثم جلس واتجه بناظريه الى الجدار ، وقبل ان يلقي باللفافة من بين شفتيه غط في سبات عميق ، فقام سباروف اليه و نزع السيجارة من فمه وخلع عنه عمرته ، ثم رفع له ساقيه ووضعهما على سرير الميدان ، لكن مسلنكوف لم يستيقظ ، ودون ما ارادة منه مر سباروف براحته على شعر رفيقه النائم وسأله :

ــ ماذا تفعل ، أنائم انت ؟

لكن مسلنكوف لم يجب على سؤاله فمر سباروف ثانية بكفه على شعره

وهو يقول :

ـ انه نائم ، اعتقد بانني سأوصي به ليمنح لقـب بطل الاتحاد السوفياتي، مارأيك يا فانين في هذا ؟

فأجاب فانين وهو يهز كتفيه :

ـ لااعرف ، فهو ولد طيب لاشك ، ولكن ان يمنح لقب بطل ؟!..

فأجاب سباروف :

ـ نعم بطل ، وسأوصي له بوسام نجمة البطل ، وعلى كل حال هل يتوجب عليك ان تهشم طائرة كي تصبح بطلا ؟ كلا .. ان هذا الشاب حقا لبطـل ، وانا بكل تأكيد سأوصي بمنحه هذا اللقب ووسامه ، فهل ستعترض على توصيتي ، انك لاشك لن تعترض ، اليس كذلك ؟

فأجاب فانين :

ـ طبعا لن أعترض ، فانت طالما مؤمن بما تقول فسأوافق على ما توصي به.

فرد سباروف :

ـ اذن وقع معي على هذه التوصية ، وكلما اسرعنا بارسالها كان افضل، فانت تحتاج الى الاوسمة طالما انت على قيد الحياة ، وهي جديرة بان تحصل عليها وانت حي ، ولا شك انها ايضا ملائمة بعد الموت ، لكنك تعلم نفسية رفاقك، وانا اعرف بان الامر سيان لديك احصلت عليها حيا أم ميتا . وهـو الآن فـي العشرين من عمره فقط ، ولولا الحرب لكان الآن في السنة الاولى او الثانية في احدى الكليات ، هل تعلم انه حقا لامر غريب ان يفكر المرء في الكليات والدراسة في مثل هذه الظروف .

رن الهاتف وتناول سماعته سباروف وبدأ يقول :

ـ نعم ايها الرفيق بوبوف ... ماذا افعل ؟ انني اعد نفسي للنوم ... حسنا سأحضر فورا .

وبعد ان انهى حديثه الهاتفي التفت الى فانين وقال :

ـ اعلمني بابوف بان بروتسنكو يريديني ان أحضر اليه ، أي شيطان دفعه

ليستدعيني ؟ لا ادري ! على كل حال فلتنب عني في القيادة حتى اعود أموافق انـت ؟

فاجاب فانين :

ــ نعـــم .

ــ نب عني ! وساعود اليك سريعا ، وعلى كل حال اذا ماحدث لي امر . .

لم يكمل سباروف جملته بل انما صافح فانين وخرج .

- ١٨ -

لف الظلام الكون بدثاره ، وشاهد سباروف في فضاء ليس ببعيد عنـــه الاعيرة الكشافة وطلقات الاشارة ترسم لها نصف دائرة في الجليد فوق خطوط الجبهة . وسار سباروف برفقة احد جنود الرشيشات ، وكان يعثر حينا ويتعثر أحيانا ، فهو متعب حتى نخاع عظامه ، ولذلك بادر رفيقه يقول ، وهما لايزالان في منتصف الطريق :

ـ فلننتظر لحظة ، ولنجلس .

جلس سباروف على كومة من ركام ، وأحس بان الاحداث قد خطت بعمره بعيدا بعيدا ، او أنه قد بدأ يختبر بدلا من التعب الذي ينوء عليه بكلكله في نهاية كل يوم ، الانهاك المزمن ، الذي أمسى داء كل رجل مضت عليه سنتان وهـــو يقاتل . جلسا لبضعة دقائق ، ثم تابعا سيرهما ، ولم يتمكنا من العثور علـــى بروتسنكو بسرعة ، ومع ان أحدا لم يخبر سباروف ، لكنه كان يعلم بان بروتسنكو أمضى طيلة الايام الاربعة منذ ان غادره لاخر مرة متجولا طوافا . وكان بروتسنكو قد اتخذ هو ايضا مركز قيادته في نفق من انفاق المجارير ، وكان هذا المجرور احد المجارير الضخمة ، وهو مجرور رئيسي في شبكة مجارير المدينة ، ويؤدي الى نهر الفولغا .

واخيرا عاد بروتسنكو الى مركز قيادته وبادر سباروف قائلا :

ـ كيف ترى مركزي الجديد يا الكسي ايفانوفيتش ؟

فاجاب سباروف :

ـ انه ليس رديئا ايها الرفيق الجنرال ، وان أحسن مافيه ان خمسة امتار ترتفع فوق رأسك .

ـ فرد بروتسنكو :

ـ نعم فعندما تنقض احدى القنابل على سطحه ، فلا يهتز هنا لانفجارها

غير القصاع والصحون .. هيا اجلس !

ماكاد سباروف يجلس حتى امر بروتسنكو بالشاي فسارع المراسل ليقدمه اليهما فطلب من سباروف ان يحتسي قدحه ، فأخذ يشرب شايه الساخن الذي سلق فمه ، وكان يؤمل وهو يحتسيه في ان ينأى عنه النعاس ، لكنه عبثا أمل اذ بدا له من الصعب جدا أن يطرد الوسن عن اجفانه وكبوات النعاس عن راسه بحضور الجنرال الذي بادره سائلا :

ـ الا تزال في مركزك القديم ؟! لم يدمروه لك حتى الآن ؟

ـ لم يدمروه حتى الان ايها الرفيق الجنرال .

شعر سباروف بان الجنرال يحملق فيه كأنه يقابله للمرة الاولى في حياته وسأله بروتسنكو :

ـ كيف حالك ؟

ـ انهــا طيبة .

فأجاب بروتسنكو :

ـ انا لااسألك عن كتيبتك بل اسألك عن نفسك ، كيف تشعر ؟ هل استعدت صحتك تمامــا ؟

ـ نعم لقد استعدتها كاملة .

صمت بروتسنكو للحظة ، لكنه بقي يحدق في وجه سباروف وفجأة قال :
ـ انني أريد ان اعهد اليك بمهمة ياالكسي ايفانوفيتش ، نطق بروتسنكو بهذه الجمــلة فجأة وبلهجة صارمة كأن الامر واضح تماما لكليهما ، فلبروتسنكو الحق في تكليفه بمهمة ، ولسباروف القدرة على تنفيذها ، واسترسل بروتسنكو قائــلا :

ـ لقد قطعوا ريميزوف عنا .

ـ انني اعرف بهذا ايها الرفيق الجنرال .

فرد بروتسنكو :

ـ اعلم بانك تعرف به ، ومعرفتك هذه لاتلطف من احاسيسي ، فانا اعلم

بفصلهم بيننا وبينه ، ولكن مالا اعرف به هو حاله وكيف تسير الامور عنده ، ومن لا يزال حيا ومن قد قتل ، وعدد ما بقي لديه من جنود ، وما الذي يستطيعه وما لايستطيعه ، عن هذه لا اعرف اي شيء ، وقد استدعيتك ، لتستطلع لي ماطلبته وهذا اليوم ، هل فهمت ما اريده ؟

ـ نعم فهمت .

واستطرد بروتسنكو :

ـ بعد فترة ستصبح الامور أيسر من الان ، وذلك عندما تتجمد الفولغا ، فعندئذ يصبح بمقدورنا أن ندور من على الجليد ، لكن اليوم يتوجب علينا ان نسلك شاطيء النهر الى ريميزوف ، ولقد درست هذه الدرب ، ووجدت النجاح ممكنا من الوجهة النظرية ، لان الالمان قد اندفعوا الى حافة الجرف الواقع فوق النهر مباشرة ، ونحن لم نطلق عليهم النار من هنا ، كي لانلفت نيرانهم الينا ، واعتقد بان ريميزوف يحذو حذونا ايضا . وبصورة عامة فان الالمان لاينحدرون الى سفح الجرف ، وهكذا عليك ان تمر من تحت الجرف وعليك أن تقوم به . .

ثم قال عقب برهة من صمت وهو يحملق في وجه سباروف المتعب :

ـ نعم عليك انجاز هذه المهمة الليلة والليلة هذه فقط . فانا لااريد مجـرد رسول ابعث به الى هناك ، بل انما اريد رجلا يستطيع ان يساعدني لاعرف كل شيء معرفة دقيقة صحيحة ، رجلا يستطيع ان يتولى القيادة ، اذا ماكـــان ريميزوف قد قتل ، لهذا اترقب اما عودتك انت شخصيا الي ، او اذا مابقيت هنالك ، أن ترسل الي برسول من عندك . . كيف تريد ان تذهب ؟ هل تريد ان تصطحب جنديا ؟

أمعن سباروف النظر ثم قال :

ـ الا يوجد هناك ألمان على الضفة نفسها .

ـ اشك في ذلك .

فأجاب سباروف وهو يهز كتفيه :

ـ اذن فاذا ما قادتني خطاي الى الالمان فعندئذ لن يتمكن لا جندي واحد ولا جنديان من مساعدتي ، واذا ما أطلقوا النار علي ، فان شخصا واحدا لا يلفت انظارهم كثلاثة اشخاص . . هذا ما أراه.

ـ حسنا ! فليكن لك ماتريده ! انها رغبتك .

ـ هل تسمح لي بالانصراف ؟

ـ هيا يا الكسي ايفانوفيتش .

ثم وقف بروتسنكو وصافحه وهز يده هزا عاديا مألوفا كأنه يريد ان يظهر لسباروف ان الامور ستنتهي الى خير نهاية ، وانه لايوجد هناك من داع لوداعه وداعـا خاصـا .

خرج سباروف من لدن الجنرال وعبر الحاجز الذي يفصل غرفة الجنرال عن غرفة مرافقه فوستريكوف . والفى سباروف فوستريكوف جالسا وراء مكتبه ، وكان فوستريكوف هذا رجلا قليل الحصافة ، يخلط الامور بعضهـا ببعض ، لكن الجنرال كان يقدره ويحترمه احتراما عميقا لشجاعته غير المحدودة. وعندما شاهد المرافق سباروف يمر به استوقفه ليقول :

ـ هل انت ذاهب ايها الرفيق النقيب ؟

فأجابه سباروف :

ـ نعم ، لكن سأترك سلاحي عندك .

ـ لا مانع ، سيكون في مأمن لدي .

وبعد ان وضع سباروف رشيشه في احدى الزوايا استطرد طالبا :

ـ هيا اعطني قنبلتين يدويتين ، لا، الافضل ثلاث ، هل لديك شيء منها؟

ـ طبعا ! بكل تأكيد .

ثم هب الى احدى الزوايا وفتح صندوقا وأخرج منه اربع قنابل كـانت لاتزال محزومة باتقان بأشرطة أعدت لتعلق بها القنابل بالاحزمة، فعلقها سباروف بحزامه بعناية زوجين زوجين بعد ان فحصها فحصا دقيقا جعل فوستريكوف يصيح :

ـ رويدك ! رويدك ! فلتفحصها برفق ، انك ستفجرها هنا .

ـ لا تخف !

بعد ان علق سباروف القنابل بحزامه ، خلع قراب مسدسه الالماني المثلث

الشكل والسمج ووضعه في الزاوية الى جانب سلاحه ولقم مسدسه المعلق على صدره ، وقبل ان يغادر الغرفة سأله فوستريكوف وهو يشير الى الحاجز الذي يفصله عن الجنرال :

ــ هل أعطاك مشروبا للطريق ؟

ــ كلا .

ــ ما دهاه ؟

ــ لا ادري .

ثم أقبل سباروف على فوستريكوف وصافحه مودعا ، وبينما كان يغادر الغرفة سمع برتسنكو يصيح :

ــ فوستريكوف !

ويجيبه المنادى :

ــ نعم ايها الرفيق الجنرال !

ويسترسل بروتسنكو سائلا :

ــ ما الذي « تخبص » فيه عندك ؟

ويجيب المرافق :

ــ لا شيء ! لقد كان سباروف يعد نفسه للانطلاق .

ــ وبم كان يعد نفسه ؟

ــ لقد ترك سلاحه لدي واخذ بضعة قنابل يدوية .

ــ حسنا لا بأس .

اخذ بروتسنكو يمعن نظره ، فهو اذا ما اردنا الحق قد ارسل بسباروف ليس لانه ليس لديه من رسول آخر يرسل به ، بل لانه سبق له ان ارسل به الى قيادة الجيش العامة،ولانه كان يشعر بان سباروف يستطيع ان يقوم بالمهمة التي عهد بهااليه . ومع انه كان جليا واضحا ان هذه المهمة هي مهمة مستحيلة تقريبا الا ان ثقته بنجاح المهمة لم تتخل عنه ابدا . وهكذا الفيت بروتسنكو

يجلس الى مكتبه ويفكر تفكير مدقق بالوضع ، ولم يكن يهمه اعاد سباروف آليه ام أرسل برسول من لدنه ، بل انما المهم هـو ان يستعيد تلك الاـتـار الاربعماية من المهواة التي استولى عليها الالمان . واستدعى بروتسنكو رئيس اركان حربه ، وأخذا يحصيان ، بقلمي رصاص بيديهما ، ما تبقى لديهما من رجال للقيـام بالعمليـات الحربيـة لتلـك الليـلة . ولـو ان الـرقم الـذي توصـلا اليـه الآن كـان كالـذي توصـلا اليـه منـذ اسبـوعين لامسى رقما مروعـا مرعبـا بالنسـبة الى بروتسـنكو ، لكـن بروتسـنكو قـد اعتاد الآن الفقر في الرجال والعدد الى درجة بدت له نتائج حساباته ليست بالنتائج الرديئة على كل حال . وهو لا يعرف مجريات الامور عند ريميزوف ، لكن خسائر فوجيه الآخرين كانت هذا اليوم اقل مما كان له الحق في ان يترقب ولكن هل لا يزال عليه ان يستعيد بهذه القوى الضفة ؟ ان بروتسنكو لا يستطيع حتى ان يفكر بنقل اية كتيبة من مراكزها الحالية ، وهو يرى ان يكشط بضعة عشرات من الجند من كل كتيبة في قطاعه ، ويحول هؤلاء قبل حلول ليل الغد الى وحدة عسكرية ، وهذه هي وسيلته الوحيدة ، وليس لديه من بديل لهـا ، واخيرا سأله رئيس اركان حربه :

ــ حسنا ، على ماذا استقر رايك ؟

فتناول بروتسنكو صفحة من ورق ودون عليها تشكيل الوحدة الجديدة ثم قال وهو يمد بالورقة الى رئيس اركانه :

ــ دونك هذه الورقة ، فلقد كتبت كم رجلا عليك ان تسحب ومن ايـة وحدة . فاستدع هؤلاء الرجال اثناء الليـل واحشدهم في المهواة ، وسـنعدهم نهارا ، وغدا ليلا اذا كنا لا نزال نقف على اقدامنا فسنستعيد الضفة ثانية .

كان بروتسنكو يتحدث متجهم الوجه مقطب الجبين وقد فارقته بسمته المألوفة ، اذ انها لم تنر وجهه مرة واحدة هذه الليلة . وتقدم منه رئيس اركان حربه واخرج من حافظته ورقة وقال :

ــ هل تتفضل بتوقيع هذا التقرير المرفوع الى قيادة الجيش العامة ؟

ــ تقرير ؟! ما موضوعه ؟

ــ انه التقرير المألوف عن العمليات الحربية .

ــ اية عمليات حربية ؟

ـ عمليات هذا اليوم .

ـ ما هي العمليات التي جرت اليوم ؟

فأجاب رئيس اركان حربه يسأل مرتبكا وبلهجة غاضبة قليلا :

ـ ماذا تعني بقولك اية عمليات ؟ طبعا كيف اخترق الالمان خطوطنا الى الفولغا ، وكيف فصلوا ريميزوف عنا .

فأجابه بروتسنكو دون ان يلتفت اليه :

ـ لن اوقعه ..

ـ لماذا ؟

ـ لانهم لم يبلغوا الضفة ، ولم يقطعوا اوصالنا ، فلتحتفظ بالتقرير .

فسأل رئيس اركانه :

ـ اذن ما الذي علينا ان نرفعه هذا اليوم ؟

ـ لا ترفع شيئا هذا اليوم .

فلوح رئيس اركان الحرب بيديه مشيرا بذلك الى انه لم يفهم ما يعنيه رئيسه وبادره بروتسنكو يقول :

ـ انا اعرف ، وانني أتحمل كامل المسؤوليات المترتبة على تأخير رفع التقرير مدة يوم واحد ، وسنستعيد الشاطىء ، وعندئذ سندمج هذا التقرير وتقرير الغد في تقرير واحد ، ونحن اذا ما استعدناه فانهم لا شك سيسامحوننا على صمتنا هذا اليوم .

ـ واذا لم نستعده ؟

فأجاب بروتسنكو بلهجة خطيرة لم تعرف عنه من قبل وقال :

ـ اذا لم نستعده فلن يكون هناك من رجل يسامحونه او لا يسامحونه ، انني سأقود الهجوم بنفسي ، هل تفهم ما اقول ؟ ما الذي تحملق فيه يا ايجور سيمونوفيتش ؟

ثم استطرد بلهجة مختلفة عن سابقتها :

ـ لماذا تحملق في ؟ هل تعتقد بانني خائف من تحمل مسؤوليات ما حدث ؟ انا لست خائفا ، لكن كل ما اريده هو ألا يعرفوا بان الالمان قد بلغوا الضفة ايضا هنا ، كلا لن اسمح بمثل هذا الامر ابدا ، فانه اذا ما رفعت هذا التقرير الى قيادة الجيش العامة ، فان قيادة الجيش العامة سترفعه الى قيادة الجبهة العامة ، وقيادة الجبهة العامة سترفعه الى القيادة العليا . وانا لا اريد هذا الامر ، فانه يثبط عزائم كل روسيا ، واذا ما رفعته فالحال واحدة ، فانهم سيقولون اطردهم يا بروتسنكو ! استعد الضفة ، ولكنهم لن يعطوني جنديا واحدا لانجاز ما يطلبونه ، لذلك من الافضل ان استعيد الضفة دون اية اوامر، وسأحتفظ بالقلق لنفسي وحدها ، هل فهمت ما أعنيه ؟

صمت رئيس اركان حربه ولم يجب على سؤال بروتسنكو الذي استطرد قائلا :

ـ اذا كنت قد فهمت ما أعنيه ، فهذا امر حسن ، واذا لم تفهم فالامر سيان عندي كما تعلم، وعليك ان تنفذ اوامري حرفيا ، اذهب ونفذ الامر، هذا كل ما عندي .

تسلق بروتسنكو خندقه خارجا ، فألفى الليل شديد الاظلام حالك الظلام واحس بالريح تمر به صافرة والثلج يتساقط مدرارا ثقيلا فتطلع بروتسنكو الى اسفل ورأى من بين اكوام الركام ، الفولغا المتجمدة . وشاهد من مكانه وعلى مرمى البصر كل شيء معدوم الحركة ابيض اللون هادئا . ورأى بقعا بيضا تحيط به وتمتد على الارض ما حوله ، وابصر بالثلج يملأ حفر القنابل في اماكن اخرى بندفه ، وكان الثلج لم يكف عن تهطاله طيلة اليوم ، وترامت اليه من اليمين وعلى محاذاة الضفة اصوات مدافع المورتر ودوي هزيمها ، وعواء زخات متقطعة من الاسلحة الخفيفة. فأخذ بروتسنكو يفكر بسباروف الذي لا شك في أنه الآن يزحف وهو يرتعد بردا ويرتعش غريزة ، فالارض باردة رطبة ، والزحف عليها هذه الليلة عمل شاق مرهق ، لكن ان يموت في هذا الوحل البارد الزلق المراوغ امر أشد مشقة وارهاقا .

اصطحب سباروف جنديا من السرية المتمركزة على ضفة النهر ، واخذا كلاهما يشقان طريقهما بين الخرائب والركام حيث كان يتمركز آخر سرية للمدافع الرشاشة ، ومن حيث كان عليهما ان ينحدرا الى النهر كي يزحفا مارين بالالمان ، وقد عرض عليه آمر السرية ان يصحبه بجندي آخر الى ريميزوف،

لكن سباروف رفض طلبه شاكرا . فأمسك بالاجر النافر من الارض وبالطين المتجمد وأدلى جسده بهدوء في المنحدر الى الضفة ، واذا به يقف على حافة الماء . ان سباروف يعرف هذا المكان ويعرفه جيدا ، فهو عندما عبر النهر لاول مرة رسا وجنود كتيبته عنده تماما . فحزام الضفة الضيق يرتفع علاء كالهواة، ويرتفع فوقه مباشرة مصاطب الجرف المكسوة بالطحالب . وسباروف يرى بقايا مرافىء نهرية ، ويتلمس عوارضها الخشبية المحروقة والمتناثرة على الارض، وهو يحس بهواء بارد يهب من الفولغا ، وقد أحس به حالما بلغ النهر ، ويشعر بان زمهريره يهب مخترقا كل خلية في جسده ، وهو يرى الآن النهر مكسوا بجليد ابيض ، ويعلم بانه اذا ما سار بمحاذاة النهر فان ظلاله ستبدو واضحة على سطحه الابيض المتجمد ، فيلحظه الالمان لذلك عقد سباروف العزم على الابتعاد عن الضفة قليلا والاقتراب من الجرف نفسه . وكان قد اتفق وآمر سرية المدافع الرشاشة قبل ان ينطلق من لدنه ان يطلق هذا الاخير نيران رشاشاته على كامل الجرف اذا ما اطلق الالمان نارهم عليهم . والحق ان مثل هذا العون ، لعون مخادع غرار ، لكنه قد يساعده على اجتياز النصف الاول من دربه ، واذا ما قطع هذا النصف فانه عندئذ ، سينطلق الى اجتياز المرحلة الاصعب ، وسباروف لا يستطيع ان ينذر مسبقا ريميزوف ، ومن يدري فقد يطلق جنود ريميزوف عليه النار حالما يشاهدونه ، لذلك عليه ان يلقي بكل اعتماده على الحظ فقط .

قطع سباروف المئة متر الاولى ماشيا دون ان يزحف او ينحني ، وكان يحاول ان يسير بخطى معدومة الوقع ، قدر مستطاعه ، سريعة قدر امكانه ، ولم يطلق احد ناره ، وبدا له الشاطىء مقفرا هادئا ، وعثر مرة وهو يسير ، فوقع ارضا لكنه وقى جسده من الارتماء بذراعيه ، وعندما هب منتصبا على قدميه وبحث عما عثر به ، الفاه جثة جندي ميت ، ولم يمكنه الظلام من معرفة ما اذا كان هذا الجندي المانيا ام روسيا ، فتخطى سباروف الجثة ، لكنه ما كاد يبتعد عنها خطوتين حتى اضاءت في السماء امامه اعيرة نارية كشافة اطلقت من الجرف ، فخيل اليه انه قد صدرت عنه بعض ضجة حين وقوعه على الارض، فأسرع زاحفا الى احد الجوانب واختلط ببعض العوارض المتفحمة ، فأطلق الالمان مزيدا من النيران الكشافة ، وقد اضاء احد الاعيرة جزءا من الشاطىء خلفه سباروف وراءه ، وكشف الضوء جثة الجندي الميت ، فحسبه الالمان حيا فامطروا الجثة بوابل نيرانهم ، وقد بلغ تسديدهم من الدقة حدا جعلهم

يصيبون الجثة بعدة عيارات . اما سباروف فبقي جالسا بين العوارض الخشبية يترقب الالمان ان يكفوا عن اطلاق النار واخيرا عندما ايقن الالمان ، على ما يبدو، من انهم قد قتلوا كل حي عكر عليهم هناك صفوهم ، توقفوا عن اطلاق النار . فأخذ سباروف يزحف متقدما ، وتابع الآن طريقه زحفا ، ولم يحاول ابدا ان يرفع راسه عن الارض ، ويجاهد كي لا يصدر عنه اي صوت ، وقد تخطى مرة او مرتين جثث جنود موتى، وحدث في احدى المرات ايضا ان اصطدم بشدة ببعض حجارة فأخذ يشتم في سريرته ويلعن . وبدا له ان شيئا ما يتحرك امامه ، فتوقف عن الزحف وأصاخ السمع ، لكنه لم يسمع غير السنة الماء وهي تلعق الضفة ، فنهض فاستأنف زحفه بهدوء بضعة قامات ، اشتد اثرها صوت لعق الماء ، وفجأة بدا صوت اللعق يبدو كصوت ارتطام سطل بالماء ، فتذكر كيف انه قبل التحدي في طفولته من اطفال صغار آخرين فذهب ليلا الى المقبرة في بلدته ، وعاد بزهرة اصطناعية انتزعها من اكليل وضع على قبر يقع في آخر المقبرة ، كدليل على وصوله الى المدفن . وسباروف يحس الآن وهو يسمع صوت ارتطام السطل بالماء ، بما احس به يومذاك من تهيب وقلق . فهذا الهدوء والوحدة ، والظلام وتلك الضجة ، امر غريب مهيب . فزحف مقتربا نحو مصدر الصوت فشاهد شخصا يسير القرفصاء ويخرج من وراء حطام احد القوارب. وقد بدا لسباروف ان هذا الرجل سيمر به دون ان يراه ، لكنه استدار حول كومة من العوارض الخشبية واتجه مباشرة نحوه . فجلس سباروف مترقبا منتظرا ، ولم يعد رأسه يدور به اي فكر ، بل انما امسى كيانه كله انتظارا ، فهو يترقب هذا الانسان ان يتحرك مرة فأخرى فثالثة ، كي يمد بيده ويمسك به ، وعندما خطا الرجل خطوة اخرى ، تناول سباروف ساقه بذراعه وشده اليه بكل قوته . فوقع الرجل ارضا وصرخ مرعوبا مذعورا ، وفجأة احس سباروف ، بشيء ما يرتطم برأسه ثم يغرق ثيابه بالماء حتى الجلد .

لم يصرخ الرجل بالالمانية او الروسية ، بل انما ارسل بصرخة يائس « آ . . . آ آ » . فضرب سباروف وجه الرجل بقبضة يده بكل قواه ، عندئذ صرخ الرجل بكلمات المانية ، وأمسك بيد سباروف ودفن اسنانه فيها . وادرك سباروف ان الامر امسى سيان الآن أبقي هادئا ام لم يبق ، فأخرج مسدسه بيده الطليقة وغرس فوهته في صدر الالماني ثم اطلق عليه عدة طلقات ، ارتعش اثرها جسد عدوه قليلا ثم خمد . فانطلقت الرشاشات والبنادق من فوقه تعوي وتلعلع واخذت الرصاصات تنثر طين الارض من حوله نثرا ، وقد اصابت

عدة طلقات شيئا من معدن ، فقرعتها قرعا خفيفا ، فأخذ سباروف يتلمس الارض بيديه فوجد سطلا ملقي الى جانبه ، وقد ربط به حبل ، فأدرك ان الالماني قد انحدر الى الفولغا ليعود بالماء .

اشتد اطلاق النار ، واخذ سباروف يسائل نفسه عما اذا كانوا سينحدرون اليه ، لكنه قال اخيرا ، انهم لن ينحدروا ، فهم خائفون ايضا . وقد وصل سباروف الى هذا الاستنتاج لان النيران كانت تطلق عليه من قمة الجرف دون ما امر اطلاقا تعسفيا جزافا . وهكذا بقي سباروف جاثما في مكانه يشد بجثة الالماني القتيل الى صدره متوخيا من ذلك أن تقيه الجثة الرصاص . وبدأ سباروف يتساءل : متى سيكفون عن اطلاق النار ؟ فهو يحس بان جسده يكاد يتجمد ، وذلك لان الالماني أغرقه بما في سطله من ماء . اما الالمان فتابعوا اطلاق نيرانهم من قمة الجرف ، وطبعا باستطاعتهم ان يسترسلوا في اطلاق النار حتى الصباح ، فقذف سباروف بالميت عنه جانبا وتابع زحفه ، وكانت الرصاصات تضرب الارض امامه ووراءه وعندما زحف ثلاثين قامة تقريبا ، وكان اطلاق النار لا يزال مستمرا على طول محاذاة الضفة ، عاوده شعوره بانهم لن ينالوا منه وطرا وذلك لانهم كانوا يطلقون النار عليه بغزارة ودفق شديدين . لم يتوقف عن زحفه ، فبلغ ما زحفه خمسين قامة واكثر ، واحس بساعديه يتزايدان اخدرارا وتصلبا حتى انه لم يعد يحس بهما الارض . وكان من السهل عليه أن يرى وميض النار من اعلى الجرف ، وانه ليرى الان عيارات كشافة تنطلق ايضا من ورائه ، تنطلق من حيث بدأ زحفه وتنطلق ايضا من امامه ، من جنود ريميزوف ، الذين كانوا يطلقون النار ايضا باتجاه الالمان . وعندما اشتد اطلاق النار ، خفف الالمان ن اطلاق نيرانهم في اتجاهه وشددوا اطلاقها يسرة منه ويمينا ، فاخذ يركض وكان آنا يعثر وحينا يقفز واخرى يقع فوق الالواح الخشبية ، وفجأة راوده خاطر يقول بان رجال ريميزوف يجب ان يكونوا قد شاهدوا أن الالمان يطلقون النار على أحدهم ، لهذا اخذ يعدو بسرعة يائسة بالرغم من الطين والظلماء ، ومن ثم توقف ، أو بالاحرى وقع ، اذ شد احدهم بساقه وجذبه ارضا فوقع وغاص وجهه في الوحل ، واحس بان هناك من يلوي ذراعه ، ويجلس فوق ظهره ويسترسل في لويه، واخيرا يسأله بصوت أجش :

ـ من انت ؟

فأجاب سباروف :

ـ فليأخذك الشيطان انني روسي .

نطق سباروف بهذه الجملة ولاسباب غريبة هامسا وشعر بان احدهم لا يزال يلوي له ذراعه، فضرب بذراعه الطليقة احد الرجال المتجمهرين حوله ضربة شديدة أطاحت بذاك ارضا ، وسمع صوتا يسأل :

ـ من الذي تضربونه ؟

فاغتنم سباروف هذه الفرصة ليقول :

ـ انني روسي ، سيروا بي الى ريميزوف .

ولا شك ان الالمان سمعوا بضوضاء المشاجرة فأطلقوا بعض زخات من رشاشاتهم ، فأخذ احدهم ينشج فسأله صوت :

ـ ما بك هل اصابوك ؟

ـ نعم اصابوا ساقي وهي تؤلمني .

واخيرا امسك احدهم بسباروف وأنهضه ثم دفع به الى الامام وانطلقوا يعدون بضعة خطوات اختفوا اثرها وراء اساس الجدار .وسأله الصوت ذاته :

ـ من اين انت قادم ؟

ـ انني قادم من لدن الجنرال .

ـ من انت ؟ ان الظلماء لا تمكنني من رؤيتك .

فأجاب :

ـ انا النقيب سباروف .

ـ حسنا ! انك سباروف ، وانا جريجورفيتش ، اذن فانت الذي لطمني تلك اللطمة على اذني ، لا بأس فعلي ان احتملها من صديق قديم .

كان جريجورفيتش احد ضباط الاركان ، وقد ارسل به بروتسنكو منذ شهر ، وبناء على طلبه ، ليقود احدى السرايا ، وبادر جريجورفيتش سباروف قائلا :

ـ هيا بنا الى ريميزوف .

ـ هل لا يزال ريميزوف حيا ؟

فأجاب جريجورفيتش :

ـ انه حي لكنه جريح .

ـ وهل جرحه خطير ؟

فأجاب جريجورفيتش وهو يضحك ضحكة قصيرة :

ـ لا استطيع ان أصفه بالخطير ، لكنه جرح غير مريح بكل تأكيد . ولقد كان طيلة هذا اليوم يشتم ام كل امرىء ، ولم يتوقف عن الشتم ليأخذ نفسا . ولأصف لك علميا جرحه ، لقد اصابته رصاصة في اليته ، ولهذا فعليه اما ان ينكب على بطنه ، او ان يسير على قدميه ، فحاله لا تسمح له ابدا بالجلوس .

أخذ سباروف يضحك بالرغم منه فسأله جريجورفيتش :

ـ ما يضحكك ؟

ـ لا شيء لكنه امر مضحك .

فرد جريجورفيتش :

ـ قد يكون هذا الامر مضحكا بالنسبة اليك ، لكننا لم نحصل نحن من جرائه الا على الزعيق طيلة النهار بسبب مزاج ريميزوف المعكر ، لذلك فانه ليس مضحكا بالنسبة الينا .

دخل سباروف على ريميزوف فألفاه ممددا على وجهه على سرير الميدان وقد وسد رأسه وصدره بعدة وسادات وسأل ريميزوف سباروف بلهجة متئدة :

ـ انك قادم من عند الجنرال أليس كذلك ؟

فأجاب سباروف :

ـ نعم من لدن الجنرال ، كيف حالك ايها الرفيق العقيد ؟

ـ كيف حالك انت يا سباروف ، لقد عرفت بان الجنرال مرسل بأحدهم ولذلك امرتهم بالا يطلقوا النار ، حسنا كيف الحال عندكم ؟

فرد سباروف :

ـ انها منتظمة ، وذلك اذا استثنينا ان على المرء ان يزحف على بطنه اذا ما اراد ان ياتي من عند الجنرال الى العقيد ريميزوف .

ـ لكن هنا اسوأ مما ذكرته الآن ، وهو ان تضطجع على معدتك .

قال هذا ريميزوف وتدفق بسيل من الشتائم المنتقاة ، ثم اخذ يقيس سباروف بخبث بنظراته من تحت حاجبيه الكثين الرماديين واخيرا سأله :

ـ لا شك في انهم قد اعلموك عن جرحي ؟

فأجاب سباروف :

ـ نعم لقد اعلموني به .

ـ طبعا انهم مسرورون ، فلقد توفرت لهم الفرصة كي يضحكوا مني، فآمر فوجهم قد جرح في موضع ممتع من جسده .

وفجأة قاطع العقيد نفسه وقال :

ـ انظر انك مغطى بالدماء ، هل انت جريح ، ام ماذا ؟

فأجاب سباروف :

ـ كلا لقد قتلت المانيا .

ـ اذن فلتخلع سترتك ! اخلعها ! هل تعرف بانك تبدو كالجزار . هيا يا شاربوف سر بالنقيب كي يغتسل، واعطه بعدئذ سترتي، نعم اخلعها ! اخلعها!

بدأ سباروف يحل أزرار سترته وسأله العقيد :

ـ حسنا ، ما هي اوامر الجنرال ؟

فأجاب سباروف دون ان يذكر ما توقعه الجنرال من سوء وتكليفه بتولي القيادة ، في حالة اذا كان الاسوأ قد تحقق ، بل انما اكتفى بالقول :

ـ لقد امرني الجنرال بالاطلاع على الوضع والعودة اليه .

فبدأ العقيد ريميزوف يقول :

ـ اما فيما يتعلق بالوضع ، فانه ليس برديء كما هو مهين ، فلقد سلمنا قطعة من الشاطىء ، وقتل قوميسير الفوج كما قتل ايضا قائدا كتيبتين ، اما

انا فلاازال كما تراني حيا ، وعلينا ان نستعيد ما فقدناه ، ونعيد اتصالنا بالفرقة بماذا يفكر الجنرال ؟ هل يفكر باستعادة ما فقدناه ؟

فاجابه سباروف :

ـ اعتقد بان الجنرال قد ارسل بي اليك تمهيدا للشروع فيما تقول .

ـ هذا ما اعتقده انا ايضا ، وعيلنا ان نستعيده من كلا الجانبين ، هـذا مفهوم ، وهذا ايضا ما يعني ان عليك ان تدفيء نفسك ، فيتوجب عليك ان تعـود ثانية .

ـ نعم علي ان اعود .

ـ انك تستطيع البقاء عندي ، وانا سأرسل بضابط اخر الى الجنرال ، ما هي الاوامر الصادرة اليك ؟

فاجاب سباروف :

كـلا يتوجب علي ان اعـود .

فصرخ العقيد مناديا : سيمون سيمونوفيتش ، فدخل نقيب اول ركـن يشغل وظيفة رئيس اركان حرب العقيد فسأله :

ـ هل خلاصة خطتنا جاهزة ؟

فأجاب رئيس اركانه :

ـ اننا ننجزها الان ، وهي في طور التدقيق .

ـ هيا انجزها وقدمها الي بسرعة ، وباسرع وقت ممكن ايها الاخ ! هيـا حرك نفسك قليلا ... انك تقتلني ...

ثم التفت الى سباروف وقال :

ـ لقد كنت ارغب في ان ارسل ضابطا الى الجنرال ، لكنهم كانوا منهمكين في اعداد الخطة هنا ، كي تكون صائبة مئة بالمئة ، وهذا هو الذي أخرني عـن ارسال الرسول . وستكون الخطة جاهزة خلال لحظات وسأرسل معك بضابط من عندي ، هل تعرف فيليبتشوك ؟

ـ كلا لا اعرفه .

ـ انه ضابط في فوجي ، وهو ضابط طيب ومقدام ، وسيرافقك وحالما ينتهون من اعداد ملخص الخطة يمكنك ان تعود .

حاول ريميزوف ان يرفع بجسده ثم بدأ يتدفق بسيل لا ينتهي من الشتائم وقال مخاطبا سبأروف :

ـ تصور ان يصيبوك هنا تماما ! وانا عبد عادة سيئة هي ان اعدو دائما وادور طيلة الوقت ، وانا لا استطيع ان افكر الا وانا اركض ، وكذلك هي حالما عندما اقود واصدر الاوامر ، وزبدة القول لا استطيع ان اقوم باي عمل الا اذا كنت أعدو ، ولا ادري كيف ركبتني هذه العادة الرديئة . وها انني قد اصبحت اليوم في الستين من عمري تقريبا ، واظن ان الوقت قد حان لاتخلص من عادتي هذه .

ثم صاح مناديا مراسله شرابوف فدخل عليه فبادره :

ـ ساعدني لاتخلص من هذا السرير !

فأمسك شرابوف بكتفيه واعانه على الانتصاب على قدميه ، فأخذ العقيد يئن ويتأوه ويشتم ، ومن الغريب انه كان يقوم بكل هذه الامور في وقت واحد ، ومن ثم اخذ يذرع الخندق جيئة وذهابا وهو يتلوى ألما وأخيرا صاح :

ـ هل انتهيتم من اعداد الملخص ؟

فأجابه النقيب الاول ايجابا وناوله صفحة من الورق ، فتناولها او بالاحرى خطفها من يده وتابع ذرعه للخندق وهو يقول :

ـ لقد دون كل شيء في هذا الملخص ، فدون ما لدي من قوى ومراكز هذه القوى وما الذي استطيع القيام به من جانبي . هل تعلم لقد حدث كل شيء دفعة واحدة ، لقد قتلوا قائدي كتيبتين والقوميسير وجرحوني ، وقد جرى كل هذا خلال مدة لا تتجاوز نصف الساعة ، والقي بنا في هذه الورطة اثناء حدوث ما ذكرت .

فسأله سبأروف :

ـ هل نزلت بكم خسائر فادحة ؟

ـ لقد أبيدت كتيبة على بكرة أبيها ، وهذه الكتيبة هي تلك التي كانت تتمركز على شاطيء الفولغا ، ولكن لم تنزل بالكتيبتين الباقيتين اية خسائر تذكر، وبصورة عامة لا نزال قادرين على القتال ، وهذا امر غير قابل للشك فيه .

ـ كيف تتدبرون امر نقل جرحاكم ؟

هذا ما سأله سباروف بلهجة فيها تردد وتلعثم ، فهو يعد المقدمات ليستفسر عن آنيا اذ انه كان يعلم بانها تعمل الان في هذا القطاع ، لكنه باديء ذي بدء لم يجزم على الاستفسار عنها خوفا من سيء الانباء ، واجابه العقيد :

ـ كيف نستطيع ان نتدبر امر نقلهم ؟ فالفولغا لا تزال مكسوة بجليد رهيف، ولهذا فنحن نحتفظ بهم في الوهدة ، ولقد حفرنا بعض المغائر في الارض ووضعناهم فيها .

ـ هل يقع مكانهم بعيدا من هنا ؟

ـ نعم انه بعيد . فميمنتنا أهدأ من هنا ، ولهذا نقلناهم الى هناك... اين فيلبتشوك ؟ هل أعد نفسه ؟

فأجابه احدهم من النصف الثاني من الخندق وقال :

ـ نعم انه مستعد ؟

ـ حسنا ! فلتنطلق الان ... يا الهي كيف لم اقدم اليك اي شيء تحتسيه ؟ .. يا شرابوف !

فهرول شرابوف الى العقيد الذي بادره :

ـ قدم لنا شيئا نحتسيه لقد نسيت هذا الامر ، انني اتقدم في السن ، ولكنك لا تزال شابا فماذا دهاك لتنسى ؟

فأجاب شرابوف :

ـ حاضر ايها العقيد !

ودون ان يتحرك خطوة واحدة فتح شرابوف « مطارة » المانية بحزامه ونزع من فوهتها قدحا صغيرا وملأه وقدمه الى سباروف الذي تجرع ما فيه دفعة واحدة ، لكنه لم يستطع ان يبتلعه اذ توقف في منتصف حلقه ، فأخذ

يسعل ويهلدرم ، اذ ان ما تجرعه كان كحولاً صافيا .

وسارع العقيد ليقول له :

ـ آه ! لقد نسيت ان احذرك ، فانا لا اشرب الفودكا الا اذا اضطررت اليها اضطرارا . ففي الحرب الفنلندية كنت اقاتل في قطاع بتسوما ، وقد تعـودت على الكحول هناك ، فهو يشيع دفئا رائعا وينحدر مباشرة الى معدتك ، لاحـظ انه قد يدغدغ حنجرتك قليلا ، ولكن الا تشعر معدتك بارتياح ؟

فأجاب سباروف وهو يتنفس بصعوبة :

ـ نعم انني اشعر بارتياح

والتفت ريميزوف الى مراسله شرابوف وقال :

ـ عليك دائما ان تقول : اسمح لي ايها الرفيق الضابط بان اعلمك بـأن ما اقدمه اليك هو كحول صاف افهمت ؟

فاجاب شرابوف :

ـ نعم فهمت .

ـ هيا ساعدني ثانية !

فتقدم شرابوف من العقيد وكرر نفس العملية التي قاما بها منـذ هنيهـة ولكن على شكل معاكس ، وقد ارفقها العقيد بانينه وتأوهه وشتائمه مضافا اليها التجديف . وعندما انكفأ على وجهه قال :

ـ اعتقد بانني لا استطيع السير ، لكن طبعي يحرمني من الهدوء والراحة، ولقد جرحت عدة مرات ، ولكن لم يسبق لي أن أصبت بجرح مجنون كهذا ، ولو انني استطيع ان اضع يدي على ذاك الالماني الذي جرحني فانني سأتخطى جميع الحرب واعرافها وسأمسك برقبته واخنقه خنقا ، يا له من خنزير ! حسنا لمـن اعهد بالامر ؟ اعهد به اليك ام الى فيليبتشوك ؟

وهنا دخل الخندق رجل طويل القامة يرتدي سترة ويحمل رشيشـا ، واجابه سباروف :

ـ فلتعهد به الي ، فلقد تمكنت من الحضور اليك ، ولا شك سأتدبر امر عـودتي

ــ حسنا ! دونك اياه ! وارجوك ان تعلم الجنرال بان العقيد ريميــزوف سيبذل كل ما لديه من جهد لاستعادة الشاطيء ، وسيكفر عن خطأه ، ثم اضاف بلهجة غاضبة وقال وهو يشير الى ضباط اركان حربه :

ــ وسيجعل الاخرين يكفرون عن اخطائهم ايضا . وقل للجنرال بان معنوياتنا هنا عالية واننا مستعدون للقتال . اما جرحي فلا تعلم به الجنرال ابــدا ، لكنني اعرف بانك لن تستطيع ضبط نفسك في هذا الامر ،

ثم التفت الى فيليبتشوك وقال :

ــ اما فيمــا يتعلق بك فلي طلب واحد وامر فقط اوجههما اليك ، وهمــا : عليك ان تبلغ قيادة الفرقة وان تعود الي حيا سليما .

فاجاب فيليبتشوك :

ــ حاضر ايها الرفيق العقيد .

ــ اعتقد بان هذا كل ما عندي ، كلا . . هناك امر آخر ، قال العقيد هــذا وصمت لبضعة ثوان اغمض خلالها عينيه وعض على شفتيه وادرك سباروف بان الشيخ يكافح آلامه ويهدهد اعصابه ، واخيرا فتح عينيه وقال بلهجته السابقة :

نعم هناك امر اخر ، وهو انني ارى ، ان علينا الا نستعيد ما فقدناه في الفجر او خلال النهار ، فالالمان سيترقبون حينذاك هجومنا المعاكس ، وعلينــا اليوم ان نصمد في مواقعنا ، وفي الغد نعد انفسنا للهجوم ، وفي ليله نشنه عليهم وعندما يكونون قانعين من اننا قد اذعنا للامر الواقع ، عندئذ نوجه ضربتنا اليهم هل انت مستعد يا فيليبتشوك ؟

ــ نعم .

ــ هيا تقدم منــي !

فتقدم فيليبتشوك من سرير العقيد فصافحه هذا اولا ثم صافح سباروف ، وكان قد اتجه نحوهما في الوقت ذاته بعينيه الزرقاوين الغارقتين بين غضون الرجل الشيخ . وقد شاهد سباروف في نظراتهما قلقا وتمنيا لهما برحــلة موفقة ، وشعر بان هذا العقيد الصغير المتوحش ، بالرغم من لهجته الغاضبة ، هو رجل طيب ولطيف معا ، وعندما غادرا العقيد سمعه سباروف يقول :

ـ فلتنطلقا ! اما انا سأنتظر هنا بفارغ شوق ونفاذ صبر .

عندما اخذ سبارف ورفيقه يتسلقان الدرب الزلقة المحاذيـة للمهـــواة وينحدران الى ضفة النهر سأل سباروف ثانية فيليبتشوك :

ـ كيف تتدبرون امر جرحاكم ؟ هل تنقلونهم ؟

فاجابه فيليبتشوك بما سبق للعقيد ان اجاب به وقال :

ـ الى أين نستطيع نقلهم ؟ فالجليد لايزال رهيفا ، ولكن لماذا تسأل هــذا السؤال ؟

ـ ليس هناك من سبب خاص ، بل انني مهتم بان اطلع على هذا الامر .

وفجاة تذكر سباروف كيف دخلت عليه آنيا في المرة الاخيرة وعانقته بحضور مسلنكوف ، لذلك أحس بخجل يعتريه من جراء ارتباكه وحيرته اللذين جعلاه يمتنع عن الاستفسار عن أهم كائن في العالم بالنسبة اليه ، لذلك صفـح حيرته ونبذ ارتباكه وقال :

ـ السبب هو ان زوجتي موجودة هنا ، وفي فوجك .

فسأله فيليبتشوك مدهوشا :

ـ زوجتك ؟! اين هي ؟

ـ انها ممرضة تعمل في القاعدة الطبية ، وانا اعرف بانها موجودة في مكان ما هنا ، مع فوجك .

ـ كيف شكلها ؟

فابتسم سباروف في الظلام اذ ادرك الصعوبة التي ستجابهه اذا ماأراد وصف آنيا لكنه قال :

ـ كيف أصفها ؟ انها مربوعة القامة ، تسرح شعرها الى الوراء ، واسمهـا كليمنكو .

فأخذ فيليبتشوك يردد اسمها ثم قال اخيرا :

ـ انني لا أعرفها .

فقــال سباروف :

ويدعونها ايضا آنيا .

ــ اتقول آنيا ؟! لماذا لم تقل هذا الاسم من قبل ، طبعا انني اعرف آنيا .

فسأله سباروف :

ــ هل هي في حالة جيدة ؟

ــ نعم انها في خيرعلىقدر مااعلم ، ولقد رايتها هذا اليوم في الساعـــة السادسة . اذ كنت آنذاك أزور جناحنا الايمن وذلك عندما كانوا يخرجون قائد الكتيبة . وعلى قدر ما أعلم فانها في خير .

نطق فيلبيتشوك جملته الاخيرة بلهجة تترنح ببعض شك ، فهو لم يرهــا منذ سبع أو ثمان ساعات ، وسبع او ثمان ساعات هي مدة جد طويلة من الزمــن في ستالينغراد وبادره سباروف قائلا :

ــ اذا ما رايتها عقب عودتك قل لها ان سباروف في خير وقل .. انني ارسل اليها بتحياتي .. كلا ! هذا ليس بضروري ، بل قل لها فقط انني فــي خيــر .

ــ آنيا .. لقد رايتها امس عند ريميزوف ، وكان الشيخ يشتمها شتائــم مقذعة ، وانت تعرف براعته في هذا المضمار .

فسأله سباروف ، بعد ان خمن السبب وقال :

ــ لمــاذا كــان يشتمها ؟

ــ اتسال لماذا ؟ لانها زحفت خارجة في وقت لايضطرها للزحف ، والشيخ لايطيق حتى الان ان تجرح او تقتل أمرأة تعمل في قطاعه . ولقد كانت عينــاه مغرورقتين بالدموع ، ولذلك انفجر فيها زعيقا وصراخا ، ليتك كنت تسمعه وهو يشتمها ، لقد ضرب حتى قدمه بالارض ثم طردها من عنده واستدعى شرابوف وأمره بان يكتب توصية بمنحها وساما . هذه هي حال الشيخ انه يقوم بشتى الاعمال في وقت واحد .

ابتسم سباروف وأحس بعطف على ريميزوف ، ولم تستثر عطفه توصيته بمنح آنيا وساما كما استثارته شتائمه لآنيا وضربه لقدمه بالارض .

تقدما نحو خرائب البناية التي كان قد بلغها سباروف قبل نصف ساعة ووجدا جريجورفيتش يجلس بين ركامها وبادره هذا سائلا بصوت هامس :

ـ اسباروف انت ؟

ـ نعم .

ـ هـل انـت عائـد ؟

ـ نعـم انني عائـــد .

ـ حسنا ! اتمنى لـك حظا سعيدا .

ثم اقترب جريجورفيتش منهما وصافح سباروف وفيليبتشوك ورأى سباروف ضمادا أبيض ملفوفا حول راسه فساله :

ـ مابـك يا جريجورفيتش ؟

فاجابـه :

ـ انت آخـر من يحق له ان يسال هذا السؤال ان لك قبضة كأنها المطرقة، لقـد حطمت أذني .

ـ سـامحني !

ـ لاباس ، ولكن في هذه المناسبة اعلمك بان الالمان منفعلون الان ثانية ، اترى ؟ انهم يفتشون كامل المنطقة المحاذية للضفة ، ولا شك في انك ستصادف مصاعب شاقة في طريق عودتك .

تطلع سباروف امامه فرأى العيارات النارية تختار نقطة بعد نقطة هدفا لها فالتفت الى فيليبتشوك وقال بصوت هامس :

ـ علينا ان نقطع دربنا زحفا .

ـ لاباس .

ـ وعلىَ كل حال ، فاذا ماحدث أي امر ، فالرسالة داخل قميصي ، ولقـد خبأتها هنا .

قال هذا وامسك بيد فيليبتشوك وجعله يجس المغلف المتضمن الرسـالة

ثـم سـأله :

ـ هل احسست بـه ؟

فاجـاب :

ـ نعـم .

ـ حسنا ! فلننطلق زاحفين .

كان سباروف يتمتع بذاكرة فريدة ، فهـو يرى الان الشاطيء مرسـومـا في مخيلته ، وهو يذكر عارضة فعارضة ولوحا فلوحا وكومة حجارة وراء كومة، حيث سيكون بامكانهما ان يحتميا بها .

اخذ سباروف يزحف في المقدمة وفيليبشوك يتبعه ، وكان سباروف يلتفت اثر كل زخة من رصاص تتناثر على مقربة منهما ويسأل رفيقه هامسا : هل انت هنا ؟ وكان فيليبتشوك يجيبه بالصوت الخفيض ذاته ايجابا ، وعندما بلغـا منتصف الطريق اخذ سباروف يوجه الى رفيقه ذاك السؤال كل دقيقة تقريبا، وكان يتلقى منه دائما الجواب ذاته : هنا ، وعندما شعر سباروف بانهما يقتربان من تقاطهم الامامية القائمة على الجانب الاخر انطلقت فجأة عدة زخات من اعيرة نارية لينقض رصاصها حولهما فسأل سباروف رفيقه :

ـ هل انت هنا ؟

لكنه لم يسمع منه جوابا فزحف سباروف عائدا مسافة قامتين واخـذ يبحث بأصابعه عن جسد رفيقه .وعندما عثر عليه عاد ليسأله :

ـ هل انت هنا ؟

فأجاب فيليبتشوك بصوت خفيض متحشرج ، « انني هنا » .

فسأله سباروف مرتاعا :

ـ مابـك ؟

لكن فيليبتشوك لم يجب ثانية فانحنى سباروف فوقه واخذ يتحسس جسده فالفاه قد اصيب في موضعين من عنقه وفي جنبه ، ووجد سترتـه مبللة بالدم ، فانحنى ثانية فوق شفتيه فوجده لايزال يتنفس ، فضمه باحدى

ذراعيه واخذ يدفع جسده وحمله بذراعه الاخرى وساقيه ويتقدم زاحفا . وسار على هذا المنوال طيلة ثلاثين قامة أحس اثرها سباروف بهروب قواه من جسده فاضطجع فيليبتشوك واضطجع الى جانبه .واخذ يهمس مناديا رفيقه باسمه ، لكن فيليبتشوك بقي صامتا . فانحنى سباروف على شفتيه ثانية ، فبدا له ان رفيقه قد خمدت انفاسه ، فادخل يده من تحت سترة فيليبتشوك وقميصه وتلمس جسده العاري ، فأحس ببرودة الموت تنبعث منه ، فبحث سباروف في جيوب رفيقه واخرج منها رزمة صغيرة من الاوراق ، ثم نزع مسدسه من قرابه ووضعه في جيب سرواله وتابع زحفه ، والحق ان سباروف لم يرد ان يترك جثة رفيقه هنا ، لكن المغلف الموجود داخل سترته لم يترك له خيارا في الامر . وعندما زحف خمسين قامة اخرى ، وكاد يستنزف اخر ذرة من طاقته سمع من يهمس به أمامه ويقول :

ـ من هنا ؟

فأجاب سباروف بصوت هامس ايضا : « روسي » ، ثم انتصب واقفا على قدميه اللتين كادتا تتهاويان به ، وعندما لم ير احدا امامه تقدم ، ليجد نفسه انه لايبعد اكثر من ثلاث خطوات عن الجدار الذي كان الجنود ينتظرونه عنده ، وبادر يسأل احد الجند :

ـ أين آمر سريتك ؟

ـ هنـا .

ـ هناك على بعد خمسين قامة يوجد ضابط جاء معي .

فسأله آمر السرية :

ـ هل هو جريح ؟

فأجاب سباروف بصوت غاضب ، اذ احس بان آمر السرية يتساءل في نفسه عما اذا كان من المجدي ان يأتي بجثة القتيل أم لا :

ـ انه قتيل ،لكن عليك ان تأتي بجثته ، افهمت ما أقوله ؟

ـ طبعا ايها الرفيق النقيب ، ولكن هل أخذت اوراقه الثبوتية ؟

فأجاب سباروف :

ــ نعم لقد اخذتها .

ــ اذن لقد انتهى الامر ، ايها الرفيق النقيب ، وسيان الان لديه ، وهو لن يحس بحال افضل اذا مانقلناه الى هنا ، واذا ما اصررت فسأرسل عندئـــذ برجلين قد افقدهما .

فأجاب سباروف :

ــ لقد اصدرت اليك أمري بنقله الى هنا .

فأجاب آمر السرية :

ــ حاضر ايها الرفيق النقيب ولكن ...

ــ ولكــن مــاذا ؟

ــ لو كانت الظروف هي غير ظروفنا الحالية لما اعترضت ، لكننا الان نعول على كل رجل لدينا .

فأجاب سباروف بلهجة نارية اذهلته هو نفسه وقال :

ــ اسمع هذا ماسيكون ، فاذا لم تنقله ، فسأذهب الى الجنرال لاسلمــه الرسالة ، ثم سأعــود اليك وسأنقله بنفسي وبعدئذ سأقتلك لانك رفضت تنفيذ اوامري ، هيا اعطني احد الحراس كي ابلغ مركز القيادة سريعا .

ثم استدار ومشى وهو يترنح وراء الجندي قاصدا خندق بروتسنكو ، واحس بان حديثه وآمر السرية لو استمر دقيقة واحدة اخرى لكــان اهــوى بقبضته على وجه ذاك الضابط . وقد يكون آمر السرية محقا فيما ذهب اليه ، وهو عليه ان يرعى رجاله ،لكن العودة بجثة ضابط قتيل هي أمر هام ومقدس بالنسبة الى الجيش ، الى درجة تجعل سباروف يبرر حتى الخسائر ، اذا لم يكن بالامكان اجتنابها .

وعندما دخل سباروف الخندق الفى كل شيء مظلما امام عينيه فتهاوى على المقعد ثم فتح عينيه وحاول ان يقف ، لكن بروتسنكو الذي كان قد جلس الى جانبه وضع يده على كتفه ومنعه من الوقوف ثم سأله :

ــ أترغب في قدح من الفودكا ؟

ـ كلا ايها الرفيق الجنرال ، لااستطيعها ، انها تفقدني الان وعيي ، لكن اذا كان لديكم بعض الشاي ؟..

فصاح بروتسنكو :

ـ اعطه قدحا من الشاي !

ثم التفت الى سباروف وساله :

ـ الا يزال ريميزوف حيا ؟

ـ نعم انه حي لكنه جريح ، وهاك رسالة منه .

فقال بروتسنكو وهو يضع نظارتيه على عينيه :

ـ حسنا !

شاهد سباروف بروتسنكو يقرأ التقرير وقدر ان هذه هي اللحظة التي يستطيع ان يرتاح فيها ، وقبل ان تكتمل هذه الفكرة في ذهنه هوى في زاوية بالقرب من الحائط ، ولم يدرك انه قد غط في سبات عميق ولم يعرف المدة التي نامها الا بعد ان هزه بروتسنكو من كتفه وساله :

ـ أستيقظ الآن ؟

فحاول سباروف ان ينتصب على قدميه لكن الجنرال منعه من ذلك وهو يقول :

ـ فلتجلس ! اجلس !

ـ هل نمت طويلا ؟

ـ طويلا . عشر دقائق . لقد قلت ان ريميزوف جريح ؟

ـ نعم جريح .

ـ في أي موضع جرح ؟

فاعلم سباروف الجنرال بموضع جرح العقيد ، واخبره كيف ان ريميزوف غاضب لما اصابه فقال بروتسنكو :

ـ انني اراهن على ان ريميزوف يمضي وقته لاعنا شاتما .

ـ ستكسب الرهان بالتاكيد .

ـ كيف هي الحالة المعنوية بصورة عامة ؟

فاجاب سباروف :

ـ انها طيبة كما رايت .

ـ لقد كتب الي يقول بانه يستطيع أن يحشد قواه ويضرب الالمان من جانبه ، وهو ايضا لايريد ان يستسلم للوضع القائم .

اخذ بروتسنكو ينقر بأصابعه على الورقة التي كان يمسك بها ثم سأل سباروف :

ـ اجئته وحيدا من هناك ؟

ـ نعم وحيدا .

ـ لماذا لم يرفقك بضابط ، كي نعيده اليه بتعليماتنا . ان الرجل يتقدم به العمر سريعا لذلك بدأ يخطيء .

فأجابه سباروف :

ـ لقد ارفقني بضابط لكنهم صرعوه في طريقنا اليك .

وفجأة تذكر سباروف انه لايزال يحمل مسدس فيليبتشوك واوراقه الثبوتية ، فأخرجها من جيبه ووضعها على المكتب .

فقال بروتسنكو وهو يتثاءب :

ـ هل اطلقوا النار عليكما بغزارة ؟

ـ نعم بغزارة شديدة .

ـ لااظن ان المرء يستطيع ان يتسلل الى ريميزوف نهارا ؟!

فأجاب سباروف :

ـ هذا امر مستحيل .

ـ طيب ...

ـ تردد بروتسنكو ثانية ، وبدا واضحا انه كان يرغب في ان يقول شيئا ما، لكنه لم يبت فيه بعد ، وهكذا وجدته يستطرد :

ـ ولكن غدا ليلا علينا ان نقتحمه .. كيف قتلوه .

ـ من قتلوا ؟

فاشار بروتسنكو الى الاوراق الثبوتية بيده وقال :

ـ هذا الضابط .

ـ لقد اصابوه اصابات خطرة ، ثم جررته معي لفترة ، ومات اخيرا بين ذراعي .

فقبع بروتسنكو قائلا :

ـ طيب .

اما سباروف فأحس باثقال التعب تغمض عينيه وشعر بان بروتسنكو يريد ان يعيده الى ريميزوف لكنه لم يبت في هذا القرار بعد ، والتفت بروتسنكو الى رئيس اركان حربه وقال :

ـ اسمع يايجور بتروفيتش ! كن رجلا طيبا واجلس وراء مكتبك واكتب امرا الى ريميزوف ، وضمن هذا الامر كل ماقررناه ، الوقت المحدد للهجوم كل شيء ...

فرفع رئيس اركان حربه بصره عن الاوراق وقال :

ـ انني مستعد الان لكتابته .

فالتفت بروتسنكو الى سباروف وحملق في وجهه المتعب ثم قال للمرة الخامسة :

ـ نعم .

لكنه اردفها الان بقوله :

ـ لماذا تجلس هنا ؟ عليك ان تنام قليلا .

فاه بروتسنكو بكلمة قليلا باهتمام يقارب الخجل وعاد ليقول :

ــ نم قليلا ! اذهب ونم ، هذا أمر اصدره اليك .

استنزف سباروف آخر ذرة من طاقته ليرفع ساقيه كي يضعهما علــى المقعد ، وبينما كان يضطجع على حاله ، وهو لايزال منتعلا حذاءه ومستديــرا بوجهه الى جدار الخندق الرطب البارد غط فورا في سبات عميق ، وكان اخــر خاطر ومض في مخيلته خاطر يقول بانه ربما ارسلوا به ثانية الى ريميزوف . حسنا فليرسلوا به ، ولكن فليمنحوه لقاء ذلك نصف ساعة من النوم ، وبعدها لا فرق عنده .

اخذ بروتسنكو يذرع الخندق بخطى وئيدة وهو يملي على رئيس اركان حربه أمره الى ريميزوف ، وكان بين فينة واخرى يلتفت الى سباروف ويحملق فيه ، اما سباروف فظل نائما ، وتابع بروتسنكو املاءه ثم استدار ثانية وحدق في سباروف وقطع فجأة املاءه وقال :

ــ اسمع يا يجور بتروفيتش ! مارأيك لو ارسلنا بفوستريكوف ؟

فأجابه رئيس اركان حربه :

ــ نعم نستطيع أن نرسل به ، هل ستبعث بأية رسالة شفهية أو فقط بالامــر الخطي ؟

ــ انه لأمر رديء اذا كان عليك ان تضيف اليه أوامر شفهية .

ــ حسنا ! اذا لم تكن هناك من اوامر شفهية فعندئذ بمقدورنا أن نرســل بفوستريكوف .

لكن بروتسنكو أشار بيده الى سباروف وقال :

ــ سأرسل به ، لكنني اجد من الصعب علي ان أسأله القيام بهذه الرحلة للمرة الثالثة في ليلة واحدة .

فأجابه رئيس اركان حربه :

ــ نعم انه من الصعب ارساله ، لكن من السهل عليه أن يبلغ ريميزوف ، فهو قد زحف اليه حتى الان مرتين على بطنه ، وهو يعرف الان كل حفرة وتليلة واكمة ومتراس .

فقبع بروتسنكو ثانية وقال :

ـ طيب ! علينا ان نرسله ، فالامر يجب ان يبلغ هناك .

ثم عاد يحملق في سباروف النائم ويفكر متأملا وفجأة قال :

ـ نعم هذا ماسنفعله ، لقد فكرت به .

فسأله رئيس اركانه :

ـ بماذا فكرت ؟

ـ لقد فكرت كيف نستطيع ان نتأكد من وصوله ريميزوف وتسليمه الامر اليه ...

ثم اقبل على سباروف واخذ يهزه ويقول :

ـ يا الكسي ايفانوفيتش !

فهب سباروف منتصبا على قدميه وهو يرد « نعم » وبدا كانه مستعد لتنفيذ اي أمر يصدر اليه ، شأنه في ذلك شأن الناس عندما يستيقظون فجأةمن نومهم وبادره بروتسنكو :

ـ هاك الامر ، عندما تبلغ ريميزوف فافعل مايلي :

حالما تصله ليطلق في وقت واحد سهما ناريا اخضر واخر احمر فوق الفولغا واذا لم تكن لديهم اسهم نارية فليطلقوا ثلاث شحنات من رشيشاتهم في الهواء وفي الوقت ذاته باتجاه الفولغا ايضا ، ولتكن بعض الاعيرة اعيرة مضيئة . وهكذا يصبح بمقدورنا ان نراها من هنا .

فأجاب سباروف :

ـ حاضر .

ـ اذن بهذا سأعرف بانك وصلت وبلغت الرسالة . وآمل الا تنام في طريقك ، أليس كذلك ؟

ثم ربت بروتسنكو على كتف سباروف واستطرد :

ـ اذا مانمت فلن تستيقظ قبل شروق الشمس .

ـ لن أنام ، فالالمان لن يمكنوني من النوم .

فأجابه بروتسنكو باسما :

ــ احقا لن يمكنوك من النوم ؟ بشرفك السث بالغ التعب ؟

فكرر سباروف :

ــ لايهم ! لن انام .

ــ حسنا ! فلنجلس الى المائدة .

جلس سباروف واتجه بروتسنكو الى الباب وفتحه نصف فتحة وصاح آمــرا :

ــ هيا أعدوا الشاي لنا !

ثم خرج بروتسنكو ووقف وراء الباب وأصدر امرا ما بصوت هادىء . وعقب دقيقتين بينما كان بروتسنكو ورئيس اركان حربه وسباروف يجلســون الى المائدة دخل عليهم فوستريكوف وهو يحمل طبقا نحاسيا وضعت عليه ثلاثة اقداح شاي وبسكويت وعلبة من مربى الكرز لايعرف غير الله من اين جاء بهـا فوستريكوف . والتفت بروتسنكو الى سباروف وقال :

ــ انا لااستطيع ان اقدم اليك زلابياء الجبنة ، ولكن اذا كنت تحب الكــرز الاوكراني فدونك ايــاه .

قال بروتسنكو هذا ورفع علبة مربى الكرز بيده وأشار باصبعه الى ماكتب عليها ، اذ كتب « شركة الدولة الاوكرانية الموحدة كييف » ثم استطرد :

ــ هل فهمتم ؟ لقد اتيت بها من كييف .

فسأل سباروف :

ــ هل تعني انك احتفظت بها منذ ان كنت في كييف وحملتها معك منــذ ذاك الحين ؟

فأجاب الجنرال :

ــ لاشك ان في قولي ذاك بعض مبالغة ، فلقد وزعوها علينا في فورينيج كما اعتقد . . . وانا احب الكرز . . .

ــ حسنا ! لنحتس الشاي !

تلاشى تردد بروتسنكو في ارسال سباروف ، واحس غريزيا بان شموله له بعطف وحنان غير عاديين ، لا يعنـي سوى انه يفكر بمقتل الرجل الـذي يرسله ،لذلك انطلق بروتسنكو فجأة يتحدث عن مدرسة ضباط الفرسان فـي كييف حيث تلقى دروسه وقال :

ـ لم يكن تدريسهم رديئا ، وكان كل مافيها يبدو جميلا وخاصة البـزات الرسمية وسراويل الركوب ، هل تعلم بانهم كانوا ايضا يحاولون تعليمنا الرقص وقواعد السلوك الاجتماعي ، مع انه لم تكن هذه الدروس مألوفة آنذاك .

فسأله رئيس اركان حربه وهو يبتسم :

ـ لاشك انهم نجحوا في تدريسهم لكم قواعد السلوك الاجتماعي ، أليس كذلـك ؟

فأجابه بروتسنكو :

ـ عليك ان تحكم انت في هذا الامر ، فيما اذا كنت انا قد تعلمت حقـا مثل هذه القواعد ام لا .

ـ اذا ماسمحت لي بقول الحقيقة ، فان الجواب على هذا السؤال يتوقف على الظرف الذي تتحدث فيه .

فرد بروتسنكو :

ـ صدقت ! فعندما يقوم ضباط اركاني بأعمالهم كما اريد واشتهي، فعندئذ أحافظ على قواعد السلوك الاجتماعي ، لكنهم عندما يقومون بأمر لا يتفق وما اريده آنذاك انسى السلوك الاجتماعي واتنـاسى قواعده ، فلي طبـع غريب ، هو النسيان .

احتسى سباروف فنجان شاي يتصاعد منه البخار ، واحس ثانية برغبة يائسة في النوم ، لكنه عقب ان تجرع مـا في فنجـانه الثـاني ، أحس ببعض انتعاش ، وألفى مربى الكرز شهي الطعم رائع المذاق ، فحبيبات الكرز كانت من تلك الفصيلة التي كان يحب ثمارها في طفولته ، فثمرتها كانت دون نواة ، وأمر بروتسنكو بفنجان شاي ثالث لكل واحد منهم ، فشعر سبـاروف بان وقت رحيله قد حان فتجرع من قدحه عدة جرعات ثم هب منتصبا على قدميه فبادره بروتسنكو :

ـ لماذا لم تأت على ما في فنجانك ؟

ـ لقد حان الوقت ايها الرفيق الجنرال ، هل تسمح لي بالانصراف ؟

ـ فلتذهب ! لقد اتفقنا اذن ، على انه اذا لم يكن لديهم اسهم نارية فليطلقوا ثلاث شحنات من رشيشاتهم .

ـ نعم هذا واضح .

ـ وليكن اطلاقهم في اتجاه الفولغا .

ـ تماما .

ادى سباروف التحية العسكرية وخرج ، وخيم الصمت على بروتسنكو ورئيس اركان حربه لبرهة التفت اثرها بروتسنكو الى احد ضباط اركان حربه الذي كان قد دخل الغرفة عليهما وسأله :

ـ حسنا ! هل انتهيت من حشد الرجال هنا الذين جئت بهم من الكتائب؟

فأجاب الضابط :

ـ اننا نكاد ننتهي من تحشيدهم .

ـ هيا ! اسرع ان الفجر وشيك ، ونحن اذا لم ننقلهم قبيل الفجر فعندئذ سنفقد بعضهم دون حاجة .

ثم التفت بروتسنكو الى رئيس اركان حربه وسأله :

ـ ماذا تعتقد هل سيبلغ سباروف قصده سالما ؟

ـ نعم انني اعتقد بهذا .

فاسترسل بروتسنكو يقول :

ـ وانا اشاركك اعتقادك . هل تعلم ، لقد مرت بي لحظة كدت اقول فيها له ، عد للمرة الثالثة وانا اعدك كجنرال بانني سأستحصل لك على وسام لينين، واذا لم يعطوك اياه فانني عندئذ سأنزع وسامي واعطيك اياه ، وليفعلوا بعدئذ ما يريدون ويشتهون .

بينما كان بروتسنكو ورئيس اركانه منهمكين في حديثهما كان سباروف

يزحف على الارض التي امست قطعة من جليد . ولم يعرف سباروف ما اذا كان اقتراب شروق الشمس ، او اعتقاد الالمان بان الروس لن يحاولوا ارسال رسول آخر ، او مللهم من اطلاق النار ، هو الذي مكن سباروف من ان يقطع نصف المسافة زاحفا دون ان يطلقوا عليه من قمة الجرف رصاصة واحدة . وقد اثار هذا الامر اعصابه واستثار انفعاله ، فأخرج مسدسه وحل صمام امانه ، ثم فك احدى القنابل من حزامه وامسك بها بيده اليمنى ، ومع انه كان من الصعب عليه ان يزحف .وهو على هذه الحال ، الا انه لم يخفض القنبلة بل بقي ممسكا بها كي يرمي بها عند اول لحظة من خطر تمر به ، ثم تذكر الرسالة التي يحملها فقال في نفسه ، اذا ما وقع المقدور فانا استطيع على كل حال، ان القي بقنبلة عند قدمي ، لكنه ما كاد يقطع خمسين قامة اخرى حتى بدأ يتخلى عن هذه الخواطر ويطردها من مخيلته ، فلقد سيطر عليه شعور غريب بأنه سينجز مهمته ويخرج منها سالما هذه المرة ايضا ، وتسلق الخرائب الواقعة على الجانب الثاني ، ونجح فيما اراد ، وبلغ جريجورفيتش دون ان تطلق عليه طلقة واحدة طيلة الطريق وسأله جريجورفيتش :

ـ أانت ثانية يا سباروف ؟

ـ نعم ها انا قد عدت اليك ثانية .

ـ اين فيلبتشوك ؟

ـ لقد قتل .

ـ اين قتل ؟

ـ هناك بالقرب من الجانب الاخر .

ـ ماذا تعني ، الا يزال ممددا على الضفة ؟

ـ نعم انه على الضفة ، لكنه داخل خطوطنا .

تذكر سباروف وجه فليبتشوك الميت ، .وكان قد سأل في طريق عودته ثانية إلى ريميزوف آمر السرية عما اذا كانوا قد نقلوا جثة الضابط الى خطوطهم وعندما اجابه آمر السرية ايجابا توجه سباروف حينذاك الى المكان الذي وضعت فيه جثة فيليبتشوك واضاء مصباح جيبه وتأمل في وجهه ، فالفاه ابيض باردا ،

وكان احد الجنود قد مسح عن وجه القتيل الطين والدم ، وبدا لسباروف للمرة ما بعد المئات ، لا المئة ، الغرابة في ان تتحدث .ورجل ينبض بدماء الحياة ويخفق قلبه بآمالها ، ثم تجده عقب ساعة جثة هامدة غارت دماؤها وخمدت آمالها، وتذكر سباروف سؤاله لفيليبتشوك وجواب رفيقه عليـه ، « آلنت هنا ؟ » « نعم هنا » .

دخل سباروف على ريميزوف خندقه وسلمه الرسالة التي يحملها اليه فقرأها العقيد ثم سأله عن فيليبتشوك ، ودارت بينهما المحادثة القصيرة ذاتها التي دارت بين جريجورفيتش وسباروف ، وسأله العقيد :

ــ هل عدت بأوراقه الثبوتية ؟

ــ لقد سلمتها الى الجنرال .

ــ حسنا .

وفجأة تذكر سباروف ان عليه ان يعطي الاشارة بوصوله فقال :

ــ لقد امرني الجنرال باعطاء اشارة تعلمه بوصولي ، هل لديك سهم ناري اخضر .وآخر احمر ؟

فأجاب العقيد :

ــ اعتقد بانه يجب ان تكون لدينا مثل هـذه الاسهم ، هيـا يا شرابوف وابحث عن بعضها .

لكن شرابوف أجابه :

ــ لم يعد لدينا شيء منها ، لقد اتينا عليها جميعا .

فقال سباروف :

ــ اذن علينا ان نطلق ثلاث شحنات من الاعيرة النارية ، ويجب أن يكـون بينها أعيرة مضيئة ، وذلك فوق الفولغا .

فأجابه العقيد :

ــ هذا نستطيع القيام به ... يا شرابوف ، شرابوف .

فدخل شرابوف عليهما وبادره ريميزوف آمرا :

ـ هيا ساعدني لانهض من هذا السرير اللعين .

أطاع شرابوف ما أمر به ، واخذ العقيد يذرع الخندق جيئة وذهابا وهو يئن ألما ، واخيرا قال :

ـ اعطني رشيشا ! هل في شحنتها اعيرة مضيئة ؟

ـ نعم انها جاهزة .

ـ اذن هاتها ! هيا بنا يا سباروف ! فابتهاجا بعودتك ساطلق هذه الشحنة بنفسي ، فمن النادر ان تتاح لعقيد بائس الفرصة ليطلق سلاحا . لقد كانت الحال تختلف عن حالنا اليوم عندما كنت ملازما في الحرب الالمانية الاولى ، لقد كنت حينذاك اتجول كأنني الصياد ، ولقد اصطدت بعض الالمان ، لقد كنت يومذاك ، رجلا « صغيرا » (يعني يحمل رتبة صغيرة) لكنني كنت ماهرا في المكائد ، اما الآن فلا استطيع ان اقوم بما كنت اقوم به يومذاك ، فهذا ، كما يزعمون ، لا يليق بوقار رتبتي ومهابتها .

ثم اضاف سائلا وهو يرفع الرشيش :

ـ الى اي اتجاه يجب ان أسدد ؟ اي اتجاه اريده ؟ أهذا ما هو متفق عليه؟

فأجاب سباروف :

ـ نعم !

وفجأة تذكر سباروف اوامره فصاح :

ـ انتظر قليلا ! انتظر قليلا ! لقد ارتبكت ، فانا متعب حتى الموت ، عليك الا تطلق ثلاث شحنات من رشيش واحد ، بل يتوجب علينا ان نطلقها من ثلاث رشيشات .

فاستدعى شرابوف وطلب منه ان يحضر رشيشه ، وان يستدعي آخر ورشيشه ، وعندما حضرا اليه ، بادرهما قائلا :

ـ قفا الى جانبي ، ولتطلقا شحنة كاملة من رشيشيكما وذلك حينما آمر ، وانتهى من العد حتى الثلاثة ، وانا سأسدد تسديدا منخفضا اما انت

فتسدد رشيشك تسديدا اعلى من تسديدي ، وانت تسدد الى القمر مباشرة، وسنعتبر هذه الاطلاقات تحية منا لذكرى فيليبتشوك ، هل انت موافق على ما ابديت يا سباروف ؟

ـ طبعا ايها الرفيق العقيد !

فعاد ريميزوف ليحدث سباروف عن فيليبتشوك وقال :

ـ لقد كان ضابطا ممتازا وسأفتقده طويلا .

ثم التفت العقيد الى احد الجنديين وقال :

ـ حسنا ، أعط رشيشك الى النقيب ! خذه منه يا سباروف ، واطلقه تحية لذكرى رفيقنا .

بدأ الشفق ينثر رماده على السماء ، وعندما فاه ريميزوف بكلمة « ثلاثة » اطلقوا جميعا رشيشاتهم الى السماء ، وتطايرت العيارات المضيئة عاليا فوق الفولغا ، ورسمت في السماء قوسا وهي تنحدر ، وتبادل سباروف والعقيد النظرات ، وبدرت من سباروف بادرة تشير الى انه قد حان موعد عودته الى الجنرال وحذر ريميزوف ما عناه النقيب من بادرته تلك فقال بلهجة فيها شيء من صرامة وعزم ، كأنها لهجة أب :

ـ لا ! لن اسمح لك بالعودة ، فعما قريب ستشرق الشمس ، وبصورة عامة لن اوافق على عودتك. لقد جربت حظك ثلاث مرات فنجحت وليس من الحكمة ان تجربه للمرة الرابعة ، وغدا سنستعيد ما فقدناه وسنتصل ثانية برفاقنا ، وعندئذ تستطيع ان تعود .

فأجاب سباروف :

ـ لكن كتيبتي هي بلا قائد الآن .

فرد ريميزوف :

ـ لدي كتيبتان فقدتا قائديهما فاذهب ونم ! هيا يا شرابوف واعد سرير القوميسير للنقيب !

ثم عاد يخاطب سباروف :

ـ لقد قتل قوميسيري ، لقد كان رجلا صالحا لا بل ممتازا ، ولم يمض عليه بيننا اكثر من شهر ، وقد بلغت طيبته حدا مكنه من ان يشيع الغبطة في فؤاد ذئب هرم مثلي ... لم اكـن اعلم بأنني سأفتقده الى هذا الحد .

وبعد ان نطق بالجملة الاخيرة مسح زوايا عينيه بخشونة واستطرد :

ـ هيا ! فلنعد الى الخندق .

- ١٩ -

عندما استيقظ سباروف كانت الساعة قد بلغت الثالثة أصيلا ، فلقد نام ثمان ساعات كاملة ، وعندما فتح عينيه سمح ضجة تنبعث من احدى الزوايا فسأل :

ـ من هنا ؟

ـ انا .

وانتصبت امامه فتاة قوية البنية مفتولة العضل ، مشمرة عن ساعديها، ترتدي مئزرا فوق بزتها العسكريـة ، فاستفسر منهـا سباروف عن العقيد ، فأجابته بانه في الخط الامامي ، فسألها عن موقع هذا الخط فقالت :

ـ انه لا يبعد عنا ، فهو على ميمنتنا .

فألقى سباروف بساقيه عن السرير ولاحظ ان أحدهم قد خلع عن قدميه حذاءه وقماطيه القطنيين بينما كان يغط في نومه فأخذ يبحث عنها لكن الفتاة بادرته تقول :

ـ رويدك ! رويدك ! ان اشياءك لا تزال تجف وسأحضرها اليك خـلال برهـة .

فسألها :

ـ من نزعها عني ؟

ـ لا شك انه شرابوف ، فهل تحب ان تنام وانت منتعل نعليك ؟

قالت الفتاة هذا وغادرته الى مكان آخر ثم عادت منه فورا وهي تحمل باحدى يديها حذاءه الجاف المحلول من عراه تقريبا ، وبالاخرى قماطيه القطنيين وبادرته :

ـ هاك اشياءك !

فسألها سباروف :

ــ ما اسمك ؟

ــ باشا .

ــ هل غادروك جميعهم وتركوك وحيدة هنا ؟

فأجابت باشا :

ــ نعم لقد تركوني وحيدة ، فجميعهم في الخط الامامي ، وقد نقلوا الهاتف معهم ايضا .

اخذ سباروف يرمقها بنظرات فاحصة فألفاها فتاة ضخمة الجثة ، لكنها ليست بالبدينة تماما ، غير ان بنيتها ذات مقياس كبير ، وذات وجنتين حمراوين وانف شامخ الارنبة واستطرد سباروف يسألها :

ــ هذا ما معناه ، انه قد عهد اليك بالدفاع عن كامل مركز القيادة اليس كذلك ؟

فأجابته باشا بلهجة جافة اذ لم يرق لها سؤاله وقالت :

ــ هذا ما يجب ان يعنيه ! هل ترغب في شيء من طعام ؟

ــ حبذا .

ــ لقد امرني العقيد بأن اخصك بعناية خاصة ، وان اوفر لك النوم والطعام الكافيين .

فسألها سباروف وهو يبتسم :

ــ ألم يصدر اليك اوامر اخرى غير هذين ؟

فأجابت :

ــ كلا .

وبدا لسباروف انها لا ترغب في ان يمزح احد من مسؤولياتها واسترسلت تقول :

ــ لقد قال فقط بان عليك ان تذهب اليه حالما تتناول طعامك وهناك

جندي ينتظرك عند الباب .

ـ وما الذي ستقدمينه الي من طعام ؟

فأجابت باشا وهـي تهز بكتفيها اسـفا ، اذ بـدا ان هذا السؤال قـد احزنها وقالت :

ـ بوريدج ! مستخرج من الحنطة السوداء ، هل سبق لك ان تنـاولت شيئـا منه ؟

ـ طبعـا .

ـ لكنني اضفت اليه بعضا من دسم ، ولا اعلم ماذا سأستطيع ان اعده من طعـام غدا .

فسألها سباروف :

ـ هل تجمدت الفولغا ؟

فأجابته الفتاة :

ـ ان الله وحده يعرف بهذا الامر ، فهناك من يقول بأنها تجمدت ، وهناك غيرهم يقولون بأنها لا تزال تجري ، لكن كل ما أعلمه انهم لا يمدوننا الآن بالمؤن، وهذا ما يجعل من الصعب على المرء ان يتأكد من هذا الامر .

خرجت باشا وعادت بمقلاة مليئة ببوريدج الحنطة السوداء ووضعتـه امامه وهي تقول :

ـ هيا تناول طعامك !

ثم قصدت احدى الزوايا والتقطت منها مطرة مليئة بالفودكا ، وخضتها خضة محترف،ودون ان تسأل سباروف ملأت له قدحا منها فسألها سباروف :

ـ اين شرابوف ؟

ـ انه برفقة العقيد ، وهو دائما معه ولا يتركه ابدا .

ودون ان يدعوها سباروف ، تناولت باشا مقعدا وجلست عليه قبالته ثم اسندت ذقنها الى قبضتها واخذت تحدق فيه وتتأمله تأمـلا عميقـا دون ان

ترتسم على وجهها علامة من ارتباك او خجل . والحق انه سبق لها ان اعتنت بكل فرد من افراد الكتيبة ، وقد اشبعت فضولها من كل واحد منهم ، لذلك فان قدوم شخص جديد الى الكتيبة ، قد اشاع في فؤادها غبطة لا توصف . وبادرها سائلا :

ـ حسنا فيم تحملقين ؟

ـ انني اتطلع فقط ، هل ستبقى معنا ؟

ـ كلا ! لن ابقى معك .

ـ اذن ما الذي ستفعله ؟

فأجاب سباروف وهو يبتسم :

ـ فلتسمحي لي بالقول بانني هنا في مهمة موقتة وسأغادركم غدا ، ما رايك ؟ اتسمحين لي بذلك ؟

فأجابته وهي تتجاهل لهجته المزوح وقالت :

ـ ولماذا لا ؟ ربما ترغب في المزيد من الطعام ؟ لكن لم يبق شيء منه ، هل تريد فنجانا من الشاي ؟ فما لدينا منه اكثر من ذاك .

فرد سباروف :

ـ كلا لا اريد شايا .

فأجابته بلهجة موبخة :

ـ لكن سيرجي فاسيليفتش يشرب الشاي .

ـ من هو سيرجي فاسيليفتش هذا ؟

ـ الا تعرفه ؟! انه العقيد .

ـ ومع هذا لا اريد شايا .

ـ كما ترغب ، ولكن هل اقدم اليك بعض الشيكولا ؟

ـ كلا !

ـ لقد طلب الي سيرجي فاسيليفتش ان اقدم اليك كل شيء عندنا ، ألا تريد شيكولا ؟

ـ كلا لا اريدها .

فأجابت باشا بلهجة خامرها بعض ارتياح وقالت :

ـ حسنا فعلت ، اذ لم يبق لدينا منها غير لوح واحد .

عندما انتهى سباروف من تناول طعامه تطلع سائلا باشا :

ـ اين الجندي الذي كنت تتحدثين عنه ؟

ـ انه في الخندق ، وقد امره ريميزوف بان يصطحبك اليه .

فهب سباروف واقفا وشكرها فأجابته :

ـ فليحفظ الله عليك صحتك ! فانت كسيرجي فاسيليفتش تأكل قليلا ، ولكن كان عندما قوميسير ، قتل بالامس ، وكان يحب حقيقة ان يأكل . لقد كان رجلا صالحا ولطيفا ، واسمه بلاطون ايفانوفيتش ، ألا تعرفه ؟

ـ كلا لا اعرفه .

فأجابته باشا بصوت يتهدج قناعة وقالت :

ـ لقد كان حقا رجلا لطيفا ، ولم يكن يهمه ما تقدمه اليه ، اذ كان يأكل دائما اي لون ويمدحه ، ثم يطلب المزيد منه ، لقد كان رجلا ودودا .

خرج سباروف من الغرفة فوجد الجندي ينتظره عند باب الخندق فبادره :

ـ هيا بنا الى العقيد !

فأجابه :

ـ لن نذهب بعيدا ايها الرفيق النقيب ، فهو على مقربة منا .

أعجب سباروف بتدبير ريميزوف لاموره ، فلقد كان باستطاعتك ان تشاهد النظافة ، ان لم تقل الاناقة ، والدقة في كل ما مسته يداه ، فأمام الخندق ، حفرت خنادق المواصلات في الخرائب وفي كل مكان لا تطاله شظايا

القنابل ، وبعد خمس دقائق بلغ سباروف أحد مراكز المراقبة اقيم بين خرائب بناية تقع على حافة المهواة الزلقة التي تفصل قطاع ريميزوف عن الالمان وكانت المدفعية الالمانية لا تنفك تقصفه ابدا ، وقد حفره ريميزوف تحت أسس وشقه خندقا انيقا لطيفا ذا فتحتين مموهتين تطلان على الالمان . وكانت الارض قد تجمدت أثناء الليل ، وشاهد سباروف في قاع المهواة دبابة مقلوبة رأسا على عقب ، وكانت هذه الدبابة قد سقطت من قمة المهواة وتناثرت الجثث حولها ، واخيرا بلغ سباروف العقيد الذي بادره سائلا :

ـ كيف كان طعام افطارك ؟

ـ لقد كان شهيا ممتازا ، أشكرك ايها الرفيق العقيد .

فرد ريميزوف :

ـ انني مسرور لسماعي ما تقول . اذن فباشا لم تهمل امرك ، فهي فتاة قابضة اليد ، وتريد أن توفر كل شيء من اجلي ، وذلك في كلتا الحالين، اتوجب عليها ذلك ام لم يتوجب ، ويبدو لي انني لا استطيع ان اجعل منها كريمة مضيافة .

فبادره سباروف :

ـ لقد عاملتني عكس ما تقوله تماما ايها الرفيق العقيد ، لقد عرضت علي حتى « شيكولا» .

ـ أحقا تقول ؟ يا له من تقدم ! واي تقدم ؟! ان كل شيء هادىء في قطاعي اليوم ، هدوءا يثير الشك .

ـ لماذا يثير الشك ؟

ـ أنهم يدفعون بي برفق لم اعتده منهم ، والحق انني كنت انتظر منهم منذ الامس ان يدفعوا بفظاظة اشد ، ولكن على ما يبدو لي انهم يكرسون الآن جهودهم للجنرال هناك ، ألا تسمع جلبة القتال ؟

كانت الجلبة تدل على أن قتالا ضاريا يدور يسرة منهم ، واستطرد ريميزوف قائلا :

ـ اذا ما حكمنا استنادا الى جلبة القتال ، فانهم الآن يتقاذفون القنابل

اليدوية للمرة الرابعة هذا اليوم، هل اخذت قسطا كافيا من النوم ؟ لقد نمت ليلة الامس كالطفل ، انك لم تنم طويلا ، هل تعلم، ان انسانا آخر غيرك مر بما مررت به كان لا شك سينام اربعا وعشرين ساعة . ولقد اصدرت اوامري بالا يوقظوك ، وطبعا كنا سنوقظك لو اننا اضطررنا لذلك ، ولكن حتى الآن لم يطرا اي طاريء ، انهم متبرمون هناك ، وهذا صحيح ، خذ منظار الميدان هذا وتطلع!

تناول سباروف منظار الميدان من ريميزوف واخذ يحدق لفترة طويلة في الجانب الآخر من المهواة ، فشاهد اناسا يتراكضون هنـا وهنـاك ، ورأى في الفراغات الواقعة بين الابنية دبابة ثم اخرى ثم سأل ريميزوف قائلا :

ــ هل قصفوكم بقنابلهم ؟

فأجاب العقيد :

ــ لم يقصفونا نحن ، لقد قصفوا هناك ، قصفوا الضفة اليسرى للنهر انهم يحاولون القضاء على سلاح « الكيتوشا » (١) ، فالكيتوشا بدات غناءها ، كما هي عادتها دائما ، قبيل شروق الشمس ، واعتقد ان اغانيها ناشزة اللحن بالنسبة للالمان . . . هل استرحت حقا ؟

ــ تماما .

فاستطرد ريميزوف :

ــ اريدك في اليوم الاول ان تكون ضابطا من ضباط اركاني ، وبهذا ستتاح لك الفرصة لتراقب سير العمليات الحربية ، اما فيما بعد . . .

وهنا امسك ريميزوف بيد سباروف وقاده جانبا ، ثم خرجا من الخندق وجلسا على حافة خندق مكشوف حيث استطرد العقيد مكررا :

ــ اما فيما بعد ، فانها لفكرة حسنة لو رغبت في الذهاب الى الجنـاح الايمن ، فانا احس بأنهم سيستهدفون الجنرال بصورة خاصة ، فهم يعتبرونني الآن غصنا مقطوعا من الشجرة ، ويرون انهم يستطيعون ان يكنسوني في اي

---

(١) « الكيتوشا » هي اول مدفع صاروخي استخدم في الحرب ، واحتفظ بـه الجيش الاحمر سرا لمدة طويلة . وقد اخترعه شخص يدعى اندريه كوستينوف ، ولهذا فان هذا المدفـع يدعى احيانا باسم « كوستينوف » ، ويعتقد الكثيرون من الروس بان فضل انقاذ موسكو من الهجوم الالماني عام ١٩٤١ يعود الى هذا المدفع .

وقت يريدون ، ولكن على كل حال ، فمـن يدري ، فلتذهب هناك ، فميمنتي فيها بعض ضعف ، والملازم جاليشيف آمر الكتيبة الحالي لا يزال صبيا ، لقد قتلوا بالامس كل واحد تقريبا ، وماذا استطيع ان افعل غير هذا ؟ واريدك ان تراقب كل ما يفعلوه حتى المساء ، فاذا ما رايت ان عليك ان تتسلم القيادة فتسلمهـا، اما هذه الليلة فسنمضيها معا ، ولن اسمح لك بمغادرتي ... اموافق ؟

ـ موافق .

بهذا اجاب سباروف وهو دهش من اللهجة اللطيفة الهينة التي كان يتحدث العقيد بها اليه ، مع انه كان واضحا كل الوضوح لسباروف ان العقيد يصـدر اوامر ولا يتحدث ، وقال ريميزوف بسرعة وهو يسمع بانفجار قنبلة ثقيلة على بعد مئة خطوة منهما :

ـ حسنا ! حسنا ! هيا بنا الى الخندق ، فلنذهب ! فلنذهب اليه .

قال هذا وهو يشد بيد سباروف ويسترسل قائلا :

ـ يبدو لي انهم يعرفون اين يقع مركزي للمراقبة معرفة حسنة ، ولكن هل ترى كيف انهم لا يستطيعون ان يصيبوني من اعلى ، ولكي يتمكنوا من اصابة هذه الفتحة اصابة مباشرة يتوجب عليهم ان ينقلوا مدفعا الى جانب المهواة الاعلى قبالتي . فمن ذاك الجانب يستطيعون ان يصيبوني ، ولقد جروا مدفعـا الى هناك مرتين هذا اليوم ، لكننا كنا نحطمه في كل مرة ، وانهم خائفون الآن مـن نقل مدفع ثالث . ولا شك انهم حاولوا ان يقوموا بهذا العمل خلال الليلة، لكن الظلماء لم تمكنهم من بغيتهم ، يا لهم من مدفعيين مزعجين ، انظر ! اصغ، انهم يطلقون كل شيء علينا ...

استمر حديثهما على هذا المنوال لمدة خمس دقائق امضياها جالسين في الخندق ، قال بعدها ريميزوف مخاطبا سباروف :

ـ قد تسود الآن فترة من صمت لمدة ربع ساعة ، فلتذهب الآن ، وهذا الجندي سيقودك الى ميمنتنا .

كان خندق آمر الكتيبة قد شق ايضا ، كخندق مركز المراقبة ، اي انه حفر تحت اسس بناية مقوضة ، وكان يمتد وراءه خندق المواصلات المـائل في عمقه لخنـدق مواصـلات ريميزوف . وبدا المـلازم جاليشيف لنـاظري

سباروف كما وصفه العقيد تماما ، فهو شاب يافع غض الاهاب ، تخرج حديثا من الاكاديمية العسكرية ، لكن لم يكد يمر عليه اسبوع في الجبهة حتى عجم شؤونها وشجونها . وبعد ان صافح سباروف جلسا جنبا الى جنب على مدخل الخندق ، وسحب جاليشنيف من اعلى جزمته كيس تبغه ولف له لفافة بلغت ضخامتها حدا اضطر سباروف للابتسام ، وتذكر سباروف انه لم يدخن منـذ الليلة الماضية فبادره قائلا :

ــ اعطني بعض التبغ !

وسأل صوت مألوف ترامى من ورائهما :

ــ اين آمر الكتيبة ؟

فأجاب جاليشيف وهو يبتسم مسرورا :

ــ انني هنا يا آنيشيكا ! فانا اليوم آمر الكتيبة .

فاستدار سباروف بناظريه فاذا بهما تقعان على «آنيا» فشاهدها تنبش في حقيبة مواد الاسعاف الاولي التي تحملها ، وما كادت تراه حتى القت فجـأة بيديها مدهوشة مذهولـة ، ووقفت تحملق صامتة في سباروف فبادرهـا سباروف وهو يتقدم نحوها وهي ما تزال مسمرة في مكانها وقال :

آنيـا !

ثم خطا خطوة اخرى نحوها ومد بذراعيه اليها وشدها الى صـدره وهو يقـول :

ــ انت آنيـا حقا ؟ .

لكنها بقيت صامتة ودون ان تحرك رأسها رفعت ببصرها اليه ، فشاهد سباروف عينيها مغرورقتين بدمع غزير واخيرا قالت :

ــ هل انت حقا هنا ؟ متى جئت ؟

ــ ليلة الامس

ــ اذن فانت الذي ارسل به بروتسنكو اليس كذلك ؟

فاجاب سباروف :

ـ نعم انا من ارسل بي بروتسنكو

ـ لقد كنا جميعا نتساءل عمن سيرسل به الجنرال الينا ، لكنني لم اكـن اظـن بي انك ستكون الرسول . بدت آنيا مذهولة مغتبطة ، يمـوج جنانهـا بانفعال عميق ، وقد تحدثت اليه في باديء الامر بضمير المخاطب الرسمي :

ـ قل لي كيف حالك ؟

ـ انني في أحسن حال وغـدا سيجتمع شملنا وبروتسنكو فاجابتـه :

ـ اعرف بهذا ، فلقد سمعت به .

ثم التفت الى غاليشيف وسالته :

ـ الديك جرحى ؟

ـ نعم جريحان .

ـ اذن فسننقلهما الى المهواة فورا ... احقا انت هنا ؟

ـ انني هنا بشحمي ولحمي

وبدون ان تبدل اي بزة في لهجتها تطاولت اليه واخذت وجهه براحتيها وبدأت تزقه قبلا سريعة على شفتيه ثم تركت ليديها ان تتهاويا وهـي تقـول باللهجة ذاتها :

ـ يا لسروري ! لقد كنت خائفة جدا عليك .

فأجابها سباروف :

ـ وانا أيضا .

اما غاليشيف فكان يراقب هذا المشهد صـامتا ، ثم التفتت آنيـا الى غاليشيف وقالت :

ـ سأذهب الان الى الجرحى .

ثم اقتربت ثانية الى سباروف والتصقت به وكانت بعد ان قبلتـه قـد شفيت من مرضها الذي انتابها حينما تخلت عنها ذاكرتها وفطنت الى ما بينهمـا وبدات تحدثه مستخدمة ثانية ضمير المخاطب للاصدقاء والاحباب وسألته :

ـ هل نقلوك نهائيا الى هنا ؟

ـ كلا ! علي ان اعود هذه اليلة

فأجابته آنيـا :

ـ سر الى جانبي لمدة دقيقة ، هيا نسر معا على محاذاة الخندق ، ان حمالي النقالات ينتظرونني هناك .

فالتفت سباروف الى غاليشيف وبادره وهو يسير وراء آنيـا قائلا :

ـ سأعود لتوي ايها الرفيق اللازم .

ـ وعند نهاية الخندق ، حيث لا يستطيع غاليشيف ان يراهما ، أمسكت آنيـا بحزام سباروف الجلدي وسألته :

ـ هل تحدثت عنه ؟

ـ عم تحدثت ؟

ـ عن نقلي الى كتيبتك ، فانا شديدة الرغبة في ان ابقى الى قربك ، ولم اقل لك هذا من قبل ، لكنني اريدها بكل جوارحي .

فاجاب سباروف :

ـ لم اتحدث عن هذا الموضوع حتى الآن .

فقالت آنيا :

ـ لقد بدا لي عندما عبرنا النهر معا الى هذا الجانب ، ان المكان لم يكن مكانا مناسبا للحديث عنه ، ألم يبد لك الشيء ذاته ؟

فأجابها سباروف :

ـ نعم

فقالت آنيا وهي تصغي الى ارعاد القتال حولها :

ـ ولكن كما تعلم ان الحال ستبقى دائما على ما هي عليه الان ، وذلك اذا لم تمس اسوأ مما هي عليه الان . والقتال في قطاعنا هو اشد ضراوة مما هو هنا . أليس كذلك؟

ـ نعم

ـ اذن فليس هناك من سبب يستوجب خجلك من طلبك لنقلي الى قطاعك ، فلماذا تخجل من ابداء هذه الرغبة ؟

فأجابها سباروف :

ـ لست خجلا وسأتقدم بهذا الطلب هذه الليلة .

ـ اذن فلتتقدم به ، لقد كان الامر حقا مرعبا عندما فصلونا امس عنكم فصلا تاما . ولقد خيل الي انني لن اراك ثانية . وانا اريد ان اكون حقا بقربك ... كلا كلا لا تصغ الى طلبي ... بل انما افعل ما تراه، ومع هذا فانني لا أزال ارغب في البقاء معك . هل تعلم ، انه لو انقضت الان امامي قنبلة فلن اذعر او أخاف ، وذلك لاننا معا، وسأكون أشد شجاعة اذا ما كنت الى جانبك الا تفهم ؟ وانت ايضا ستكون حالك كحالي ، اليس كذلك ؟

ـ ربما

قالها سابروف بلهجة يخامرها قليل تردد ، اذ خيل اليه انه اذا ما كان الى جانب آنيا ، فانه سيكون لا شك اقل خوفاً على نفسه ، لكن اشد رعبا عليها، واستطردت آنيا :

ربما كانت حالك كحالي ، وتلك هي حالي ، حسنا ! علي ان اذهب الان للاعتناء بالجرحى ، فالمرء لا يستطيع ان يتركهم هناك ، اليس كذلك ؟

ـ نعم يجب الا يتركهم .

ـ انا اعلم بهذا . سأذهب وانقل الجرحى ، هل تعرف بان لدينا منهم منهم عددا مزعجا في وفرته في المهواة هناك ؟ ولم يتوفر لدينا منهم مثل هذا العدد من قبل ، وذلك ناشيء عن اننا لا نستطيع ان نعبر بهم الفولغا ، ثم قالت بلهجة سريعة وهي تمد بيدها الى سابروف :

ـ انني ذاهبة .

وقد لاحظ سابروف انها ترتدي سترة غير سترتها السابقة فسألها :

ـ من اين جئت بهذه السترة ؟

ـ هذه ليست سترتي ، لقد اعطوني اياها ، وهي سترة جندي صرع .

ثم اشارت الى ثقب صغير في جانب السترة الايسر وقالت :

ـ انظر ! لولا هذا ، لكانت سترة انيقة ، اما سترتي السابقة فلقد حطت عليها قنبلة فمزقتها اربا اربا .

ـ ماذا تعنين بقنبلة ؟

فاجابت آنيا :

ـ كان الطقس حارا عندما كنت انقل الجرحى ، وهكذا وجدتني اخلع سترتي واطويها طيا انيقا كما تعلم، أي كما يطوي المرء سترته في قمرة السفينة، ومن ثم حطت عليها قنبلة ...

امسك سابروف بيدها ولاحظ ان السترة الجديدة لا تناسبها ولذلك طوت نهايتي كميها وراء ، وقد حك القماش الخشن رسغها وترك فيه علامات خمراء ، فطلب اليها سابروف ان تعطيه يدها الاخرى التي الفى رسغها لايختلف عن رسغ تلك في احمراره فقال لها :

ـ ان القماش يحك جلدك ، قولي لهم ان يعطوك سترة جديدة .

ـ حسنا !

ـ لا تنسي ان تطلبي منهم سترة جديدة ..

قالها سابروف وهو يضغط على يديها براحته الواحدة ثم رفعها الى شفتيه وقبل العلامات الحمراء على كل واحدة منهما عدة قبلات ثم استطرد :

ـ فلتذهبي ، وسأرى بروتسنكو لاعلم ما اذا كان لا يمانع في جمعنا معا.

فاجابته آنيا :

ـ لن يرفض بروتسنكو ، ليس هناك اي احتمال لرفضه .

وبعد ان فاهت بهذا غمست يديها عميقا في جيبي سترتها ، ولربما رغبت من وراء هذا ان تجنب سابروف من ان يرثي لها ، وانطلقت منه تسير بمحاذاة خندق المواصلات .

امضى سباروف يوما هادئا تقريبا لدن غاليشيف ، وعندما اظلم الليل عاد ثانية الى مركز قيادة ريميزوف فالفاه يدخن وهو نصف مضطجع على السرير،

وراى رئيس اركان حربه يجلس قبالته ، واحس بذاك الهـــدوء الخاص الذي يعقب نهاية الاعمــال يخيم على الخندق، فكل شيء قد اعد، وكل امر قد بت فيه، ولم يعد هناك اي تحضير او عمل ، والجميع يترقبون الدقيقة المقررة للهجوم . وبادر ريميزوف يقول :

ـ ايها النقيب الاول آننسكي انني اعهد اليك بقيادة كامل المتبقي مـن القطاع ، فانا سأتقدم بنفسي مجموعة الاقتحام .

اومأ رئيس اركان الحرب الواقف وراء رئيسه باشارة الى سابروف الذي فهم منها ان النقيب الاول آننسكي يرجوه اقناع العقيد بان من يجب ان ينطلق مع مجموعة الاقتحام هو آننسكي، وان العقيد جريح وعليه ان يبقى في المؤخرة اذ انه لا معنى هناك لمرافقته لمجموعة الاقتحام . هذا على كل حال هو ما فهمه سابروف من ايماءة النقيب الاول ، وقد لاحظ ريميزوف هذه الايماءات فقال دون ان يلتفت او يستدير :

ـ ربما تتوامون ؟ لا تناقشوني في هذا الامر ، فانــا اعرف بانكم تتوامون باشارات لا اراها لكنني احس بها. لن تثنوني عما اعتزمه، ولن تجديك اشاراتك التي تومىء بها الى النقيب ، فهو ايضا لن يثنيني عن قراري ، واجمل من كل هذا انه لن يحاول هذا الامر ايضا ، اليس كذلك ايها النقيب ؟

ادرك سابروف عقم مناقشةالعقيد فيما اعتزمه فاجاب :

ـ ارى ان تقوم بما تعتبره ضروريا

فتنفس ريميزوف الصعداء اذ كان يعد نفسه لمعارضة سابروف وقال :

ـ الم اقل لكم ذلك !! اما فيما يتعلق بك فاعتقد بانك ترغب في رفقتي، فاذا ما رافقتني فعندئذ ستستغرق عودتك الى رجالك وقتا اقــل ، وعلى كل حال فالامر كله يتعلق بما تنوي ان تفعله .

فاجابه سابروف :

ـ انه ليسعدني جدا ان تسمح لي بمرافقتك

فالتفت ريميزوف الى رئيس اركان حربه وقال :

ـ انت يا سيمون سيمونيوفيتش ضابط جيد وقد حـان الوقت ليصبح

لك فوج خاص بك ، وانا جاد فيما اقول ، وسأتحدث في هذا الموضوع الى الجنرال في اول فرصة تسنح لي، فطبعك حاد لايخولك ان تكون رئيس اركان، فرئيس الاركان يجب ان يكون هاديء الطبع يتذوق التوحد في خندق يرتفع خمسة امتار فوق راسه . نعم ! نعم ! انا اقول هذا جادا غير ساخر ، اما انت، فاذا ما اصابوا قائدك ثلاث اصابات واصابوك انت باصابتين فانك عندئذ ستقنع نفسك بانك كنت أثناء القتال تختفي خجلا في قاع الخندق ، ولهذا فانك سترى من الضروري بالنسبة اليك ان تقفز لتخوض غمرات هجمة ما باسرع وقت ممكن كي تستعيد توازنك الروحي وقائدك . كلا لا تجادلني ، فالوقت قد حان لتتحمل مسؤوليات القيادة ، واذا ما قدر ان يكون لك مستقبلا نفس رئيس الاركان الذي هو لي الان ، فعندئذ عليك ان تمسك به دائما من حاشية سترته كي تمنعه من الاندفاع الى الجبهة ، عندئذ قد تفهمني وتتعاطف معي .

اردف ريميزوف قوله هذا بضحكة عالية ، اما آنتسكي فبقي صامتا حزينا منكسر القلب قليلا ، فلقد اتخذ الحديث منعطفا غير مرتقب منه ، ولكن لم يكن فيه من شيء يستطيع آنتسكي أن يعتبره جنحة او اساءة له ، فلقد تدفق الكلام من قلب الشيخ فبدا كأنه والد يخاطب ابنه واستدعى ريميزوف شرابوف اليه ، وارتدى بمساعدته سترته وربط حزامه الجلدي حول خصريه وشد بعمرته حتى عينيه وهو يقول : لا احب هذا النوع من العمرات .

وعندما لاحظ ان سابروف يراقبه اردف :

ــ قد يوفر هذا النوع من الراحة اكثر مما يوفره غيره ، لكن ليس له اي طراز .

ثم اخذ ينقل العمرة ويتحسسها كي يتاكد من انها تنتصب فوق راسه وفق الزاوية الصحيحة ، وبعدها ربط قنبلتين يدويتين الى حزامه وتناول مسدسه الآلي ، وعندما انتهى من كل هذه الاعدادات تطلع الى ساعته ، وحذا سباروف حذوه ، فهو يعرف بان اوامر بروتسنكو تقضي بان يبدأ الهجوم في الساعة العاشرة تماما ، والساعة تشير الان الى العاشرة الا عشر دقائق . والتفت ريميزوف الى رئيس اركان حربه وقال :

ــ اذن ، استودعك الله ياسيمون سيميونوفيتش .

ثم صافحه وهو يقول :

ــ لاتستوحش ! هيا بنا ايها النقيب ! ولترافقنا ياشرابوف !

وعقب مضي خمس دقائق كانوا يجلسون في واد ضيق صغير ينحدر الى الفولغا وقد حفرت على جانبيه خنادق كثيرة . وكان ريميزوف قد امر بحشد مجموعة الاقتحام ، لذا كان الرجال يجلسون في الخنادق بين الانقاض والخرائب ويمسكون اسلحتهم بايديهم ، ويستندون الى جدران من الطين والحجـــارة متراصي الصفوف ، وكانوا يتحدثون همسا ، وكانت احدى نهايتي الوادي تبعد عن الخطوط الالمانية مئتي متر ، وهي مسافة طويلة تقريبا ، اما النهاية الثانية فانها وفقا لما تخمنه ما اختزنته الذاكرة عنها نهارا ، فانها اقل من خمسين متـــرا عن الالمان ، ولم يستطع الرجال ان يتحدثوا الى بعض بصوت عال الا عندما كانت تمر طائرة من طراز يو ٢ فوق رؤوسهم لتلقي باسهمها النارية ماوراء الالمـــان بخمسماية متر ، اذ كان يتيح هديرها للرجال انيتحدثوا اثناء تلك الدقائق القليلة بصوت عال .

وقال احدهم وهو يرى طائرة اخرى من نفس الطراز تهدر فوق الوادي .

ــ انظروا ذاك هو « طيران الملك » يعود ثانية .

ــ انها عصيفة حبة حنطة .

ــ كنا نسميها في الجبهة الشمالية الغربية رافعة الخشب .

وقال صوت رابع :

ــ ان تسميتها ترتبط بالمكان الذي انت فيه ، انها ترتبط بالطبيعة .

وقال صوت خامس باتزان ووقار :

ــ حيث تنمو الحنطة يدعونها بعصيفة حبة الحنطة ، وحيث يوجد الكثير من الخضار يسمونها البستاني ، وحيث تنمو الغابات يدعونها برافعة الخشب ، والسبب وراء هذه التسميات كلها ، هو واحد ، فهذا النوع من الطائرات يطيــر على انخفاض شديد ويحب الارض .

وقال ريميزوف :

ــ لم يتبق سوى دقيقة واحدة لتبدأ المدفعية باطلاق نيرانها ، وذلك اذا لم يكن قد طرأ أي تأخير على تنفيذ الخطة المرسومة .

ثم استدار وسال جنديا يجلس الى جانبه في الخندق وقال :

ـ هل حملت معك الكثير من القنابل اليدوية ؟

فاجابه رقيب شاب :

ـ لقد جئت بثمان منها ايها الرفيق العقيد .

ـ اخفض صوتك ! لاتصرخ ، اثمان منها ؟ هذا لايكفي ابدا ، ماذا يحدث اذا كان هناك جدار يختفي وراءه الالمان ، ولم يكن امامك من طريق تدور حوله ؟

فاجاب الرقيب :

ـ عندئذ سننسفه ايها الرفيق العقيد .

ـ هل احضرت ديناميت معك ؟

ـ طبعا ايها الرفيق العقيد .

ـ كم احضرت منه ؟

ـ ستة كيلو غرامات .

ثم التفت ريميزوف الى جندي اخر وساله :

ـ لماذا لم تغرس حربتك في بندقيتك ؟

ـ انني احمل شقيقتها معي .

قال هذا ثم ربت على سيف علقه على جنبه .

فساله العقيد :

ـ ماذا تعني ؟ هل انت من القوزاك ؟

ـ نعم انني من فرقة الجنرال دوفاتور (١) بطل الاتحاد السوفياتي .

---

(١) انه اللواء لف دوفاتور ، وهو من اعظم ابطال الاتحاد السوفياتي في الحرب الروسية الالمانية. وقد نظم وهو في الثامنة والثلاثين من عمره فرقة حرس الفرسان الثانية ، وكان معظم جنود هذه الفرقة من القوقاز ، وقد قامت هذه الفرقة بدور بارز في انزال الهزيمة بالالمان امام موسكو في شهر ديسمبر عام ١٩٤١ وقتل اللواء دوفاتور في تلك المعارك ، ومنح وسام بطل الاتحاد السوفياتي ووسام لنين مرتين .

فسأله ريميزوف ضاحكا :

ـ اذا كنت من القوزاك فاين حصانك ؟

ـ لقد نسيت كل شيء عن الخيول ، فلقد مضى علي اكثر من شهر منذ ان رايت حصانا .

فسأله ريميزوف :

ـ هل تفتقد الخيل ؟

فاجاب الجندي بصوت خامرته رنة حزن حينما مر بيده على حسامه وقال:
ـ لاتتوفر لدينا الفرصة هنا لنشعر بالوحدة والتوحد .

وقال ريميزوف :

ـ لقد حان الوقت .

ثم استدعى الضابط المكلف بقيادة الهجوم وسأله عما اذا كان قد انتهى من اعداد كل شيء فاجابه ايجابا .

فقال ريميزوف :

ـ اذن فاننا نبتعد باطلاقات مدافعنا الاولى عن الضفة اليسرى افهمت ؟

ـ نعـم .

فقال ريميزوف :

ـ ولكن لاتكن شديد الاعتماد على الضفة اليسرى ، فالضفة اليسرى هي قبل كل شيء الضفة اليسرى ، بل اعتمد على مدافعك المورتر !

ـ سننفذ اوامرك ايها الرفيق العقيد .

ـ ماذا دهاهم ، لقد حان الوقت ؟

ثم كرر جملته هذه للمرة الثانية وهو يتجه بناظريه نحو الفولغا ، وحذا سباروف ايضا حذوه ، وفي تلك اللحظة بالذات اخذ شيء ما يرعد من على الضفة اليسرى ، وينطلق نارا في السماء ، ويطير مارا فوق رؤوسهم وهو يحمحم ويزعق ويلعلع ، فعلق سباروف قائلا :

ـ الان بدات الكتيوشا غناءها .

غير انه لم تبدر اية بادرة من ريميزوف توحي بانه قد سمع مقالة سباروف وتحقق سباروف من ان جلبة قنابل « الكتيوشا » قد طغت على كلماته ، وصدع رؤوسهم ثانية هزيم ثقيل عميق منبعث من الضفة اليسرى ، واعقبت الومضات السريعة احزمة ملتهبة من القنابل شكلت اقواسا فوهم ، وكانت هذه القنابـــل تنقض على امكنة لاتبعد عنهم طويلا ، او بالاحرى تبعد عنهم نصف كيلو متر فقط وبادر ريميزوف يقول حالما توقف هدير المدافع :

ـ اشعر بانها اصابت اهدافها بروعة وجمال ، والحق انني انا نفسي ارهب هذه الكتيوشا قليلا . فاذا ماالخطأ مدفعيوها خطأ واحدا في حساباتهم فعندئذ لن يبقى منا غير اسمائنا ، انها سلاح جبار مرعب .

ماكادت الكتيوشا تصمت حتى بدات المدفعية تتحدث من الضفة الشمالية، وكان باستطاعة المرء منهم ان يرى وميضا هنا وبريقا هناك ، وذلك قبل ان تمر القنابل مزمجرة فوق رؤوسهم . وبدت السماء امامهم ملتهبة فوق الالمان بالسنة من لهب احمر ، وعندما كانت القنابل تحط قريبا ، كانت هذه الومضات تتدافع من الدخان لتتراقص فوق زاوية احدى البنايات فقاعدة الجدار ، فالهيكـــل المعدني المهشم لخزان البترول . وبدات مجموعة الاقتحام تشق دربها زاحفة من الوادي انشأ فانشأ ، وقد انفجرت قنبلة ثقيلة بالقرب من الوادي فعلق ريميزوف عليهـــا :

ـ لقد قصدوا من تسديدهم لهذه ، حسنا ! هيا بنا ايها النقيب !

فتسلق ريميزوف الخندق بمهارة مدهشة وتقدم وهو يتطلع حوله ،فالفى سباروف يزحف مباشرة وراءه ، وزحف الى جانبيهما شرابوف وثلاثة جنود اخرين مسلحين بالرشيشات . واستمر قصف مدفعيتنا ، فاخذت تهز مراكز الالمان والمنطقة الواقعة عميقا وراءهم هزا عنيفا . والهبت قنابل الكتيوشا بركا من الكاز والبترول الخام ، فتعالت منها السنة من لهب تتطاول عاليا عاليا كأنهـــا تريد لعق السماء ، وتزايدت الانفجارات ، فلم تكتف القنابل بالمناطق الواقعـــة امام ريميزوف وجنوده ، بل تجاوزتها لتغتصب كل مايحيط بهم من ارض ، فالالمان يردون على مدفعيتنا بالمثل ، ولقد مرت ، عدة مرات ، قنابل ثقيلة فـــوق راس سباروف لتنفجر في بعض الامكنة وراءه ، ثم بدأ مدفعهم بالقصف ، وعقب

هنيهة ترامت اليهم من امامهم اصـوات عيارات الرشيشات ، فمجموعة الاقتحام قد قطعت بسرعة المسافة من الوادي الى خنادقنا القديمة التي يجلس فيها الان الالمان . وكانت هذه المنطقة التي استولى عليها الالمان امس الاول منطقة مالوفة لسباروف ، وهي تشكل مربعا طول ضلعه اربعماية متر ، وكانت مليئة بالخنادق وحفر المواصلات ، ولم تكن الخرائب وركام الابنية لتغطي سوى اماكن قليلة منها، وذلك لانها كانت فيما مضى قاعدة بترولية ، ولم يبق من هذه القاعدة غير اسمها وقد غطت كميات هائلة من الالواح المعدنية الممزقة المهشمة الارض . وركـض سباروف وراء ريميزوف عبر الفراغ الذي يفصله عن الخنادق الاولى في الجانب الاخر ، وقد صدمت قدماه مرات عديدة الالواح المعدنية المحترقة ، فانبعـث منها صليل ، واصوات معدن غير مألوفة . وشاهد امامه بقايا حجرية لصندوق حارس ، وكان ريميزوف يحاول ان يصلها برفقة سباروف . وانطلقت وهمـا يركضان الرشاشات تعوي يسرة منهما ، وسقط عند حافة الخراب احد الرجال الذي كان يركض وراء سباروف ، على الارض وهو يتـأوه ويئن ، وأقام عـدة جنود أعشاش لرشاشاتهم بين الخرائب فعلق ريميزوف قائلا :

ـ هذه هي خير طريقة للعمل .

ثم نادى :

ـ جافريلوف !

ـ نعـم ايها الرفيق العقيد .

ـ كيف وضعكم ؟ هل استوليت عليه ؟

ـ يبدو اننا استولينا عليه ايها الرفيق العقيد .

ـ وهل يتابعون تقدمهم ؟

ـ نعم انهم يتقدمون .

ـ رافقهم واعلن عن انني سأكون هنا طيلة الوقت .

أخذت بعض الاعيرة ترتطم بصندوق الحارس ، ومزقت الرشاشات الهواء احيانا ، وتقاطعت دروب العيارات المضيئة في السماء ، وترامى الى مسمعي ريميزوف وسباروف أصوات قنابل يدوية عديدة تنفجر على مقربة جد وثيقة

يسرة منهما ، واستمر اطلاق النار الى اليمين منهما ، فالمعركة لم تبلغ بعد مرحلة التقاذف بالقنابل اليدوية ، وعلق ريميزوف قائلا :

ـ انهم ليسوا بالجنود الطيبين ، فجميعهم منبطحون الان ارضا ، ولا شك ان جميع ضباطهم قد قتلوا فاذهب اليهم ياسباروف ، فنحن طالما لانستطيع ان نسمع اصوات انفجارات القنابل اليدوية ، فهذا يعني انهم مضطجعون ، اذهب اليهم باسرع مايمكنك ، واتخذ من الاجراءات ماييناسبك .

انطلق سباروف من صندوق الحارس واخذ يزحف في الظلام متجهــا يمينا ، وتبين له ان الضابط في ذاك الجناح قد قتل فعلا ، وقد جعل رشاش الماني نصب في وسط الخرائب التقدم مستحيلا ، لكن التأخيرلم ينجم عن مقتــل الضابط ، بل انما كان سببه هو ان ثلاثة جنود كانوا يزحفون مستديرين حــول خرائب احدى البنايات كي يلغموا البناية التي نصب المدفع الرشاش الالماني في الطابق الثاني منها ، اما الاخرون فكانوا ينتظرون الانفجار كي يتقدموا اثره نحو اهدافهم ، وكان هناك رقيب اول يشرف على هذه العملية ويوجهها ، وعندمـا زحف سباروف اليه شرح له هذا الرقيب بصوت هامس وببراعة ماينوي عمله وقــال :

ـ اذا لم يستديروا حول البناية زاحفين فعندئذ لن يستطيعوا نسفها، وعلينا حينذاك ان نتقدم على كل حال ايها الرفيق النقيب ، ولكن ليس مـن المستحسن ابدا ان نبذر في رجالنا فلننتظر خمس دقائق .

وافق سباروف على ماابداه الرقيب وارسل بأحد الجنود الى ريميزوف ليعلمه بان كل شيء سينتهي كما يريد عقب برهة وانبطح ارضا الى جانب الرقيب لعدة دقائق وهو ينتظر ويترقب ، وكان كل ماحوله يلتهب بمعارك ليلية ضارية ، معارك حالها كحال كل قتال ليلي ، اذ انها هي اشبه ماتكون بمعادلات جبريـة ذات عوامل مجهولة . فما الذي يحدث الان في جانب بروتسنكو ؟ انسباروف يتساءل عن هذا قلقا ملهوفا ، وهو اذا ما استقرأ هزيم الدفعية وانفجـارات القنابل اليدوية النائية ، وشبكات الاعيرة النارية المضيئة ، فانه لا شك يستنتج ان نوعا من قتال يدور هناك ايضا . فسباروف يرى ان مدافعنا لاتزال تقذف بقنابلها من فوقه لتمطر الالمان لكنه يراها تنفجر بعيدا في مؤخرتهم ، وهو يسمع لها هديرا لايعرف توقفا او انقطاعا ، واطلاقاتها تتالى كل ثانية او ثانيتين ،فحاول

سباروف ان يتخيل لبرهة ماحوله لو أن مايمطر الروس الالمان به من قنابل يمطر الالمان به سباروف ورجاله. والحق ان نار المدفعية كانت مخيفة مرعبة ،وسباروف لايختلف عن غيره من ضباط المشاة الروس ، لذلك فهو يبارك المدفعية الان من اعماق قلبه . وحالما سمع سباروف انفجارا يصم الاذان ينبعث مما امامه هب منتصبا على قدميه واخذ يطلق رشيشه فياتجاه الرشاش الالماني ويقتحم وجنوده خرائب البناية وانقاضها . وقد غمرت خلال الليل سباروف قنبلتان انقضتا بالقرب منه ، بالوحل والطين ، كما ومزقت رصاصة كمه وخدشت ذراعه اليسرى ، وكثيرون من الذين اندفعوا غائصين معه خضم المعمعان ، أخرس الموت السنتهم ، وصم الردى آذانهم عن صيحات رفاقهم .ونداثهم ، وتساقط الاكثرون جرحى ، وكانت المرضات والمضمدون ينقلونهم من ساحة المعركة ، ولم يمكن الظلام وحميا القتال سباروف من مشاهدة ما اذا كانت آنيا بين المرضات املا. وقد سار القتال بصورة عامة اسهل مما كان مترقبا له ، فمجموعات الاقتحام الاربع التي كان يقودها سباروف في الميمنة استولوا بسرعة معتدلة على الجزء المخصص لهم من الخنادق . وبعد مضي عدة ساعات علىالقتال ، وحينما كان سباروف ينظف الخنادق المتجهة يسارا من الالمان اذ به يرى فجأة جنودا سوفياتيين يتجهون نحوه عرف فيهم جنود مجموعات الاقتحام في الميسرة .وبهذا اتضح له ان الروس قد استعادوا كامل القطاع الذي استولى عليه الالمان الذين امسوا الان بين قتيل وجريح وفار . ولا شك ان بعضهم كان لا يزال يختبىء في السراديب ، لكن تطهيرالسراديب عمل منالمستحسن ان ينجز نهارا ، وسأل سباروف احد جنود الميسرة وقال :

ــ كيف هي الحال هناك ، اعني الى اليسار بعيدا ، هل اتصلت قواتنا بعضها ببعض ؟.

ــ انه شيء مشابه لما ذكرت ايها الرفيق النقيب ، لكنهم قد اذاقوها علقما للالمان هناك .

بدا لسباروف انالمهمة الليلية قدانجزت على اكمل وجه ، وان الفرقة قد استعادت وحدتها ثانية ، لكن مما لاشك فيه ان الصباح سيحمل الى هذه المنطقة الصغيرة المكشوفة خطرا مدلهما واكيدا . وحتى الحقيقة نفسها المتجلية في سهولة طرد الالمان واستعادة المنطقة منهم بيسر نسبي خلال الليل ، لاتجعل المرء يتفاءل بالصباح ويظن فيه خيرا ، فالالمان لن يذعنوا للفشل وهم بصورة عامة

لايحبون العمليات الليلية ، وهم لم يلقوا بقوى ضخمة في خضم المعركة ليلا ، وذلك لانهم عقدوا العزم على توفير هذه القوى للصباح . وقام سباروف يتفقد مابقي لديه من الاحياء واقام أعشاشا للرشاشات متعاونا في ذلك والرقيب ، وامر بتعميق الخنادق في بعض الاماكن وتصليح النوافذ والكوى التي دمرتها القنابل اليدوية ، ثم ارسل برسولين الى ريميزوف ورئيس اركان حربه ، وارسل معهما برسالتين يحذرهما فيهما من هجمة معاكسة مرتقبة فجرا ، ويعلمهما بانه سيبقى حيث هو ، وان كل مايطلبه ان ينقلوا الى الامام وعلى وجه السرعة مدافع مورتر وبنادق مضادة للدبابات ، وختم رسالته قائلا :

« واذا امكن نقل مدفعين او ثلاثة مضادة للدبابات على الاقل » .

لم يعد الرسول الذي ارسل به الى ريميزوف ، ولم يدر سباروف ما اذا كان هذا الرسول قد قتل في الطريق، او ان العقيد لايستطيع ان يمد له يد العون ، اما رئيس اركان الحرب فأرسل اليه عقب خمس او عشر دقائق ، وذلك مع تباشير الفجر ، بمدفعين من عيار ٤٥ مم ، محمولين على عجلات من المطاط، كما ارسل اليه بخمسة من الاختصاصيين في مدفع « دجتياريفكاس » (١) المضاد للدبابات وقرابة عشرة من جنود المشاة، وقد ورد في الرسالة التي ارسلها انتسكي قوله : لقدارسلت لك بكل ماوقعت عليه يداي .

---

(١) نسبة الى الجنرال جيورجي دجيتاريفز الذي اطلق اسمه على عدة انواع من الاسلحة التي اخترعها خلال الحرب ، وكان احدها بندقية اوتوماتيكية مشابهة للبندقية الاميركية من طراز « جاراند ».

- ٢٠ -

منذ الساعة الثامنة صباحا ، عندما بدات الهجمة الالمانية الاولى مع شروق الشمس ، وحتى السابعة مساء عندما وضع الظلام حدا للقتال ، طيلة هذه الساعات المتتالية العسوف ، وخلال كل ساعة منها على حدة ، كان من الصعب جدا على المرء ان يجد خمس دقائق فقط من الهدوء النسبي . وعندما كان الالمان يضغطون بالفرقة ، وراء على شاطيء النهر ، خلال الاسبوع الماضي ، حاول بروتسنكو ان يخندق في قطاعه بعناية خاصة ، لذلك وجدت كامل المنطقة تغطيها الخنادق وحفر المواصلات ، وشقت الانفاق واوجرة الثعالب تحت ما تبقى من اسس الجدران ، وكانت تقع امام هذه الاستحكامات مهواة عميقة نسبيا تستوجب الالمان ان يقذفوا بانفسهم اليها اذا ما عزموا على الوصول الينا . ولو كان بالامكان ان يرسم خط بيان لتذبذبات جلبة القتال هذا اليوم ، لبدا مثل هذا الخط شبيها بالخط البياني لتذبذبات حرارة مريض بالملاريا ، ولشاهد المرء كيف اشتد القتال حتى بلغ ذروته مرات ثلاثا ، وكيف انخفضت حرارته تدريجيا ثلاث مرات ايضا، وقد بدأ الالمان صباحا يقصفون مراكزنا بمدفعية الافواج، ثم اضافوا اليها مدفعية المورتر الثقيلة ، واسندوها عقب قليل بمدفعية الفرقة ، واخيرا بدأوا باستخدام مدافع الاقتحام الثقيلة ، وكانوا يرفقون هذا القصف بقصف جوي مركز ، وعندما كان هزيم المدافع يصل ذروته النهائية ، كان يخرس فجأة ليتيح للرشاشات ان تلعلع وتعوي ، وكان الالمان عندئذ ينطلقون تحت ستار من نارها مهاجمين ، وكان في هذه اللحظة بالذات ، لحظة عواء الرشاشات ، يهب كل من كان ينتظر في خنادقنا مترقبا الى مدفعه الرشاش او رشيشه او بندقيته . لقد سبق ان عمدت هذه المهواة باسم «مهواة الموت»(١)، وقد جرى تعميدها بهذا الاسم قبل اسبوع من الهجمات الالمانية الاولى ، وها انها تبرهن اليوم عن جدارتها بحمل اسمها للمرة الثانية . ولم تحتج منحدراتها الا الى بعض دقائق لتنسج من جثث القتلى والجرحى والمحتضرين كساء لها . وكانت كل موجة من المهاجمين ترغم على التوقف على بعد عشرين او خمسة عشر ، واحيانا عشرة

امتار من خنادقنا ، وكان يبدو في كل مرة ان الالمان سيتمكنون في هجمة اخرى من ان يقطعوا هذا الجزء الصغير والنهائي من دربهم الى خنادقنا ، لكنهم عجزوا عن قطعه ، اذ كان رعب الموت يمسك في الثانية الاخيرة بتلابيب اولئك الذين قطعوها ويقذف بهم وراء ، ولولا رعب الموت هذا لكانوا قد قطعوا كامل الدرب المفضية الى الخنادق ، لكنهم كانوا يتراجعون وكان اولئك الذين لم يقتلوا وهم يتقدمون نحونا ، يصرعون وهم يعودون القهقرى . وعندما فشلت الهجمة الاولى بدأت المعزوفة المالوفة الحانها من جديد ، ولكن بينما لم تمس الارض في الهجمة الاولى جحيما اكثر من ساعتين ، غير انها في الهجمة الثانية اندمجت في الجحيم طيلة خمس ساعات ونصف الساعة، واصبحت قطعة ملتهبة منه . لقد عزم الالمان في الهجمة الثانية على الا يتركوا موضعا واحدا يمكن للانسان ان يعيش فيه على ضفاف الفولغا ، بمنجاة من قنابلهم ، فلقد حفرت قنابلهم الشاطيء حفرا ، وجعلت سطحه يبدو كأنه المنخل ، ولو ان جميع القنابل التي قذفوا بها الشاطيء انفجرت في وقت واحد ، لما تركت عليه دارا او ديارا ، وهذه حقيقة متواضعة بدهية ، بعيدة كل البعد عن المبالغة ، فالى هذا الحد بلغ تركيز الالمان لنيرانهم ، والى هذا الحد بلغت غزارتها . لكن قنابلهم كانت تنفجر في اوقات متفاوتة ، وحالما كانت القنبلة تنفجر وتمسي شظايا كان الرجال يسارعون الى الارتماء في الحفرة التي حفرتها، لذلك كانت عندما تنقض القنبلة الثانية كانت تجد مكانها مقفرا من فرائسها خاليا من ضحاياها . وقد استمرت لعبة الجنابي (Hide and seek) هذه لمدة خمس ساعات ونصف الساعة ، وعندما أشرفت ساعتها السادسة على نهايتها ، شن الالمان هجمتهم الثانية لاقتحام القطاع ، فهب الجنود الروس ثانية في خنادقهم وتناولوا اسلحتهم ، وهم ملطخون بالوحول ، نصف صم ، يشيع التعب في اوصالهم اخدرارا ، تتقاذفهم موجات الضراوة وتعصف بهم انواؤها ، واخذوا يطلقون النار على كل شيء يتحرك امامهم ، وثانية تمكنوا من صد الالمان على اعقابهم خائبين .

وعقب صد الالمان مباشرة ، ارتفع فجأة الحظ البنياني لجلبة المعركة ، فاقبلت طائراتهم في مجموعات تتألف من خمس او عشر ، أو عشرين وحتى ثلاثين ، واخذت تنقض علينا وتبلغ في انقضاضها درجة من الانخفاض جعلت ردود انفجار قنابلها بالذات تقذف بها ثانية الى الهواء ، ولم تكن تلك الطائرات لتكترث بالمدافع المضادة لها ، لذلك كثيرا ما بلغت في انقضاضها علوا لا يزيد

عن عشرين مترا عن الارض ، وكانت تنبجس اثر كل غارة ينابيع من الوحول والغبار لترتفع عاليا ، ثم لتتهاطل كأنها المطر .

امطرتهم الطائرات بمختلف انواع القنابل ، فكان منها قنابل ضخمة ، وقنابل صغيرة ، قنابل تحفر في الارض حفرا يتجاوز عمقها خمسة امتار ، واخرى تنفجر على سطح الارض فتتطاير شظاياها على ارتفاع جد منخفض يمكنها حتى من حصاد العشب ، لو كان هناك من عشب ، وكان هناك ايضا قنابل تنفجر على ارتفاع مئتي متر ، وتتحلل الى عشرات من القنابل الصغيرة التي تنفجر عاليا ايضا لتتهاطل شظايا على الارض . وقد استمر هذا القصف لمدة ثلاث ساعات تقريبا ، ولكن عندما شن الالمان هجمتهم الثالثة في الساعة السابعة مساء ، فان هجمتهم هذه لم تسفر عن غير املاء « مهواة الموت » بجثث جنودهم . ولم يسبق لسباروف ان رأى طيلة حياته ، رقعة صغيرة من الارض ، تغص بمثل هذا العدد من جثث القتلى ، فكانت هناك بعض مواضع ، قامت فيها المدافع الرشاشة بمجزرتها الدامية ، على صورة تراكمت ، فيها الجثث بعضها فوق بعض . وفي الصباح ، بعد ان وصلته الامدادات ، احصى جنوده ، وهو يذكر جيدا ان عددهم كان اذ ذاك ثلاثة وثمانين جنديا ، اما الان فلم يبق في الميدان معه سوى خمسة وثلاثين منهم ، وكان حتى معظم هؤلاء مصابين بجراح طفيفة ، وبدا له واضحا ان حاله لا تختلف عن حال ميمنته او ميسرته . فلقد حرثت الخنادق حرثا ، وقطعت قنابل مباشرة وشظايا اخرى الخطوط الهاتفية في عشرات المواضع ، ودمرت بعض الخنادق شر تدمير وامسى سباروف الذي اصيب بارتجاج خفيف منذ ايام ثلاثة ، أصم الان ، وعندما بلغ القتال نهايته وخمد ، كانت اذناه ضحية هدير مستمر تقريبا ، ولو ان احدهم طلب منه فيما بعد ، ان يصف احداث ذاك اليوم ، لامكنه ان يصفها بهذه الكلمات القليلة التالية :

اطلق الالمان نيرانهم(١) فجلسنا القرفصاء في الخنادق ، ثم توقفوا عن اطلاق النار ، فهببنا نطلق النار عليهم ، فعندئذ تراجعوا ،وبدأوا باطلاق النار ، فأختبأنا في الخنادق ، وعندما توقفوا عن اطلاق النار وبدأوا يتقدمون نحونا ، اصليناهم نارا حامية .

وهذا هو في الواقع ما قام به سباروف ورجاله طيلة ذاك اليوم . والحق

---

(١) النيران يعنيها المؤلف هنا نيران المدفعية والطائرات — المترجم —

انه لم يسبق له ابدا ان احس طيلة حياته برغبة عنيدة ضارية في البقاء حيا ، كما احس بها اثناء تلك المعارك . وما شعر به آنذاك لم يكن رعب الموت ، ولم يكن خوفا معينا من ان الحياة بكل ما فيها من سعادة وتعاسة ، من فرح وشجن ، قد تصلم صلما ، ولم يكن ايضا خوفه من ان لا يرى للغد شمسا او نهارا ، بل انما كانت رغبته العنيدة الضارية في البقاء حيا تتدفق من رغبة بسيطة ، هي ان يبقى جالسا منتظرا حتى تنتهي المدفعية والطائرات الالمانية من قصفها ، فيتقدم الالمان نحوه ، كي يتمكن انذاك من ان يطلق هو نفسه النيران عليهم . لقد كان سباروف وجميع الرجال المحيطين به يترقبون تلك اللحظة ، بلهفة وشوق ، وقد ترقبوها مرات ثلاثا ، من مجرى النهار ، ولم يكن أي منهم يعرف بالذي قد يحدث بعدها ، لكن كل واحد منهم كان يرغب ، لا بل يعشق البقاء حيا حتى حلول تلك اللحظة ، غير مبال بثمن . وعندما أزفت الساعة السابعة مساء وصد الالمان على اعقابهم خائبين ساد صمت قصير ، وبدأ الجنود لاول مرة في هذاالنهار، ينطقون بكلمات غير الاوامر ، او الشتائم والقباحات الفظة المرعبة واللاانسانية التي كانوا يصبونها زعيقا على الالمان . لذلك فانهم تفوهوا بكلماتهم عقب المعركة باصوات مذهلة في انخفاضها ، وكان باستطاعتك ان تحس بان الهواء يتضوع بعطر احتفال ، كأن شيئا ما استثنائيا غريبا ، لا بل هاما وحتى مقدسا قد حل واستحل . فسابروف احس بانهم قد هزموا الالمان هذا اليوم ، وشعر بانه لم يقم فقط بما ستصفه البلاغات الرسمية حينما تقول : ان الفرقة الالمانية كذا وكذا ، قد دمرت ، ولم يعد عددها يتجاوز السبعماية او الثمانية من الهتلريين بل انما شعر بانهم قد هزموا الالمان هذا اليوم ، على صورة اوسع واعم ، لقد برهنوا على انهم هم الطرف الاقوى .

وفي الساعة السابعة والنصف ، لف الظلام الجبهة بدثاره الاسود وحضر آنسكي الى خندق سباروف الذي كان يجلس على معطفه المطوي ويسند ظهره الى حائط الخندق ، وينكش بملعقته علبة من اللحم ، ويحاول ان يقنع نفسه بانه جائع ، وبان عليه ان يأكل ، مع انه لم يكن له اية شهية للطعام . وبادره آنسكي قائلا :

ــ لقد هزمناهم ..

والفى سباروف ان وجه آنسكي أسود ملطخ بالوحول ، كوجوه الجنود المحيطين به ، فادرك ان ما حدث في قطاعه قد حدث ايضا في قطاع آنسكي

فســأله :

ــ نعم نحن هزمناهم ، ولكن بماذا قام الاخرون ؟

فاجاب آننسكي :

ــ لقد هزمناهم في كامل المنطقة . ولقد جئت بملازم ليحــل محلــك ، فالجنرال يستدعيك .

فسأل سباروف :

ــ كيف الحال هناك ؟

ــ لقد هزموهم هم ايضا . من المستحسن ان تسارع الى الجنــرال فهو يطلب حضورك فورا .

ــ لكن اين ريميزوف

ــ لقد حملوه عائدين به الى الخندق .

ــ ماذا تعني ؟ هل هو جريح ؟

فاجاب آننسكي :

ــ كلا ، لم يجرح ، لكن اغمي عليه منذ نصف ساعة ، وبعد ان انتهى كل شــيء . هل تعرف بان جرحه ذاك ليس مضحكا فقط ، بل انما هو خطــير ايضا ، وهم يضمدونه الان ، فلتذهب سريعا الى الجنرال ، والا فسيغضب عليك .
فهب سباروف واقفا وضغط على يد آننسكي مصافحا وقال :

ــ اتمنى لك حظا سعيدا

ــ وبالمناسبة ، لم يعد مركز قيادة الجنرال حيث تعرف ، فلقد امر بنقله .

ــ الى اين ؟

فأجاب آننسكي :

ــ الى مكان لا يبعد من هنا اكثر من ثلاثماية متر ، لقد اقامه في المهواة، وربما هو هناك الان .

سار سباروف عائدا بمحاذاة خندق المواصلات ، وقد تسلق في دربــه

تلالا من الجثث مرتين او ثاثا ، وكانت هذه جثث جنوده ورفاقه ، التي لم تنقل بعد ، وعقب ان قطع ثلاثماية خطوة ، كاد يصطدم ببروتسنكو نفسه ، حيث الفاه واقفا على حافة المهواة . وشاهده يرتدي سترته المألوفة والتي اعتاد ان يرتديها دائما ، لكنه كان يعتمر عمرة جنرال احيطت بشريط احمر ، وكانت قد وصلته لتوها من المؤخرة ، ورأى سباروف جنديين يحفران خندقا على مسافة وراءه وبادر بروتسنكو صائحا :

ـ سباروف ! اهذا انت ؟

ـ نعم ، انا هو ايها الرفيق الجنرال .

فخطا بروتسنكو نحوه بضعة خطوات ثم وقف منتصب القامة وخاطبه بلهجة رسمية لم يالفها سباروف فيه من قبل وقال :

ـ ايها الرفيق سباروف ! انني اشكرك باسم القيادة العليا للقوات الروسية المسلحة .

فوقف سباروف ايضا وقفة تأهب وتمتم مجيبا ببضعة كلمات حائرة مرتبكة استطرد اثرها الجنرال يقول :

ـ لقد اوصيت بان تمنح وساما ، وسام لينين ، فلقد اكتسبته اكتسابا ، واريدك ان تعرف بهذا الامر .

فقال سباروف باسما وهو لايفكر بما سيقوله :

ـ شكرا .. شكرا جزيلا !

فابتسم سباروف ايضا ، وادرك كل واحد منهما وهو يتطلع الى وجه الاخر ان رفيقه يعي ان شيئا مهيبا بالغ العظمة قد تحقق اليوم ، شيئا يتعلق بهما وبجميع من يحيطهما ، والحق ان سباروف لايهمه ما اذا كان قد اوصى له او لم يوص بوسام ، اذا ماقارن هذه التوصية بحدث اليوم ، فهذا اليوم هو يوم انتصارهم على الالمان الذين كان عليهم وفق ابسط القواعد العسكرية ان يستعيدوا الضفة ثانية ، لكنهم فشلوا في مسعاهم فشلا ذريعا .

اقبل بروتسنكو على سباروف يشبعه ضما وعناقا ثم اخذ يربت على كتفه ويسال :

ـ حسنا ! كيف حالك ، الا تزال حيا ، وفي أحس حال ؟ الا يزال حيا ؟ ان سباروف لايجيب على هذا السؤال ، وبماذا يستطيع ان يجيب عليه ؟ واسترسل بروتسنكو يقول :

ـ انني وأياك يا الكسي ايفانوفيتش سنتذكر يوما هذا اليوم ، اختزن كلماتي هذه في ذاكرتك ، سنتذكر هذا اليوم ، وربما تذكر الاخرون اياما اخرى، لكننا سنذكر نحن هذا ان شعورا لم آلفه يجتاحنا جميعا ، اليس كذلك ؟

فأحنى سباروف رأسه صامتا بينما استطرد الجنرال :

ـ لقد نقلت مركز قيادتي ، ولقد كانت قيادة الكتيبة تحتل مركزي الحالي، وقد امرت بان يجري توسيعه ، وغدا سيوجه الالمان ضربتهم الشديدة الى هنا، لكننا لن نعيد لهم هذا المكان ، وهذا هو ماأحس به كل انسان منا اليوم ، وانا اعرف باحساسهم هذا ، فانا وانت قد احسسنا به واريد ان ادعم هذا الاحساس في كل فرد ، لذلك تراني نقلت مركز قيادتي الى هنا ، كي لايشعروا فقط باننا لن نعيد هذه البقعة الى الالمان ، بل ان يعرفوا به ايضا . . أ تفهم ما أقول ؟

ـ نعم افهم ، ولكن مركزك ذاك كان افسح من هذا ويوفر لك من الراحة اكثر مما يوفرها هذا .

ـ نعم انه كان كما تقول ، لكنني سأجعل كل شيء في مركزي الحالي جميلا انيقا ووطيدا ، هل تعرف ان الشجاعة هي الشجاعة ، ولكن يتوجب على قائد الفرقة ان يتألف سطح مركزه من طبقات اربع ، وبهذه المناسبة ، فأنا احمل انباء اليك ، لقد قتل بوبوف .

سادت برهة من صمت استطرد اثرها بروتسنكو :

ـ هل تعرفت الى ريميزوف ؟

ـ لقد عرفنا بعضنا معرفة سطحية .

ـ حسنا ! مارايك فيه ؟ انه رجل ذو قلب ، اليس كذلك ؟

فأجاب سباروف :

ـ نعم .

ـ انه قائد فوجك الان بدلا من بوبوف .

ـ اذن من سيخلف ريميزوف ؟

ـ انني افكر في ترك انسكي هناك ، في الفوج . هذا اولا ، ثانيا ، لقد اضعفت امس كلا الفوجين كي اشكل مجموعات الاقتحام ، ولذلك دفع الالمان بالفوجين الى الوراء قليلا ، وبكتيبتك ايضا ، ولكن شمل الفرقة قد اجتمع الان ، وهذا امر جميل ورائع ، لكنهم دفعوا بنا اقرب فاقرب الى الفولغا ، ولقد انسحبنا من بنايات خمس .

فسأله سباروف ملهوفا ، وبلهجة من يشعر بانه لم يطلع على الاسوأ بعد وقـــال :

ـ افي قطاعي ايضا ؟

ـ نعم لقد دفعوا بك ايضا الى الوراء ، ولقد امضيت نفسي نصف نهار في قطاعك ، ولربما ماحل بك كان نتيجة خطأي ، ولربما سحبت من كتيبتك جنودا أوفر مما يجب ، ولكن لو لم اسحبهم لما حققنا اتصالنا بريميزوف . لقد أمضيت نصف نهاري جالسا في مركزك الذي اصبح الان في الواقع خطا أماميا . ولقـد استولى الالمان على بناية من بناياتك الثلاث ، انها البناية التي تشبه الزاويـــة القائمة ، هل تذكرها ؟

فأجاب سباروف :

ـ انني اعرفها .

كان بروتسنكو يتحدث بصوت تعمده خفيفا ، لكنه بدا من اسلوب حديثه انه يحس بنوع من ذنب شخصي امام سباروف ، لانه سحب بعض الجنود من كتيبته وسحبه هو شخصيا ، وباستطاعة سباروف ان يتذمر الان ويقول بانه لو كان على راس كتيبته لما حدث ماحدث ، مع ان كلا من بروتسنكو وسباروف يعلمان بان ماجرى كان يمكن له ان يجري حتى ولو كان سباروف في مركزه ، واستطرد بروتسنكو يقول :

ـ عد الى كتيبتك واصمد حيث توقفوا ، فهذا هو اهم شيء ، لاتغضب ولا تكتئب !

قال هذا وربت على كتف سباروف العنيد الصامد واستطرد :

ـ المهم ان شمل الفرقة قد اجتمع ، وهذا اغلى ثمنا من بناياتك ، وفي هذه

المناسبة لقد خدمنا معا وقتا طويلا ، لكنني لم اعرف ابدا بانك رجل كتوم الى هــذا الحد .

فسأله سباروف دهشا :

ــ كتوم ؟! ولماذا ؟!

ــ طبعا انت كتوم ، ولقد سبق لي ان قلت لك بانني أمضيت نصف نهــار في كتيبتك ولقد اعلموني بكل أمر .

فعاود سباروف يسأله وهو لما يفهم بعد مايعنيه الجنرال :

ــ بماذا اعلموك ؟

ــ يقولون بانك تزوجت .

ادرك سباروف ماعناه الجنرال ، فهو لم يخطر له في البدء حتى هــــذا الخاطر ، فالى هذا الحد نات به افكاره وهكذا وجدته يجيب :

ــ اذن هذا هو ما اعلموك به ..؟ نعم لقد تزوجت .

ــ قالوا لي انك اردت ان تقيم حتى حفلة زفاف ، وهكذا كنت تريد اقامة مثل هذه الحفلة دون ان تدعوني اليها . . هل كنت حقا عازما على هذا الامر ؟

ــ لم اتوخ اقامة الحفلة . . لقد كانت مجرد كلام ، لاشك انني كنت ارغب في مثلها ، لكنني لم اكن انوي اقامتها .

فاجابه الجنرال سائلا :

ــ لماذا لاترغب ؟ انها جد ممكنة ، وانا اعرف الفتاة ، ولقد منحتها ايضا وساما ، وهي فتاة طيبة .

فأجاب سباروف :

ــ جــدا جــدا .

ــ هل تعمل مساعدة في المستشفى أم ممرضة ؟

ــ انها في الواقع مساعدة .

ــ هل لديكم مساعدة نظامية في كتيبتك ؟

ـ لم يبق لنا .. فلقد قتل اثناء وجوذي في المستشفى .

ـ حسنا ! استطيع ان اعينها مساعدة ملحقة بكتيبتك ، نعم استطيع ذلك اذا كانت القوانين تسمح به .

فأجاب سباروف :

ـ ان القوانين تخولني طبيبا ايضا .

ـ من يهمه ماتخولك اياه القوانين ؟ فمن المفترض مثلا ان يكون عـــدد جنودك ثمانماية ، لكن اين هو هذا العدد ؟ انا استطيع ان اعطيك مساعدة ولكن بشرط واحد ..

ـ ماهو هذا الشرط ؟

ـ الشرط هو ان تدعوني الى حفلة زفافك ، وهناك شيء اخر ، فلا تغضب اذا ماابديته يا الكسي ايفانوفيتش ، وتحدثت عنه بصراحة جارحة ، انها بالنسبة اليك زوجة ، لكنها مساعدة بالنسبة الى الكتيبة ، اي انها لايحق لها ان تتدخل في أمور الكتيبة ، طبعا ماعدا الجرحى ، فانت تعرف بان النساء يأخذن احيانا بتقديم النصح والارشاد ، وطبعا لايقدمنه بنية سيئة ، بل بقلب طيب .. وهذا مالا يتفق والحرب .

فأجاب سباروف :

ـ اوافقك على ماقلت . ولكن اذا كان يخامرك شيء من شك في هذا ،فمن الافضل انتبقى حيث هي.

فرد بروتسنكو :

ـ كلا ! لاشكوك لدي ، لقد كنت اعرض الموضوع بصورة عامة فقط ، ولهذا ابديت ما ابديت ، هذا كل مافي الامر .

ثم اردف كأنه تذكر فجاة شيئا ما فقال :

ـ عد سريعا الى كتيبتك ! ان مسلنكوفك ينتظرك بلهفة وشوق ، قـل لي ! هل هو مدنف في غرامك ؟ ام ماذا ؟

ـ انا لست فتاة .

ـ لكنه يحبك ، والامر سيان ، وحبه لك شديد ، ولقد حدجني بنظرات كأنني قد اكلتك وكان علي ان اقول له : ان سباروفك عائد اليك ، انه سيعود اليك فلا تنفعل !

ـ من اعلمك بزواجي ايها الرفيق الجنرال ؟

ـ من اعلمني ؟ لقد اعلمني فانين وانا احس بانك غاضب منه ، أليس كذلك .

ـ كلا ! لماذا اغضب منه ؟

ـ لانك لم تخبرني به من قبل ، فاذا ماكنت غاضبا منه فانت أحمق ، فهو رجل طيب ويحترمك . حسنا ! حسنا ! اذهب ! اذهب .

ثم مد يده الى سباروف وصافحه وهو يقول :

ـ اعتقد بان الالمان سيكررون معزوفتهم ثانية غدا ، لكنهم لما كانوا لم ينجحوا اليوم ، فان حظهم من النجاح ضئيل غدا ، هذا هاجس خير ، ثم اردف وهو يرفع باصبعه :

لكن الهاجس هو هاجس ، واذا لم تتجمد الفولغا خلال هذين اليومين فلن تبقى لدينا قنابل ، فلتقتر فيها ، ولتقتر في طعامك ... وداعا .

ـ وداعا ايها الرفيق الجنرال .

- ٢١ -

كانت ليلة كثيفة الظلام شديدة الاظلام ، وتساقطت بضعة قنابل في البدء يمينا ، ثم يسارا ، وانفجرت على بعد بعض مئات من الامتار ، فقفز سباروف ، لانها كانت قنابل قليلة وغير متوقعة . وعندما بلغ كتيبته صادف جنديـــا عرفـــه فبادره :

ـ كيف حالك ايها الرفيق النقيب ؟

ـ كيف حالك ؟ هيا أرني مركز قيادتي ، اين يقع الان ، هل تعرفه ؟

ـ انه لايزال في مكانه السابق .

عندما اقترب سباروف من مركزه شاهد شكل بطيرس المألوف ، ينتصب بالقرب من خندقه ، فأحس كأنه يعود الى بيته وذويه ، واقبل عليه بطيرس فرحا مسرورا وهو يقول :

ـ ايها الرفيق النقيب ! لقد كنا ننتظرك ونترقب عودتك .

فأجابه سباروف وهو يحاول ان يخفي فرحه بلقياه لبطيرس ..

ـ كان عليكم ان تقللوا من ترقبكم وان تقاتلوا افضل ! وعلي ان اقول :

ـ ياللهدية التي تقدمونها الي بمناسبة عودتي ، لقد اعطيتموهم بناية .

فأجابه بطيرس :

ـ صدقت ، لقد اوهنوا عصبتنا ، فلم تعد لدينا القوة ، وسحب الجنرال منا اربعين جنديا .

ـ لكنه لم يسحب جنودا من كتيبتكم فقط ، بل انما سحب من الكتائـــب الاخـــرى ايضا .

فرد بطيرس بلهجة من اهين وقال :

ـ لكنهم دفعوا بنا ايضا الى الوراء ، لقد تجاوزنا طاقة الاحتمال البشري . وكان مسلنكوف والقومسير في انتظار دائم لعودتك .

ـ اين هما ؟

ـ ان الرفيق فانين موجود هنا .

ـ واين مسلنكوف ؟

ـ لقد ذهب حالما بدات تظلم الى البناية الاخرى هناك .

ـ كم يبعد الالمان عنا ؟

ـ ان المسافة التي تفصل بين ميسرتنا وبينهم لاتزال هي هي ، اما تلك . .

واشار بطيرس الى اليمين :

فانها لاتبعد اكثر من ستين مترا ، فانت تستطيع ان تسمع كل كلمة من لغطهم .

فسأله سباروف :

ـ اقتل كثير منا ؟

فقال بطيرس الذي كان يتعشق الاجوبة الدقيقة :

ـ احد عشر قتيلا وثلاثون جريحا واثنان ، كما وانهم قتلوا ماريا افانوفا .

ـ وماذا جرى لاطفالها ؟

ـ لقد قتل الاطفال ايضا ، قتلوا جميعا ، اذ انقضت قنبلة على سردابها ولم تخلف وراءها سوى حفرة واحدة واتت عليهم جميعا .

ـ متى حدث هذا الامر ؟

ـ بالامس .

فتذكر سباروف ماقالته له تلك المراة منذ زمن غارق في قدمه ، زمن يبدو له كأنه الازلية ، واذكر لهجتها اللامبالية وهي تقول :

ـ اذا ما انقضت قنبلة ، فلتنقض ، فهي ستكون كفيلة بي وباطفالي .

فقال سباروف في سريرته ، لقد تحققت نبوءتها. ثم عاد ليخاطب بطيرس:

ـ لقد اطلعتني على الكثير من الانباء ، لا بل على الاكثر منها .

ثم أزاح الستار عن باب الخندق ودخل فشاهد فانين يغط في نومه وراء مكتبه ، فتطلع اليه فادرك انه قد نام بينما كان يكتب التقرير السياسي لهذا اليوم اذ الفى رأسه كابيا فوق الصفحة امامه ، ويداه ممدودتان على المكتب ، فأخـذ سباروف ينظر الى ماكتبه فانين ، فالفاه انه تدبر امره ضد النوم وختم تقريره بقوله :

« لم تبدر اية بادرة تدل على هبوط في المعنويات او شذوذ على قواعد السلوك السياسي » .

فأخذ سباروف يناديه وهو واقف فوق رأسه :

ـ فانين ! فانين !

فهب الرجل النائم منتصبا على قدميه ، وتطلع حوله مفتشا عن مصدر الصوت فكرر سباروف :

ـ فانين انني هنا !

فأمسك فانين بيد سباروف واخذ يهزها طويلا ويحملق فيه كأنه يـــراه عائدا من عالم اخر ثم يبادره قائلا :

ـ لقد بدأنا نقلق عليك .

فأجابه سباروف :

ـ يبدو لي انه لم يتوفر لكم الوقت لتقلقوا على أي شيء .

ـ كلا ! انني اقول لك باننا وجدنا الوقت ، والشيطان وحده يعرف لماذا تدبرناه ، لكن هناك شيئا ما يجعل الانسان يحس بالتوحد والوحشة دونك ، ولربما كان هذا الشيء بنيتك الضخمة ، فبدونك نشعر كأنهم قد نزعوا الموقدة مـن الغرفة .

فأجابه سباروف :

ـ اشكرك على هذه المقارنة !

ـ ربما ان هذه المقارنة ليست باطراء ، لكن هناك شيئا من الصحة فيها ، وفي هذه المناسبة ، فان الطقس يزداد بردا ، ولا يحق لك بان تحس بانك قد جرحت ، فالمدفاة هي اليوم الشيء الاساسي الذي نملكه .

فأجابه سباروف وهو ينظر الى مدفئة حديدية مستديرة وضعت في خندقه وقال :

ـ نعم ! نعم ! انا ارى انك قد وضعت مدفاة هنا .

ـ ولماذا لانضعها ؟ فهي تشتعل على صورة رائعة ، الا تريد ان تتدفأ ؟

وبدلا من ان يجيب سباروف على سؤال فانين جلس على السرير وخلع حذائيه الواحد بعد الاخر ثم مد بساقيه نحو المدفأة وقال :

ـ انها جيدة ! جيدة جدا في الواقع ، لكنك قد شكوتني الى الجنرال .

فضحك فانين وقال :

ـ نعم لقد شكوتك ، فانا القوميسير هنا ، ومهمتي أن اعرف ماتعتلج به نفوس الناس ، وهكذا رأيتني الحظ ان شيئا ما قد حدث لقلبك فرفعته في تقريري .

ـ لكن قلبك الخاص هو الخارج على حالته المنتظمة ولن يعود اليها الا بعد أن تنتهي الحرب ..

ـ قل لي ! ماذا حدث لمسلنكوف ، هل ذهب الى البناية الاخرى ؟

ـ نعم فهو قلق جدا .

ـ هل يعود قبل الصباح ؟

ـ عليه ان يعود قبله ، واذا لم يعد حتى الصباح ، فانه لن يستطيع العودة حتى ليل الغد ، ففي النهار لاتستطيع ان تذهب الى هناك او تأتي منه فبمقدورهم ان يطلقوا رشاشاتهم على الدرب اطلاقا متقاطعا .

فسأل سباروف :

ـ من هم حامية تلك البناية ؟

ـ انهم ١٥ رجلا يقودهم كونياكوف ، لان بوتابوف لاقى مصرعه .

ــ ماذا تقــول ؟

ــ نعم لقد قتل ، وقد جعلت كونياكوف آمرا للسرية فــي هذه اللحظــة الحرجة وذلك على مسؤوليتي الخاصة . فلم يكن هناك من شخص اخر اعهــد اليه بامرة السريةوعندما دفعوا بنا الى الوراء بقي كونياكوف ومن معه في البناية.

ــ أهذا كل ماتبقى من السرية الثانية ؟ خمسة عشر رجلا ؟!

فأجاب فانين :

ــ كلا هناك عشرة اخرون غادروا البناية ، لكن كونياكوف بقيومن معهالان فيها . وبهذا يكون المتبقي من السرية ٢٥ رجلا .

ــ كيف هي حال السرايا الاخرى .

ــ ان عدد كل واحد منها اكثر بقليل من عدد تلك ، خذ واقرا ..

قال فانين هذا وناوله ورقة تتضمن بيانا عن عدد جنود السرايا وبعد ان قراها سباروف قال :

ــ نعم ! لقد فقدنا الكثيرين ، ولكن اين يمتد خط الجبهة الان ؟

فتناول فانين محفظة اوراقه واخذ يبحث فيها ثم اخرج خارطة قدمهــا الى سباروف وهو يقول :

ــ خذ هذه وانظر اليها ، لقد اعدها مسلنكوف لعودتك .

كانت الخريطة ترى مراكز الكتيبة وتوزيعات سراياها وحظائرها ، ولم يكن هناك من نتوء في الخريطة كما كان فيما مضى ، بل انما كانت تشير الى ان كتيبته ينتظمها خط واحد والكتائب المنتشرة على محاذاة احد جانبي شارع مسن الخرائب ، وكانت هناك بناية واحدة فقط اشارت اليها الخريطة بخطوط متقطعة تمتد الى الامام كاللسان ، وعلق فانين على هذه البناية قائلا :

ــ اذا ماتوخينا الدقة في الحديث ، فان هذه البناية محاصرة ، فالالمان لايسمحون لنا بالاقتراب منها والدخول اليها نهارا ، لهذا ترانا نتسلل زاحفين اليها ليــلا .

فاجاب سباروف :

ـ نعم ، وعندما يحين الوقت لنسترجع الشارع ، فان هذه البناية تشكل مركزا اماميا ممتازا ، لذلك يتوجب علينا ان نعزز حاميتها .

فأخذ فانين يكرر بلهجة بطيئة :

ـ عندما يحين الوقت .. أخشى ان يكون هذا جد بعيد .

ـ لماذا ؟

ـ ليتنا نصمد هذه الاثناء حيث نحن الان !

فأجاب سباروف :

ـ طبعا سنصمد ، وعن هذا اتحدث ، سنصمد في مراكزنا ، سنصمد هنا وبعدئذ سنستعيد الشارع .

فرد فانين :

ـ أراك قد عدت منتعشا ومتفائلا اكثر من المعتاد .

فأجاب سباروف :

ـ نعم انني اشد تفاؤلا من المعتاد ، ولا تعني خسارتنا البناية شيئا في نظري ، نعم انها امر غير مستحب ، لكنها ليست بذات بال اذا ماقيست بما حققناه اليوم ، فلقد منعناهم من الوصول الى الفولغا ، وهذا هو أهم شيء ، ولن ندعهم يتقدمون خطوة واحدة .

فسأله فانين :

ـ هل انت قانع بما قلت ؟

ـ نعم قانع .

ـ ماسبب قناعتك الراسخة هذه ؟

ـ كيف استطيع ان اعبر لك ؟ بمقدوري ان اقدم اليك بعض الاسباب المنطقية ، لكن ليس هذا ما اريد ، فلدي شعور بان هذا الامر سيكون كما ذكرت ، لقد حطمنا شيئا ماداخلهم ، انه كاللعبة ، فانت تدير لولبها وتديره وتديره ، ثم ينكسر ، وعندئذ لاتستطيع أن تديره ثانية .

ـ انني مسرور اذ اؤمن بما تقول ، ولكن على مايبدو ان اكتئابنا لخسارة البناية بلغ بنا درجة لم يعد معهالدينا اي شعور ، فلم يخالجنا بالامس واليوم سوى احساس واحد الا وهو الاسف المرير .

قال فانين هذا ووقف ثم اخذ يمشي وهو يعرج فساله سباروف :

ـ لماذا تعرج ؟

ـ انني جريح ، لا بأس فسأعيش حتى حفلة زفافي كما يقولون ، واعني زفافي لا زفافك ، وذلك لانني كما اسمع ، ان زفافك لن يكون بعيدا .

ـ من يقول هذا ؟

ـ انه بروتسنكو .

فاجاب سباروف وهو يجول بناظريه في الخندق وقال :

ـحسنا ! ان قاعة الاحتفالات جاهزة . فهذا هومكان الجوقة الموسيقية وسندعو حتى موسيقيين غرباء ليشتركوا في العزف ، وهذا مكان العريس ، وعلينا ان ننتظر فقط حضور العروس ووصيفاتها من الكنيسة .

فقال فانين :

ـ اما اليوم وحال عودة مسلنكوف فسنقيم حفلة عشاء للعزاب ، واياك ان تراودك ولو للحظة واحدة فكرة التملص من اقامة حفلة عشاء للعزاب ، فبدون هذه الحفلة سنمنعك من الزواج .

فالتفت سباروف بجانب من عينه الى بطيرس وقال :

ـ لامانع لدي من اقامة هذه الحفلة ، لكن مخزون بطيرس من المؤن جد زهيد . مارايك يابطيرس ؟

ـ استطيع انأتدبر الامر على صورة من الصور ايها الرفيق النقيب وعلى كل حال انتم تعرفون بما انا ماهر فيه . وبعد ان قال بطيرس هذا فتح « مطارة » وسكب وملأ قدحي سباروف وفانين بالفودكا ، ولكن قبل ان يمسكا بالقدحين أزيح فجأة الستار من على باب الخندق فاذا بمسلنكوف يقف على عتبته مسرورا أشعث الشعر صخابا ويصيح :

ـ رويدكم ! رويدكم ! ماذا تفعلون ؟ أبدوني ؟

ماكاد ينطق بهذه الكلمات حتى القي بنفسه على سباروف واخذ يعمل فيه عناقا وضما ، ثم رفعه بين ذراعيه ، وقبله ، ثم امسك بكتفيه واعاده قليلا الى الوراء واخذ يحملق فيه ،ثم جذبه ثانية اليه ، وقبله مرة اخرى ، وعاد فدفع به الى الوراء واجلسه على مقعده ، واخيرا القى بجسده على مقعد ثالث وصرخ بصوت اجش عميق :

ـ يابطيرس ! اسكب لي كأسا .

فملأ بطيرس كأسا ثالثة قدمها اليه ، فامسك مسلنكوف بالكأس .ورفعها وهو يقول :

ـ لنشرب نخب سباروف ، نخب صيرورته جنرالا ، وفي وقت قريب .

فرفع فانين كأسه وابتسم ابتسامته الحزينة المألوفة واضاف :

ـ نخب صيرورته استاذا في التاريخ ، وفي وقت قريب .

وكان مسلنكوف وفانين يتطلعان طيلة كلامهما الى سباروف الذي قال :

ـ وبكلمة اخرى ، استاذ في التاريخ او جنرال ؟ اما انا فأقول بانني لمستعد لان اصبح كناسا ، اذا كان هذا الامر يمكن له ان يختصر من اجل الحرب يوما واحدا ، وطبعا اريد النصر نهاية لها ، اذن فلنشرب نخبها ! (١)

فصاح فانين :

ـ نخب مـاذا ؟!

فسارع مسلنكوف ليلمس بقدمه قدم فانين كي يفهمه ان سؤاله غير لائق وبادر يقول :

ـ طبعا نخب آنيا .

لكن سباروف اجاب :

ـ كنت اعني نخب النصر .

---

(١) النصر هو اسم مؤنث في اللغة الروسية

ثم جرع ما في كأسه دفعة واحدة وقال بعد ان استعاد انفاسه :

اما فيما يتعلق بالتعليم ، فنحن جميعا سنكون بعد الحرب اساتذة تاريخ، على هذه الصورة او تلك .

ثم استدار الى مسلنكوف وسأله :

ـ حسنا ! كيف خلفت البناية ومن فيها ؟

فأجاب مسلنكوف :

ـ ان كونيوكوف يدير امورها كأنه القيصر .

كان مسلنكوف متعبا الى درجة ايقظت معها قدح واحد من الفودكا في نفسه ذلك المزاج الاحتفالي لكن الوقور والذي يجعل المرء يتحدث بجمل طويلة ومعقدة الى حد لا تعرفه نهاية معه ، وهكذا وجدت مسلنكوف يقول :

ـ لقد نصب كونيوكوف نفسه آمرا للحامية ، وهو يسلك الان باتزان ووقار الفريق (اللفتننت جنرال) زد على ذلك انه يعلق الان على صدره وسام صليب القديس(1) جريس ، وهو يحمله الان، كما يقولون ، مترقبا اليوم الذي يمنحه فيه النقيب سباروف وسام النجم الاحمر الذي يخوله اياه القانون ، وذلك وفقا لاحد الاوامر الصادرة عن القائد العام للجيش .. ماذا تفعل يا بطيرس؟

ـ لقد فرغت كؤوسنا .

تطلع سباروف الى مسلنكوف ، فالفاه منهوك القوى متعبا ، فقال في نفسه انه لا شك سيقذف به الى احضان النوم ، تعبا او مخمورا ، لذلك لم يعترض سباروف على طلب مسلنكوف فسكب بطيرس قدحا اخرى لكل واحد منهم ، وعندما انتهى بطيرس من ملء الاقداح قال فانين :

ـ الحق انه لامر مثير ، فبطيرس لا يخطيء ابدا فهو دائما يسكب في القدح مئة غرام تماما .

ـ تماما ايها الرفيق القوميسير السياسي الاول .

ـ نعم اعرف بانك تسكب هذا المقدار بالتمام حتى حينما تختلف الاقداح

---

(1) وسام كانت تمنحه روسية القيصرية تقديرا للشجاعة والاقدام

حجما ، وحتى اذا ما كان امام احدنا فنجان وامام اخر قدح وامام ثالث كوز، فانك مع هذا لا تخطيء ابدا . هل باستطاعتك ان تشرح لنا السر في ذلك ؟

ـ انني ايها الرفيق القوميسيير السياسي الاول لا اسكب بعيني ، بل انما اسكب باذني ، وبالعد ، فانا امسك « بالمطارة » بزاوية معينة ومع صوت انسكاب ما في داخلها أعد : ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥

كفى ! ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ كفى !

فقال مسلنكوف :

يا لك من رجل ! انك ستعمل بعد الحرب في احدى الصيدليات .

فصاح بطيرس !

ـ لن اقبل بهذا العمل ابدا ... ابدا ايها الرفيق الملازم .

فسأله سباروف :

ـ ما الذي تريد احترافه بعد الحرب ؟

ـ ساعود الى عملي السابق كعميل مورد . وساقوم بالمعجزات في هذا المضمار .

فقال سباروف :

ـ اعتقد بانك تناولت قدحا او قدحين من الشراب .

فأجاب بطيرس :

ـ نعم ايها الرفيق النقيب ، لقد تناولت بعضه ، فعندما كنتم تشربون نخب النصر ، كنت اشربه انا نخبه ايضا . نعم لقد احتسيته قليلا منه .

لم يردف بطيرس قوله بان الفودكا نادرا ما عملت فيه ، وانه اذا ما بدا الان مخمورا قليلا ، فانما هذا يعود الى ان المخزون من المؤن يقترب من نهايته ، وبطيرس حبا منه في توفير المؤن للضباط لم يتناول طيلة هذا اليوم غير قطعتين من البسكويت الجاف .

استطرد بطيرس يقول :

ـ عقب الحرب ساعود الى العمل في التموين ، وسأعمل وفق اسلوبي السابق في العمل ، واذا ما اعتقد احد الناس بان هذا العمل لن يكون عملا لذيذا فانه لا شك يخطيء في اعتقاده هذا خطأ فاحشا . وانا اريد ان ارى ذاك الزمان الذي يبدو ما كنت اعمله فيه عام ١٩٣٣ مضحكا في نظر الناس. لقد كنت يومذاك ملكا لانني كنت استطيع ان ادبر خمسين كيسا من البطاطا او ثلاثة اكياس من البصل ، ولكنهم سيقولون لي في احد الايام وعقب انتهاء الحرب : بطيرس دبر للعمال المحار ونبيذ الشبلي Chablis (١) ، وسأقول لهم ، اذا سمحتم ايها الاصدقاء ، فان طعام عشائكم سيكون مؤلفا من المحار ومرفقا «بالشبلي».

فسأله سباروف :

ـ هل عرفت للمحار مذاقا في حياتك ؟

فأجاب بطيرس :

ـ كلا لم اذقه من قبل ، ولقد قلت المحار كمثل فقط ، واردت ان اسمي اخر لون يمكن ان يخطر على بالكم الان . هل تسمحون بان اسكب لكم قدحا اخرى ؟

فاجاب سباروف :

ـ كلا ! لقد تناولنا ما فيه الكفاية .

وبعد ان رفض سباروف عرض بطيرس حنى رأسه على ذراعيه وبدأ يفكر ، فبطيرس كان يتحدث من قلبه ، وما تحدث عنه يمثل احلامه ، والاحلام لا يمكن لها ابدا ان تكون سخيفة . فاغمض عينيه واخذ ذهنه لا بل وجدانه يتساءل : كم من الاحلام والافكار عن المستقبل ، وكم من الآمال والرغبات المهصورة ، قد دفنت في الارض الروسية خلال السنة ونصف السنة الماضية، وكم من الرجال الحالمين الراغبين المفكرين والتواقين قد دفنوا في التربة ذاتها دون ان يحققوا اي شيء من آمالهم او يجسدوا اي حلم من احلامهم . فبدا له ان كل تلك الامور كانت ممكنة لكنها لم تحقق ، وانها جميعا قد فكر بها لكنها لم تنجز من قبل هؤلاء الذين ابتلعهم الثرى وطوتهم الغبراء ، لذلك امست آمالهم واحلامهم ورغائبهم امانة في عنقه . فأخذ يفكر قائلا في سريرته :

(١) نبيذ مشهور ، يصنع في مقاطعة بورغند يا من اعمال فرنسا .

ـ اية حياة ستكون حياة ما بعد الحرب تلك ؟

لكنه لم يستطع ان يتخيلها حتى لنفسه ، فشأنه في ذلك شـأنه ما قبـل الحرب فخياله يومذاك لم يصل به الى واقع اليوم . وسأله فانين :

ـ ما الذي احزنك ؟ هل كان الجنرال يتحدث اليك ؟

فرفع سباروف رأسه وقال :

ـ لست حزينا لقد كنت افكر فقط .

ثم اردف ضاحكا ضحكة مبتسرة :

ـ لماذا يعتقد الناس دائما بان المرء حزين اذا ما كان يفكر ويتأمل ؟.. يا بطيرس !

ـ نعم .

ـ اعطني رشيشي ! ولنخرج معا

فسأله مسلنكوف :

ـ الى اين ؟

ـ سأتفقد المركز هناك .

ـ لا ! اذهب ونم بدلا من هذا ، فالنهار اوسـع حكمة من الليـل يا الكسي ايفانوفيتش .

فأجابه سباروف ضاحكا :

ـ كلا ! اتريدينى ان اتفقده نهـارا ... ان حيـاتي عـزيزة جـدا علي ، سأذهب الآن .

فهب مسلنكوف واقفا وقال :

ـ اذن سأصحبك

ـ كلا سأذهب وحدي

ثم وقف ووضع يده على كتف مسلنكوف وبادره :

ـ اجلس يا مشنكا ! واذكر بان الضابط عندما يعود الى وحدته يستقبل كضيف لمدة نصف الساعة الاولى من عودته ، ثم يصبح الآمر ثانيـة اتفهـم ؟ فاضطجع ونم . وعندما اعود سأوقظك ، وسنتحدث جميعنـا عن خطط الغد .

والتفت سباروف الى فانين وقال :

ـ وانت ايضا يجب ان تأخذ قسطا من النوم !

فاجابه فانين وهو يبتسم :

ـ لقد سبق ان نمت ، وانا لا استطيع ان انهي تقريري السياسي ، وقد حاولت هذا الامر مرات ثلاثا .

فرد سباروف :

ـ لكن اسلوبك ممل مضجر الى درجة يجعلك تنام انـت نفسك . فتصور النعاس الذي سيراود اجفان من يقرأوه .

فضحك الاثنان واستطرد سباروف :

ـ فلتأخذ لك قسطا من الراحة ، ثم اكتب شيئا ملذا لذيذا كـي يقـرأ الناس تقريرك ، اكتب شيئا كذاك الذي يكتبه كونان دويل ، حسنا ! استودعكم الله واتمنى لكم حظا سعيدا .

خرج سباروف وبطيرس من الخندق ، وسرعان ما تمدد مسلنكوف على السرير ودفن انفه كالطفل واستغرق في سبات عميق ، وجلس فانين الى المكتب ووضع الصفحة التي لم ينته من كتابتها امامه ثم بدأ يفكر . ثم وقـف وقصـد سريره وسحب حقيبة صغيرة من تحته ذات غطاء مهشم واخرج منها دفتر مذكرات صنع خصيصا للطلاب . وقد توجت صفحته الاولى كلمات مذكرات . وكـان فانين يدون في هذا الدفتر في لحظات فراغه النـادرة ، الاحـداث الصـعبة والظروف الحرجة التي تستأثر حقا باهتمامه . وضع دفتر المذكرات الى جانب التقرير السياسي اليومي ، وتساءل في نفسه عما اذا لم يكن من المتوجب عليه ان يدون في تقاريره اليومية ما يدونه في دفتر مذكراته فيكتب عن احاديـث وافكـار واحاسيس وحوادث تظهر الناس اضـواء غير مرتقبة ، والحـق انـه دون كل هذه الامور ، لكن في دفتر مذكراته ، لقد دونها لانه وجـدها لذيـذة ملذة في نظره ، ومن يدري فقد تكون هذه حالها في نظر الجنرال ايضـا .

بينما ان ما يكتبه الان في تقاريره الرسمية ، عن المظاهر الايجابية ، والمظاهر السلبية ، ليس بذي نكهة خاصة بالنسبة اليه ، وقد يكون كذلك بالنسبة الى الاخرين ايضا ، وفي هذه اللحظة ازيح الستار ودخلت آنيا الخندق وتقدمت من فانين وهي تقول :

ـ كيف حالك ايها الرفيق القوميسيير السياسي الاول .

فهب فانين منتصبا على قدميه ومد اليها بيده مصافحا، فسألته :

ـ اين النقيب سباروف ؟

ـ لقد خرج الى السرايا وسيعود قريبا .

ـ اذن اسمح لي بان اقدم اليك نفسي

ـ تفضلي

ـ ان المساعدة الصحية كليمنكو المعينة في كتيبتكم مساعدة صحية قد وصلت الى المركز المعين لها .

قالت هذا ثم ادت التحية العسكرية واسبلت ذراعها وسألت :

ـ أحقا لن يتغيب الكسي طويلا ؟

ـ سيعود قريبا وقريبا جدا .

ـ اريد ان اراه باسرع وقت ممكن

فأجاب فانين :

ـ انا اعرف بشعورك وهو سيعود فورا .

جلسا معا لبرهة صامتين بادرته اثرها « آنيا » قائلة :

ـ لا ترمقني بمثل هذه النظرات فانا لم اطلب تعييني هنا .

ـ انا اعرف ، فانا الذي طلب تعيينك هنا

ـ انت ؟!

ـ انا .

أخذ فانين يفكر بعائلته التي فقدها ، فأحس مؤمنا بانه لن يرى السعادة ثانية ، لذلك عصف به نوع من حسد خيّر فقال :

ـ ان وجودك بيننا لجميل ، وانت لا تستطيعين ان تقدري مدى الغبطة التي تشيعينها في قلوبنا .

بقيت آنيا تنتظر صامتة رغبة منها في ان يسترسل في حديثه ، فاستطرد فانين يقول :

ـ يجب ان تفهمي بانني جد سعيد كي اساعدكما على ان تكونا معا ، وان أختصم مرارا كثيرة والكسي ايفانوفيتش ، فنحن نوعان مختلفان من الناس، ولكن اترين على ماذا نختصم .. كيف استطيع ان اشرح لك هذا ؟ فلتنتظري دقيقة !

ثم قاطع فجأة نفسه ليقول :

ـ انك تعرفينني منذ زمن طويل على كل حال .

ـ طبعا ايها الرفيق فانين .

ـ انك تعرفين بانه عندما قابلت لسباروف لاول مرة هنا جرت بيننا مناقشة حول غرس الحدائق . هل تذكرين مدى انفعالنا سرورا بغرس الاشجار الخضراء هنا ؟ لقد حاول سباروف ان يبرهن لي على انه طالما اننا كنا نعلم بان الحرب قادمة دون ريب ، فانه كان يتوجب علينا ان نقلل من اهتمامنا بالاشجار ، ونكثر من التفاتنا الى اشياء أخرى .

ولقد وافقت معه على هذا الامر بصورة عامة ، ولكن الاتذكرين مدى اغتباطنا بغرس الحدائق ، ومدى جماله ؟ الا تذكرين ؟

فاجابت آنيا :

ـ انني اذكر .

فقال فانين بايمان وقناعة :

ـ تلك كانت السعادة يومذاك ، سعادة حقيقية كتلك ، لقد اردت السعادة لكل انسان ، وكل ما قمت به انما كنت استهدف من ورائه ما قلت ، وبعض الاحيان كنت انفذ مشاريع غير ضرورية تمشيا وراء ذاك المبدأ . ولقد بدأت

بتنفيذ بعض المشاريع الجميلة وغير المفيدة ، حبا مني في اسعاد الناس ، وعلى الاقل هذا ما كنت ارى فيه دربي .

ومع ان فانين كان يتلعثم في كلامه حائرا مرتبكا ، الا ان « آنيـا » ادركت انه يتحدث عن شيء ما يعذبه قلقا منذ زمن طويل واسترسل فانين قائلا :

ــ والان انظري ، فمع انني كنت اقوم باعـمال كانت تبدو لي انها اعمـال طيبة ، اتوخى من ورائها اسعاد الناس ، الا ان هناك الان شـعورا يقول لي بان سباروف محق فيما ذهب اليه . فلربما كان يجب ان يكون لدينا حدائق خضراء اقل واستعراضات رياضية اقل وكلمات جميلة اقل وخطب اقل مما كـان لدينا يومذاك ، ولربما كان علينا ان نكثر انذاك من التدريب العسكري وتعليم الشباب اطلاق النار .

دفع فانين الى الوراء بخصلة من شعره تهاوت على جبينه ، وتذكرت آنيا فجأة احد اجتماعات الكوموسمول الذي كان قد عقد منذ زمن طويل ، وتذكرت كيف وقف يومذاك فانين على المنصة ، وكيف تدفق عذوبة وحرارة ، كما يتدفق الان ، وكيف دفع وراء بخصلة من شعره هوت على جبينه ، ومع انها لم يسرها كـل ما قاله فانين الان ، فهو ليس سوى استطراد واضح للمناقشة التي دارت بينه وبين سباروف ، الا انها اعتقدت فجأة بان الرجل الجالس امامها ربما كان رجلا طيبا جدا ومستقيما . وقاطع فانين نفسه قائلا : نعم ، سأقول لك ، بانني سعيد سعادة خاصة لانك ستكونين بقرب الكسي ايفانوفيتش ، وذلك في وقت لاتعرفين غير الرعب في كل ما حولك ، او قد لا يكون رعبا ، والشيطان يعرف ما هو ، لكنه شاق بالنسبة الى كل رجل ... كيف جئت ؟ أجئت بكل متاعك ؟

فأجابته آنيا وهي تبتسم وتشير الى حقيبة الاسعاف الاولى الكبيرة والغاصة بما فيها وقالت :

ــ هذا كل متاعي !

ــ أليس لك من متاع غيره ؟

ــ كلا ! هذا كل ما أملك منه .

قالت هذا ثم خلعت سترتها وجلست الى الطاولة بينما استرسل فانين قائلا :

ـ على كل حال سنغرس الحدائق الغناء ثانية ، وما كان من قبل سيكـون ايضا فيما بعد ، واذا لم يعمل الجيل الجديد بالحماس الذي نريده ، فعندئـذ سنحك نحن عظامنا معشر اعضاء الكوموسمول القدماء .وننجز العمل بانفسنا .

فأجابت آنيا وهي تفكر بالرغم عنها فيما كانت عليه ستالينغراد من حال :

ـ طبعا سننجزه .

تمطى مسلنكوف على سريره وهو مدثر بمعطفه ، ثم استقعد سريعا وتناول جزمته وانتعلها وهب واقفا واقبل على آنيا يحييها ويقول :

ـ كيف حالك ؟

وقد شعرت آنيا بسرور بالغ بما سأله مسلنكوف ، اذ سألها بلهجة مـن كان يترقب .وصولها منذ زمن طويل ، واردف مسلنكوف :

ـ الا ترغبين في تناول شيء من الطعام ؟

فهزت آنيا براسها معتذرة فعاد يسألها :

ـ هل ترغبين في قسط من النوم ؟

فهزت آنيا براسها ثانية وقالت :

ـ لا ارغب في أي شيء ، وانني لمسرورة برؤيتكم جميعا .

فرد مسلنكوف ، وهو يحاول ان يؤكد لها من جهة ويستطرد في حديثـه من جهة اخرى :

ـ قد تسود الغد فترة من صمت .

وتدخل فانين قائلا :

ـ انها رفيقة قديمة لي في الكوموسمول ، والاصدقاء يجتمعون ثانية ، الا يوجد فيلم سينمائي يحمل هذا الاسم ؟

« الاصدقاء يجتمعون ثانية »

فقالت آنيا :

ـ اعتقد بأن هناك فلما بهذا الاسم .

فاستطرد فانين :

ــ لقد مضى علي عهد طويل منذ ان شاهدت اخر فلم سينمائي ، ولقد وصلتني نسخة من جريدة برافدا بطريقة ما ، فأخذت افتش فيها عن الافلام التي تعرض الان في موسكو ، فرأيت انهم يعرضون حتى الان فلم « الفرسان الثلاثة » .

فأجابته آنيا :

ــ لقد شاهدت هذا الفلم حينما كنت لاازال طفلة صغيرة .

وسأل مسلنكوف :

ــ الا يقوم فيه دوجلاس فيرباتكس بدور البطل ؟

ــ نعم .

ــ كلا ! يقولون ان هناك بطلا اخر يقوم به ، وذلك لان دوجلاس فيربانكس قد توفي .

فسألت آنيا بقليل من دهشة :

ــ احقاً مات ؟

ــ لقد مات ، ومات منذ زمن طويل كما وان ماري بكفورد قد توفيت ايضا.

فسألته آنيا ممتعضة كئيبة كأنها تسمع باشد الامور حزنا والتي جرت في ستالينغراد خلال الشهر الماضي :

ــ أحقا ماتت ماري بكفورد ؟

فرد مسلنكوف متجهم الوجه مقطبه وقال :

ــ نعم لقد ماتت .

والحق أن مسلنكوف لم يكن يعلم من بعيد او قريب ، ما اذا كانت ماري بكفورد قد ماتت ، او لاتزال على قيد الحياة ، لكنه لما كان قد فتح هذا الموضوع، لذلك اراد ان يؤثر في سامعيه ويطلعهم على سعة معلوماته .

وسألت آنيا بقلق ولهفة :

ـ وبستر كيتون ؟

فأجاب مسلنكوف واثقا :

ـ لقد مات هو الاخر .

فضحك فانين فسأله مسلنكوف :

ـ مايضحكك ؟

ـ انك تتحدث عن وفاتهم كأنك تتحدث عن خسائر نزلت باحدى السرايا، منذ عهد جد حديث .

قال فانين هذا واسترسل في ضحكه الذي حوله الى قهقهة ، اما آنيا فانما استرسلت تعلق :

ـ لقد كان ممثلا بارعا حقا .

احست آنيا بحزن شديد اصيل وهي تستمع الى نبأ وفاة بستر كيتون، فتذكرت وجهه المستطيل الحزين الذي لم يعرف الابتسام ابدا وشعرت بحزن حقيقي شديد لوفاته وتطلع فانين الى آنيا وقال :

ـ لم يمت بستر كيتون .

فعاد مسلنكوف ليؤكد بحرارة ويقول :

ـ كلا ! لقد مات .

فرد فانين موافقا ، فالجدال هنا في هذا الموضوع وفي ستالينغراد بدا امرا مضحكا لذلك قال :

ـ حسنا ! فلنفترض انه مات .

ثم اردف وهو يرتدي معطفه محاولا في ذلك ان يشعرهما بان الحديث قد بلغ خاتمته ، وانه لايهمه في صورة عامة أكان بستر كيتون قد مات أم أنه لايزال على قيد الحياة ، وقال :

ـ انني ذاهب لاتفقد الحرس .

فأجابه مسلنكوف :

ـ ان النقيب يقوم الان بتفقدهم .

ـ من يدري ، فلربما امسك به احد قادة السرايا فاستمهله ضيفا عليه ، وعلى كل حال فمن المفترض ان اقوم انا بنفسي بتفقد الحرس ...

ثم قال وهو يخرج من الخندق :

ـ لن اغيب عنكما طويلا .

وبادر مسلنكوف يخاطب آنيا :

ـ فلتضطجعي ! وسندبر غدا لك سريرا ونضعه في الزاوية ، اما الان فلتتمددي على سريري .

تطلعت اليه آنيا ، وبالرغم من انها لم تكن تشعر برغبة في الاضطجاع ، الا انها ايقنت من انها اذا لم تضطجع فورا فانه سيعيد عرضه عليها خلال دقائق ثلاث ، لذلك لم تعترض ، بل انما خلعت معطفها ونزعت حذاءها وتمددت على السرير ، وتدثرت بمعطفها حتى عنقها ثم قالت :

ـ ها انني قد اطعتك ، لكنني لست بوسنانة ، قل لي ، كيف تعيشون هنا؟

فأجابها مسلنكوف بلهجة رسمية كأنه لايرى آنيا امامه بل يرى وفدا يحمل اليهم الهدايا قادما من « تشيتا » :

ـ رائع ! رائع !

لكنه سرعان ماتذكر ، ان من امامه هي آنيا بشحمها ولحمها ، وانها تعرف كما يعرف بحقيقة مايدور هنا ،لذلك رأيته يسترسل :

ـ رائع ، رائع هو صدنا للالمان اليوم .

بهذا فسر مسلنكوف كلمة رائع ، فهو لم يضفها على طراز قتلهم للوقت ، بل انما أضفاها على نتيجة القتال لهذا اليوم ونجاحهم في دحر الالمان ، ثم اردف يقـول :

ـ ان النقيب يبدو في حالة ممتازة ، ولقد قلقنا نحن عليه هنا .

ـ وقلقت عليه انا بدوري

ـ لكنه عاد الينا دون ان يخدش ، ولقد اعلمنا الجنرال سرا بانه قد اوصى

له بوسام لنين ، لانه تمكن من ان يذهب مرتين في ليلة واحدة الى ريميزوف . حسنا ! ما الذي استطيعه ان ارويه لك من انباء أخرى ؟ لقد تناولنا شيئا من الشراب ، وشربنا نخب النصر ، ونخب عودته الينا ، اما انا فلقد شربت ايضا بيني وبين نفسي نخبك .

ما كاد مسلنكوف يقول هذا الامر حتى احس بان لهجته هي لهجة تتعمد الرجولة والتقدم سنا، فتضرجت وجنتاه بحمرة الارتباك والخجل اللذين حاول ان يغطيهما بقوله :

ــ قد ترغبين في لفافة ؟

فأجابته آنيا :

ــ انني لا ادخن .

وانا لم اكن ادخن ، لكنها الحرب ، وفي مكان كهذا يدمن الانسان عليه ، فالطباق يستعجل دولاب الزمن ويسرع بايامه ، هيا فلتدخني !

ادركت آنيا انها اذا ما دخنت فانما ستسره وتبهجه فقالت :

ــ حسنا ! لا بأس .

فأخرج مسلنكوف من جيب قميصه سيجارة وحيدة كان قد اختزنها لمثل هذه المناسبة وقدمها الى آنيا ، ثم اخذ يلف له اخرى ، وعندما تذكر انه لم يقدم اليها علبة ثقاب ، قفز ، فتناثرت الطباق من السيجارة التي كان يلفها واخرج علبة ثقاب من جيبه وقدمها الى آنيا ، فاشعلت لفافتها واخذت تطلق سحب الدخان من فمها .

اما مسلنكوف الذي كان عادة بارعا في لف اللفائف ، فانما استغرقه لف هذه السيجارة وقتا طويلا وعملا كثيرا ، ومع ذلك انتهت السيجارة الى شيء ضخم شاذ ، لف بكثير من الورق ، وهكذا ماكاد يشعلها حتى تبدت كأنها مشعل وعاد مسلنكوف يسألها :

ــ ربما ترغبين في شيء من الطعام .

ــ شكرا ، لا أريده .

ــ هل تريدين أن يحضروا اليك مساء ؟

ـ كـلا ، شكرا لك !

صمت مسلنكوف ، وها هوذا يرى زوجة رئيسه وصديقه داخل محيط حمايته ، وهو يحس برهبة عاطفية شجية ، كرهبة طفل صغير ، ويريد أن يحيطها بكل رعاية واهتمام ، كي يفهمها بانه اخلص صديق لزوجها ، وانها تستطيع ان تعتمد عليه اعتمادا كاملا ، وانه لايوجد هناك من شيء لن يقدم عليه طلبا لارضائها واراحتها .

وبادرت آنيا تناديه :

ـ ميشا !

ـ نعـم !

ـ انهم يدعونك ميشا ، اليس كذلك ؟

ـ نعـم .

ـ انك والحق لانسان كريم طيب .

وعندما سمع مسلنكوف هذا الاطراء أحس بالرغم من انه يعادلها سنا ، الا انها تبدو ، اكبر عمرا منه بكثير .

اغمضت آنيا عينيها ، وكررت قائلة : « ميشا » كأنها تطلب من ذاكرتها ان تختزن اسمه . وعندما توجه اليها مسلنكوف بسؤال اخر ، فانها لم تجب فهي تغط في سبات عميق ، قد استسلمت للنوم في اللحظة ذاتها التي اغمضت فيها عينيها . فجلس مسلنكوف وحيدا الى الطاولة ، يلفه صمت عميق وهدوء ثقيل ، لم يعكر صفوه سوى هزيم يترامى من أجواء بعيدة . وعلى السرير الذي يبعد عنه خطوتان ، تنام امرأة ، انها زوجة رفيقه ، وهي تبدو رائعة الجمال في نظره ، ولا شك انه كان سيقع في شباك هواها ، لو انها لم تكن زوجة رفيقه، هذا هو ماراوده من خاطر ، ولكن من يدري فقد يكون هو الان طريح هواها لكنه لن يقبل ابدا بالاعتراف به حتى لنفسه . ولسبب ما تذكر مسلنكوف اخاه، وذكر ذالك الكوخ الصخاب خارج موسكو ، حيث اعتاد اخوه ان يذهب اليه مرارا بعد أن عاد من اسبانيا ، وبعد ان رجع اخيرا من منغوليا ، فخيل اليه أن تعريض اخيه لزوجته للخطر ، وقتاله القاسي ، والمعارك العديدة التي خاضها ، هي

الاسباب التي جعلته يحب ان يحيط نفسه بالضجيج والصخب ، كلما عـــاد الى بيته من رحلاته المتقطعة . فذكر مسلنكوف كيف كان يأتي اخوه بامرأة جميلة الى الكوخ ، وكيف بدل تلك المرأة بغيرها بعد سنين ، وكيف كان يحب ان يبقى صخابا سعيدا ، وكيف بدا لاخيه ان كل امر يسير المنال هينه ، في كلا الميدانين ميدان الاصدقاء وميدان الحب . لكن مسلنكوف كان يلاحظ احيانا ان تلـــك الحياة كانت مملة مضجرة بالنسبة لاخيه ، وكان اخوه عندما يأتي بالكثيرين مـــن الاصدقاء ، وببعض الفتيات اللواتي يبدون فاتنات في نظر مسلنكوف آنذاك ، ورائعات الحسن الى حد كان يضطر معه الى التراجع خطوة واحدة عنهن ، كان اخـــوه يقول :

ـ ميشا لنلعب البليارد .

وذكر مسلنكوف كيف كان ينسحب وشقيقه الى غرفة البليارد ويغلقـــان عليهما الباب ، ويلاعبان كراته طيلة ساعات ثلاث ، وتذكر كيف كـــان اخوه يضع أصبعه على شفته حالما يسمع احدهم يقرع الباب ، وخاصة اذا كانت احداهن ، ويبـــادره :

ـ اش ! اش ! يا ميشا !

وكيف كان يصمتان حتى يغيب عنهما وقع خطى القارعة ، ثم يستأنفان لعبهما ثانية . وكان اخوه يومذاك يعلق :

ـ ليهتم بهن اللـــه !

فينظر اليه مسلنكوف عاجبا حائرا .

فمسلنكوف لايستطيع ان يعقل كيف يتمكن من البقاء صامتا هادئا ، اذا ماناداه صوت امرأة ، ثم يتابع لعب البليارد . وهذا مما كان يستثير فيه نوعا من حسد الاطفال الذي لم يعرفوا بعد شيئا ، مع انه كان يتظاهر حين حديثـــه ورفاقه ، بانه مثلهم وواسع المعرفة . وتذكر كيف كان اخوه يعود عندما ينتهيان من لعبتهما ، الى ضيوفه ، وكيف كان شديد الاصغاء بالغ الرقة مع الفتاة نفسها التي رفض ان يجيب على صوتها منذ قليل . وذكر كيف كان اخوه يبدو حـــين عودته كانه المستعد للقيام بأي عمل من اجلها ، وتذكر كيف كان اخوه يكزه عقب برهه كانه المتآمر ويقول له هامسا :

ـ ان السعادة ليست فيما تراه يا صديقي ، انها ليست فيما تشاهده الان.

لكنه كان يبدو دائما لمسلنكوف آنذاك ، ان السعادة فيما يراه ، وفيما يشاهده ، وذلك لان ماكان يراه يومذاك ، كان شيئا مجهولا لم يختبره وقد يكون رائعا ايضا .

كان مسلنكوف يفكر بأخيه وبالكوخ وبغرفة البليارد ، وهو يتساءل عن المكان الذي قذفت يد الاقدار بشقيقه اليه . وفجاة تخيل ان اخاه قد قتل . ففكر بأولئك الذين اعتادوا ان يترددوا على الكوخ من صخاب ومعربد ، وبالنساء ايضا ، وهن وهم يتلقون نبأ مصرع اخيه ، فسمعهم مسلنكوف بأذن الخيال كيف يتحدثون عنه ، وشاهدهم بعين « الخيال » كيف يشربون نخب ذكراه ، وهم يذكرون حالهم مع اخيه في الكوخ . وادرك ان اولئك من اصدقاء وصديقات لن تتجاوز أحاسيسهم بمقتل اخيه ، ماسبق ان خال وتخيل . ولكن اذا ماقتل سباروف ، فكيف ستكون حال آنيا عندئذ ؟ لاشك انها ستختلف كليا عما هي عليه الان ، وسينقض على حشاشتها شيء مروع مرعب ، اما اولئك الذين كانوا يزورون اخاه ، فانهم لايعرفون ولن يعرفوا ماقد تعرفه آنيا ، اذا ماوقعت الواقعة ولن يختبروا من الاحاسيس راعبها ، وهذا قد يكون السبب الذي كان يجعل اخاه يخرج به الى غرفة البليارد ولا يجيب قرع طارق .

تطلع مسلنكوف الي آنيا ثانية ، فاحس بعواصف حنين فتي الى الحب ، لا حبها ، بل انما الى الحب نفسه ، تجتاحه وتنفضه نفضا . وشعر بانه يرغب رغبة ضارية في ان يعيش الى مابعد انتهاء الحرب ، فهو يريد ان يعود الى كوخ اخيه ، ولا يريد ان يؤمه وحيدا ، لكنه مع هذا يريد ان تختلف حال الكوخ عما كان لها من سابق حال في عهد اخيه . فهو لايريد ان ينسحب الى غرفة البليارد ويرغب في أن تكون فتاته مدهشة عجيبة . فأخذ يتخيل فتاة احلامه ، ويتخيل شكلها ، لكنه ماكاد يفكر فيها تفكيرا تجريديا حتى خلع عليها فضائل ومزايا استثنائية ، وعندما حاول ان يتخيل وجهها ، لم يتجاوز به خياله وجه آنيا .

كبا نعاسا ثم غفا على كرسيه متكئا على الطاولة ولم يستيقظ الا حينما دخل عليه فانين عائدا من تفقده للحرس ، وقد بادره :

ـ هل انت نائم يا مسلنكوف ؟

ـ لقد غفوت قليلا .

ـ اين سباروف ؟

ـ لم يعد بعــد .

ـ لكنها قد بلغت السادسة الان ، وهذا يعني انه نجح في الوصول الـى بناية كونيوكوف ، وانا لم استطع ان اعثر عليه ، هاك نفسا قلقة فلتعانيها !

- ٢٢ -

أصاب فانين فيما ذهب اليه فسباروف موجود في بناية كونيوكوف ، وبلوغ هذه البناية مستحيل الا ليلا ، وعلى من يريد بلوغها ان يقطع معظم الطريق اليها زاحفا ، وقد اتبع سباروف وبطيرس جدارا نصف مدمر ثم انعطفا عنه ، وفي هذه اللحظة تحفز بطيرس كما يتحفز الغطاس وبادر يسأل رئيسه :

ـ كيف ترى ايها الرفيق النقيب ؟ ان هذا مكان مكشوف .

فأجاب سباروف :

ـ اعرف بهذا .

ـ مارأيك هل نزحف أم نعدو عدوا قصيرا ؟

فأجاب سباروف .

ـ لنعد اليه !

فقفزا من وراء الحائط وركضا الثلاثين مترا التي تفصلهم عن جدار صغير يستطيعان ان يسيرا وراءه بأمان نسبي ، وقد سمع الالمان وقع خطاهما فأزت بعض شحنات رشيشات تصفر في الهواء وراءهما . وسأل صوت ترامى من خلال الظلام :

ـ من يسير هنا ؟

فأجاب بطيرس :

ـ صديق ! انه النقيب .

فانطلقا بضعة خطوات بمحاذاة الجدار الصغير وطلب اليه الصوت ذاته قائلا :

ـ من هنا ، هل هذا انت ايها الرفيق النقيب ؟

ـ نعـم .

ـ من هنا ، احذر الا تصدم راسك !

فزحف سباروف داخلا .وانحدر عدة خطوات ، واخذ يتحسس طريقه الى الزاوية ثم دخل السرداب الذي كان جزءا من غرفة المرجل ، .وكان الملازم«تزوك» قد كنسه فيما مضى من بضعة المان . لكن السرداب قد تبدلت حاله خـلال الشهرين الماضيين ، فالبقعة التي كانته تعتبر محفوفة بالمخاطر اصبحت الان اذا ما قورنت بسطح الارض مكان سكن مريح امين . وكانت قنبلة تزن خمسماية كيلو غراما قد دمرت نصف السرداب ، فهشمت المراجل وملأت جزءا من الغرفة بالواح معدنية لواها الانفجار ليا خياليا غريبا ، لكن الجزء الصغير الاخر مـن الغرفة بقي سليما .

كان الدخان يتصاعد من كل شيء في غرفة المرجل ، وكانت هناك مدفأة ارتجل صنعها من الواح معدنية ، تشتعل ببعض اجزاء عارضة خشبية ، وقـد مد من المدفأة قسطل الى الجدار خارجا لكنهم لم يحسنوا تثبيته ، فأخذ يتسرب منه الدخان ليغمر جو غرفة المرجل بسحبه الكثيفة وشاهد سباروف احـد الجنود يجلس القرفصاء الى جانب المدفأة ، وخمسة او ستة اخرين ينامون على طراحات ومقاعد جلدية جاءوا بها من سيارات مهشمة . .وهب احد الجنود حالما دخل سباروف عليهم وادى التحية العسكرية ثم بادره سائلا :

ـ هل تأمر ايهاالرفيق النقيب بايقاظ كونيوكوف ؟

فأجاب سباروف :

ـ حالا !

فسارع الجندي الى كونيوكوف واخذ يهزه ويقول :

ـ استيقظ ! استيقظ ايها الرفيق الرقيب !

فهب كونيوكوف من نومه وعدا نحو سباروف وهو يشد حزامه ثم توقف على بعد ثلاث خطوات منه وحياه ثم قال :

ـ اسمح لي ان اعلمكم بان حامية الموقع رقم ٧ ، الواقع في شارع الترتار مستعدة للقتال ، وليس بيننا مريض ، بل انما لدينا جريحان فقط ، ولم يحدث

عندنا اي حادث غير عادي ، ان الرقيب كونيوكوف يقدم تقريره .

فرد عليه سباروف :

ــ كيف حالك ياكونيوكوف ؟

ــ اتمنى لك دوام الصحة واكتمال العافية .

قال هذا وتراجع خطوة الى الوراء ووقف منتصب القامة متأهبا .

بالرغم من كل هذا الانضباط والضبط العسكريين اللذين ابداهما كونيوكوف فان سباروف شاهد فيه ملمحا جديدا ، ملمح رجل العصابات تقريبا ، ملمحا يتبدى على سيماء اولئك الرجال الذين مضت عليهم فترة طويلة وهم محاصرون وحياتهم معرضة في كل دقيقة للخطر ، وقد عزلوا عن العالم عزلا تاما . والفى سباروف ان كونيوكوف قد شد كعادته دائما بحزامه حول خصريه شدا جد وثيق لاتتمكن معه من ادخال اصبعيك بين الحزام ومحيطه من جسد كونيوكوف لكن عمرته كانت منحرفة طوافة ، وقد علق بحزامه مسدسا المانيا أغمده في قراب مثلث الشكل ، وانتعل جزمة طيار الماني صنعت من جلد اصفر اللون خالطته خطوط من فرو . وكان سباروف قد شعر من اللهجة التي سأله بها الجندي حينما قال : « هل اوقظ كونيوكوف ؟ » ورأى كيف ان الجندي لايريد انيتحمل مسؤولية هذا القرار بنفسه ، وكيف ان انضباطا شديدا يسود الحامية بالرغم من نوم « كونيوكوف » فادرك ان كونيوكوف قد أمسى خلال الايام القليلة الماضية شخصية مرموقة نافذة الاثر ، واسترسل سباروف :

ــ لم ارك منذ زمن طويل يا كونيوكوف ، ولقد جئت لارى كيف تسير الامــور عنــدك .

فأجاب كونيوكوف :

ــ انا نعيش حياة جد ممتازة ايها الرفيق النقيب .

ــ قل لهم ان يأتونا بمقعد مستطيل يضعونه بالقرب من الموقد ، فانا احس بتجمد جسدي ، واريد ان اتحدث اليك .

ــ الا تريدني ان اوقظ الرجال ؟

ــ فرد سباروف :

ـ كلا ، لماذا توقظهم ، فهم ربما كانوا متعبين .

ـ هذا هو الواقع ، انهم متعبون .

ـ هل هؤلاء هم كل مالديك من رجال ؟

فرد كونيوكوف :

ـ أبدا ان من تراهم هم نصف ماعندي ، اما النصف الثاني فهم في مراكزهم فنحن نتناوب القتال ، طالما لايشن هجوم علينا .

ـ واذا ماشننت هجمة عليكم ؟

ـ عندئذ نحتل جميعا المراكز المعينة لنا تمشيا والاوامر .

ثم صاح كونيوكوف :

ـ انطونوف هيا وائتنا بمقعد الى قرب الموقد .

ـ أمــرك !

لم يستطع انطونوف ان يجد المقعد المطلوب فاحضر مقعدي سيارة ووضعهما على بعد جد قليل من المدفأة ، ثم اخذ يطعمها خشبا ، فجلس سباروف وهــو يقــول :

ـ حسنا فعلت ، اجلس ياكونيوكوف !

جلس كونيوكوف الى جانب النقيب ، وقد استطاع بالرغم من طراحــة السيارة ان يبقى منتصب الهيئة في جلسته ، وبادره سباروف :

ـ اذن فانت وحيد ومحاصر هنا .

ـ تماما ! وهذا هو يومنا الثالث ، ولقد تخلفت هنا عقب ان قتل آمــر السرية ، وبالامس ارسلوا الينا امرا يقضي بجعل سريتنا حظيرة وعهدوا الــي بامرتهــا .

ـ كم هو عدد جنود حظيرتك ؟

فأجاب كونيوكوف :

ـ اننا هذه اللحظة خمسة عشر رجلا بما فيهم انا .

ــ وكم كان عددكم من قبل ؟

ــ كنا سبعة عشر ، وقد فقدنا امس واليوم رجلين ، فقدناهما بسبب موتهما ، وهذا يعني انهما قتلا .

على هذه الشاكلة كان كونيوكوف يشرح لرئيسه ، وذلك عندما ادرك انه هو نفسه لم يعد يفهم لغته العسكرية الرسمية ، وعاد سباروف يسأله :

ــ كيف وزعت جنودك ؟

فأجاب كونيوكوف :

ــ اسمح لي بتقديم تقريري ايها الرفيق النقيب ،وهو على الشكل التالي : نهارا يضطجع اربعة رجال ورشاشاتهم طيلة الوقت وراء النافذة ، واجلست في كل جانب من جانبهم رجلا في خندق ، كي لا امكن الالمان من الالتفاف حولنا وقد حفرت الخنادق حفرا حسنا ، وهناك درب يقود مباشرة من السرداب الى الخنادق ، كي لايصيبوا اي جندي منا برأسه اذا ماكان يزحف الى الخندق . هل ترى تلك الثغرة هناك ؟ ان فيها رجلين يراقبان طيلة الوقت من الطابق الاول . وهما يراقبان اماما ، كي نمنع أي الماني من التقدم نحونا . طبعا انهما يكادان يكونان مكشوفين ، لكننا قد اقمنا لهما نوعا من متراس . فلقد نقلنا الى هناك برج دبابة وموهناه بالآجر ، وامس لاقى مكسيموف مصرعه هناك .

الا تعرفه ؟

ــ اعتقد بأنني اعرفه .

ــ لقد كان احمر الشعر ، وكان في مجموعتي ، وامس قتل ، واطلب الى الله ان يكون رفيقا به . لقد رتبنا كل شيء على اكمل وجه ، وتستطيع ان تتأكد من ذلك بنفسك ايها الرفيق النقيب .

فاجاب سباروف :

ــ طبعا سأتأكد مما تقول .

ــ طالما انت جالس هنا ، الا ترغب في أن تذوق شيئا من البطاطا ، انها متجمدة لكنها اشهى طعما في حالها هذه .

ــ من اين جئتم بالبطاطا ؟

ـ لقد انحدرنا ليلة الامس الى القبو حيث كانت تسكن المراة التي قتلت واطفالها . . هل تتذكر ؟

ـ اذكر .

ـ لقد تسللنا منحدرين اليه ، وتسللت انا بنفسي ، فشاهدت ان الانفجار قد دمر كل شيء فيها وجئت بنصف كيس من البطاطا . . الا تحب البطاطا المتجمدة ؟

فأجاب سباروف :

ـ ولماذا لا احبها ؟! انني اشتهيها .

ـ حسنا ، لدينا شيء جاهز منها الان .

ثم استدار كونيوكوف الى انطونوف وقال :

ـ اقلب البطاطا يا انطونوف ! فانت لا تستطيع قليها على وجهها الواحد . . مهلا سأقليها بنفسي .

قال هذا ووقف واستل سكينا طويلا من حزامه واخذ يحرك البطاطا في المقلاة ثم استرسل يخاطب سباروف :

ـ ان تدبيرنا المنزلي جد دقيق هنا ايها الرفيق النقيب ، وانا احب ان ارى كل شيء منتظما ، وفي مكانه .

وبعد ان انتهى من قلي البطاطا تقدم يحمل المقلاة الى النقيب ووضعها على الارض امامه وهو يقول :

ـ ذق هذه البطاطا ، وهاك هذه السكين الصغيرة ، فليس لدينا شوك الان .

تناول سباروف السكين وحرق فمه ببضعة شرائح من البطاطا وقد وجدها ذا طعم شهي خاص ، وذلك لانه لم يذق البطاطا منذ زمن طويل . وكان كونيوكوف يعلق « مطارة » المانية مليئة بالفودكا ، تترنح وتتأرجح من حزامه عند كل خطوة يخطوها او حركة يأتيها وقد رغب في ان يعرض على النقيب قدحا من الشراب ، لكن رغبته هذه تراجعت امام الانضباط ، اذ أنه قرر بينه وبين نفسه ان رئيسه يعرف متى يحق له ان يشرب ، ومتى يتوجب عليه الا يشرب وبادره سباروف سائلا :

ـ لماذا لاتأكل ؟

ـ تابع اكلك وسنأكل فيما بعد .

فالتهم سباروف شرائح قليلة اخرى من البطاطا في المقلاة ، ثم دفع بها الى كونيوكوف الذي استدعى احد الجنود اليه وقال :

ـ اذهب وايقظ الجنود فطعام العشاء قد أعد .

ووقف سباروف وهو يقول :

ـ حسنا ! اذن لنذهب لتفقد مراكزك طالما هم يتناولون طعامهم .

ـ حاضر ، من هنا الطريق .

ـ سار كونيوكوف بسباروف الى سلم النجاة « من الحرائق » وتوقف وراء النقيب قليلا واخذ يوجه الى الجندي الحارس نوعا من لغة اشارات عنيفة ،طلب فيها اليه انه يريد حال عودته والنقيب ان يرى كل جندي من جنود الحامية انيق الهندام عسكري المظهر ، كي يرفع بهم راسه كبرا امام سباروف .

تسلقا سلم النجاة ، وكان هذا السلم فيما مضى يرتفع ليبلغ الطابق السادس او السابع من البناية ، اما الان فلم تبق منه سوى هتامة لاتتجاوز ست او سبع درجات ، ماكادا يتسلقانها ويبلغان مستوى الطابق الاول حتى وجدا نفسيهما في الهواء الطلق ، يلفهما ظلام كثيف ويتجاذبهما زمهرير الجليد . وبادر كونيوكوف يهمس الى النقيب :

ـ فلتخف نفسك وراء السور ايها الرفيق النقيب !

وعقب ان قطعا عشر خطوات تقريبا وجدا نفسيهما وجها لوجه .والحارس على زاوية الجدار ، وكان هذا ينبطح وراء كومة من الانقاض غرست في قمتها لوحان حديديان وضعت عليهما اكياس ملئت بالرمل او الاسمنت ، وقد وفرت اكياس مماثلة الحماية للحارس وقد وضعت الى جانبيه ، وهمس سباروف مناديا:

ـ كونيوكوف !

ـ ها انا .

ـ ماذا تـرى ؟

ـ لا استطيع ان ارى شيئا ، انها شديدة البرد قليلا .

فاجاب سباروف :

ـ احس بالصقيع يجتاحني اجتياحا .

فرد كونيوكوف :

ـ فلتصبر قليلا ايها الرفيق النقيب ، فعما قريب سنبدل الحرس ، وعندما يحضر المناوبون فعندئذ سأطلب اليهم ان يقلوا لك شيئا من البطاطا ، فانت اليوم رئيس الطباخين هنا ، ولك ان تنتقي وتختار ماتشاء من الوان الاطعمة .

فأجابه سباروف :

ـ اذهب بي الى موقد ، وسأطبخ انا لك بنفسي ماتريد فالبرد هنا شديد .

ـ اذن فتابع المراقبة ، هل لديك اية اوامر ايها الرفيق النقيب ؟

ـ ابـدا .

زحفا بالطريقة ذاتها الى نقطة المراقبة الثانية التي كانت تتألف من بـرج دبابة وضع على الحائط الممتد بين الركام وحطام الابنية ، وكانت فوهة البـرج العلوية مفتوحة ، وكان يقف فيها جندي ، وقفة تخفي كل جسده ماعدا رأسه وبادر كونيوكوف يقول :

ـ انه برج قوي ، وبارد كالجليد ، والبرد داخله شديد ، ولا شك انه لامر وحشي أن يعمل الانسان في الدبابة ايام الحرب .

فرد سباروف موافقا :

ـ نعم انها شديدة البرد .

ـ اننا نضع داخلها طراحات ونفرشه بالبطانيات كي يتمكن المرء من الجلوس فيه ، ولكن كيف ستكون الحال فيه في الشتاء ؟ في شهر كانون الثاني او شباط؟ لاشك انها ستكون حالا مرعبة في صقيعها . وكيف يستطيع أي امرىء ان يجلس آنذاك في هذا البرج ؟ علينا عندئذ ان نعطي الجندي المناوب ضعف سهمه من الفودكـا .

كان كونيوكوف يتحدث عن برج الدبابة كأنه يؤمن بان اقامته فيه وحرسه

ستكون اقامة دائمة ، وكأنهم سيبقون فيه حتى في شهري كانون الثاني وشباط، واستطرد كونيوكوف يقول :

ــ ولكن عندما يحل الربيع فستتحسن الحال هنا ، وسيشيع بعض الدفء فيه .. ياجافريلنكو ! اترى شيئا ؟

ــ سمعت بعض لغط وضوضاء هناك ، لكنهم قد صمتوا الان .

ــ حسنا ! تابع مراقبتك !

ثم التفت الى سباروف وسأله :

ــ هل لديك اية اوامر ايها الرفيق النقيب ؟

ــ ابـدا .

وبعدها قاما بتفقد مركزي مراقبة اخرين اقيما على جانبي البناية وعـادا ثانية الى السرداب ، ليجد سباروف أن ايماءات كونيوكوف الصارمة قد نفذت بحذافيرها ، اذ شاهد ان كل جندي قد شد بحزامه حول خصريه ، واتخذ لـه مظهر الصنديد ، حتى بالرغم من بزته الخلقة قليلا ، كما هي جميع بزات الجنود في ستالينغراد .

دخل كونيوكوف السرداب وسباروف وأتى حركة بدت كأنه يبحث عن احد الجنود بعينيه ، وقفز احد الجنود وتوقف على بعد قصير من النقيب وقال متحمسا :

ــ ايها الرفيق النقيب ، ان كل جندي من جنود الحظيرة يتنـاول الان طعامـه .

ــ تابعوا تناول طعامكم ! كلوا !

ثم التفت الى كونيوكوف وقال سائلا :

ــ اعتقد بانهم سيبدلون الحرس الان ؟

تقدما الى الطراحات التي خلت الان من جلاسها وجلسا ، واخذا يتحدثان عن مختلف المواضيع التي تستأثر باهتمام سباروف . وكانت هذه المواضيع تدور مثلا ، عن عدد العيارات النارية التي لاتزال متوفرة لدى سباروف ، وعـن

المكان الذي خزنها فيه ، وهل خزنها في اماكن مختلفة ام في مكان واحد ، وكم يوما تكفيه ميرته اذا كان أمسى من المستحيل ان يمدوهم بالمؤن ليلا لمدة ايام، وفجاة سمعا اصوات ثلاثة عيارات نارية تمر من فوقهما فصرخ كونيوكوف بجنوده :

ـ اسرعوا الى مراكزكم !... انه سيدوروف وهو ينذرنا .

ثم التفت الى سباروف وسأله :

ـ ماذا ترى ايها الرفيق النقيب ؟ هل تريد ان ترافقني ، او ترغب في البقاء هنا ؟

ـ سأرافقك .

فتسلقا ثانية سلم النجاة وانبطحا والجندي في المتراس المشيد من الاجر واكياس الاسمنت ، واستمرت الهجمة الليلية لمدة ساعة ، وكان الالمان خلالها يحاولون بلوغ البناية من مختلف الجهات وبمجموعات تتألف من ثلاثة او خمسة او عشرة رجال ، وامطروا بقايا جدار البناية بوابل من رصاص اسلحتهم الاتوماتيكية ، وكانت تصفر انا هنا ، وحينا هناك ، بعض الرصاصات بالقرب من آذانهم ، وقد وقعت بضعة قنابل يدوية بالقرب من الجدار فنخرته شظاياها نخرا ، ولكن عندما فقد الالمان اخيرا بعض القتلى ، انسحبوا خجلين خجلهم الدائم الذي ينتابهم اثناء القتال الليلي ،فران الصمت من جديد ، وانحدر سباروف ثانية الى السرداب بعد ان زود كونيوكوف ببعض التعليمات للمستقبل . وكان النور اثناء ذلك يتسلل بطلائعه حزمة فحزمة ، ولما كان سباروف قد عقد العزم على العودة الى الكتيبة ، لذلك انطلق وبطيرس ،لكنهما ماكاد يبلغان الجدار الصغير المنخفض ويأخذان بالزحف قليلا حتى صب عليهما مدفع رشاش نيرانه ، وبدات عياراته تئز من فوقهما وتثرثر امامهما ، فسمرتهما الى الارض تسميرا ، واخيرا لم يجدا من سبيل امامهما الا النكوص على اعقابهما راجعين الى ماوراء الجدار، ليجدا كونيوكوف يسارع الى استقبالهما وهو يقول :

ـ اعتقد بانك ستضطر لامضاء النهار معي ، فطالما قد أحسوا بك هناك، فانهم سيمطرون ذاك المكان برصاصهم حتى الليل ، ومن الافضل لك ان تبقى معي ، هذا ما شاءه لك حظك وقدرك .

لم يبد سباروف شديد اعتراض ، فهو عندما تمعن في الامر بروية وجد

كونيوكوف محقا فيما ذهب اليه ، فقرر ان يبقى حيث هو حتى الليل . وقد قام اثناء النهار بدراسة وضع كونيوكوف دراسة مفصلة واصدر امره بنقل احد المدافع الرشاشة الى مركز افضل ، وكان كل شيء ماعدا هذا منتظما ، كما وتسلق عدة مرات الى الطابق الاول الذي اسماه كونيوكوف « ببرجه للمراقبة » كي يراقب الالمان . وقد ساد هذا النهار بالذات هدوء نسبي ، وعلى الاقل امام بناية كونيوكوف ، ولكن ماكاد النهار يشرف على نهايته حتى قصفهم الالمان في الساعة الرابعة ، ببضعة قنابل ثقيلة اطلقتها مدافع المورتر ، وتجاوزوهم بقصفهم الى القطاع الذي تعسكر فيه السرايا الاخرى ، وبعد هذا القصف ، انطلق الالمان مهاجمين بثلاثة مجموعات ، واخذوا يشقون طريقهم متجهين نحو مركز قيادة السرية المتمركزة في الجناح الايمن ، فاتضحت لسباروف فورا اهمية بناية كونيوكوف ، فمن هذا المركز ، او بالاحرى من مركز المراقبة الواقع في الطابق الاول يستطيع المرء ان يرى الشيء الكثير ، وذلك اذا لم نقل كل شيء ، فعندما قفز الالمان من مخابئهم الواقعة في خنادق المواصلات واندفعوا الى منطقة غير مكشوفة للكتيبة اندفاع يائس ، كانوا مكشوفين لسباروف ، وهكذا وجدت كونيوكوف ينبطح وراء رشاشه في مركز المراقبة ويصليهم نارا حامية ، فاخذت الاشكال السوداء التي كانت تقفز من وراء كومة من الانقاض الى وراء اخرى تتساقط صرعى على الثلج الابيض . ونسي كونيوكوف في اوار المعركة احترامه المعتاد لرؤسائه ، فالتفت الى سباروف بوجه مزهو وغمز له بجفنيه ، ثم تبجح قليلا ، واخذ يقرقر بلسانه .

كانت الساعة تشير الى الرابعة تماما ، وسباروف يذكر ذلك ، لانه كان في تلك اللحظة ينظر الى ساعته ، عندما استنتج سباروف من اصوات المعركة ، ان الالمان قداقتحموا مركز قيادة الكتيبة ، وعقب دقيقة واحدة من صمت متوعد مهدد ، سمع النقيب اصوات انفجار خمس او ست قنابل يدوية ، احس اثرها بشعور ثقيل مقبض للنفس فاخذ يحاول ان يهزه عنه ، لقد كان هذا الشعور مزيجا من قلق ولهفة وتطير لم يستطع ان يحدده . وعندما انتاب هذا الشعور سباروف لاول مرة في ستالينغراد ، رده آنذاك الى اعصابه المرهقة ، لكنه الان ، عندما ترامى اليه المزيد من اصوات انفجارات القنابل اليدوية ، وهو لايزال فريسة لهذا الشعور ، بدأ يقلق حقا ، فنحى كونيوكوف جانبا وانبطح بنفسه بجسده وراء المدفع الرشاش ، وبعدانتظار بارد يتعمد القتل ، اخذ يطلق رشاشه شحنة اثر شحنة على الالمان المتراجعين ، وهذا مما اعاد اليه نفسه قليلا ، لكن احساسه

بالقلق لم يفارقه . فرغب رغبة شديدة في العودة الى مركز قيادته ، مع انه لم يعد يسمع لانفجارات القنابل اليدوية صوتا ، زد على ذلك انه يرى الالمان يزحفون القهقرى ، وهذا كاف ليستنتج منه انه حتى ولو ان الالمان قداقتحموا مركز قيادة الكتيبة، فهجومهم لا شك قد صد. وعقب مضي نصف ساعة من الزمن عاد الهدوء يخيم من جديد ، وذلك اذا ما استثنينا بعض قنابل كانت تطير فـــوق البناية لتنقض وتنفجر وراءها . وفي الساعة السادسة مساء ، أزاح سباروف الستار المعلق على الباب ، فشاهد المساء يصبغ السماء بلون ازرق قاتم فبادر يقــول :

ــ آن لي ان اعود .

فأجابه كونيوكوف :

ــ مهلا ايها الرفيق النقيب ! فلتنتظر عشر دقائق اخرى ، يسود بعدهـــا الظلام ، وعندئذ تستطيع العودة .

ــ حسنا سأنتظر !

ثم تذكر وقال :

ــ ذاك الوسام ، وسام النجم الاحمر ، الذي منحته ، سآتي به في المــرة القادمة اليك ، وسأرسل بطلبه من قيادة الفرقة فوز وصولي .

فأجاب كونيوكوف مبتهجا :

ــ شكرا ! شكرا جزيلا لك ، سأكون عميق الامتنان لك !

فسأله سباروف :

ــ لماذا ؟ هل انت مسرور بالحصول على وسام ؟

ــ من لايسر بمثل هذا الامر ؟ ان الرجل الغبي وحده لايسر به ، وانا لــي عزتي وكبريائي يا الكسي ايفانوفيتش .

كانت هذه هي اول مــرة يخاطــب فيها كونيوكوف رئيســه « بالكسي ايفانوفيتش » وقد استرسل يقول :

ــ من يدري فقد تراني في مكان ما بعدانتهاء الحرب ، وعندئذ ستقول :

انظروا ذاك هو كونيوكوف ! هل تعلم ؟ سأتزوج بعد الحرب ثانية ، فلقد ترملت من جديد ... ربما ترغب في لفافة ؟ يا الكسي ايفانوفيتش .

قال كونيوكوف هذا ثم اخرج علبة صغيرة من جيبه ، وبدا واضحا ان كونيوكوف يسلك الان ازاء رئيسه سلوك صديق ، وذلك لانهما تحدثا معا لاول مرة عما لهما من آمال عقب الحرب ، وذلك حينما يعود كلاهما الى الحياة المدنية، فيخاطب سباروف بهذه اللهجة ويناديه بالكسي ايفانوفيتش ، هذا اذا ما قدر لهما ان يلتقيا يومذاك .

في اللحظة ذاتها التي سمع سباروف انفجارات القنابل اليدوية في مركز قيادة كتيبته الواقع وراءه ، وحينما احس بذاك الشعور يعتصر حشاشته اعتصارا ، هذا الشعور الذي حاول ان ينحيه عنه ، في هذه اللحظة بالذات اسفر مركب من الظروف المختلفة عن اعظم كارثة كان يمكن لخياله ان يتوقعها. لقد كان هذا اليوم ، الذي كانت تلك اللحظة احدى بناته ، هو اليوم الذي مل فيه الالمان من هجماتهم الفاشلة على كلتا السريتين ، فقرروا ان يمسكوا بالثور من قرنيه . ودون ما توقع ، وعقب قصف قصير قامت به مدفعية المورتر الثقيلة ، تمكن الالمان من التسلل من بين الخرائب ، وانطلقوا يعدون مكشوفين، ودون ان يلتمسوا حماية من اكوام الانقاض والقوا بأنفسهم على مركز قيادة الكتيبة ، وكانت هذه اللحظة ، هي اللحظة التي سادها ذاك الصمت المريب . وبينما كان الالمان يتراكضون نحو مركز قيادة الكتيبة ، كان مسلنكوف وحده في المركز ، وكان قد دخل لتوه ليتصل هاتفيا بقيادة الفوج ، وكان هناك جنديان ينبطحان وراء مدفعين رشاشين نصبا على مدخل الخندق ، وثلاثة او اربعة جنود من سلاح الاشارة يجلسون في خنادقهم ، وحدث في هذه اللحظة ان كانت آنيا تضمد ذراع احدهم ، وعندما اطل الالمان عليهم ، تمهل رماة الرشاشين لبرهة ، اذ ان احزمة الرصاص كانت قد فرغت ، فتمكن بعض الالمان من تخطي الرماة الذين سمروا عقب ثوان من تبع اولئك ارضا ، وقد تمكن هؤلاء الذين تجاوزوا الرشاشات من الانبطاح وقذف الخندق وخنادق سلاح الاشارة وراءه بعدة قنابل يدوية . ولم تفقه آنيا في البدء شيئا ، اذ انها سمعت فقط اصوات الانفجارات ورأت كيف يقف الجندي الناحل الذي كانت تضمد جراحه، وقفة متداعية امامها ، ثم ينطرح فجأة على ظهره ارضا ، اذ صرعته شظية من قنبلة. فانحنت آنيا ، فجذبها لحظة انحنائها احد جنود الاشارة جذبا عنيفا القى بها في قعر الخندق ، وعندما فتحت عينيها ثانية شاهدت ان الجندي قد رفع

بجسده وامسك برشيشه .واخذ يطلقه على الالمان اطلاقا غزيرا ، وكانت آنيا حين سقوطها قد صدمت وجهها بشيء ما صلب قاس ، فعرفت في ذاك الشيء رشيش الجندي القتيل ، فتناولته واسندته الى حاجز الخندق واخذت تطلق النار اطلاقا اعمى وهي منتصبة القامة الى جانب غيرها من الجنود . ثم شاهدت مسلنكوف يقفز من الخندق يسرة منها ويعدو اماما ، وينزع كالطفل الصغير قنابل يدوية صغيرة من حزامه ويرمي بها قنبلة اثر اخرى امامه . ثم اخذ المدفع الرشاش يعوي ثانية ، واخذ احدهم يزعق بلغة غير مفهومة ، فالقى الجندي بجسده الى قاع الخندق وحذت آنيا حذوه ، .وسمعت فوقها مباشرة اصوات ثلاثة او اربعة انفجارات ثقيلة ، فنهض جندي الاشارة ثانية وبدأ يطلق النار ، وتحققت آنيا من انها عاجزة عن اطلاق النار ، وذلك بسبب استنزافها لما في مدخر رشيشها من رصاص ، فأخذت تبحث حولها مؤملة في ان تجد مدخرا ثانيا ، فشاهدت احدها على بعد خطوتين منها ، مغروسا في حزام الجندي القتيل ، فعبرت الخندق بخطى سريعة وانحنت فوق القتيل ونزعت المدخر من حزامه ، ورأت وهي تتطلع حولها مسلنكوف قد قفز من الخندق واخذ يرمي بالقنابل اليدوية ، ويرسل بصراخ .وزعيق . فأعجبت بشجاعته وعادت الى حيث تركت رشيشها . وعندما انحنت لتلتقطه تقوس شيء ما فوق رأسها ووقع في الخندق ، فرأت ان ذاك الشيء الذي سقط بينها وبين الجندي الذي كان لا يزال يطلق النار ، هو قنبلة يدوية المانية ، وكان قد سبق لآنيا ان شاهدت الكثير منها ، وهي قنبلة لا تختلف في شكلها عن قنابلها الا بممسكها الخشبي الطويل ، ففكرت فجأة كيف ان لهذه القنبلة شكل الدوامة (البلبل) ثم رأت الجندي يلقي برشيشه في قعر الخندق ويرتمي فوقه ، ومع أن آنيا كانت خائفة .مرعوبة ، لكنها لم تفكر بسلامتها ، بل انما فكرت كيف أن هذه القنبلة ستقتل الجندي ، فتذكرت انها سمعت او قرأت ان عليها في مثل هذه الحال ان تلتقط القنبلة وترمي بها ، فخطت الخطوتين او الثلاثة التي تفصلها عن القنبلة وأمسكت بها من ممسكها الخشبي ، واحست بطول الممسك ودقته، وفي اللحظة ذاتها التي اعتقدت فيها بانها تستطيع ان تلقي بالقنبلة بعيدا بسبب ممسكها الطويل ، انفجرت القنبلة في يدها وسقطت آنيا في قاع الخندق فاقدة الوعي ، بعد ان تبخر من رأسها كل فكر وتفكير . ولم يترك احتدام القتال مسلنكوف يلحظ ما يدور حوله فلقد كان يقذف الالمان بقنابله مائجا هائجا ، وكان قد اعدها زبرا امام الخندق ، ولقد قذفهم على الاقل بخمس عشرة قنبلة

منها ، الواحدة اثر الاخرى ، وذلك قبل ان يسارع بعض جنود الرشيشات، الذين كانوا يسمعون جلبة القتال وضوضاءه ، لكنهم يجهلون بخطورة الحال في مركز القيادة، اقول: قبل ان يسارع اولئك الجنود من الجناح ويوقف الالمان الذين اقتحموا الخندق بسهولة نسبية ثم يرغمونهم على التراجع . وعندما قفز مسلنكوف عائدا الى الخندق شاهد آنيا تضطجع بين جنديين قتيلين ، فالجندي الثاني الذي القى برشيشه الى قاع الخندق والقى بنفسه فوقه قد صرع ايضا، وكانت آنيا فاقدة الحراك تضغط بخدها على جدار الخندق بصورة غريبة وتقبض بيدها على قطعة من ممسك خشبي ، التي لم تلق به حتى بعد انفجار القنبلة ، فانحنى مسلنكوف عليها ثم ركع الى جانبها واخرج منديلا من جيبه واخذ يمسح الدماء عن وجهها ، وشاهد الدم ينبجس من جرح في جبهتها يلتصق مباشرة بشعرها ، فأخذ يناديها عدة مرات باسمها ، لكنها لم تجب مع انها كانت لا تزال تتنفس انفاسا ضعيفة . ورأى ان بزتها قد تمزقت في عدة مواضع ومزقت كليا عند كتفها وفوق صدرها . فلقد القت يد المصادفة المجردة بالقنبلة لتنفجر في اتجاه الجندي الذي كان قد قذف بنفسه الى قاع الخندق، ولتجعل شظاياها جسده كالمنخل ، بينما لم يصب الا القليل من الشظايا آنيا اذ إصابتها احداها في جبهتها وشظيتين غير تلك في صدرها وكتفها . وكان الثلج يتساقط آنذاك ضنينا فوق وجه آنيا وفوق معطفها ، وفوق رأس مسلنكوف العاري ، الذي كان قد خلع عمرته وهو ينحني عليها . وكان لا يزال راكعا الى جانبها ويردد اسمها مرارا وتكرارا ، ويشعر بحزن لا يوصف ينهش كبده نهشا . وكان باستطاعته ان يبقى الى جانبها دقيقة ولربما خمسا ، ومع هذا لن يعرف ما يتوجب عليه عمله ازاءها ، ولكن استجابة منه لرغبة غريزية في داخله ، وجدته يضع بذراعيه تحت جسد آنيا ويرفع بها ، وهنا بدأ رأسها يترنح ويتأرجح ، فأشاعت حركاتها غير المنضبطة الرعب في فؤاده . فحملها سائرا بمحاذاة الخندق ، ثم تسلق بحمله حاجزه وخطا بضعة خطوات على سطحه ، ثم انحدر ثانية لينصب في ممر خنادق المواصلات الذي افضى به اخيرا الى مركز قيادة الكتيبة وهو لما يزال يحمل آنيا بين ذراعيه . فوضعها على السرير ، السرير ذاته الذي نامت عليه في الليلة السابقة عندما القى قذف التعب بها عليه ، ولاحظ لاول مرة ان حقيبتها الضخمة للاسعاف الاولي لا تزال معلقة بكتفها ، لقد كانت هذه الحقيبة هي تلك التي جعلت فانين يسألها عما اذا كانت تحمل فيها كل ما لها من متاع ، وكانت آنيا قد اجابته حينذاك قائلة نعم

انها تضم كل متاعي .

نزع مسلنكوف الحقيبة من كتفها ورفع رأسها ووسده الى الحقيبة ، ثم تراجع بضعة خطوات وهو لا يزال يحملق في آنيا ، والتقط الهاتف وطلب رئيس اركان الفوج ، واعلمه بان لديه قتلى وجرحى ، وان المساعدة الصحية أصيبت بجراح خطيرة ايضا ، وانه بحاجة الى طبيب ، ومساعدة صحية ايضا ، اذا كان هذا الامر ممكنا . وقد وعده رئيس اركان الفوج بارسال المساعدة ، فأعاد سماعة الهاتف الى موضعها وخرج من الخندق ليصدر اوامره لرد اية هجمة محتملة . لكن الالمان لم يعاودوا هجماتهم ، فعاد مسلنكوف الى الخندق وجلس الي جانب آنيا ، وعندما تطلع اليها الفى الجرح في جبهتها ينزف دما يسيل على خديها ويغمر كل وجهها . فجلس يفكر باللاشيء ، لقد كان ينتظر وصول طبيب او ممرضة .

عاد مسلنكوف يحدق في وجه آنيا فوجده هادئا شديد البياض ، ولولا الدماء التي كانت تنزف من جبهتها والبقع السوداء التي تلطخ بزتها لبدت انهـا تغط في سبات عميق . لكن هذا الهدوء وضيق الجراح قد ارعبا مسلنكوف الذي سبق أن شاهد جراحا راعفة عريضة طويلة عميقة يبل منها المرء ويبرأ ، لكن مثل هذه الجراح الصغيرة الغامضة كثيرا ما تقتل الانسان وتصرعه .

بقي مسلنكوف جالسا الى جانبها ، كأن في جلوسه اليها ، اسعافا لهـا وضمادا ، وكان يمسح بين الفينة والاخرى نقاط الدم عن جبهتها ووجههـا . واخذ يفكر بعودة سباروف ، وبكيفية انبائه بالامر ، ثم تذكر هدية كان قد ارسل بها اليه وزير الدفاع بمناسبة الاحتفال بذكرى السابع من نوفمبر ، وذكر انها لا تزال في حقيبته . وكانت الهـدية تتألف مـن بضعـة الواح من الشيكولا والبسكويت ومسحوق الحليب الجاف واشياء قليلة اخرى غيرها . ولم يكن مسلنكوف قد مس شيئا منها لانه اراد ان يقدمها هدية الى سباروف وآنيـا في حفل زفافهما . وفجأة راى خاطره يعود به الى التفكير بما يتوجب عليه ان يقوله لسباروف ، وفجأة لمح في ذهنه خاطر يقول : « قد يمر كل شيء بسلام، وقد ينتهي الى ما نريد». ثم اخذ يصغي ثانية الى انفاس آنيا ، فألفاها ضعيفة فهي تتخاطفها واهنة تعبـة ، فخيل اليه انهـا قـد تموت ، لا بل قنع من انها ستموت ، ومن يدري فقد ينقض الحمام عليها كل لحظة ، وقد يخطفهـا حتى قبل وصول الطبيب .

احس وهو جالس صامتا اليها بوطأة حمل هائل ، جعله يفكر بالالمان ثانية ويتمنى ان يعاودوا هجمتهم ، كي يتمكن من نسيان كل هذا ، فينطلق خارجا رشيشه بيده ويبدأ باطلاق النار . لكن الالمان كانوا هادئين هدوءا غريبا كأنهم يتعمدون اغاظة مسلنكوف ، لذلك وجدت مسلنكوف يقول بينه وبين نفسه :

« انهم دائما يقومون بأعمالهم في الاوقات غير المناسبة » . وقد اضاف عدم هجوم الالمان عليهم في الوقت الذي يرغب هو في قتالهم ، حقدا الى حقده على الالمان . لقد جعله يكرههم اشد فأشد . اما آنيا فكانت دماؤها لا تزال تسيل من جبهتها وكان هو يثابر على مسحها حتى احس اخيرا بمنديله متشبعا بالدم ، فألقى به جانبا ومد بيده الى تحت السرير وجلب حقيبته واخذ يبحث فيها حتى عثر على منديل آخر نظيف ، وعندما انتصب واقفا شاهد الطبيب يدخل عليه فبادره هذا سائلا :

ـ اين جرحاك ؟

فأشار مسلنكوف الى آنيا وقال :

ـ ها هم .

ـ انها كليمنكو !

قال الطبيب هذا ثم شمر عن ساعده حتى الرسغ وجس نبضها وهو ينظر الى ساعته ويأتي حركات اذهلت مسلنكوف ببروده المحترف . ثم حل حزام آنيا وقص بزتها من عند كتفها كي يتمكن من فحص جراحها ، وقد جعله جرح صدرها يقطب وجهه ويتجهم ، فضمدها بسرعة وتطلع الى عيني مسلنكوف القصيرتي النظر والمتجهمتين وقال :

ـ يجب ان ننقلها فورا من هنا !

فأجابه مسلنكوف :

ـ ماذا ؟ كيف حالها ؟

ـ سنتمكن من معرفتها على طاولة العمليات معرفة دقيقة .

وبعد ان فاه الطبيب بهذا استدعى حمالي النقالة فدخلا الخندق وسأل الطبيب مسلنكوف :

ـ الديك جرحى آخرون ؟

ـ كلا .

ـ وانت ؟

فرد مسلنكوف :

ـ وانا ، ما بي ؟

ـ انك جريح ايضا !

ـ اين ؟

ـ هناك في راسك .

ففرك مسلنكوف راسه ، وعندما أنزل يده وجد راحته قد امست حمراء لزجة فقال :

ـ حسنا ، انه مجرد خدش بسيط .

لم يصف مسلنكوف جرحه بهذا الوصف ، لانه كان شجاعا بل لانه لـم يحس بأي الم .واستدعاه الطبيب اليه قائلا :

ـ هيا تقدم مني ! تقدم .

فتقدم مسلنكوف من الطبيب الذي اخرج زجاجة مليئة بالكحول من جيبه وبلل قطنه منها ثم مسح بها جبهة مسلنكوف وصدغه وهو يقول :

ـ صدقت ، انـه مجرد خدش بسيط . هـل لديكم مضمد صحي في كتيبتكم ؟

ـ نعم يجب ان يكون لدينا احدهم .

ـ اذن دعه يضمد جرحك والا تلوث .

كان الحمالان في هذه الاثناء قد وضعا آنيـا على النقالة ، ووقفا ينتظران الطبيب ، والنقالة موضوعة امامهما على الارض ، وقد بدا عملهما هذا لمسلنكوف عملا فظا ومهينا مع انه سبق له ان شاهد احيانا عشرات الجرحى موضوعين على الارض ، لكنه لم يحب أن يرى آنيا ممددة عنـد قدميـه ، على الارض وهكذا

وجدته يخاطب الطبيب الذي كان يتسكع قليلا ويقول بصوت خالطته رنة غضب: ـ

ـ اذن هذا كل شيء ؟!

فأجاب الطبيب :

ـ نعم !

ثم اردف يخاطب حمالي النقالات :

ـ هيا بنا فلننطلق !

وعندما التقط الحمالان النقالة ، شاهد مسلنكوف ذراع آنيا يسترخي متدليا من جانب النقالة ، وقد اعاده احد الحمالين الى وضعه وسار مسلنكوف وراء الطبيب، وكان الحمالان قد انعطفا زاوية الخندق ، لذلك لم يستطع مسلنكوف ان يرى سوى ظهر احدهما ، فوقف لعدة دقائق يحملق فيهما حملقة بليدة ويراقبهما وهما يغيبان بحملهما عن عينيه ، وفجاة ، سمع زخة رشيش تنطلق على مقربة جد وثيقة منه ، فغمره شعور من الارتياح ، اذ خيل اليه ان شيئا ما قد بدأ، وانه لن يتوجب عليه ان يفكر باي امر ما عدا العدو واصدار الاوامر واطلاق النار ، وهكذا وجدته يقفز محمولا على اكف هذه الفكرة من الخندق الى الخندق المجاور ويلقي بنفسه الى جانب رامي المدفع الرشاش الذي كان قد بدأ منذ هنيهة يصلي الالمان المهاجمين بحممه .

-٢٣-

عاد سباروف الى مركز قيادته حالما اظلم الليل ليجد مسلنكوف وحيدا فيه وجالسا وراء مكتبه يكتب تقريرا . وشاهده قد ضمد راسه باهمال ورأى بقعة من الضماد قد تشبعت بالدم فبادره سائلا :

ـ ما بك ؟ هل انت جريح ؟

فأجاب مسلنكوف :

ـ انه مجرد خدش بسيط .

ـ اين فانين ؟

ـ لقد ذهب الى قيادة الفوج ليقدم نفسه الى قائدنا الجديد .

فأجابه سباروف متذكرا :

ـ نعم ! نعم ! فآمرنا الآن ريميزوف .

ـ نعم وفانين ذهب ليقدم نفسه اليه .

هذا ما كرره مسلنكوف ، لكنه لم يضف ان فانين كان بالغ السرور اذ تتاح له مثل هذه الفرصة لمغادرة مركزه كي يتمكن من معرفة المكان الذي نقلت اليه آنيا . وكان بطيرس في هذه الاثناء يقرقع وراء الستار بآنيته وطناجره ، بينما كان سباروف يجلس قبالة مسلنكوف الى الطاولة ، ولم يكن اي منهما راغبا في الحديث ، او في التعبير عما يجول في خاطره . والحق ان سباروف كان يود ان يطلع مسلنكوف على احساسه بالتطير الذي اجتاحه الساعة الرابعة بعد الظهر ، لكنه كان خجلا من هذا الاحساس لذلك لم يشأ ان يأتي على ذكره . اما مسلنكوف الذي كان يعلم حق العلم بان سباروف يجهل بما اصاب آنيا ، لا بل ويجهل حتى بقدومها الى هنا ، فانه بدا مترددا لا يعرف ماذا كان عليه ان يطلعه على ما جرى وتم، ولا يعرف ما الذي سيلاقيه اذا لم يخبره عنه اطلاقا . ولكن

بينما كانا يجلسان حائرين فيما يتحدثان وقعت عيونهما في اللحظة ذاتها ، على شيء واحد ، الا وهو الحقيبة الضخمة ، حقيبة الاسعاف الاولي التي ظهر نصفها من تحت السرير . فتطلعا اليها ، ثم عادا ليحملق احدهما في الآخر، ثم ليتطلعا اليها ثانية ، ثم عاد سباروف ليحدق في مسلنكوف ويقول متسائلا :

ـ انها حقيبة آنيا ؟

وقد بدا من لهجته والتعابير التي ارتسمت على وجهه ان سباروف راسخ القناعة من ان تلك الحقيبة هي حقيبة آنيا . وأجاب مسلنكوف :

ـ نعم انها حقيبتها .

ـ اين آنيا ؟

وعندما تردد مسلنكوف في جوابه قليلا ، اجتاح الصقيع فؤاد سباروف بزمهريره، واحس بان باطنه امسى فراغا وقفرا بلقعا، وشعر بان لهذا الاحساس ارتباطا مباشرا بالشعور الذي عاناه في وقت ابكر من هذا النهار ، وانه الآن سيعرف بدقيقه وخفيه .

وأجاب مسلنكوف :

ـ لقد كانت هنا ، ولقد حضرت بالامس عقب ان غادرتنا مباشرة، وجرحت اليوم ونقلت من هنا .

ثم اخذ يكرر لسبب يجهله جملة الطبيب لكن سباروف قاطع تكراره سائلا :

ـ متى جرحت ؟

ـ في الساعة الرابعة تقريبا .

فصمت سباروف واخذ يحملق في الحقيبة ، ولم يسأل عما اذا كان جرح آنيا بسيطا او خطيرا ، فهو قد عرف عندما قال له مسلنكوف « الساعة الرابعة» بان كارثة ما قد حلت به ، لذلك لم يرد ان يوجه اي سؤال آخر . لكن مسلنكوف استرسل يقول :

ـ ان جرحها لخطير ، لكن الشظايا صغيرة .

راح مسلنكوف يصف الشظايا بالصغر ، لانه احس بان عليه ان يطمئن سباروف على انها لم تشوه ، لهذا وجدته يكرر :

ـ نعم اصابتها شظايا صغيرة في صدرها وكتفها ، وهنا ايضا ، لكن جرحها هذا كجرحي هو مجرد خدش .

لكن سباروف بقي صامتا يركز كل نظراته على الحقيبة ، فاستطرد مسلنكوف :

ـ ولقد ذهب فانين لمقابلة العقيد ، وربما عاد الينا بخبر عنها .

فأجاب سباروف بلهجة لامبالية :

ـ طيب ! هل تفقدت الحرس ؟

ـ كلا لم اتفقدهم بعد .

ـ احرص على تفقدهم !

فاجاب مسلنكوف ، وهو يحس بان سباروف يرغب في ان يكون وحيدا وقال :

ـ سأذهب فورا ، سأذهب لتوي .

ـ لماذا فورا ؟ تستطيع أن تتفقدهم فيما بعد ، عقب ان تنتهي من وضع تقريرك .

ـ كلا ! سأذهب الآن .

ـ حسنا كما تشاء .

خرج مسلنكوف ، وبقي سباروف جالسا يلفه الصمت والحزن ، فلقد ادرك بوضوح انه مهما سيقوله له فانين عندما يعود ، فان كارثة ضخمة قد نزلت بحياته .

وبعد بضعة دقائق امضاها جالسا وراء الطاولة ، قام من مكانه وقصد سرير مسلنكوف وجلس عليه ، فلاحظ بقعا من الدماء تلطخ البطانية ، فخيل اليه انهم قد مددوا آنيا على هذا السرير . ثم التفت الى الحقيبة ورفعها ووضعها على السرير . وقام بكل هذا بروية وتؤدة ، فهو يحس بانه طالما ان

هذه الكارثة الدهياء قد نزلت به ، فليس هناك من ضرورة لعجلة او استعجال، فالوقت اكثر من متوفر لكل شيء . ففتح الحقيبة ببطء وحدق طيلة دقائق في محتوياتها ، ثم بدأ بالبطء ذاته يخرج كل ما فيها ، متاعا بعد متاع . لقد كانت الحقيبة مترعة حتى غطائها ، فهناك في احد اجزائها عمرة قشلاق طويت بعناية وفرشاة اسنان ولوح صابون ومنشفتان ومنديل ومرآة مكسورة ، وفي جزء آخر عقاقير طبية ، وهذه لم يمسسها سباروف . ثم اخرج شريطي كتفين اخضري اللون يشيران الى رتبة آنيا ، وعلبة خشبية فتحها فوجدها تضم ابرا وخيوطا فاغلقها ثانية ، ووجد الى جانب هذه العلبة ، علبة اخرى صنعت من المعدن ، ففتحها ليجد فيها اصبعا من احمر الشفاه ، فتساءل عن سبب وجوده بين متاعها ، فآنيا كما يعرف سباروف لم تستعمل احمر الشفاه ابدا . وكان آخر ما اخرج سباروف من الحقيبة قميصان عسكريان كبيران لا يوافقان قياسها . وقد وجد انها قد خاطت طرفي كمي احدهما الى الوراء ، كما كانت قد خاطت طرفي سترتها عندما شاهدها في الخندق وقبل رسغيها اللذين حكهما القماش الخشن حكا شديدا . فذكر ان تلك المرة كانت آخر مرة شاهدها فيها ، وخيل اليه انه لن يراها ثانية فغمس رأسه في هذه الاشياء ، متاع آنيا، التي نشرها على السرير ، واخذ ينتحب ويبكي غير عابىء بمن حوله او مكترث لما حوله . وعقب نصف ساعة ، عندما عاد فانين من قيادة ريميزوف الى الخندق ، وجد سباروف يجلس وراء المكتب جلسته المعتادة ، اذ كان يسند ظهره الى الحائط ويمد بساقيه ، ولم يشهد فانين على وجه رئيسه اية تعابير لحزن أو ألم . بل انما حيا فانين بنظرة جادة لطيفة ، لقد كانت نظرة ذاك الرجل الذي فقد شيئا لا يستطيع ان يعيش بدونه ، لكنه قرر مع هذا ان يعيش ويحيا . وتقدم فانين من المكتب وجلس قبالة سباروف صامتا فقطع عليه صمته متسائلا :

ــ ما هي اخبارك ؟

فأدرك فانين ان سباروف لا يترقب جوابا طيبا فقال :

ــ ان جرحها خطير ، ولقد اكتفوا بتضميدها هنا وارسلوها بها الى الضفة الاخرى .

ــ هل تعني ان الفولغا قد تجمدت اخيرا ؟

فأجابه فانين :

ـ نعم قد تجمدت ، ولقد ارسلنا عبره هذا اليوم اول دفعة من الجرحى.

ـ اذن ! اذن ، هذا هو الامر !

صمت سباروف ، وفجأة تدفق فانين بالرغم عنه ، بجميع الجمل التي يختزنها راسه لمثل هذه المناسبة . ومع ان فانين غضب من نفسه ولسانه ، لاسترسالهما في مثل هذه الاقوال ، لكنه كان عاجزا عن ضبطهما ، لذلك اورد جميع التعليقات غير الضرورية ، كقوله : ان جرحها بليغ لكنه ليس خطيرا ، وان شهرا من الزمن كفيل بان تستعيد صحتها ثانية ، وانه سيرى آنيا متوردة الخدين مكتملة العافية ، وان كل امر سينتهي الى ما يشتهي ، وهنا ربت ، او بالاحرى خبط فانين على كتف سباروف ، ثم ضرب الطاولة بقبضته وقال :

ـ وسنحتفل هنا بزفافك .

كان فانين يتوقع وهو يرى التعابير المرتسمة على وجه سباروف ، ان يقاطعه هذا في كل لحظة ، لكن سباروف بقي يصغي اليه صامتا . وعندما نضب ما لدى فانين وصمت بدوره ، رأى ان ملامح رئيسه لم تعمل في تعابير وجهه ان تلطيفا او تغييرا ، فسباروف لم يعد ليؤثر فيه أتحدث الناس اليه مواسين ام لم يتحدثوا ، ولذلك عندما انتهى فانين اخيرا من كلامه ، كان كل ما عقب عليه هو قوله :

ـ اذن ... الامر هو هذا الامر .

ثم خلع جزمته واضطجع على السرير ، ودون ان يتظاهر بالنوم ، بقي متمددا بهدوء عليه ، لا يأتي اية حركة . بل انما اخذ يستعيد بعينين مفتوحتين تفاصيل احداث اليوم ، فأحس بضميره يؤنبه تأنيبا شديدا ، اذ اخذ يلوم نفسه ويوبخها ويقول : لو انني كنت هنا ، وليس على بعد مئة متر من هذا المكان فربما لم يحدث ما حدث .

في هذا الوقت بالذات تقريبا ، كان حمالا نقالة يحملان آنيا عبر الفولغا. ووراء احدى الجزر التي تعترض مجرى الفولغا ، كان الجليد اشد كثافة ، من الجليد الذي يبعد كيلومترا الى الغرب من الجزيرة ، لذلك قطعوا هذه المسافة من الطريق التي اختطوها على جليد مراوغ فرار . فالفولغا لم تتجمد غير الامس، والالمان يعتقدون بان الروس لا يستطيعون ان يدفعوا او ينقلوا اي شيء عبر

الفولغا ، وقد خيم صمت غريب فوق النهر . وكـان كل شيء يحيط بالفولغا ابيض اللون معدوم الحركة ، ولم تكن تتساقط سوى الثلوج التي كانت تصر قليلا تحت اقدام حمالي النقالة اللذين كانا عليهما ان يحملا آنيا الى مسافة طويلة.

وضع الحمالان النقالة على الجليد اثناء الرحلة عدة مرات بعناية وحذر، وكانا يقفان لفترة قصيرة يفركان ايديهما المتجمدة ثم يعيدانهـا الى قفازاتهـا ويلتقطان الحمالة ويتابعان طريقهما . وكـانت قيـادة الفرقة قد ارسلت من المؤخرة بفريق من الجند ليخططوا الطريق الذي سيسلكونه غدا ، وكان هـذا الفريق يتجه من الضفة الاخرى نحو قافلة الجرحى . فكـان اعضاؤه يمرون بالقافلة وهم يمتحنون صلابة الجليد ، بكعوب جزمهم ، وقد اقترب احدهم من النقالة التي تحمل آنيا ، وكان هذا الجندي طويل القامة ، تجاوز سن الشباب وتوقف الى جانب النقالة وسأل احد حماليها :

ــ من هذه ، أهي ممرضة جريحة ؟

ثم استدار ورافقهما بضعة خطوات وعاد ليسأل :

ــ اجرحها خطير ؟

فأجابه الحمال :

ــ نعم خطير ، ولكن الديك شيء من التبغ ؟

ــ نعم .

فوضع الحمالان النقالة على الجليد ، وناول الجندي كلا منهما حفينة من تبغ فأخذا يلفانه بأصابع متجمدة ، وبادرهما الجندي يسأل :

ــ لماذا تضعانها هنا ؟ الا تتجمد ؟

ــ لا بأس ، سنذيب الجليد عنها خلال دقيقة ... لماذا تسأل، هل تعرفها؟

ــ نعم لقد عبرت معنا النهر مرة قبل ان تتجمد الفولغا ، لقد كانت ممرضة ممتازة ، لكنها لا تزال صغيرة السن غضة الاهاب

فأجاب الحمال موافقا :

ــ نعم ، انها صغيرة السن جدا .

وعقب أن سترا لفافتيهما بايديهما ، وكانا قد اشعلاها من لفافة الجندي

سحبا عدة انفاس عميقة منهما ثم فركا ايديهما ثانية ، ثم اطفأ كل واحد منهما لفافته ووضعها بعنـــاية في ثنيـــة عمرته والتقطا الحمالة واستأنفا سيرهمـــا وسألهما الجندي :

ـ هل جرحها خطير ؟

فأجابه احدهما :

ـ جد خطير .

ـ انها لا تزال صبية في مطلع شبابها !

قال الجندي هذا .واستدار ليتجه ثانية الى شاطىء ستالينغراد .

تابع حمالا النقالة طريقهما . وعندما كادا يبلغان الجزيرة استعادت آنيا وعيها ، وربما كان الصقيع هو الذي اعاد اليها وعيها ، او ربمـــا أعادته اليهـــا الحركة المترنحة ، او صرير الثلج تحت الاقدام ، ففتحت عينيها ورأت السماء السوداء تعلوها ، والثلج الابيض يحيط بها ، فادركت من الوهلة الاولى ان الفولغا قد تجمدت ، وانهم يعبرون بها النهر ، لكنها سرعان ما اختلطت عليها الامور اذ خيل اليها انها ليست هي المحمولة ، بل انما هي ترافق احد الجرحى وانها تردد ما اعتادت على ان تردده دائما في مثل هذه المناسبة :

ـ رفقا يا اخي ! سنبلغ قريبا قصدنا .

والحق ان احد الحمالين لا آنيا هو الذي كان يردد تلك الكلمـــات وذلك حينما سمع احدى الطائرات الالمانية تقترب منهما ، لذلك اخذ كل من الحمالين يحاول ان يؤكد للآخر قناعته بالوصول الى قصده ، فكانا يتبادلان هذه العبارة : رفقا يا اخي سنبلغ قريبا قصدنا ، لذلك خيل الى آنيا انها تردد هذه الجملة، وقد حاولت ان تحمل بافكارها النقالة بعناية اشد ورفق أرق كي تجنب الجريح التأرجح والترنح . ثم خيل اليها ان سباروف هو الممدد على النقالة ، وانها هي التي تخاطبه وتقول :

ـ مهلا يا اخي سنبلغ قصدنا عما قريب .

وخيل اليها انها خاطبته بأخي ، لانها لم تعرفه ولم يتعرف عليها بعد ، ثم خيل اليها انها تريد ان تشرح له الحال ، ففاهت ببضعة كلمات لم يصغ اليهـــا، وهكذا اتبعتها بكلمات اخرى، وفي هـــذه اللحظـــة مر الارتباك على مخيلتهـــا

فطمسها طمسا ، ففقدت وعيها ثانية وبادر احد الحمالين يقول :

ـ يا الهي ! كيف تئن ؟!

وحومت في هذه الاثناء الطائرة الالمانية عدة مرات فوق النهر ، وقذفت باسهم نارية احالت ظلمة الليل الى ضياء النهار ، واعقبت الاسهم النارية القنابل التي تساقطت يسرة ويمينا من حمالي النقالات ، وقبل ان يتلاشى ضوء الاسهم النارية شاهد الحمالون ثغرا سوداء ضخمة في سطح الفولغا وراوا الماء ينبجس منها شآبيب شآبيب ليغمر الجليد المحيط بهم اشد فأشد . وكـان حمـالو النقالات حين سقوط القنابل قد وضعوا نقالاتهم على الجليـد وانكفأوا عـلى وجوههم ، ولكن عندما تساقط المزيد من القنابل واخذت الطائرة تحوم من جديد فوقهم ، هبوا منتصبين على اقدامهم والتقطوا نقالاتهم دون ان ينبس اي منهم ببنت شفة ، واستأنفوا سيرهم شاقين طريقهم بين الثغرات ، ليستحثوا خطاهم عجلين مستعجلين . وعندما بلغوا تقريبا الجزيرة صرخ احدهم :

ـ الي يا حمالي النقالات ؟

وترامى من وراء مناسف الثلج وركامه حفيف الزلاجات الخشبية وهـي تنزلق على الثلج يعلوه صهيل الخيول وحمحماتها .

- ٢٤ -

لف ليل نوفمبر بظلامه الكثيف الاصقاع المترامية ما وراء الفولغـا . ولم يعد بالامكان ابتداء من الساعة الخامسة عندما ادمس الليـل ، ان يعرف المـرء أي هزيع منه ، أمساء ام منتصف الليل ، أم ان الساعة قد بلغت الخامسـة صباحا ، فالليل ، ليل نوفمبر الذي له من العمـر اربع عشرة ساعة ، ليل شديد الاظلام محلولكه ، يستعصي على العين ان تنفذ الى تباشير الضوء منه . وكـان الزمهرير يصفر ويغني عبر الاصقاع كأنه يسري عن الحقول التي تعرت منـذ طويل زمن ، وكان الثلج يتساقط ، آنا هينا ، ثم كثيفا ، وانطلقت السـيارات العادية منها وذات السلاسل الفولاذية فوق الثلج والجليد بضوضاء لا تعـرف توقفا ، ووقف البوليس الحربي عند تقاطع الطرق يهزون باضواء مصابيحهـم صامتين . وسارت الحال على هذه المنـوال ساعة اثر ساعة ويوما بعد يوم . ولم يكن باستطاعة غير المرء الذي يقف طيـلة يوم او يومين على احد تقـاطع الطرق المؤدية من ساراتوف ، او التنسكايا ، او كاميشين الى ستالينغراد ، ان يدرك فحوى ضوضاء جلبة الاليات الرتيبة ، والمغزى الهادىء المنذر العدو بالشؤم لما كان يجري خلال تلك الايام القليلة على الطرق المؤدية الى الجبـهة . لقـد كانت احداثا تماثل تماما تلك الاحداث التي جرت في شهر نوفمبر عام ١٩٤١ منذ سنة خلت ، وذلك عندما دفعنا بقوافل لا نهاية لها من المدفعية والدبابات والمشاة الى موسكو ، وكيف اختفت تلك القوافل في الغابات المحيطة بموسـكو بسرعة ساحر ، قبل ان ندفع بها الى الجبهة الدامية . ومماثل لهذا يحدث الان هنـا . فمنذ شهر اكتوبر ، وليلة اثر ليلة ، ومرورا بالوحل اولا ، وخوضـا في الثلوج فيما بعد ، كان الروس يحشدون فرقة من الجند بعد فرقة ، ويعـدون انفسهم لليوم الكبير . فكانت شاحنات مموهة ضخمة تجر مدافع جبـارة مـن مخازن احتياطي القيادة العليا للقوات السوفياتية المسلحة ، وتحمل دبابات من طراز ت ٣٤ ، ومدافع صغيرة مضادة للدبابات تقفز خلف الشاحنات . وكـان يحدث ان تلقي طائرة المانية بسهم ناري يفري الظلماء المغلفة للقوافل ، التـي كانت تتوقف على جانبي الطريق ، ويسارع جنودها للانبطاح ارضـا بالقرب منها ،

فتتساقط القنابل مزمجرة لتغوص في الوحول والثلوج . وبعد ذلك كان الظلام يلف كل شيء بجلبابه الاسود ، فكانت عندئذ تستأنف القوافل رحلتها بعد ان ينظف الطريق من بقايا شاحنة دمرتها القنابل . ويبدأ الزحف والتحرك والحركة في الاتجاه ذاته من جديد . وكان جزء من هذه الحشود ينطلق من كيمشين وساراتوف عبر الفولغا ليعسكر في الاصقاع والوديان المشجرة الواقعة الى الشمال من ستالينغراد . وكان هذا الحشد يقصد تلك المجموعة التي تقف في وجه الالمان على بعد عشرين كيلومترا جنوبي ستالينغراد لتمنعهم من الانطلاق شمالا . وكان هناك جزء اخر من الحشود ينطلق من قرية التنسكايا مباشرة الى الفولغا ويختبيء في بعض الاماكن الواقعة في المنعطفات الوسطى والعليا والسفلى من انهار اخطوبا ، وكان يتسرب من هذه الاماكن الى الاصقاع الواقعة ما وراء الفولغا . وكان باستطاعة المرء ان يشعر من هذه الحشود والتحركات الضخمة من الناس والالات المدافع ، ومن اسلوب انطلاقها معا ، ومن توقفها وهمودها همود الاموات قبل وصولها ستالينغراد ، اقول كان باستطاعته ان يشعر بذلك العزم وتلك الارادة اللذين تجسدا بوضوح ما بعده وضوح امام موسكو منذ سنة خلت . وكان يومذاك آمر الجيش المدافع عن ستالينغراد ماتغييف ، عضو اللجنة العسكرية ، كلما طلب امدادات من اولئك المولجين بقيادة كامل الجبهة ، يجابه على طلبه بالرفض في كل مرة ، وبالرفض المطلق . ولم تلق الفرق المقاتلة في ستالينغراد سوى العون الكريم السخي الذي امدتها به بطاريات المدافع المنصوبة على ضفة النهر اليسرى ، وبعض عون من افواج بطاريات المورتر التي كان يجري حشدها باعداد غفيرة على تلك الضفة . ولم يحدث سوى مرتين فقط وخلال اشد الفترات حرجا ، ان وافقت قيادة الجبهة بعد موافقة القيادة العليا ، على امداد الجيش المقاتل بفرقة واحدة من حشودها هناك . وقد القي بتينك الفرقتين مباشرة الى الخطوط الامامية .

وفي الليلة ذاتها التي كان فيها سباروف يتمدد هادئا صامتا على سريره في خندقه ، وكان الحمالان ينقلان آنيا فوق الجليد الرهيف ، كان ماتغييف يقوم بجولة واسعة على قدميه بمحاذاة الفولغا كي يبلغ خندق بروتسنكو ، وذلك كي يجري معه حديثا طويلا وراء ابواب موصدة ، او بالاحرى وراء ستارين كثيفين يتدليان وينسدلان على باب الخندق . وكان ماتغييف قد عاد تلك اللحظة من مركز قيادة الجبهة القائم على الضفة الاخرى ، وكان بروتسنكو هو ثاني قائد فرقة عليه أن يزوره هذه الليلة . وكان عندما استدعي ماتغييف الى قيادة

الجبهة يوم الامس ، قد عقد العزم على ان يطلعهم على وضعه اليائس وان يطلب امدادات منهم . وكان يريد ان يلح على تزويده بفرقة من الجنـد ، وان يعلمهم بان الاستجابة الى طلبه امر شديدة الاهمية ، لا بل حيوي . ومع انه كـان قـد توقع رفضهم المعهود في باديء الامر ، الا انه كان يعتقد بانهم سيستجيبون هذه المرة الى طلبه بعد ان يستمعوا الى حججه التي لا يمكن ان ترد أو تدحض . لكن كل امر جرى آنذاك خلافا لما توقعه له ، فلقد استمع آمر الجبهة ومجلسه العسكري صامتين الى تقريره ، ثم الى طلبه ان يزودوه بفرقة ، وخلافا لعادتهم لم يجيبوه فورا بنعم او لا . فبعد برهة طويلة امضوها يتطلعون بعضا الى بعض، جر أحد اعضاء اللجنة العسكرية مقعده مقتربا به الى طاولة نشرت عليها خارطة، ثم وضع كلتا يديه عليها يجتذب انتباه ماتغييف اليه واخيرا قال :

ــ لا نريد ان نرفض طلبك ايها الرفيق ماتغييف ، فما تطلبه هو حق لك ، لكننا نريد منك ونرغب اليك ان تسحب انت طلبك بنفسك ، ولكي تقوم بما رغبنا اليك ، يتوجب عليك الا تفهم ، وذلك لان ما في اذهاننا لا يمكن ان يفهم كاملا ، بل انما يتوجب عليك ان تشعر ، ان تشعر على كل حال قليلا بما هو امامنـــا من احـــداث ..

قال هذا ثم اخذ يحملق في ماتغييف الذي شاهد في وجهــه الصــارم لكن الصريح الطيب في الوقت ذاته ، ظلال بسمة رجل يعرف شيئا يكاد يطـير به اليه فرحا ، واستطرد يقول :

ــ انني اذا ما قلت لك ايها الرفيق ماتغييف باننـا لا نمـلك فرقة او حتى فرقتين ، فعندئذ لا نصدقك القول ، فلدينا ما تطلب .

خيــل الى ماتغييف وهو يسمع ما يقــوله عضــو اللجنة العسكرية ، ان كلماته هذه هي المقدمة المعهودة لمثل هذه المناسبات ، مقدمة القول بانه لدينــا طبعا الفرق ، لكن علينــا ان نحتفظ بها احتياطيــا للجبهة ، وانه بالرغــم مــن اهمية ستالينغراد ، فان هناك أيضـا جبهة ضخمة تمتـد من البحر الاسود ، الى البحر الابيض ، وانه لا يمكن الدفاع عن هذه الجبهة الا في حــالة توفــر الاحتياط في كل لحظة . لكن عضو اللجنة العسكرية لم يتفــوه باية كلمة مــن هذه الكلمات التي الفها ماتغييف منه ، بل انمــا حرك بيديه على الخارطة بصورة استلزمت ماتغييف ان يتابع حركاتهما . فاوقف احدى يديه على بقعة تقع جنوبا من ستالينغراد ، والاخرى شمالا منها ، ثم تقدم بكلتا يديه امامــا وبعيــدا

مما وراء ستالينغراد ، الى مدينتي سيرافيموفيتش وكالاخ وغيرهما من المدن الواقعة على نهر الدون ثم جمع يديه باشارة حاسمة وقال بصوت مهيب وقور: انظر !

فتذكر ماتغييف هذه الكلمة ، وتذكر هذه الحركة التي اتت بها يداه على الخارطة حينما جمع اليد الواحدة الى الاخرى بوضوح وتأكيد جعلاه يذكر تلك الحركـة لمدة طويلة فيما بعد حينما يتحدث الى الاخريـن عنها ، او حينمـا يكون وحيـدا ، وخاصة عقب ان حدث اخيرا كل ما قالته له تلك الكلمة وهذه الحركة ، وبادر ماتغييف يسأله :

ــ هل تعتقد بذلك ؟

فأجاب عضو اللجنة العسكرية :

ــ نعم اؤمن به ، هذا كل ما استطيع ان اخبرك به الان ، وقد توخيت من هذا ان استنهض هممك وهم الاخرين خلال ما تبقى امامك من ايام سيئة ، ولكي اساعدك على ان تجعل جماعتك يشعرون ايضا ، طبعا لا بخططنا بل بانه سيجري استعراض على شارعنا ايضا ، وهذه الكلمات قد لا تشير الى مستقبل بعيد .. حسنا لنعد الان الى طلبك الفرقة . انك تقول بانك كي تتمكن من الصمود فانت بمسيس الحاجة الى فرقة أليس كذلك ؟

فأجاب ماتغييف :

ــ كلا انني لا اعرض الموضوع على الوجه الذي ذكرت .

ــ حسنا ، ولكنك لا تزال محتاجا اليها ؟

فأجاب ماتغييف :

ــ كلا لا نطلبها

بهذا الشعور رفض ماتغييف الفرقة دون ان يستشير حتى قائده فعـاد ثانية الى قيادة الجيش ، واطلع الجنرال الآمر على ما سمعه او بالاحـرى مـا استنتجه من قيادة الجبهة ثم انطلق لزيارة الفرق . ولقد اخذ على نفسه القيام برحلة شاقة خلال ليلة واحدة ، لزيارة كلتا الفرقتين اللتين كان الالمان قد فصلاهما عن الجيش المدافع عن ستالينغراد . وعندما توجه لزيارة بروتسنكو كان متعبا ومتجمـدا اثر زيارته للفرقة الاولى . وقد سر بروتسنكو بزيارته سرورا بالغا، فهو لم يتمكن طيلة الاسبوع المنصرم من الاتصال بقائد الجيـش سـوى بضعة مرات بالهاتف ، وقد تم اتصاله هذا بصعوبة بالغة ، ولذلك فهو يحس عقب ان اطلع ماتغييف على تفاصيل ما دار في قطاعه بان حملا ثقيلا قد ازيح عن كتفيه

الى كتفــي ماتغييف .

اصغى ماتغييف ببهجة الى كل ما قاله بروتســنكو ، وطرح علــيه عــدة اسئلة كانت كلها تلتقي في السؤال التالي :

ــ كم يوما يستطيع بروتسنكو ان يصمد بما تبقى لديه من قوى ؟ وفهــم بروتسنكو ما عناه ماتغييف فهم لن يمدوه برجل واحد ، ثم حرك ماتغييــف باحدى يديه كأنه يكنس بها كل ما دار بينه وبين بروتسنكو من حديث وسأله :

ــ كيف تفسر كلمات ستالين القائلة بانه سيجري استعراض عسكري على شارعنــا ايضا ؟

فحدق بروتسنكو اثر هذا السؤال غير المرتقب في وجه ماتغييف ، ورأى عينيه السوداوتين تتالقان ببريق ذاك الانفعال البهيج الذي يعتري الرجال فــي الحرب، وذلك عندما لا يستطيعون ان يطلعوا على الغير ، بل انما يعلمون بانفسهم ان شيئا ما متوقع الوقوع ، وانه شيء جد ممتاز وهام .

فأجاب بروتسنكو وهو يتحدث بلهجة هي اشد في اوكرانيتها من المعتــاد بسبب انفعاله .وقال :

ــ انني افهم هذه الكلمات على هذا الوجه ، لما كان الرفيق ستالين قد فاه بهذه الجمــلة في اليوم السابع من نوفمبر ، فهذا يعني ان الحدث سيقع قريبا، وسيقع على كل حال قبل شهر شباط .

فسأله ماتغييف :

ــ ولماذا قبل شهر شباط ؟

ــ لانه لو كان سيقع عقب شهر شباط لاعلــن في عيد الجيش الاحمــر اي في الثالث والعشرين من شهر شباط ، او لو انه كان سيجري بعد شهر ايار ، لاعــلن عنه في اليوم الاول من ايار . فكلمات من هذا الوزن لا تسبق الزمن طويلا .

ثم تطلع الى وجه ماتغييف وادرك من التعابير المرتسمة على وجهه ان ماتغييف متفق معه فيما ذهب اليه ، واسترسل بروتسنكو يسأله :

ــ ما رأيك في تفسيري ؟ هل تراني مصيبا ام مخطئا ؟

ـ اراك مصيبا ، وعلينا ان نعتصم ونصمد فسأله بروتسنكو كـأن مـا قاله ماتغييف فيه شيء من اهانة :

ـ انعتصم ونصمد ؟ انني ايها الرفيق عضو اللجنة العسكرية ، لن اتوقع ابدا ان ارى تلك اللحظة الالمان هنا حيث تجلس انت الان ، وانا لا اتوقع ان اراها لانها اذا ما حدثت فلـن اكون حيـا .

كان من الصعب على المرء ان يلحظ التجهم الذي علا وجه ماتغييف اثـر سماعه لما قاله بروتسنكو ، فكلمات بروتسنكو بدت له بليغة ، لا بل انيقة البلاغة، كانما قد اعدها من قبل وقد حذر بروتسنكو ما يجول في خاطر ماتغييف لذلك استرسل قائلا :

ـ وحتى لو اعتقدت بان ما اقوله يبدو بليغا ، الا انني لا استطيع ان اعبـر عما في خاطري بكلمات غير هذه . فهم بروتسنكو ما حاول ان يطلعه عليه دون ان يخوض معه في اية تفاصيل ، وبادر الى تحويل الحديث الى بحث المواضيـع التقنية،ونسي الامدادات التي كان ينتظرها والكتيبتين المضادتين للدبابات واللتين كان قد قرر ان يطلبهما منذ اسبوع من قيادة الجيش . وكانت المواضيع التقنية تدور حول امداده بالذخيرة ، وقد وعده ماتغييف بالاستجابة الى طلبه ، كما وعده بان تقوم الطائرات من طراز يو ٢ بالمزيد من الغـارات الليلية ، لكن عندما طلب منه بروتسنكو سد حاجته من الضباط ، رفض ماتغييف هذا الطلب رفضا باتا . والحق ان ماتغييف قد سر لان بروتسنكو العنيد الخبيث قد اظهر هذه الليلة من الدهاء ما مكنه من ان يدرك فورا الغاية الحقيقية من وراء زيارته له ، ولانه لم يكن عنيدا ملحاحا في الاستفسار عن التفاصيل ، ولهذا السبب قبل ماتغييف بسرور البقاء معه فترة اطول ليتناول واياه كوزين كبيرين من الشاي الاسـود تقريبا ، متناسيا ان اوان رحيله قد آن . واعلمه بروتسنكو الذي كان يعشق عادة كبير الكلام ، بان الشاي هو شاي سيلاني وهو زهرة النبتة لا ورقتها .

فأجابه ماتغييف مغتبطا :

ـ لا يهمني اذا كان مستخرجا من الزهرة أو الورقة ، فالمهم عندي ان يكون سـاخنا .

وعقب ان تناولا الشاي اصطحب بروتسنكو ماتغييف لمسافة قصيرة على محاذاة الشاطيء ثم عاد ثانية الى خندقه وطلب من فوستريكوف ان يأتيـه

بالخارطة فناوله هذا بيانا رسمته هيئة اركان الفرقة ، وكان هذا البيان يظهر الاحياء الخمسة التي تحتلها الفرقة ، لكن ما كاد بروتسنكو يطلع عليه حتى بادر ينتهر فوستريكوف ويقول :

ـ لقد طلبت اليك الخارطة لا البيان ..

فسارع فوستريكوف وجاءه بخارطة مطبوعة لمدينة ستالينغراد كانت تظهر طول المدينة الممتد ٦٥ كيلو مترا ، بما فيها من احياء وحارات وضواح تمتد على قوس الفولغا .وضحك هذه المرة بروتسنكو ضحكا عاليا وقال :

ـ كلا لا اريد هذه الخارطة ، بل انما اريد الخارطة الكبيرة ، الا تزال لديك؟

ـ أية خارطة كبيرة تعني ؟

فأجابه بروتسنكو :

ـ الخارطة الكبيرة ، خارطة الجبهة باكملها .

ـ آه ! تلك !

فانطلق فوستريكوف يبحث عن الخارطة التي لم يستعملوها منذ زمن طويل ، لمدة بضعة دقائق ، وعندما رأى بروتسنكو فوستريكوف ينهمك في البحث عنها داهمه خاطر يتساءل عاجبا من براعة فوستريكوف في ترتيب كل اشيائه المتعلقة بستالينغراد خلال الاسابيع القليلة المنصرمة ونسيانه تقريبا كل ما تبقى من الجبهة . فلقد مضى عليه قرابة الشهرين منذ ان اخرج هذه الخارطة لاخر مرة . وعندما نشر فوستريكوف الخارطة امام الجنرال رأى الملاحظات المدونة عليها تعود الى شهر ايلول ، فانحنى فوقها بعد ان صقلها بيديه واخذ يفكر ويحدق في المدن والانهار وخطوط المراكز المبكرة ، فأحس بانه سيخلي سبيله من هذه البنايات وهذه الاحياء من ستالينغراد . وفقط عندما شاهد القياس الضخم للخارطة ادرك عندئذ ماذا تعني ستالينغراد ، ومع ان هذه لم تكن سوى نقطة على الخارطة ، الا ان جميع المدن الاخرى بما فيها من سكان قد عاشوا طيلة الشهرين الماضيين وهم يرنون بابصارهم الى هذه النقطة الصغيرة ، ستالينغراد ، وربما انهم ايضا عاشوا من اجل احيائها الخمسة التي تحتلها فرقته ، هذه الاحياء التي يقبع في احدى بناياتها بروتسنكو الان . عاد يتطلع الى الخارطة باهتمام جديد ، وعبرتها كلتا يديه لتجتمعا كما اجتمعت يدا

عضو اللجنة العسكرية في قيادة الجبهة العامة ، في مكان ما يقع بعيـدا الـى الغرب من ستالينغراد . ولم تكن المصادفة هي التي جعلت يدي بروتسنكو تلتقي احداها بالاخرى في المكان ذاته الذي التقت فيه يد عضو اللجنة العسكرية ، بل انما كان المنطق ، وذلك لان الخطط الستراتيجية العظمى والقرارات الحاسـمة هي في جوهرها ضرورات منطقية .وهي سهلة على افهام الجميع ، اذ انها واضحة في بساطتها كضوء النهار ، وفيها يولد المنطق الحديدي للوقائع التي تفهـم فهما صحيحا .

وقبيل الفجر في الساعة الخامسة ، استدعى بروتسنكو جميـع قواد افواجه وكتائبه . وقد وقت استدعاءهم توقيتا يمكنهم من العودة الى مراكزهم تحت جنح الظلام .

وكانت قد عبرت الفولغا خلال الليل زحافات تنقل الميرة والفودكا لذلك غطيت طاولة بروتسنكو التي اعتاد ان ينشر الخرائط عليها بالصحف التي تربعت فوقها زجاجات الفودكا .واقداح معدنية اميركية استعيـض بها عن الكـؤوس الزجاجية. ووضع صحنان كبيران مليئان بالنقانق واللـحم المعلـب المطبـوخ والبطاطا . واراد طباخ بروتسنكو ان يعرض مهارته فوضع على وسط الطاولة مركبا انيقا من الزبدة رسم عليها براعم ازهار وخصل متحوية . وجلـس بروتسنكو في الزاوية مكانه المعتاد . وكان جو الخندق حارا ، .وقـد ارتـدى الجنرال بزة نظيفة كان قد اخرجها منذ هنيهة من حقيبته ، وكانـت سترتـه محلولة الازرار ، لذلك بدا من تحتها قميصه الحريري الابيض . وكانوا طيـلة وذلك في حوض حمام من الزنك ، خاص بالاطفال ، والذي اعتاد ان يستحم فيه، .ولم يكن يسمح لاحد غير فوستريكوف باستعماله . وجلس بروتسنكو وبخـار ولم يكن يسمح لاحد غير فوستريكوف باستعمـاله . وجلس بروتسنكو .ونجار المزاح تتصاعد به روحه الودود تكاثا . وكان يحس بارتياح عميق لملامسة قميصه الحريري لجلده ، وقد جعل الخندق الانيق المزدحم بطاولته الانيقة ، والمضيف بسترته المحلولة الازرار ، ريميزوف يعتقد بانه في قمرة من قمـرات سـفينة صغيرة ، لذلك عندما دخل وحيا بادر قائلا :

ـ ايها الرفيق الجنرال ان المرء ليخيل اليه وهو يرى خندقك انه في مركـب .

ـ ولماذا ؟

ـ لان كل ما هنا يبدو انيقا مريحا كقمرة في مركب

وصل جميع قادة الافواج والكتائب في الوقت نفسه تقريبا ، فبلغ ريميزوف قيادة الفرقة الساعة السادسة تماما ، تناغما منه وانضباط الجندي الشيخ ، اما الاخرون فوصلوا بعده او قبله ببضع دقائق ، وكان سباروف آخر من وصــل، اذ حضر متأخرا خمس دقائق عــن الموعد المحدد ، فلقد عثر خلال طريقه فآذى ركبته ، وهكذا كان كان عليه ان يكمل دربه وهو يعرج وبادره بروتسنكو :

ـ آه ! يا الكسي ايفانو فيتش !

فاجاب سباروف :

ـ فلتعذر تأخري ايها الرفيق الجنرال !

ـ لا بأس ، سأعاقبك بشرب قدح اضافي

والتفت ريميزوف الى سباروف وهو يفسح له مكانا على المقعد وقال :

ـ فلتجلس على نصف المقعد .

وعندما جلس سباروف احاطه ريميزوف بذراعه كي يوفر له المزيد من الراحة وقــال :

ـ هكذا يتعايش الناس عندما يكونون على مقربة وثيقة من بعض .

وقال بروتسنكو :

ـ حسنا ! فلتسكبوا لكم ايها الرفاق شرابا

وعندما ملئت الاقداح بالفودكا تمهلوا جميعهم قليلا ثم قال بروتسنكو :

ـ لم ادعكم اليوم لاجتماع ، بل انما دعوتكم لاجمع بينكم ، وليتملى الواحد منكم نظرا من الاخر . فنحن قد لا نعيش حتى نرى الساعة السعيدة (وقد كان لهذه الكلمة ، الساعة السعيدة وقع مهيب غير مرتقب) ، وربما لا نعيش جميعا لنشهدها ، لذلك اردتكم هنا جميعا ، كي نتملى من بعضنا نظرا وكي يحس كل واحد منا بانه سيبقى حيا حتى النهاية ، وحتى اذا لم يبق كل امرىء منا حيا ، فان الفرقة ستعيش لترى الساعة السعيدة ، لذلك فأطلب اليكم ان تقفوا جميعا لنشرب بنخبنا الاول للاستعراض الذي سنجريه قريبا على شارعنا ايضا .

فهبوا جميعهم وقوفا ، ورنت لهجته وهو ينطق بتلك الجملة المقتبسة، والتي سبق ان تداولتها السنة الناس الكثيرين خلال الاسابيع القليلة المنصرمة ، بمهابة خاصة ووقار . وبعد ان شربوا النخب الاول ران صمت قصير ، ثم انطلقوا جميعا يفتكون بالطعام كأنهم الذئاب ، وذلك لان مخزونهم من المواد الغذائية كان قليلا ، وكان التعب وحده هو الذي الهاهم عن جوعهم ، ثم اقترح ان يشرب النخب الثاني ، كما هي العادة ، تيمنا بصيرورة الفرقة فرقة حرس(1)، وبعد ان شربوا هذا النخب ، امسوا احرارا في شرب ، انخاب من يشاءون ، واخذ الجار يشرب نخب جاره احيانا .

اطلق بروتسنكو عديدا غفيرا من النكات ، وغمر الجميع بكرمه ولطفه ،ومع انه كان يرغب بين حين واخر في ان يوجه الى هذا الضابط او ذاك سؤالا مهنيا يخطر فجاة له ، الا انه كان يضبط نفسه عن توجيهه انسجاما منه والجو الودود المضياف المخيم على جميعهم . وكان سباروف يجلس الى جانب ريميزوف وقبالة بروتسنكو مباشرة ، لذلك كان بمقدوره ان يراقب الجنرال طيلة الحفل . وهو يعرف بروتسنكو منذ زمن طويل ، معرفة خبير ، لذلك كان باستطاعته ان يرى شيئا في عيني الجنرال ربما لم يلحظه احد غيره من رفاقه . فلقد شعر كل واحد منهم بان الجنرال عميق الايمان بان كل شيء سينتهي على المدى الطويل الى الخير ، وقد تاكدوا من هذا من لهجته وحركاته . لكن سباروف استطاع ان يستنتج اكثر من هذا ، لقد استنتج من حركاته ،ومن التعابير المرتسمة على وجهه بان الجنرال لا يعرف فقط بان كل شيء سينتهي الى ما يريده ويرغب، بل انما قد خمن ايضا وحزر ما سيحدث . ولقد لاحظ سباروف عدة مرات الجنرال يبدأ جملة ، كأنه يريد ان يطلعهم فيها على شيء هام ثم يتوقف في وسط جملته ليدير دفة الحديث نحو موضوع اخر ، وخيل الى سباروف ان الجنرال يرغب رغبة شديدة في ان يفضي بامر ما يعرفه وحده وانه يضبط اعصابه بصعوبة بالغة كي لا يبوح به . وقبل ان يحين موعد انصراف الضباط تطلع بروتسنكو الى الضباط المتجمعين حوله ، فهناك يجلس ريميزوف ، وهو

(1) اعاد الروس في السنة الاولى من الحرب مصطلح « الحرس » الى قاموسهم العسكري ، وهذا اللقب يطلق عادة على الوحدة المقاتلة التي تمتاز في العمليات الحربية . وكان بطرس الاكبر اول من ادخله واخذ به ، لكنه الغي عام ١٩١٧ . ويتقاضى الجنود في وحدات الحرس مرتبات مضاعفة ، والوية وحدات جديدة ويتمتعون بشعبية واسعة ويشكلون القوة الضاربة في الجيش الاحمر .

آمر فوج ، ورث امرته عن بوبوف الذي اختطفه الموت ، والذي حل محل بابشنكو ، الذي لم يكن أوفر حظا من خلفه . وهناك يجلس آننسكي ، وهو قد يكون غير مؤهل تماما لامرة فوج ، لكن الامر سيان ، فهو ايضا قد تخرج من من مدرسة الحصار ، وفوجه تخرج منها ايضا ، وهو يعرف كيف يقود ويأمر. وهناك يجلس سباروف ، فاذا ، لا قدر جرح او قتل ريميزوف او آننسكي او اجورتسوف وبقي الجنرال على قيد الحياة ، فعندئذ سيرفعه بروتسنكو لا شك الى رتبة آمر فوج . هذه هي الهواجس التي كانت يهجس بها بروتسنكو الذي استرسل :

لا احد من هؤلاء يعرف حظه من هذه الحرب ، ولا يدري من سيقود واين واين سيقاتل ، ووراء جدران اية مدينة سيلقى مصرعه ، اذا ما كتب عليه ان يلقـــاه .

أحس بروتسنكو بشيء ما رائع وشجي في الصورة التي رسمها لرجاله ، وهو يحس بها لاول مرة بعد ان دفن طيلة شهور بالمشاكل الكبيرة منها والصغيرة، كالاوامر والتقارير واللوائح وبعقد الحرب اليومية . لقد احس بها حينما كـان يتطلع الى الضباط الجالسين حوله ، انهم جميعا متعبـون ، احالت النكبـات واختبارها سواد شعورهم بياضا ، لقد كان احساسا اشاع البرد في ظهـــره وجعل حلقه يغص بالماء ، وبروتسنكو يعتقد بان ما خالجه من حس هو شـيء سيكتب الناس عنه فيما بعد في كتب التاريخ ، انه احساس ستحسدهم عليه الاجيال المقبلة التي لم تختبره في حياتها الخاصة . والحق انه اراد ان يودعهم بكلمات معبرة تعبيرا خاصا ، لكنه كغيره من ابناء الشعب الروسي ، لم يستطع ان يعثر على الكلمات لمثل هذه المناسبة ، كما لم يتمكن فيما قبل من ان يجـد في اللحظات الحاسمة ، وربما في اجمل لحظات حياته ما يعبر به عن شعوره لذلك وجدته ينتصب واقفا ويقول :

ـ حسنا ايها الاصدقاء ، لقد آن الوقت ، وعليكم ان تقاتلوا غدا صباحا .

فهبوا جميعهم واقفين وصافحهم فردا فردا وعندما خرجوا استبقـــى سباروف في حضرته وبادره :

ـ فلتجلس دقيقة الي يا الكسي ايفانوفيتش ، وعقبها تستطيع ان تعود.

أراد بروتسنكو من وراء استبقائه لسباروف ان يعرف ما اذا كان الضباط

قد فهموا ما لمح اليه وحاول ان يطلعهم عليه لذلك سأل سباروف :

ــ هل فهمت ما قلته يا الكسي ايفانوفيتش ؟ هل فهمته ؟

فأجابه سباروف :

ــ لقد فهمت ما عنيته ايها الرفيق الجنرال وانني احن لاعيش حتى تلك الساعة .

ــ هذا هو تماما ، تماما ما اريد ، وانا لارغب رغبة جامحة لا بل يائسة في العيش حتى تلك اللحظة، ومنذ الغد سأخفض رأسي قليلا عنــــدما اسير في الخندق . الى هذا الحد تبلغ رغبتي بي في الحياة ، وانا انصحك ان تحـــذو حذوي . .

ــ ران الصمت عليهما قليلا ثم قدم بروتسنكو سيجارة وهو يقول :

ــ هل ترغب في لفافة ؟

وعقب ان اشعل كل منهما سيجارته استطرد الجنرال :

ــ لقد اعلمني ريميزوف بما حل بك اليوم وقد ارسلت جنديا الى المؤخرة ليعرف الى اي مستشفى قد نقلوها وليطلع على حالها .

فأجاب سباروف بصوت من لا يبالي وقال :

ــ اشكرك ايها الرفيق الجنرال .

تأثر سباروف لكرم الجنرال وعطفه تأثرا عميقا ، وهم لم يكن ملهوفا على معرفة مكانها ، لانه كان يعلم بانه اذا ما قدرت لها الحياة فسيجدها ان عاجــلا او اجلا ، وهذا امر فوق كل ريب وشك ، لكنها هل لا تزال من بنات الحياة ؟ لهذا عندما قارن بين ما قاله له بروتسنكو وبين هذا السؤال المرعب الحائر دون جواب ، بدا له قول بروتسنكو لا يشفي علة ولا ينقع غلة ، لذلك كرر قائلا :

ــ شكرا جزيلا لك ايها الرفيق الجنرال ،

ثم وقف اولا مخالفا في ذلك العرف المألوف وصافح بروتسنكو بحرارة واستدار وخرج من الخندق ، دون ان يستأذن بالانصراف فينطق بالجملة التقليدية :

ــ هل تسمح لي بالانصراف ؟؟

- ٢٥ -

مع ان هناك قولا شائعا بان الحزن والالم يكبلان الزمن ويحدان من سرعة انطلاقه ، الا ان الايام الثلاثة التي اعقبت اصابة آنيا ، قد مرت بالنسبة الى سباروف ، عنيفة ضارية كغيرها من ايام ستالينغراد . وعندما كان يحاول ان يتذكر احاسيسه خلال الايام الثلاثة تلك ، كان لايستطيع احيانا ان يتذكر غير القتال ، واخرى على العكس من تلك ، اذ كان يذكر ما أججته الخسارة التي نزلت به من صدام في فؤاده . والواقع ان كلا الحسين كانا صحيحين ، لكن حسه بالخسارة لم يفارقه طيلة تلك الايام ، ورتابة هذا الحس واطراده هما فقط اللذان جعلاه ينساه لبعض لحظات .

كان سباروف قد عاد من لدن بروتسنكو وهو عاقد العزم على القيام بعمل ما ، عمل كبير ضخم عاجل يستطيع ان يتذكره طيلة حياته . فما فعله وما كان عليه ان يفعله لم يبد بطوليا في نظره . وقد اكتسب الرجال الذين يدافعون عن ستالينغراد قوة على مقاومة عنيدة صلبة لاتلين لها قناة ، وقد انبثقت هذه القوة نتيجة لشتى الاسباب المختلفة . فهم اولا كلما امتد بهم اجل القتال كلما تضاعفت استحالة التراجع في نظرهم ، وذلك لان التراجع لم يعد يعني سوى الموت العقيم اثناء التراجع ، وثانيا ، بسبب اقترابهم الوثيق من العدو ، وقد اكسبهم الخطر المحدق بهم دائما تذوقا واقعيا للخطر ، وشعورا بان المخاطر امر محتوم لابد منه ، واخيرا بسبب ضيق رقعة الارض التي كانت تغص بجمعهم ، وهذا مما جعلهم يعرفون بعضهم بعضا معرفة وثيقة ، بما لهم من رذائل وفضائل وقد اجتمعت هذه الظروف معا لتبدع تدريجيا تلك القوة العنيدة التي اصبحت تعرف فيما بعد باسم « رجال ستالينغراد » .

وقد ادركت البلاد الروسية باكملها المغزى البطولي لهذا الاسم ، قبل أن تفقهه ستالينغراد نفسها بزمن طويل . فليس هناك من رجل يستطيع ان يؤمن في صميم فؤاده بلا نهائية أي شيء ، فلكل شيء نهاية ، وكل شيء ملاق نهايته في وقت من الاوقات ، وسباروف كان كغيره من رجال ستالينغراد الذين

لايستطيعون ان يعرفوا بدقة ، او حتى ان يخمنوا متى سينتهي هذا الحصار المضروب حولهم ، لكنه لم يتخيل ابدا ان هذا الحصار سيكون ابديا . ومنذ تلك الليلة ، ليلة وجوده لدن بروتسنكو ، وحالما احس اكثر مما ادرك ، بان هناك أمرا ما ضخما جبارا سيحدث ،وان حدوثه سيتم خلال الشهور او الاسابيع او حتى الايام القادمة ، فان هذا الشعور بان النصر قريب والنهاية وشيكة ، قد امده بقــوة جديدة .

وصف سباروف لفانين ومسلنكوف العشاء الذي اوله بروتسنكو لقــادة الافواج والكتائب ، ثم غادرهما قبيل الفجر ليتفقد السرايا . ولم يكن العـــدد المتبقي من رجال كتيبته عددا كبيرا لذلك قرر ان يتحدث الى كل جندي كــي ينقل اليهم بالعدوى شيئا من احساسه بالنصر .

استمر القتال طيلة اليوم وبدا كأن الالمان يريدون ان يأتي سلوكهم مصداقا لما يحس به سباروف في باطنه فأخذوا يقصفون مواقعنا بالطائرات والمدفعية ويطلقون نيرانهم دون ما خطة .ويهاجمون هجمات متعددة عاجلة كأنهم يعرفون بان مالا يحتلونه اليوم لن يحتلوه غدا ، وبدا قتالهم لسباروف كأنه ارتعاشـــات وحش اصيب بجرح خطير ، لكن هذا اليوم بدا في ظاهره كاليومين اللذين سبقاه فالقتال استمر شديد الاوار حامي الوطيس ، واستولى الالمان اربع مرات علــى البقعة التي تفصل بين بناية كونيوكوف ومراكز السرية الثانية .

ولم يتخل سباروف خلال المعارك عن سكون الحذر المألوف ، فكان ينبطح ارضا حينما تنفجر القنابل ، ويختبيء وراء الحجارة عندما تتطاير رصاصات القناصة من حوله وفوقه ، ولم يدفع به حزنه لتعريض نفسه لاخطار غير ضرورية فهذا الامر كان دائما غريبا عنه ، وهو الان غريب عنه ايضا ، فهو يريد ان يعيش، وذلك لانه يترقب النصر بقناعة وفارغ صبر . وهو ينتظر النصر ، بادق مالهذه الكلمة من معنى ، ويترقب تلك اللحظة التي يستطيع فيها ان يستعيد من الالمان اقرب قطعة من الارض اليه ، انها تلك البناية التي استولوا عليها منذ اسبوع والخرائب الواقعة وراءها والتي لايزال الناس يطلقون عليها اسم شارع انسجاما وعادتهم القديمة ، ومن ثم الاستيلاء على حي اخر ، فشارع اخر ، وبكلمة اخرى انه يطمع في استعادة كل مايقع في ميدان بصره . لذلك اذا ماسمعتهم يتحدثون عن نتائج اليوم ، وعن مقتل جنديين وجرح سبعة او عشرة ، وعن حاجتهم الــى نقل رشاشين من الجناح الايسر ، من بناية المحول الخربة الى قبو المرآب ، وعما

اذا كان المستحسن تعيين الرقيب بوسلاييف خلفا للملازم فادين الذي لاقى مصرعه ، او عن ان كل جندي من جنود الكتيبة يحصل الان على ضعف سهمه من الفودكا نتيجة للخسائر التي نزلت بالكتيبة ،وسمعت احدهم يقول فليعبوا الفودكا عبا فالطقس شديد البرد ، وسمعت كيف كسر الساعاتي « مازين » ذراعه ،وكيف انه لايوجد هناك احد يستطيع ان يصلح ساعة النقيب اذا ماطرأ عليها خلل ، وسمعت ان النقيب هو الوحيد من افراد الكتيبة الذي لايزال يملك ساعة ، او عن ضجرهم من تناول البوريدج كل يوم ، وعن تمنياتهم ان يأتوا بلون غير البوريدج عبر الفولغا ، وحتى لو كان هذا اللون بطاطا متجمدة ، او كيف يجب ان يوصى بذاك الجندي او هذا ليصار الى منحه وساما طالما لايزال على قيد الحياة ، لا بعد وفاته ، حيث يكون قد فاته الركب ، وبكلمة اخرى اذا ماسمعتهم يتحدثون كل يوم عن الاشياء التي يتحدثون عنها دائما فصدق حديثهم . اما احساس سباروف بان هناك حدثا ضخما مذهلا متوقع الحدوث ، فانه لم يتلاش من نفسه او تفتر قوته .

وهل فكر سباروف بآنيا خلال هذه الايام ؟

كلا انه لم يفكر بها ، لكنه كان يحس بالم ينهش فؤاده ، ولم يزاوله هذا الالم ابدا ، فكان مهما فعل واينما سار وكيفما تحرك لايستطيع أن ينجو من هذه الالام المستمرة . فلقد كان مقتنعا من انه اذا ما ماتت آنيا ، وهو واثق من انها قد ماتت ، فانه لن يعرف بعدها أي نوع من الحب طيلة حياته .

اخذ سباروف يدرس نفسه ، وهذا امر لم يألفه ابدا من قبل . ولما كان يشعربوطأة الحزن الشديد ، لذلك اخذ يتساءل مرارا عما اذا كان يقوم بكل عمل كما كان يقوم به فيما مضى ، وعما اذا لم يكن قد طرأ شيء جديد على سلوكه ، شيء دفع به الحزن اليه ، فبدل خلقه تبديلا . فحاول ان يتغلب على آلامه وان يعود الى سيرته السابقة .

وفي اليوم الرابع تلقى سباروف من قيادة الفوج وسام كونيوكوف واوسمة اخرى للجنود الذين هم تحت امرة الاخير ، فزحف الى بناية كونيوكوف كي يسلمه وجنوده اوسمتهم . ومن حسن المصادفة ، ان كل جندي من هؤلاء الذين منحوا اوسمة كان لايزال حيا ، وهذا امر غير مألوف في ستالينغراد .

وطلب كونيوكوف من سباروف ان يعلق له وسامه بيده ، اذ ان شظية

قنبلة جرحت رسغه جرحا عميقا فتدلت ذراعه من كتفه خمعة كأنها السوط . وعندما ثقب سباروف بسكين ثقبا في بزة كونيوكوف كما هو مألوف لدى الجنود كي يعلق الوسام على صدره ، وقف كونيوكوف وقفة تأهب وقال :

ـ اعتقد ايها الرفيق النقيب بان افضل درب تختارونه حينما نهاجمهم هو ذاك الدرب الذي يخترق مباشرة بنايتي ، نعم انهم يحاصرونني الان ، لكننا نستطيع من هنا ان نقفز عليهم .. كيف تبدو لك خطتي ايها الرفيق النقيب ؟

فأجابه سباروف :

ـ رويدك يا كونيوكوف ! فسيحين الوقت وسننفذها .

ـ ولكن هل تعتقد بان خطتي جيدة ايها الرفيق النقيب ؟

فاجابه سباروف وهو يفكر بانه اذا ما حان وقت الهجوم فان خطة كونيوكوف البسيطة قد تبرهن عمليا على انها احسن الخطط وافضلها ، ولهذا قال :

ـ نعم ، من خلال بنايتك مباشرة ومن ثم نقفز اليهم بمفاجأة تامة .

كان كونيوكوف يورد كلمة « بنايتي » مرارا وتكرارا ويحس بارتياح عميق في كل مرة تنطلق على لسانه ، ولا شك ان بعض الخبثاء من الجنود كانوا قد حملوا اليه شائعات تقول بان البناية تسمى الان على خرائط الاركان باسم بناية كونيوكوف ، ولهذا كان شديد الاعتزاز بهذا . وقبل ان يغادره سباروف استطرد كونيوكوف يقول :

ـ ان الالمان لايزالون يحاولون رفسنا خارج بنايتي ، فالامور تبلغ الان منعطفا حزينا ، فهل من المناسب ان يضرب الملاك في بيته ؟!

ثم انطلق يقهقه ضاحكا وهو يشير الى الجرح في رسغه ويسترسل :

ـ لقد كانت شظية جد صغيرة لكنها غاصت في لحمي حتى اخترقت العظم ، فالاصابع لاتتحرك ابدا ، لذلك اطلب اليك ايها الرفيق النقيب ان تطلب من القيادة العليا ان يمروا ببنايتي في هجومهم المقبل .

ثم كرر كونيوكوف قوله وهو يودع سباروف .

ولقد دعمت الثقة بهجوم يشن مستقبلا ، هجوم حقيقي في ذهن كونيوكوف

كما هو في ذهن بروتسنكو ، اقول دعمت هذه الثقة شعور سباروف الى حد جعله يؤمن بان هذا هو ماسيحدث . وعندما عاد سباروف من بناية كونيوكوف كان النهار قد تجاوز فجره تقريبا ، والفى سباروف ان فانين قد غادر الخندق ليتفقد السرايا ، بينما وجد مسلنكوف يجلس وراء المكتب مع انه لم يكن لديه من عمل يقوم به ، وكان باستطاعته ان يأوى الى سريره . وكان مسلنكوف قد حاول في الايام الاخيرة ان يرافق سباروف الى كل مكان يذهب اليه ، وكان تلك الليلة قد طلب من سباروف ان يسمح له بمرافقته الى بناية كونيوكوف ، لكن سباروف رفض طلبه فكان عليه ان يتخلف في الخندق ، وهكذا وجدته يجلس قلقا ، ومع انه كان واضحا له وضوح النهار انه لايستطيع ان يدافع عن سباروف أو ان يحميه من شظية قنبلة إو رصاصة ، الا انه احس بضرورة عاطفية تستلزمه ان يكون دائما الى جانب سباروف خلال هذه الايام .

دخل سباروف عليه هادئا واحنى له رأسه ثم نزع جزمته بسرعة وخلع سترته .واضطجع على السرير وسأله مسلنكوف :

ــ اترغب في سيجارة ؟

ــ نعـم !

فناوله مسلنكوف علبة تبغه فلف له سباروف لفافة واشعلها ، وقد احس بامتنان بالتزام مسلنكوف جانب الصمت ، التزام أريب متعاطف ، والحق ان هذه لموهبة نادرة لاتتبدى الا من الاصدقاء المخلصين في ساعات الشجن ، فلم يتوجه مسلنكوف اليه بأي سؤال ولم يحاول ان يواسيه ، لكنه كان يذكره في الوقت نفسه بحضوره الصامت بانه لاينفرد في حمل احزانه ومعاناة الامه . وفجأة احس سباروف بعطف وحنان دفاقين على هذا الرجل الجالس قبالته ، ولاول مرة خلال هذه الايام الاخيرة فكر سباروف بسرور في شيء ما يعقب هذه الحرب ، في لقائهما في مكان جد بعيد عن مكانهما الحالي ، مكان يقع في بناية غير هذه البناية ، يرتديان فيه ملابس تختلف عن ملابسهما الحالية تماما ، ويستطيعان ان يتذكرا فيه كل شيء حدث في هذا الجحر الذي تعلوه سطوح خمسة والواقع بين هذه الخنادق الباردة المكسوة بالثلج ، وستصبح يومذاك هذه العلب التنكية ، مصدرا لتفكه الذاكرة ، وستمسي هذه « الكتيوشا » ، مصابيح ستالينغراد ، وكل شظف العيش وحتى الاخطار اقاصيص تروى وذكريات تقص وفجأة وجدت سباروف يستقعد على سريره ويمد بيده الى مسلنكوف ثـم

يمسك به ويجذبه من كتفه اليه ويقول :

ـ ميشنكا .

ـ لبيك !

فأجابه سباروف :

ـ لا شيء ! لا شيء ! سنلتقي مرة اخرى في يوم ما ، وسيكون لدينا شيء ما نتذكره ، أليس كذلك ؟

فرد مسلنكوف بعد برهة من صمت وقال :

ـ طبعا سنتذكر ، وسنذكر اننا جلسنا هنا في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر حول المدفأة الحديدية في ستالينغراد ، ودخنا هذا النوع النتن من « ماخوركا » (التبغ) .

فسأله سباروف عاجبا :

ـ الثامن عشر من نوفمبر ؟ هل اليوم هو حقا الثامن عشر من شهر نوفمبر ؟

ـ نعم .

ـ هذا غريب ، لقد نسيت .

ـ ماذا نسيت ؟

ـ اذا كان هذا اليوم هو الثامن عشر من شهر نوفمبر ، فانني عندئذ اكون قد بلغت الثلاثين من عمري .

فسأله مسلنكوف الذي بدت له سن الثلاثين سن شيخوخة وهرم وقال :

ـ هل انت حقا في الثلاثين ؟

فكرر سباروف :

ـ انني في الثلاثين يا مشنكا ! في الثلاثين .

ـ اذن كيف تريد ان نحتفل بعيد ميلادك ؟

ـ كيف ، لنجلس حيث نحن صامتين !

عاد سباروف ليضطجع ثانية على سريره ، وليرسل بالدخان من فمه حلقة اثر حلقة ، فها هو قد بلغ الثلاثين من عمره ، وانه ليجلس الان في خندقه، ولقد استطاع ان يبقى حيا عقب ان مرت به الايام السبعون الماضية بهائل الانواء وراعب العواصف ، وتمكن من ان يبلغ الثلاثين من عمره ، بينما ان آنيا بعيدة عنه ، وهو لايعرف حتى ما اذا كانت لاتزال على قيد الحياة .

جلس سباروف على سريره مدة طويلة هادئا لاينبس ببنت شفة ثم اضطجع عليه ثالثة وفجأة غط في سبات عميق تاركا لذراعيه ان تتدليا من على جانبي السرير ، وهو لايزال يمسك بسيجارة خمدت ريحها . وغفا لمدة ساعة تقريبا ، او ربما كانت ساعة ونصف الساعة واذا بالهاتف يقرع فاستيقظ ليرى الظلام كثيفا شديدا ، ضن حتى ان يرسل بشعاع من نور من خلال الانبوب المغروس في الحائط والذي افترض نافذة فأخذ سباروف يتحسس بيديه طريقه الى الهاتف ، وامسك بسماعته وقال :

ــ النقيب سباروف يتحدث .

ــ انني بروتسنكو ، ماذا تفعل ، أنائم انت ؟

ــ نعم كنت نائماً .

فانطلق بروتسنكو يتحدث بانفعال ويقول :

ــ حسنا انتعل جزمتك باسرع مايمكنك من وقت واخرج واصغ !

ــ ماذا يحدث ايها الرفيق الجنرال ؟

ــ اتصل بي فيما بعد ، واعلمني ماذا كنت سمعت شيئا أم لم تسمع ، وايقظ رجالك ودعهم يصغون .

تطلع سباروف الى ساعته ، فالفاها تشير الى السادسة صباحا فانتعل جزمته بسرعة وخرج بقميصه دون ان يرتدي بزته الى الهواء الطلق . وكانت ستالينغراد قد اعتادت ان تعرف في الفترة الواقعة بين السادسة والسابعة صباحا هدوءا نسبيا لا يعكر احيانا صفوه انفجار قنبلة او صفير رصاصة طيلة ربع ساعة او عشرين دقيقة ، اللهم ماعدا طلقات رشاشات يذوب أزيزها في دوي بليد يترامى من انحاء بعيدة .

وعندما خرج سباروف راكضا من الخندق كان الثلج يتساقط لينسج كفنا ثقيلا يكفن به كل مايقع على بعد بضعة خطوات منه . وخطر له ان يدعم الحرس ، فهاتف بروتسنكو اليه جعله يتوقع حدوث حدث استثنائي ، لكنه في البدء لم يستطع ان يسمع شيئا ، وكانت الليلة باردة واخذ الثلج يتساقط ليتسرب الى جسده من خلال ياقة قميصه المحلولة الازرار ، لكنه بقي واقفا في العراء لمدة دقيقة او دقيقتين ترامى اليه اثرهما ارعاد ينطلق من مكان بعيد يقع على يمينه من جهة الشمال ، ثم سمع اصوات قصف تنبعث من مكان ناء، فقدر بعد ذاك المكان بثلاثين او عشرين كيلو مترا ، لكنه بدا بالرغم من هذه المسافة قصفا شديدا قويا هز الارض هزا ، فشعر سباروف بانه مهما كان المكان الذي ينبعث منه مثل هذا الهزيم ، فانه لا شك في ان احداثا وحشية رهيبة تدور فيه، احداثا لم يسبق لها مثيل شكلا وحجما ، وهنا لم يعد سباروف يحس بالبرد او بقشعريرته ، فوقف يصغي الى الهزيم وهو ينفض بين فينة واخرى ندف الثلج عن اجفانه . فأخذ يتساءل عما اذا كانت هذه هي القارعة ثم التفت الى الجندي الواقف الى جانبه وسأله :

ـ هل تسمع شيئا ؟

ـ لماذا ؟ ماذا تعني ايها الرفيق النقيب ؟ طبعا انني اسمع ، فهي مدافعنا.

ـ ما الذي يجعلك تعتقد بانها مدافعنا ؟

ـ ان اصواتها تنبئك .

فسأله سباروف :

ـ هل مضى على هذه الحال وقت طويل ؟

فـرد الجندي :

ـ لقد انطلقت ترعد منذ ساعة تقريبا ، ولم تتوقف عن ارعادها منذ ذاك الحين .

فعاد سباروف سريعا الى خندقه وايقظ مسلنكوف ثم فانين الذي كان قد عاد منذ برهة قصيرة من تفقد السرايا وكان ينام بمعطفه وحذائه ، واخذ

يناديهما بالصوت المنفعل ذاته الذي خاطبه به بروتسنكو منذ خمس دقائق ويقول:

ـ هيا انهضا ! انهضا !

فسأل مسلنكوف وهو ينتعل جزمته :

ـ مـاذا جـرى ؟

فأجابه سباروف :

ـ اتسأل عما جرى ؟! لقد حدث شيء هائل ، أخرج واصغ بنفسك !

ـ لاي شيء اصغي ؟

ـ اذهب واصغ وبعدئذ نتحدث .

سارع مسلنكوف الى خارج الخندق ، ولحق به فانين الذي كان ينام بثيابه وعندما غادراه طلب سباروف بروتسنكو هاتفيا وقال :

ـ ايها الرفيق الجنرال لقد سمعته !

ـ آه . . سمعت ؟! لقد سمع به كل انسان ، لقد ايقظتهم جميعا ، لقد بدأت ايها الشيخ ! لقد بدأت . وسأرى اوكرانيا مسقط رأسي ثانية ، وسأقف على تلة فلاديمير في كييف . هل تصدقني ؟

ـ نعم ، انني اصدق .

لم يسبق لبروتسنكو ان ذكر امام سباروف طيلة معرفته به اوكرانيا التي احبها بمثل هذا الدفق ، او كييف ، ولم يرد لاي منهما ذكر على لسان بروتسنكو امام سباروف حينما كانا يحاربان معا في الجبهة الغربية ، او حول فورينيج أو هنا في ستالينغراد . ولم يكن يرتاح اذا ماتحدث احدهم عن اوكرانيا او كييف في حضوره ، فلقد كان بمثابة القرحة في جسده ، اما الان فانه هو نفسه قـد انطلق يتحدث عن كل من اوكرانيا وكييف معا واسترسل يخاطب سباروف هاتفيـا :

ـ هذه هي الليلة الرابعة التي لم اعرف فيها للكرى طعما ، لقد كنت اخرج كل ليلة لاصغي ،واعرف هل بـدأت . وجماعتنا كما اعرفهم يحبون دائمـا ان يبدأوا قبل الفجر ، ولهذا لم استطع النوم ، اذ كنت اخرج لاصغي ، ولقد خرجت

اليوم لاري الجوقة قد بدأت تعزف معزوفتها . . هل تسمعها حسنا يا سباروف؟

ـ اسمعها واضحة تماما ايها الرفيق الجنرال .

فأجاب بروتسنكو :

ـ لم اتلق حتى الان اي بلاغ رسمي من قيادة الجيش ،فلتنتظر قبل اعلانك لهذا النبأ للرجال ، لكن لا ادري ماذا تستطيع ان تعلن عنه لهم ؟ فهم باستطاعتهم ان يسمعوا الهزيم بانفسهم ، وبمقدورهم ان يخمنوه ، لكن على كل حال لاتذعه رسميا ، وسأتصل الان فورا بالقائد العام للجيش واعلمك بعدئذ بالمستجد من الامـور .

اعاد بروتسنكو السماعة الى موضعها وحذا سباروف حذوه ، ومع انـه لم يكن يعرف كيف واين تجري هذه الاحداث لكنه لم يخامره لحظة من شك في انها قد بدأت . ومع ان القصف قد بدأ منذ ساعة واحدة تقريبا ، الا ان الحيـاة بدت أمرا مستحيلا اذا ما قدر لهذا الهزيم الرائع لهجوم المدفعية والذي يتردد بعيدا بعيدا ، أن يتوقف . ولم يعد يهم سباروف احملت كل لحظة ارعادة ام لم تحمل ، فهو قانع من ان عجلة هجومهم قد دارت ، وهيهات لها ان تتوقف . ثم عاد سباروف ليسأل نفسه :

ـ احقا بدأ هذا الهجوم ؟ وقد ارعبه هذا السؤال تقريبا لكنه سارع ليجيب وجدانه بقناعة عميقة انه نعم وطبعا قد بدأ .

كان خندق سباروف يقع في مكان يعرف باسم مصيدة الجرذان ويقـع تقريبا على قمة جرف نهر الفولغا . ولم تكن تفصل الالمان اكثر من ثمانماية متر عن نهر الفولغا ، وستين مترا تقريبا عن خندق سباروف . وبالرغم من هـذا فانه يحس الآن للمرة الثانية في حياته ، ما احس به تماما في شهر ديسمبر الماضي امام موسكو ، يحس بسعادته التي لا توصف بالهجوم العظيم . والتفت سباروف الى فانين وسأله وهو يراه يعود اليه ومسلنكوف خاشعين :

ـ حسنا ! هل سمعته ؟

جلسوا ثلاثتهم لمدة خمس عشرة دقيقة تقريبا دون ان يأتي احـدهم بأية حركة ، وكانوا يتبادلون بين فينة واخرى جملا غير مترابطة قطـع تسلسلهـا شعور بالسعادة دواخ يدير الرأس ويادر فانين يسأل :

ـ هل هناك احتمال بتوقفه ؟

فرد سباروف :

ـ لا تقلق ! كان من الممكن ان يحدث ما تقوله قبل شهر ، ولكن لما كنا قد امضينا هنا شهراً نترقبه ، فانه لا يستطيع ان يتوقف ، لا ، بل لا يجرؤ على التوقف .

وقال مسلنكوف :

ـ كم اتمنى ان اكون الآن موجودا هناك !

ثم عاد ليكرر سابق قوله منفعلا فسأله سباروف :

ـ ما الذي تعنيه بقولك هناك ؟

ـ هناك حيث يهاجمون .

ـ ان المرء حينما يسمع ما تقوله يا ميشا يخالك تجلس في مكان ما في طشقند .

ـ كلا اريد ان اكون هناك حيث يهاجمون .

فرد سباروف :

ـ لكننا سنهاجم هنا ايضا .

ـ متى سنهاجم ...؟

فأجاب سباروف بلهجة وفورة عفوية لم يتعمدها وقال :

ـ هذا اليوم .

فسارع مسلنكوف يسأل :

ـ اليوم هذا ؟

ثم انتظر من سباروف ان يسترسل في حديثه ، لكن هذا لم يفه بكلمة واحدة ، فخطة قد خطرت له ، وهو لا يريد ان يتحدث عنها مسبقا . واستطرد مسلنكوف :

ـ اذن سيكون هذا اليوم يوما رائعا اذا ما قمنا بهجومنا فيه .

وعقب دقيقة من صمته استأنف مسلنكوف يقول :

ـ اذن فمن المستحسن ان نشرب نخب هجومنا أليس كذلك ؟

فرد سباروف فجأة :

ـ سيكون هذا اول عمل نقوم به في الصباح .

وتدخل فانين يقول :

ـ اذا ما اردنا فنسطيع ان نزعم بان هجومنا سيقع ليلا ، فالفجر لم يتسلل بضوئه بعد .

وصرخ سباروف يستدعي بطيرس ، لكن هذا لم يجب على ندائه ، فلقد كان هو الآخر يقف بدوره خارج الخندق ويصغي الى هزيم المدافع ، والحق انه سمع سباروف يستدعيه ، لكنه لم يأبه لندائه ، اذ كان شديد الرغبة في متابعة استماعه لمعزوفة المدفعية ، فاضطر سباروف ان يخرج بنفسه الى خندق المواصلات ، وعندما بلغه صاح يستدعيه ثالثة ، فتظاهر بطيرس بأنه يسمعه لاول مرة وسارع اليه فبادره سباروف سائلا :

ـ هل سمعته ؟

فأجابه بطيرس باسما :

ـ لقد سمعته .

ـ هيا واسكب لنا شرابا !

دخل عليهم بطيرس يحمل طبقا وضع عليه ثلاثة أقداح وعلبة من اللحم غرس فيها ثلاث اشواك ، وبادره سباروف ليتخطى الاعراف لاول مرة وقال :

ـ هيا اسكب لك قدحا .

فأزاح بطيرس الستار جانبا وخرج ثم عاد يحمل كأسه مترعا ، فأخذوا يقرعون كؤوسهم بعضا ببعض ويحتسون الخمرة صامتين ، فكل شيء جلي وواضح وليس هناك من حاجة الى الحديث . لقد كانوا يشربون انخاب الهجوم.
وعقب نصف ساعة اتصل بروتسنكو بسباروف هاتفيا واعلمه بلهجة لا

يزال يشوبها الانفعال وقال بانه اتصل بالقيادة العامة وان القيادة قد اكدت له رسميا ان جنودنا قد انطلقوا في الساعة الخامسة صباحا مهاجمين شمـالا من ستالينغراد وذلك بعد تمهيد جبار قامت به المدفعية . وعندما نقل سباروف هذا النبأ الى رفيقيه صاح مسلنكوف مبتهجا :

ـ سنفصلهم عن قواهم ، وسنحاصرهم .

وبادر سباروف يامرهما :

ـ هيا فلتنطلقا ! ولتذهب يا فانين الى السرية الاولى ، اما انت يا مسلنكوف فلتلتحق بالسرية الثانية .

فسأله فانين :

ـ هل ستبقى انت هنا ؟

ـ نعم اريد ان اتحدث الى ريميزوف .

برى سباروف قلما رصاصيا ، وأخرج من ملف اركانه ورقة دونت عليـها توزيعات كتيبته والبنايات الواقعة امامها . وبدأ يفكر . ثم خط على تلكالورقة بضعة ملاحظات سريعة اتبع الواحدة بالاخرى . ووصل الى قرار بان عليه ان يهاجم اليوم ، فهذا امر واضح وجلي ، فهو يعلم بأن جسام الاحداث تجـري الآن بعيدا الى الشمال ، وربما في الجنوب ايضا ، وان على مجموعة كتيبته ان تقبع حيث هي لمدة طويلة من الزمن . ومع أن الحدث الكبير الذي ترقبوه بشوق ولهفة قد بدأ ، الا ان سباروف يحس بشهية لا تقاوم للنشاط والعمل تأخـذ عليه كل رغائبه . فكل ما يختزنه قلبه وقلوب هؤلاء الرجال عليه ان يجد لـه متنفسا ، وعليه ان يجده هذا اليوم ، وهكذا وجدت سباروف يمسك بسماعة الهاتف ويقول :

ـ الرفيق العقيد ؟

ـ نعم .

ـ هل تسمح لي ايها الرفيق العقيد بالقدوم اليك ؟ ان لدي خطة لعملية صغـيرة .

فأجاب ريميزوف والهاتف يكاد ينقل ابتسامه الى سباروف وقال :

ــ عملية ؟! هل انت غيور من امجاد الجيوش الهاجمة ؟

ــ اعتقد بانني ما تقوله .

ــ حسنا ! اذن انت ما تقوله ، لكن لا تحضر الي فأنا سأوافيك .

فسأله سباروف :

ــ متى ؟

ــ فورا .

وصل ريميزوف عقب نصف ساعة . وحتى انتهى من حل أزرار معطفه القصير ، وخلع عمرة الفرو التي يعتمرها ، كان وجهه يتألق احمرارا بسبب الزمهرير ، كما جعله شارباه الرماديان يبدو كأنه نوع بشوش جذل من « سنتاكلوز » .

جلس الى جانب سباروف واخذ يحتسي الشاي الساخن الذي أعده له بطيرس وبادر ريميزوف يقول :

ــ لقد احسست الى درجة ما بشعور مشابه لهذا في الهجوم الذي شنه الجنرال برسيلوف (1) بعد ان انتظر طويلا في غاليشيا . والحق انه كان شعورا ممتازا وخاصة في الايام الاولى من الهجوم ، لكن هذا أضخم من ذاك وأعتى .

ــ ما الذي هو اضخم ؟

ــ كل شيء اضخم ، الهجوم والشعور معا .

فسأله سباروف :

ــ هل تعتقد بان هذا هجوم ضخم ؟

ــ انني قانع من هذا ، فاما ان يكون شيئا ما هائلا جبارا ، واما ان يكون خطأ لا يغتفر ، وانا لم اعد اؤمن باحتمال وقوع الاخطاء . فلقد وقعنا فيما

---

(1) في صيف عام ١٩١٦ ارغمت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال برسيلوف القوات النمسوية على التراجع من مستنقعات بنسك حتى الحدود الرومانية . وقد أسر الروس آنذاك ٣٥٠ الف اسير وغنموا ٤٠٠ مدفع ، وغنائم اخرى ، وكان هذا اضخم هجوم شنته الجيوش القيصرية .

يكفي منها ، وهذه هي السنة الثانية للحرب ، ولن يكون هناك المزيد من الاخطاء، ويجب الا تقع ...

ثم دفع بفنجان جانبا وقال :

ــ حسنا ما هي خطتك ؟

فأجاب سباروف :

ــ انها خطة بسيطة ترمي الى استعادة تلك البناية الواقعة وراء بناية كونيوكوف .

ــ متى ؟

ــ الليلة هذه .

ــ وكيف ؟

فعرض سباروف الخطة التي اقترحها عليه كونيوكوف عرضا موجزا سديدا ، وكان كونيوكوف كما يذكر القارىء ، قد ذكر لسباروف هذا الامر ، ولم يعتقد سباروف بانه سيقدم على تنفيذه بهذه السرعة . واسترسل النقيب يشرح لرئيسه :

ــ ان اهم ما في الخطة هو الا نهاجم من حيث يترقب الالمان هجومنا، بل نهاجم منطلقين مباشرة من كونيوكوف خارج البناية المحاصرة ، حيث لا يتوقع الالمان منا سوى دفاع سلبي .

فاخذ ريميزوف يبرم شاربيه الرماديين ويقول :

ــ والرجال ؟! ان الخطة جيدة ، لكن الرجال ؟

فاجابه سباروف :

ــ وهذا ايضا ما اثار اهتمامي فيما قبل ، فبالأمس كنت اعتقد باحتمال نجاح الهجمة اذا ما امدنا بالمزيد من الرجال اما اليوم وبعد هذا ...

ثم أومأ سباروف برأسه الى الجهة التي يترامى منها هزيم المدافع واسترسل :

ــ وبعد هذا فانا اعتقد ...

فقاطعه ريميزوف :

ـ فنحن نعتقد بنجاحنا في تنفيذ ما عرضت .

ـ نعم ، تماما .

ثم ابتسم سباروف واضاف :

ـ والى جانب هذا فاريد منك ان تعطيني القليل من الرجال . اليس كذلك؟

فأجابه ريميزوف مبتسما :

ـ سأعطيك .

ـ وانا واثق من انك حينما تطلع الجنرال على خطتي سيعطينا هو بدوره القلائل .

فأجابه ريميزوف :

ـ لا شك في ذلك ، فهو سيعطي ، لكنني لا اعلم ما اذا كنت سأعطيك بضعة رجال او لا ، لكن الجنرال سيعطيك دون شك .

ـ لكنك ستعطيني القلائل منهم .

ـ طبعا سأعطيك ، لقد كنت أمازحك ، واول جندي سأقدمه اليك هو نفسي . يا الهي ان الملل يكاد يقتلني من جلوسي هنا مدافعا .

ثم تطلع الى سباروف وهو مقطب الجبين واستطرد :

ـ طبعا سنستولي على تلك البناية ، برفقة كتلك من الشمال ، والحق انه لعار علينا ان لم نستول عليها .. تلك بناية .. ولكن ما هي قيمة البناية ؟

ثم ابتسم وعاد فجأة ليتحدث بلهجة جادة وقال :

ـ الواقع ان البناية هي في حد ذاتها شيء ضخم جدا ، انها تقريبا كل شيء ، انها روسيا .

قال هذا ثم أسند بظهره الى الحائط واخذ يتمشدق :

ـ روسيا ... انك لا تستطيع ان تتصور الشعور الذي سيخالجنا غدا فجرا عندما نكون قد استولينا على تلك البناية . ولكن ما هي تلك البناية ؟ انها

اربعة جدران ، وليست حتى اربعة جدران ، بل اربع خرائب ، غير ان قلبك يقول لك : انظر كما استعدنا هذه البناية سنستعيد كامل الاجزاء المحتلة من روسيا. هل تفهم ما اقول يا سباروف ؟ ان المهم هو ان نبدأ . ان نبدأ بتلك البناية اذا ما كان علينا ان نبدأ بها ، لكن علينا ان نشعر في الوقت ذاته بضرورة استمرارنا في الهجوم . سنستمر مهاجمين حتى ننهي كل امر . نعم كل امر .

قال هذا وسأل فجأة سباروف سؤال رجل اعمال :

ــ قل لي ، ماذا تقترح من خطة للانتقال برجالك الى كونيوكوف ؟

اخذ سباروف يشرح له كيف انه سيرسل بالجند تحت جنح الظلام ، وكيف سينتقل بهم بصمت وهدوء ، وكيف انهم قد يتمكنون ايضا من نقل بعض مدافع المورتر ، ومدفع صغير ايضا . وبعد نصف ساعة من اعداد الخطة ودراسة عناصر تنفيذها تناول ريميزوف سماعة الهاتف وطلب بروتسنكو ثم قال :

ــ ايها الرفيق الجنرال انني موجود الآن في مركز سباروف ، ولقد اعددنا خطة للقيام بعملية هجومية تنفذها كتيبته .

وحالما سمع الجنرال بروتسنكو كلمة عملية هجومية انطلق يقول :

ــ نعم ! نعم ! أعملية هجومية ؟ فلتحضرا فورا الي ، انت وسباروف . فورا .

بلغا مركز قيادة بروتسنكو سالكين اليه خنادق المواصلات ، وكان الفجر قد بدأ يرسل بضوئه ، لكن الستار الابيض الثلجي كان لا يزال يحجب كامل الافق ، اما المدفعية فلم يخف حتى الفجر ارعادها وهزيمها ، اللذين امسيا ملء السمع ، والفيا بروتسنكو في حالة نفسية متوترة ، فكان يذرع خندقه جيئة وذهابا ، وكان لا يزال يرتدي تلك البزة الثمينة الفاخرة التي ارتداها حينما أولم لضباطه وليمته المعهودة ، لكنه كان يرتدي فوقها معطفا جلديا فالبرد كان شديدا داخل خندقه، ولذلك ما كاد يصافح ريميزوف وسباروف حتى بادرهما:

ــ انها لشديدة البرد ، وفوستريكوف « ابن الكلبة » لم يستطع حتى الان ان يتدبر بعض الحطب ، وهذه المدفأة جثة هامدة تقريبا .

قال هذا واخذ يقترب براحتيه العاريتين الى الموقد واخيرا صاح مناديا :

ـ فوستريكوف !

ـ نعم ايها الرفيق الجنرال !

ـ متى ستحضر الينا الحطب ؟

ـ خلال ساعة .

ـ حسنا ! لنرقبه فانها لشديدة البرد هنا .

ثم التفت الى ريميزوف وسأله بنفاد صبر :

ـ حسنا ! عن اية عملية هجومية كنتمـا تتحدثان ؟ هيا حدثني بهـا ايهـا العقيد !

فأجابه ريميزوف :

ـ فلتسمح ايها الرفيق الجنرال لسباروف أن يطلعك عليها ، فهي خطته !

ـ حسنا ! اذا كانت هي خطته فليتحدث اذن ! فالمهم لدي ان تكون هناك عملية هجومية ، ولا يهمني من يطلعني عليها ، هيا تحدث !

شرح سباروف للمرة الثانية هذا الصباح خطته شرحا موجزا سديـدا سأله بعده بروتسنكو :

ـ هل تستطيع ان تتـدبر في ليلة واحـدة امر نقل جنودك الى بنـاية كونيوكوف ، كي تبدأ هجومك قبل الفجر ؟

فأجابه سباروف :

ـ نعم سأتدبره .

ـ كم هو عدد الرجال الذين تستطيع ان ترسل بهم الى هناك ؟

ـ ثلاثون !

ـ وكم من الرجال تستطيـع ان تقدم اليـه يا ريميزوف بالاضافة الى ما لديه ؟

فأجاب ريميزوف بعد امعان استمر برهة وقال :

ـ عشرين .

فعاد بروتسنكو يسأل سباروف :

ـ هذا ما معناه انك تستطيع ان تعد وتحشد خمسين رجلا ، فهل بامكانك ان تدبر امرهم ؟

ـ نعم .

ـ واذا ما اعطيتك انا ثلاثين رجلا آخر ، فعندئذ يصبح ما لديك ثمانون رجلا ، فهل بمقدورك حينئذ ان تقوم بمهمتك ؟

فأجابه سباروف فرحا مسرورا :

ـ طبعا وسأكون عندئذ في افضل حال .

ـ اذن هذا ما في الامر، حسنا ! حسنا ! سنبدأ هجومنا بهذه العملية ...

ثم التفت الى سباروف وقال :

ـ اياك ان تنسى انني لا اعطيك رجالا كي تبددهم ، ونحن سنستولي على البناية ، وهذا امر لا اشك فيه لحظة واحدة ، ولكن في ستالينغراد ، فنحن هم المضروب حولهم طوق الحصار ، وليس الالمان ، وذلك بغض النظر عما يدور في الشمال ، هل تفهمني ؟

فأجاب سباروف :

ـ افهم .

وتدخل ريميزوف مناديا :

ـ ايها الرفيق الجنرال .

ـ نعم .

ـ اسمع لي بان اشترك في هذه العملية شخصيا !

فتجهم بروتسنكو وعبس وقال :

ـ انت نفسك ؟ ماذا يعني قولك هذا ؟

هل يعني بقاءك اثنا العملية في مركز قيادة سباروف ؟ طبعا يحق لـك هذا الامر فانت آمر الفوج . او تعني انك تريد ان تزحف الى كونيوكوف ؟ هل تعني هذا ؟ اتريد ان تذهب الى هناك ؟

فصمت ريميزوف وعاد بروتسنكو يسأله :

ـ اتريد ان تذهب الى هناك ؟

ـ نعم هذا ما اريده .

ـ حسنا ، هذا مسموح لك به ايضا ، لكنني لا اسمح لك بتجاوز بنـاية كونيوكوف خطوة واحدة ، فاترك هذه المهمة لسباروف أفهمت ما اقوله ؟

فأجابه ريميزوف :

ـ نعم فهمت ايها الرفيق الجنرال .

ـ اذن فسباروف سينطلق حتى نهاية هدفه ، اما انت فتمكث في بناية كونيوكوف ، وقد احضر انا بنفسي الى مركز القيادة . فلنبت في الامر عـلى هذا الشكل . انصرفا ! وانا سآمر بجمع الثلاثين رجـلا ، لكن لتهتم بهم، فهم آخر ما لدي . فتذكر هذا .

فسأله سباروف :

ـ هل تسمح لي بالانصراف ؟

ـ نعم ! واخبرني هاتفيا كيف تجري استعداداتك ! اخبرني تفصيليـا ! فانا جد مهتم بهذه العملية .

ثم اضاف فجأة يقول ببساطة الطفل وبراءته :

ـ نعم هناك شيء آخر . قل لجنودك وضباطك باسم الجنرال ، ان اول رجل يبلغ تلك البناية سيحصل على ترقية Order وأن ثاني من يبلغهـا سيحصل على وسام Medal كما ان كل من يأسر اسيرا سأمنحه وساما ايضاً . هل قلت ان كونيوكوف هو اول من اقترح عليك خطتك ؟

فأجابه سباروف :

ـ نعم انه كونيوكوف :

ـ اذن سأعطيه وساما ، فلقـد قدمت اليه منـذ مدة قصيرة وشاحا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ حسنا ! انه الآن يحصل على وسام ، فليعلقه ، قل له انه وسام مني . . حسنا هذا كل ما في الامر فلتنصرفا !

كرس النهار للاعداد للهجوم . وكان كل شيء يجري ويتحرك بسرعة ، دون ما تباطؤ ، وببراعة وكفاءة مذهلتين . وقد بدا كأن حمى التعطش للنشاط والحيوية قد انتابت كل ضابط في الفرقة ابتداء من سباروف وانتهاء ببروتسنكو ولم تكد تمضي ساعتان من الزمن على مغادرة سباروف قيادة بروتسنكو ، حتى هتف رئيس اركان حرب الفرقة الى سباروف واعلمه بانه قد اعد له ثلاثين رجلا اتى بهم من احتياطي الفرقة . وقد دبر رجال المدفعية من مختلف الوحدات ثلاثة مدافع كي ينقلوها فورا الى البناية عقب الاستيلاء عليها . وجلس بطيرس في احدى زوايا خندقه يعبيء مدخرات رشيشه ، ورشيش سباروف ، بينما كان مسلنكوف يقوم في الوقت ذاته بتنظيف وتزييت رشيشه بعناية فائقة تجعل المرء يخال ان نجاح العملية باكملها يتوقف على رشيشه هذا . كما مزق قطعة من قماش من حقيبة سباروف للقنابل اليدوية ، واخذ يمسح بها رشيشه . ولاول مرة لم يحافظ في الكتيبة ، على السرية التي تفترضها الاعراف العسكرية ، حين الاعداد لعملية حربية ما ، اذ ان كل من في الكتيبة كان يعرف بان هناك خطة ترمي الى الاستيلاء على البناية هذه الليلة ، وكان جذلا مسرورا بها ، مع ان كل واحد منهم معرض في هذه العملية لفقدان حياته .

لم تتوقف المدفعية في الشمال عن ارعادها ، وهذا دليل على ان الهجوم الرئيسي لا يزال مستمرا ، زد على ذلك ان هذه الفكرة الفاجئة لاحتلال البناية بعد هذه الفترة من الهدوء ، قد جعلت كل جندي ينسى الموت ، او على الاقل يفكر به اقل من المعتاد. وقبيل المساء حضر ريميزوف الى قيادة الكتيبة .وقال بان رجاله والرجال الذين امدهم بهم بروتسنكو ، ينتظرون مترقبين . وتناول الاربعة منهم ، فانين ومسلنكوف ، سباروف وريميزوف ، عشاء سريعا بسبب انهماك بطيرس في اعداد الرشيشات وتنظيفها ، وهكذا استطاع لمرة واحدة ان يتملص من القيام بدور الطباخ . وبعد ان تناول هؤلاء طعامهم جلسوا

يبحثون في توزيع المسئوليات . فقرروا ان يبقى فانين في مركز قيادة الكتيبة ، اذ كان قد عاد لتوه من تفقد السرايا . وكان الالمان قد تابعوا طيلة النهار اطلاق نيرانهم على مراكز الكتيبة كالمعتاد ، كما وانهم شنوا هجمتين صغيرتين . وعلى كل حال فان احداث ذاك اليوم اتخذت مجراها الروتيني ، كأنه لم تقع معجزة في الشمال ، وكأنه ليس هناك من ارعاد مدفعية وهزيم مدافع ، اربكا كل ما في اذهان الناس . والحق ان فانين لم يعزم على البقاء في مركز قيادة الفوج ، لكن عندما عرضت عليه هذه المهمة لم يعترض او يحتج ، مع ان سباروف لاحظ أن فانين لم يرتح الى ما عرض عليه ، وانه يحاول بصعوبة ان يضبط نفسه .اما مسلنكوف فكان في حالة نفسية رائعة ، فلقد انيط به ان يتقدم وسباروف وريميزوف الى بناية كونيكوف . وما كاد الظلام يرخي سدوله حتى نجح سباروف ومسلنكوف والمجموعة الاولى من الجنود في بلوغ بناية كونيوكوف الذي بادر يسأل :

ــ هل تسمح لي ايها الرفيق النقيب بسؤال ؟

ــ حسنا !

ــ هل يعني قصف المدفعية هذا اننا نضرب الحصار على الالمان ؟

فاجابه سباروف :

ــ نعم هذا هو ما يعنيه .

ــ وهذا ما شرحته ايضا لهم ، فهم كانوا دوما يسألونني عنه ، ويقولون:

ــ ايها الرفيق الملازم ، انهم جميعا يخاطبونني بالملازم هل هو جانبنا الذي يقوم بالهجوم ؟ وكنت دائما اجيبهم ، هــذا امر فوق الشك ، فنحن الذين نهاجم الان .

فاجابه سباروف :

ــ نحن الذين نهاجم يا كونيوكوف ، وهذه حقيقة فوق كل شك ، والليلة هذه سنهاجم من هنا ايضا.

ثم اعلمه بان بروتسنكو قد منحه وساما ، وهنا وقف كونيوكوف وقفه تأهب وقال :

ـ انني سعيد بان ابذل كل جهد

بدأ رجال كونيوكوف ، متعاونين ومن جاء بهم سباروف ، في تنظيف ثغرة في البناية كي تنطلق منها الوحدات الضاربة . فكانوا ينزعون بأيديهم الاجر آجرة بعد آجرة . واحضر الجند الى البناية الديناميت والقنابل اليدوية ، ثم نقلوا خلال خنادق المواصلات عدة بنادق مضادة للدبابات ومدفعي مورتر من مدافع الكتيبة . وترك سباروف لسلنكوف ان يشرف على هذه الاعدادات ، وغادره الى مركز قيادة القوة المهاجمة حيث قابل ضابطا مدفعيا شابا اعلمه بان لديه ثلاثة مدافع وطلب الملازم الشاب ارشادات سباروف بخصوص التقدم بمدافعه فاجابه سباروف :

ـ تستطيع في بعض الاماكن ان تجرها ، ولكن عليك في اماكن اخرى ان تحملها بيديك .

فأجابه الملازم بلهجة تتدفق بالشوق الذي ابداه كل رجل اليوم وقال :

ـ سنحملها بايدينا ، ونستطيع ان نحملها طيلة الطريق ، اذا ما اضطررنا الى ذلك .

ـ لست مضطرا لحملها طيلة دربك ، لكنك اذا ما احدثت اية ضوضاء ، واذا ما قتلك الالمان بسببها ، عندئذ سأحملها انا ، هيا نفذ الاوامر .

فرد الملازم :

ـ لن نحدث أية ضوضاء .

طلب سباروف من بطيرس ان يرافق الملازم ، فبطيرس يعرف الدرب الى بناية كونيوكوف وقد سبق له ان زار هذه البناية برفقة سباروف ثلاث مرات .

لم يتمكن سباروف من حشد رجاله ورجال ريميزوف ، والجند الذين ارسل بهم بروتسنكو قبل منتصف الليل . وقد وزع هذا الحشد الى مجموعات صغيرة ، وبدأ يرسل بهم الى بناية كونيوكوف مجموعة اثر مجموعة . وقد رافق سباروف وريميزوف اخر مجموعة منهم . وشاهد سباروف الجند وقد اعدوا في قبو البناية مكانا للتدخين ، واخذوا يدخنون اللفائف ، وعندما نفذ تبغهم ، كان يتناوب السيجارة الواحدة جنديان او ثلاثة ، فاخرج سباروف كيس تبغه ،

وسكبه في راحات الجنود حتى غباره .

لم يكن سباروف يحس باي انفعال ، لكنه كان دائما يتساءل قلقا عما اذا لم يكن قد نسي امرا او شيئا ، وعما اذا كان قد انجز اعداداته على اكمل وجه . وقام جنود سلاح الاشارة بمد خط هاتفي ، يصل بناية كونيوكوف بمركز سباروف ، ولو ان هذا الخط قد مد نهارا لكان الالمان قد شاهدوه وقطعوه ، لكن لليل جنحا فضفاضا . ومكن هذا الخط سباروف من التحدث الى بروتسنكو اذ ما كادوا ينتهون من مده حتى تناول سماعة الهاتف وطلب بروتسنكو الذي أجابـه :

ـ من أين تحدثني ؟

ـ من بناية كونيوكوف

ـ يا لك من رجل طيب ، اريد ان أزعم بانك مددت بخط هاتفي اليها ، حسنا كيف تجري أموركم ؟

ـ لقد انتهينا من اعداداتنا ايها الرفيق الجنرال .

فاجابه بروتسنكو :

ـ حسنا فعلتم ، هل تستطيعون البدء خلال نصف ساعة ؟

ـ نعم نستطيعه

ـ هذا ما معناه الساعة ٠،٣٠..

لم يبدأوا هجمتهم في الساعة ٠،٣٠.. بل انما باشروها متأخرين عن هذا الموعد بثلاثة ارباع الساعة ، اي في الساعة الواحدة والربع . اذ بدا لهم انـه من المستحيل عليهم جر المدفع المضادة للدبابات من خلال الثغرة فـي الحائط ، لذلك اضطروا ان يهدموا الجدار بايديهم أجرة اثر اجرة . واخيرا بعد ان وزع الرجال الخمسون الذين كان عليهم ان يشنوا الهجمة الاولى الى اربع مجموعات، وعندما انتهى جنود سلاح الهندسة من اعداد ديناميتهم وقنابلهـم اليـدوية ، واكتمل استعداد جنود الرشيشات لمرافقتهم ، عندئذ سددت فوهة المدفـع من خلال الثغرة في الجدار الى الجدران الصغيرة الاخرى حيث اقام الالمـان اعشاش رشاشاتهم ، وفـي الساعة الواحدة والربع ، صدر الأمر همسا ببـدء

الهجوم ، فانطلقت مدافع المورتر تزمجر وتزار زئيرا يصم الاذان ، واخـذت الجدران تردد زعيدها جدارا فجدارا ، لتسلمه اخيرا الى الانقاض والخرائب . وانطلق المدفع يضرب بقنابله الى الامام مباشرة ، وتقدم سباروف ومسلنكوف على راس مجموعات الاقتحام . وبدا ان الالمان كان يترقبون ان يشن عليهم هجوم من اي مكان ، الا من هذه البناية المحاصرة التي بدت لهم انها تختنق تماما بالحصار المضروب عليها ، فأخذوا يطلقون النار اطلاق يائس ، لكنه كان اطلاقا غير منتظم ، اتضح اثره ان الارتباك يشوش اذهانهم وصفوفهم . وككل قتال ليلي ، جاءت هذه الهجمة مليئة بكل ما هو غير متوقع او مترقب ، فالاطلاق اعمى ، والقنابل اليدوية تنفجر تحت الاقدام مباشرة ، وكل ما في الجو يعطي الاعصاب لا الاعداد ، القدرة على الحسم في القتال الليلي . وقد كان على سباروف ان يلقي عدة مرات بالقنابل اليدوية ، ومرة غرس فوهة رشيشه في صدر عدوه واطلقه ، وكثيرا ما تهاوى وهو يعثر في دجنة الليل بالخرائب والانقاض منكفئا على وجهه ، واخيرا وبعد ان عدا كل الانقاض في قبو البناية، الفى نفسه خارجا يقف عند جانبها الغربي ، فأخذ يتخطف انفاسه ، وأمر احد الجنود بالقرب منه ان يطلب اليهم جر المدفع باسرع ما يمكن . وقد فاجأت الاحداث الالمان فقتل الكثيرون منهم ، اما الاخرون فارغموا على الفرار قبل ان يتحققوا حتى مما كان يدور حولهم ، لكن الانباء شاعت وذاعت بين صفوف الالمان تقول ان الروس قد استولوا على البناية ، فغضب اقرب قائد الماني اليها غضبا شديدا وامر بحشد جميع ما لديه من رجال ، وخلافا لعادتهم ، دفع بهم للقيام بهجوم معاكس غير عابيء ، خلافا للعادة ، باحصاء الخسائر ، او انظار الفجر ، وصد الروس الهجوم المعاكس الاول ، ولكن بعد مضي نصف ساعة امطر خلالها الالمان البناية بوابل من قنابلهم ، شنوا هجوما معاكسا ثانيا ، وقد شكر سباروف في اعماق قلبه بروتسنكو على تزويده بعدد اضافي من الرجال ، اذ لم يبق في البناية جدار واحد سليم ، بل انما توزعت جدرانها الشقوق والثغرات والمنافذ ، وهذا مما استوجب وجود عدد كاف من الجنود ليحولوا دون تسلل الالمان تحت جنح الظلام منها . وخلال احتدام وطيس المعركة زحف مسلنكوف الى سباروف وسأله عما اذا كان يستطيع ان يعطيه بضعة قنابل يدوية ، فاجابه سباروف الى طلبه وهو يسأله :

ــ ما بك هل استنفذت حصتك منها ؟

ــ لقد قذفتهم بعدد لا يستهان به منها .

فقال سباروف :

ـ قل لهم ان يأتونا بالمورتر الى هنا ، ولو مدفعين منـه ، ومع اننـا لا نحتاج الى المورتر الان ، لكن يجب ان تنصب بطاريات منه هنا قبل الصباح . هل تعلم يا ميشا ، سنقيم انا وانت مركز قيادة في هذا المكان ، ولن نتخلى عنه ابدا ، اتفهم ؟

ـ نم أفهم .

ـ حسنا اذهب واتنا بمدافع المورتر

ـ فورا

هذا ما قاله مسلنكوف وهو لما يزل في ذروة انفعاله ، وهو لم يكن يرغب في ان يغادر سباروف فبادر يخاطبه بلهجة هامسة :

ـ الكسي ايفانوفيتش !

فالتفت اليه سباروف ، مستديرا عن رشيشه واجابه :

ـ نعم !

ـ هل تعتقد يا الكسي ايفانوفيتش ان الهجوم الكبير يسير سيرا حسنا ؟ مـاذا تـرى ؟

فاجابه سباروف وهو يعود الى رشيشه ، اذ بدا له ان شيئا يتحـرك امامه ، وقال :

ـ طبعا !

وفجاة قفز نحوهما من خلال ثغرة لم تجد من يدافع عنها عـدد من الجنود الالمان ، فاطلق سباروف عليهم شحنة من رشيشه ، نفذت اثرها ذخيرته ، فاخذ سباروف يتحسس مفتشا عن حقيبة قنابله اليدوية ، لكنه لم يجدها ، اذ كان قد اعطاها الى مسلنكوف ، وتمكن الالمان في هذه الاثناء ان يبلغوا مكـانا يعلوهما مباشرة ، فقذفهم مسلنكوف من وراء كتف سباروف بقنبلة يدوية ، لكنها لم تنفجر لسببه من الاسباب ، عندئذ امسك سباروف برشيشه من فوهته ، وضرب بعقب الرشيش شبحا اسود يمر به ، ضربه بكـل قواه ، فسمع صوت

انحطام وانين وتأوه ، وكان سباروف قد وجه ضربته بقوة هائلة افقدته توازنه اذ ما كاد عقب ان يهوي بعقب رشيشه على ذاك الشبح ، حتى وقع الرشيش من يده الى الارض ووقع هو فوقه ، وسقوطه هذا هو الذي انقذ حياته كما اتضح فيما بعد ، اذ مرت فوقه عدة عيارات مضيئة غمرته بوميضها ، فشاهد مسلنكوف الذي كان يطلق رصاص مسدسه في الظلام ، جنديا المانيا يلوح ببندقيته فوق جسد سباروف المنكفيء على الارض ، فقذف مسلنكوف مسدسه الفارغ ، وقفز الى جانب الالماني وامسك بخناقه بكلتا يديه ، فأخذا يتصارعان ويترنحان واخيرا سقطا على الارض الحجرية ، فتدحرجا عدة مرات كان اثناءها يحاول كل واحد ان يسمر ذراعي الاخر ، وبعد هنيهة انزلقت يد مسلنكوف بين حجرين فسمع صوت انحطام عظامها ، ولم يستطع اثره ان يتحرك ، فتابع يضغط على عنق الالماني بيده الاخرى ، وكان اخر ما شعر به مسلنكوف هو شيء بارد ضغط على صدره ، فلقد نجح الالماني اخيرا في سحب مسدسه وضغطه بيده الطليقة على صدر مسلنكوف ثم اطلقه عدة طلقات متتالية .

وكان سباروف عقب ان سقط ارضا،قد هب واقفا ثانية وشاهد عقدة سوداء تتدحرج امامه على الارض ، ثم سمع اصوات العيارات النارية ، فرأى هذه العقدة تنحل ، وابصر بحجم ضخم غريب ، يبدأ بالوقوف ، فاستل احد مدخرات رشيشه واقبل عليه ، واهوى به بكلتا يديه على رأس ذاك الحجم مرة ومرتين وثلاثا . واقبل عليه في هذه الاثناء بعض الجنود قادمين من الجزء الثاني من القبو ، وانبطحوا سريعا وراء الحائط واخذوا يطلقون النار . وبدأ سباروف ينادي :

ــ ميشا ! ميشا !

لكن مسنلكوف بقي صامتا فركع سباروف على الارض ودفع بجثة الماني جانبا ، ثم اخذ يتحسس مسلنكوف بكلتا يديه ، فتحسس شارتي رتبته ووشاح النجم الاحمر على صدره ، ثم لمس وجه مسلنكوف وناداه :

ــ ميشا !

لكن مسلنكوف لم يجب ، فعاد يتحسس جسده ثانية وعندما بلغ الصدر الفى قميصه مشبعا عند القلب بالدم، فحاول سباروف ان يرفع به، اذ خطر له خاطر غريب ، يقول بانه اذا ما رفع جسد رفيقه ومكنه من الوقوف على قدميه،

وهذا امر جد هام ، فان مسلنكوف سينجو من اصابته ويعيش . فرفع به كما رفع مسلنكوف « آنيا » قبل اربعة ايام ، لكن مسلنكوف بقي مدليا بيديه ورأسه وانطلق به سباروف .وهو يخطو بحذر فوق الحجارة .

سمع سباروف صوت اللازم المدفعي الشاب يصدر الاوامر ، فتقدم منـه وسأله :

ـ هل جررت المدافع ؟

ـ نعم .

فعاد يسأله وهو واقف امامه كأنه قد نسي أن مسلنكوف يتدلى مـن بين ذراعيه . قال :

ـ اين نصبتها ؟

ـ لقد نصبت احدها هنا وسددته الى القلب ، ونصبت الاخرين في كل من الجناحين .

فأجابه سباروف :

ـ اصبت فيما فعلت .

تابع سباروف طريقه فبلغ جزءا من القبو ، لا تزال فيه بقيةمن سقف تستر على المرء اذا ما اشعل عود ثقاب ، فجلس على الارض وهو لما يزل يضم مسلنكوف بين ذراعيه ، وعاد يناديه :

ـ ميشا !

ثم اشعل عود ثقاب احاط لهبه براحتيه سريعا ، وشاهد على ضوئه المترنح وجه مسلنكوف ابيض شاحبا ، وشعره الأجعد منسبلا الى الوراء ورأى خصلة مبللة تتدلى فوق جبهته فاصلح من حالها . ومع انه لم تمض سوى بضعة دقائق على آخر حديث دار بينهما ، الا ان هذه الدقائق بدت لسباروف ، انها بـدء الازل ، فأخذ يرتجف ويرتعش ، وهو لما يزل ممسكا بمسلنكوف بين ذراعيه ، ويذرف دمعا هتونا ، وها انه يبكي الان للمرة الثانية خلال هذه الايام القليلة الماضيـة .

وبعد ساعة من الزمن ، عندما صدت اخر هجمة معاكسة للالمان ، وبـدا

واضحا ان الالمان قد قرروا ان يؤجلوا هجمتهم التالية حتى الصباح ، استدعى آمر مفرزة الهندسة التي اشتركت في اقتحام البناية وامره ان يحفر قبرا لمسلنكوف .

فسأله عاجبا : « اهنا » فآمر مفرزة الهندسة كان يعرف بانهم اعتادوا ان ينقلوا جثث الضباط الى المؤخرة اذا ما توفرت فرص الامكان ، لكن سباروف اجابه مؤكدا :

ـ نعم هنا .

ـ اليس من الافضل ان نحفر له قبرا في أرضنا ؟

ـ كلا ! فهذه هي أرضنا ايضا .

حاول آمر مفرزة الهندسة ان يجد بقعة ، بالقرب من اسس البناية ، لم يركبها الجليد الثقيل الكثيف ، لكن جميع تلك البقاع استعصى جليدها على الفؤوس والمعاول ، فما كان من سباروف الا أن بادره بخشونة وقال :

ـ ما الذي اضعته هناك ؟ هيا سأريك اين تحفر . ثم قاد الآمر وزمرته الى وسط ارض البناية وضرب بقدمه ارضها الصلبة ضربة ترامت اثرها ضوضاء فارغة وقال بلهجة فظة غير مألوفة منه :

ـ اثقب هنا ، استعمل بعض الديناميت وادفنه !

فسارع احد رجال الزمرة وثقب الارض ثم وضع بضعة كيلوغرامات من الديناميت في الثقب واشعل الفتيل وركض يختبيء وراء احد الجدران وبعد هنيهة دوى انفجار عنيف ، لكنه لم يكن ليختلف عن اصوات انفجارات عشرات القنابل التي كان لا يزال يسمع دويها فيما حولهم . وانشقت ارض البناية عن حفرة تتجاوز المتر عمقا ، فنبشوا منها حطام الاجر والاسمنت ، وانزلوا جثة مسلنكوف فيها ، فقفز سباروف الى جانب جثة رفيقه ونزع معطفه عنه بصعوبة بسبب ذراعيه المتصلبتين ، ثم غطى صديقه بالمعطف حتى وجهه ، وانحنى فوق محيا مسلنكوف الذي اضاءه نور الفجر ، ثم اخذ ما عثر عليه من اوراق في جيوبه وحل الوشاح وخرج من الحفرة ليسأل :

ـ من يحمل بندقية ؟

ـ جميعنا نحمل .

ـ اذن فلتطلقوا اطلاقة في الهواء ، ثم فلنواره ترابه وانا ساصدر الامر .. استعد ! اطلق . واشترك سباروف ايضا في اطلاق النار تحية لذكرى صديقه ، اذ انه كان قد عبأ مسدسه ثانية ، وازت الاطلاقات في الهواء البارد أزيزا جافا هادئا .

ثم أمرهم سباروف بردم القبر واستدار بناظريه عنهم لانه لم يكن يحب ان يرقب ركام الحجارة والاسمنت تتناثر فوق جثة رجل لم يستطيع خياله ان يبلغ به منذ ساعة فقط ما آل اليه الان . انه في الحق لم يستدر بناظريه عن الحفرة ، فهو يرى ويحس بظهره بتساقط الحجارة في الحفرة ، وبارتفاعها زبرا زبرا ، ويسمع بصوتها يخفت قليلا قليلا كلما تدافع الركام ليملأ الحفرة . واخيرا ترامى اليه وقع المعول وهو يسوي جبهة الحفرة بالارض فجلس سباروف القرفصاء واخرج دفترا من جيبه انتزع منه ورقة دون عليها بضعة سطور ورد فيها :

ـ قتل مسلنكوف . سابقى هنا ، واذا ما وافقتم فانه من المفضل ان ينتقل فانين واركاني الى بناية كونيوكوف كي يكونوا بالقرب مني : سباروف .

ثم استدعى جنديا وطلب اليه ان يحمل هذه الرسالة الى ريميزوف وبعد ان غادره الجندي قال بصوت اجش :

ـ سنقاتل .

وعاد ليكرر دون ان يخص احدا معينا بقوله :

ـ سنقاتل ... حسنا هل آمر السرية هنا ؟

ـ نعم .

ـ هيا بنا ! فهناك في الجناح الايمن من البناية علينا كما اعتقد ان نقيم تحت اسسها عشا للمدفع الرشاش . هل لديك مدفع رشاش في الطابق الاول؟

ـ نعم

ـ اذن فسيحطمونه ، لذلك علينا ان ننصبه تحت الاسس .

ثم خطا سباروف وآمر السرية بضعة خطوات كانا يدقان خلالها الارض باقدامهما ، وفجأة توقف سباروف وقال :

ـ رويدك ! اصبغ

كانت هناك فترة من صمت لم يطلق خلالها اي من الجانبين النـار ، وكان الزمهرير يهب من الغرب.

الزمهرير يهب من الغرب ليعوي بين الخرائب ويصفر ، وكان يحمل معه ارعاد مدفعية تهزم من مكان ناء بعيـد . وفي وسط « الاخطوبا » التي تبعـد خمسة عشر كيلومترا عن ستالينغراد ، وفي مكان لا يبلغه هزيم المدفعية حيث انتشرت شائعات واقاويل عن الهجوم الكبير ، وفي كوخ قروي حول الى غرفة عمليات جراحية ، كانت « آنيا » ممددة على النقالة . فهم لم يتمكنوا في العملية الاولى التي اجروها لها من اخراج شظية غاصت عميقا في جسدها ، وكانـت خلال الايام الماضية لا تكاد تستعيد وعيها حتى تفقده ، وها هي الان ممددة على النقالة شاحبة الوجه خامدة الحركة ، وكل شيء قد أعد ، والجميـع ينتظـرون رئيس الجراحين الذي قبل باجراء عملية ثانية لها ، وكانت كل الآمال معلقـة على هذه العمـلية ، وكان الاطباء يتشاورون فيما بينهم وبادرت طبيبة شابة تسأل طبيبا متقدما في السن يلبس قبعة بيضاء تغوص حتى حاجبيه ، قالت :

ـ ماذا تعتقد ، هل ستعيش ؟

فأجابها الطبيب :

ـ نظريا لا ، لكنني اعتقد أنها ستنجو

ثم لف لفافة واضاف :

ـ الامر يتعلق بقدرة قلبها على المقاومة ، وقد تتمكن من النجاة .

فتح الباب ودخل من باب القسم الثاني من الكوخ رجل قصير القامة مكتنز الجسد يدفع امامه ويجر وراءه من خلال الباب الواسع الزمهرير، ويهرول بخطى قصيرة سريعة ويمد بيديه امامه اللتين بدت اصابعهما الغليظة الحمـراء كأنها غسلت لتوها بالكحول ، ومن تحت شاربيه الرماديين الكثين ، ومن جانب فمـه تدلت سيجارة لم تشعل بعد ، وبادر يقول وهو يتطلع الى آنيا الممدودة على النقـالة :

ـ هيا ضعوها على الطاولة ، وليشعل لي أحدكم سيجارتي .

فاشعل احدهم عود ثقاب ، وانحنى الجراح بسيجارته على لهبه .وهو لا يزال يمد بيديه بعيـــدا امامه ثم قال وهو يتقدم الى طاولة العمـليات :

ـ انهم يقولون بان جيوشنا قد انطلقت في هجومها العام وانهم قد استولوا على « كالاخ » وانهم يطوقون الالمان الان وراء ستالينغراد . هذا كل شيء الان .

ثم اوما بيديه ايماءة حاسمة وقال :

ـ سأطلعكم على التفاصيل بعد انتهائنا من العملية ...

مزيدا من الضـــوء !

*

هذا هو اليوم الثاني للهجوم ، انه ليل نوفمبر الدامس ، وبمحاذاة المنعطف الكبير لنهر الدون ، وبين هذا النهر والفولغا تشق الان الفيالق الروسية المدرعة طريقها اماما . الشاحنات تسير متباطئة في لجج الثلج ، والجسور هي بـين مدمر .ومهشم ، وها هي السنة اللهب تتصاعد من الدساكر والقرى فتتـــمازج ووميض القنابل وتنعكس معه في ضوء باهر على افق تلهبه نيران تفترس المدن. ان الجثث قد تناثرت وتتناثر على طول الطريق وجانبيها ، والليل يحيلها الـى بقع سوداء متجمدة . وها هم جنود المشاة يضربون في حقول بيضاء ، وتضربهم مناسف الثلج ويعض الصقيع اقدامهم وايديهم ، فيضربونه باقدامهم ويفركونه بين راحاتهم . انهم يحملون مدفعيتهم بايديهم ، وينتزعون الالواح والعوارض مـن الزرائب .والحظائر كي يصنعوا منها جسورا يعبرون عليها بمدافعهم الجـداول والوهـــاد .

ان جيشـين كاملين يتحركان في هذا الصباح البارد ، فيبدوان كـأنهما راحتان تتجهان فوق احدى الخرائط لتطبقا على ما بينهما . انهما يقتربان من بعضهما بعضا ، وينطلقان للاطباق على ما بينهما في اصقاع الدون الواقعة بعيـــدا الى الغرب من ستالينغراد .

ان في المنطقة التي طوقاها بذراعيهما الخشنتين مئات الالوف من الجنود الالمان ، ففيها مجموعة من الجيوش والفرق ، بما لهذه من اركان حرب وقـادة وانضباط ومدافع ودبابات ومهابط وطائرات .

انهم لا يزالون مئات الوف من الرجال وهم قد يعتقدون وبشيء من حـق،

بانهم ما برحوا يمثلون قوة عسكرية ، لكنهم في الوقت ذاته ليسوا اكثر من قتلى الغد .

ان الصحف تطبع حتى في هذه الليلة البلاغ المتحفظ الصادر عن مكتب المعلومات السوفياتي ، وهو بلاغ صيغت كلماته بعناية وحذر كي تجنب الشعب الظنون والتخمين . لذلك فان الناس الذين استمعوا الي اخبار الاذاعة قبل ان يأووا الى اسرتهم ، لا يزالون قلقين على ستالينغراد ، انهم يجهلون كل الجهل بأن سعد الحرب الذي اكتسب في المعارك قد بدت هذه الساعات بشائره في سماء روسيا .

المؤلف والكتاب

* يعتبر سيمونوف من أبرز كتاب القرن العشرين في كتابة القصص الحربي بلغة الأدب الإنساني الرفيع

* وحين سيذكره التاريخ سيذكر معه قدرته الفذة على وصف الصراع الداخلي في النفس الإنسانية في حالات القلق والخطر.

* فنان موهوب يكتب الرواية، ويتحسس حركة أبطاله في أحاسيسه الخاصة وكأنه يتقمص أشخاصهم في أعنف أوقات الجزع والخوف والثورة والتمرد لديهم.

* وفي هذه الرواية العالمية التي تضعها دار مكتبة الحياة بين يدي القارئ العربي، إنما هو يصف حقائق انسانية واقعية حدثت قريباً منه، أو أسهم فيها هو بشخصه، فجاءت وكأنها حية تتنفس بين سطور الكتاب.

* إنها ملحمة من تلك الملاحم الأسطورية التي يؤرخ بها الأدب، فتكون نسبة له خاتمة لعصر أو فاتحة لآخر.

* إن أبطال سيمونوف أناس عاديون يحبون أرضهم وقراهم، وقد رفعهم بقلمه الفذ إلى مستوى أبطال الأساطير. وخلق لهم من خياله وطناً مقدساً كذاك الوطن الذي يتخيله رجال الأدب في المدن الفاضلة أو الذي ينتظره المؤمنون في أبدية السماء.

الناشر



الثمن: ٧٠٠ ق. ل. أو م

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت